



www.
www.
www.
www.

Ghaemiyeh

.com
.org
.net
.ir

سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

منطق القرآن

الجزء الحادی عشر

تیرماه ۱۴۰۰ - تیرماه ۱۴۰۰ - تیرماه ۱۴۰۰

دارالعلوم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحرييات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٤	من هدى القرآن المجلد ١١
١٤	اشاره
١٥	اشاره
١٧	الجزء الحادى عشر
١٧	اشاره
١٧	سوره فاطر
١٧	اشاره
١٧	فضل السوره:
١٩	الإطار العام
١٩	اسم السوره:
٢٦	[سوره فاطر (٣٥): الآيات ١ الى ٨]
٢٦	اشاره
٢٦	اللغه
٢٨	الملائكه رسول الله
٢٨	هدى من الآيات:
٢٩	بيانات من الآيات:
٤٠	[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٢]
٤٠	اشاره
٤٠	اللغه
٤٢	للله العزه جميعا
٤٢	هدى من الآيات:
٤٣	بيانات من الآيات:
٤٩	[سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٣ الى ٢٣]

أَنْتُمُ الْفَقِيرُونَ إِلَى اللَّهِ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٢٤ الى ٣٢]

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٣ الى ٤١]

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي الشَّعِيرِ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَ لَا يَحِيقُ الْمُكْرُرُ الشَّيْءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

الاسم:

٩٧

الإطار العام:

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٢ إلى ١٢]

اشاره

اللغه

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٣ إلى ٣٢]

اشاره

اللغه

فَالْأُولُوُ[ۖ] طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٣ إلى ٤٤]

اشاره

اللغه

ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْغَلِيمِ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤٥ إلى ٥٩]

اشاره

اللغه

هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

هدى من الآيات:

بيانات من الآيات:

١٦٦	[٣٦]: الآيات ٦٠ إلى ٧٠	سورة يس
١٦٦	اشاره	اللغه
١٦٦	اللغه	
١٦٨	وَ أَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ	
١٦٨	هدى من الآيات:	
١٦٩	بيانات من الآيات:	
١٨١	[٣٦]: الآيات ٧١ إلى ٨٣	سورة يس
١٨١	اشاره	
١٨١	اللغه	
١٨٣	فَالَّذِي يُحْكِي الْعِظَامَ وَ هِيَ زَمِينٌ	
١٨٣	هدى من الآيات:	
١٨٣	بيانات من الآيات:	
٢٠١	سورة الصافات	
٢٠١	اشاره	
٢٠٣	فضل السوره:	
٢٠٥	الإطار العام	
٢٠٨	[٣٧]: الآيات ١ إلى ١٨	سورة الصافات
٢٠٨	اشاره	
٢٠٨	اللغه	
٢١٠	قُلْ تَعْمَلُوْنَ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُوْنَ	
٢١٠	هدى من الآيات:	
٢١١	بيانات من الآيات:	
٢٢٠	[٣٧]: الآيات ١٩ إلى ٣٩	سورة الصافات
٢٢٠	اشاره	
٢٢٢	وَ قَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُوْنَ	
٢٢٢	هدى من الآيات:	

٢٢٣ بینات من الآیات:

٢٣٨ [سورة الصافات (٣٧): الآیات ٤٠ الی ٧٠]

٢٣٨ اشاره

٢٣٨ اللげ

٢٤٠ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ

٢٤٠ هدى من الآیات:

٢٤١ بینات من الآیات:

٢٥٧ [سورة الصافات (٣٧): الآیات ٧١ الی ١٠٥]

٢٥٧ اشاره

٢٥٧ اللげ

٢٥٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

٢٥٩ هدى من الآیات:

٢٦٠ بینات من الآیات:

٢٧٨ [سورة الصافات (٣٧): الآیات ١٠٦ الی ١٣٨]

٢٧٨ اشاره

٢٧٨ اللげ

٢٨٠ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ

٢٨٠ هدى من الآیات:

٢٨١ بینات من الآیات:

٢٩٤ [سورة الصافات (٣٧): الآیات ١٣٩ الی ١٦٠]

٢٩٤ اشاره

٢٩٤ اللげ

٢٩٦ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

٢٩٦ هدى من الآیات:

٢٩٨ بینات من الآیات:

٣٠٥ [سورة الصافات (٣٧): الآیات ١٦١ الی ١٨٢]

٣٠٥ اشاره
٣٠٥ اللغة
٣٠٦ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ
٣٠٦ هدى من الآيات:
٣٠٧ بینات من الآيات:
٣١٩ سوره ص
٣١٩ اشاره
٣٢١ فضل السوره:
٣٢٣ الإطار العام
٣٢٦ سوره ص (٣٨): الآيات ١٥ الى ١]
٣٢٦ اشاره
٣٢٦ اللغة
٣٢٨ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِرَادَةِ وَ شِقَاقِ
٣٢٨ هدى من الآيات:
٣٢٩ بینات من الآيات:
٣٤٤ سوره ص (٣٨): الآيات ١٦ الى ٢٦]
٣٤٤ اشاره
٣٤٦ يَا دَوْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
٣٤٦ هدى من الآيات:
٣٤٧ بینات من الآيات:
٣٤٧ اشاره
٣٥٢ قصه الخصميين مع داود عليه السلام :
٣٥٥ معنى الفتنه:
٣٦٢ أخطاء الأنبياء:
٣٦٤ سوره ص (٣٨): الآيات ٢٧ الى ٤٠]
٣٦٤ اشاره

اللغة

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ

هدي من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤١ إلى ٥٤]

اشاره

اللغة

أَتَى مَسْئِنِي الشَّيْطَانُ بِنُضُبٍ وَّعِذَابٍ

هدي من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة ص (٣٨): الآيات ٥٥ إلى ٧٠]

اشاره

اللغة

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقَ تَخَاصُّ أَهْلِ التَّارِ

هدي من الآيات:

بيانات من الآيات:

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧١ إلى ٨٨]

اشاره

اللغة

فَسَخَدَ الْمَلَائِكَةَ كُلَّهُمْ أَجْمَعُونَ

هدي من الآيات:

بيانات من الآيات:

سورة الزمر

اشاره

فضل السورة:

الإطار العام

٤٣٨	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١ إلى ٤]	اللغة
٤٣٨	اشاره	
٤٣٨		اللغه
٤٤٠	أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ	
٤٤٠	هدى من الآيات:	
٤٤١	بيانات من الآيات:	
٤٥٣	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧ إلى ١٦]	اللغة
٤٥٣	اشاره	
٤٥٥	وَ لَا يَرْضِي لِعِبَادِهِ الْكُفُرُ	
٤٥٥	هدى من الآيات:	
٤٥٦	بيانات من الآيات:	
٤٦٨	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٧ إلى ٢١]	اللغة
٤٦٨	اشاره	
٤٦٨		اللغه
٤٦٩	فَبَشِّرْ عِبَدِ	
٤٦٩	هدى من الآيات:	
٤٧٠	بيانات من الآيات:	
٤٧٨	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٢ إلى ٢٩]	اللغة
٤٧٨	اشاره	
٤٧٨		اللغه
٤٨٠	اللَّهُ نَزَّلَ أَخْسَنَ الْحَدِيثَ	
٤٨٠	هدى من الآيات:	
٤٨١	بيانات من الآيات:	
٤٩٣	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٠ إلى ٤١]	اللغة
٤٩٣	اشاره	
٤٩٥	أَلِيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَنْهُ	

- ٤٩٥ هدى من الآيات:
- ٤٩٦ بيئات من الآيات:
- ٥٠٧ [٥٢-٤٢] الآيات من سورة الزمر
- ٥٠٨ اشاره
- ٥٠٩ فَلِلّٰهِ الشَّفاعةُ خَبِيئاً
- ٥١٠ هدى من الآيات:
- ٥١١ بيئات من الآيات:
- ٥٢٣ [٥٣-٤٠] الآيات من سورة الزمر
- ٥٢٤ اشاره
- ٥٢٤ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً
- ٥٢٤ هدى من الآيات:
- ٥٢٥ بيئات من الآيات:
- ٥٣٧ [٧٠-٦١] الآيات من سورة الزمر
- ٥٣٧ اشاره
- ٥٣٩ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ زَبَها
- ٥٣٩ هدى من الآيات:
- ٥٣٩ بيئات من الآيات:
- ٥٤٩ [٧٥-٧١] الآيات من سورة الزمر
- ٥٤٩ اشاره
- ٥٤٩ اللغه
- ٥٥١ وَقَبِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
- ٥٥١ هدى من الآيات:
- ٥٥٢ بيئات من الآيات:
- ٥٦١ تعریف مرکز

اشاره

سرشناسه: مدرسی، محمد تقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمد تقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ۱۸-- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X ۱۵- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۴- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۹- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷--۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X ۱- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X ۱۵- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X ۱- ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرستنویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP ۹۸ م ۴

رده بندی دیوی: ۱۷۹/۲۹۷

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشارہ

الجزء الحادى عشر

اشاره

سورة فاطر

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال :

«الحمد لله رب العالمين - حمد سباء و حمد فاطر - من قرأهما في ليلته في حفظ الله و كلامه فمن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروره، و أعطى من خير الدنيا و خير الآخره ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ منه» (نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٤٥)

ص: ٣

اسم السورة:

اتخذ اسمها من فاتحتها التي شرعت بحمد الله على ما فطر السموات والأرض.

تذكّرنا سورة فاطر بمحامد ربنا الكريم الذي فطر السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً، وأتقن الصنع، وأحسن التدبير، وهو العزيز الحكيم.

ولأن معرفة الله ينبع كلّ خير، وأصل كلّ فضيله وخلق كريم، فإنّ القرآن يشفى صدور المؤمنين من أوساخ الغفلة، ببيان أسماء الله وكريم فعاله وواسع رحمته.

فله الملك والتدبر بما فتحه من رحمة لا ممسك لها، وما أمسكها فلا مرسل لها.

و ضلاله البشر عن هذه الحقيقة تدعوه إلى الشرك بالله العظيم، ويذكّر القرآن الناس جميعاً بأنّ فاطر السموات والأرض ومبتدعهما بدء هو الذي يرزق الإنسان

منهم، فهو الحقيق بالعباده وحده لا الله الا هو فاني يؤفكون! ولکي يعرف البشر ربه يحتاج إلى إزاله حواجز مثل: حب الدنيا و الغرور بها، و اتباع المضللين المغرورين بها، و اتباع الشيطان أو عدم الحذر الكافى منه، و يذکرنا القرآن بأنّ وعد الله (بالجزاء) حقّ، فعلينا إذا تجاوز هذه الحواجز، و يبين جزاء الكفار و حسن جزاء الصالحين.

و بعد أن يبيّننا السياق بحاجز تزيين الأعمال (و لعله العاده السيئه) يعود ليذکرنا بربنا العزيز تمهيداً لبيان محور هام (و لعله الأساسي) في هذه السورة. ما هو ذلك المحور؟ يتطلع الإنسان نحو العزّة و الغنى، و لكنه يصلّ عاده-الطريق و بدل أن يحصل عليهمما بالإيمان بالله و العمل الصالح، تراه يؤمّن بالشركاء المزعومين، و يمكر السيئات، و يذکرنا القرآن بأنّ الأنداد لا يملكون قطمير، و أنّ المكر السيء لا يتحقق الا بأهله، و أنّ السبيل القويّم لبلوغ الطموح المشروع في العزّة و الغنى هو سبيل الله، و معرفه أنّه الفاطر الرّازق العزيز الغنى، و أنّه المالك الحق، و أنّه الحكيم الذي يجازي كلّا-عمله، و أنّه يحب الصالحين.. و خلاصه المحور: تبصير البشر بالسبيل القويّم لبلوغ تطلعاته المشروعه.

هكذا يذکر السياق بأنّ الله أرسل الرياح لتشير السحاب، و ينزل الغيث حيث يشاء فيحيي به الأرض بإذنه، فهو الرّازق أو ليس الزرع و الضرع من الغيث؟ و هكذا ينتشر الناس في يوم البعث للحساب.

و من أراد العزّة فللها العزّة جميعاً (هكذا ينبغي الحصول على العزّة، و هي أعظم طموح عند البشر، لأنّها تعني الأمان و السلامه و الذكر الحسن عند رب لا عند الطغاة و الأنداد).

ولكن كيف؟ و من هو الذى يعزم الله؟ الجواب: صاحب الكلم الطيب و العمل الصالح، أما المكر السيء فيمحشه و لا يجني منه إلا البوار! منذ أن كنا نطفه أو جنينا، إلى الولاده، و حتى زيادة العمر و نقصانه، كل ذلك بيد الله، و هو مسجل في كتاب، و هو عند الله يسير (فلما ذا نطلب الغنى من غيره؟ أو ليس خلقنا و أجلنا بيده، فلو قصر أعمارنا ماذا تنفعنا العزة أو الغنى؟!).

و بيده الملك. انظر إلى هذين البحرين، أحدهما ملح أجاج، و الثاني عذب فرات. إنهما لا يستويان (فلا يستوى الصالح و لا المسيء) و لكن مع ذلك يرزقنا الله منهما لحما طرياً، و حليه نلبسها، و ذلك ظهرهما للسفن الماخرة، لتنتقل البضائع، و لتهدينا إلى نعمه فنشكره بها.

و هو الذى يولج الليل في النهار، و يولج النهار في الليل، و سخر الشمس و القمر، و حدد مسیرتهما، فهو المالك حقاً، بينما لا يملك الشركاء المزعومون من قطمير (فلا بد أن نبحث عن الغنى عند ربنا المالك، و ليس عند الطغاه و المترفين).

و هم لا يكشفون الكرب عند الشدائد، فلا يسمعون الدعاء، و لا يستجيبون لو سمعوا، و لا ينفعون يوم القيمة، و لا أحد أفضل من الخير ينقل النباء.

و يؤكّد السياق على فقر البشر - كل البشر - إلى ربه، و أن الله هو الغنى (فلا يجوز الخصوص لهذا و ذاك طلباً لغناه).

و هل هنا لك فقر أعظم من أن الله إن يشاً يذهبهم جميعاً و يأت بآخرين ييسر؟

(و يبدو أنّ المحور الثاني الذي يتحدث عنه القرآن هنا بتفصيل، و هو محور المسؤولية، يتصل بالمحور الأول، إذ أنّ معرفه الإنسان بأنّه مجازي بعمله يجعله بعيداً عن المكر السيء، مندفعاً نحو العمل الصالح، يبلغ أهدافه بالسعى والاجتهد عبر المناهج السليمة).

لا- أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله و وزرها حتى ولو كان ذا قربى (و لا يفهم هذه الحقيقة و يخشى ذنبه إلا من يخشي ربّه بالغيب و يقيم الصلاة و يتذكر) و انما ينذر الرسول من يخشي الله و يقيم الصلاة و يتذكر، و انما يتذكر لنفسه.

(و يجب ان يكون مفهوماً و بوضوح هذا الأمر: إنّه لا- يستوى الكافر و المؤمن الصالح، إذ هذه المعرفة تساهم كثيراً في اختيار المنهج السليم للبلوغ الاهداف).

مَا يَشْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ (فلا يستوى الكافر و المؤمن) وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ (فأين الصالحة و أين الهدى) وَ لَا الظُّلُلُ وَ لَا الْحَرُورُ (السلام و الأمان و العافية خير من الحرب و الخوف و المرض) وَ مَا يَشْتَوِي الْأَحْيَاءُ (الذين يستمعون كلام الله و يحيون به) وَ لَا الْأَمْوَاتُ.

و ان الله بعث الرسول منذراً بعذاب نكير يصيب المكذبين كما أرسل في كلّ أمه نذيراً و مبشرًا الصالحين بأنّ لهم أجراً حسناً.

(و المحور الثالث في السورة فيما يبدو هو الاشاره إلى اختلاف ألوان الجبال، و ألوان البشر و الدواب و الانعام، و وعي العلماء بإشارات هذا الاختلاف، و أنّهم المصطفون الذين أورثهم الله الكتاب على اختلاف مستوياتهم، و جزاءهم الحسن عند ربهم، و لعله يتصل بالمحور الأول في بيان نموذج حيّ عنمن اتبع رضوان ربه فهداه الله إلى السبيل القوي للعزه و الغنى و الجزاء الحسن).

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج الله به ثمرات مختلفاً لوانها (إنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً عَلَى التَّدْبِيرِ وَ حُسْنِ الْتَّقْدِيرِ وَ دَقَهُ النَّظَمِ، وَ أَنَّ اللَّهَ مُهِمٌِّ عَلَى الْخَلِيقَةِ).

و إذا نظرت إلى الجبال رأيت فيها جدداً بيضاً و حمراً و غرائب سود (و هي تشهد بطبقات الصخور في الأرض ذات الطبيعة المختلفة، و تشهد أيضاً على السيطرة التامة).

و هكذا الناس والدواب والانعام كل منها مختلف لوانه (و اختلاف اللون مع وحدة الخصائص يشهد على حسن التدبير، كما يشهد على أن الخليقة تختلف، و هكذا الناس ليسوا سواء في درجاتهم، فليس سواء عالم و جهول) إِنَّمَا يَحْشُى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، وَ إِنَّ الَّذِينَ يَتَاجِرُونَ مَعَ اللَّهِ بِتَلَوِّهِ الْكِتَابِ، وَ إِقَامِهِ الصَّلَاةِ، وَ إِنْفَاقِهِ فَإِنْ تَجَارُهُمْ لَنْ تَبُرُّ، وَ إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَ هُوَ غَفُورٌ وَ شَكُورٌ.

و الكتاب الذي أنزل على الرسول حق و يصدق الذي بين يديه، و قد أورثه الله الذين اصطفاه من عباده (و هم ورثة الأنبياء من علماء أهل بيته) فمنهم ظالم لنفسه (إذ لم يتحمل علم الكتاب كما ينبغي، بل خلط عملاً صالحاً و آخر سيئاً) و منهم مقتضى (قد حمل الكتاب بقدر مناسب و هو العالم الرباني الذي يصوم نهاره و يقوم ليله) و منهم سابق بالخيرات (و هو الإمام الذي بلغ حق اليقين).

و جزاؤهم جميعاً جنات عدن يدخلونها يحلون فيها أساور من ذهب و لؤلؤ، و هم يحمدون الله على ما أذهب عنهم الحزن، بينما الكفار يخلدون في العذاب الشديد، و لا ينفعهم الصراخ، و يقال لهم: ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكرة، و أرسلنا

إليكم النذير؟ (و يعود السياق لبيان أسماء الله الحسنى، مما يوجب علينا تقواه و الحذر من عقابه).

فالله يعلم غيب السموات والأرض، و يعلم ما في الصدور (فعلى الإنسان مراقبته علانيه و سرا) و هو الذي يستبدل قوماً بآخرين، و ان عاقبه الكفر مقت و خسار، و أما الشركاء المزعومون (لا يقدرون على نجاتهم من عذاب الله، لأنهم لا يملكون شيئاً) فهم لم يخلقوا شيئاً من الأرض، و ليسوا مؤثرين في تدبير السموات، و لم يحصلوا على تحويل من الله بإداره شؤون الخلق، و إنما يعدون أنفسهم غروراً، و الله يمسك السموات والأرض و يمنعهما من الروال (فما الذي يصنعه الطغاة و المترفون؟).

(و لعل الآيات الأخيرة من السورة إعاده تأكيد على محاورها) بيان أنهم أقسموا بالله انهم يبادرون الى قبول النذير و أكثر من غيرهم، و لكنهم ازدادوا نفوراً بعد أن جاءهم النذير (و السبب أنهم كانوا يريدون العزّة بالكفر والاستكبار، و يريدون المال بالمكر، أما الكفر فقد أورثهم المقت و الصغار، واما المكر فقد أورثهم الفقر و عاد عليهم بالخسران) و لا يتحقق المكر السيء إلا بأهله.

(و ينذرهم السياق بأنهم يتعرضون لعاقبه الكفار من قبلهم) فهل يتظرون ذلك المصير الذي جرت عليه سنن الله التي لا تبدل فيها و لا تحويل؟! دعوه يسيرون في الأرض لينظروا عاقبه الظالمين من قبلهم.

(و تختم السورة التي تركت في بيان تدبير الله للخلق بياناً أن الله لو يؤخذُ الله الناس بما كسبوا ما تركَ على ظهرِها من ذائبٍ، و لكنْ يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مسمى فإذا

جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًاً (بعض يعذبهم وبعض يغفر لهم).

و خلاصه القول فى إطار هذه السورة: إنها تدور حول فكره أساسيه و مؤثره فى تربيه الإنسان و تركيته، و هي إن الله هو المهيمن عليه، و هو الذى يدبّر أموره و شؤون الكون، ذلك أنّ الإنسان الذى يشهد بذلك ليس فقط يطمئن إلى رحاب ربّه، و إنما أيضاً يدفعه هذا الشعور إلى أن يحدّد تصرفاته و سلوكه وفق مناهج الله سبحانه و تعالى.

و هناك ايحاء آخر لهذه الفكرة، و هو ان لا يطمئن البشر إلى رخاء، و لا ييأس عند ضراء.

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١١ إلى ٨]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَهُ رُسِّلًا أُولَى أَجْنِحَهِ مَشْتَىٰ وَ ثُلَاثَ وَ رُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَهِ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَيْلٌ مِنْ خَالقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِبْتُ رُسِيلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعِدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنُكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَيْدُوْ فَاتَّحِذُوهُ عَيْدُوْ إِنَّمَا يَدْعُوْنَا حِزْبُهُ لِيَكُونُوْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عِذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

اللغه

١ [فاطر]: الفطر الشق عن الشيء بإظهاره للحسن، و فاطر السماوات حالتها.

٣ [فأنى تؤفكون]: أى كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال، من أفك بمعنى انصرف، و منه يسمى الإفك إفكا لأنّه صرف الكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

هدى من الآيات:

عند ما نتذكر أنَّ ربنا حميد -بكل المحامد الكريمه- أو ليس قد فطر السموات والأرض، و استوى على عرش القدرِ حيث جعل الملائكة رسلاً (لتدبير الأمور) عندئذ يهدينا رب إلى أنَّ مقاليد الأمور بيده، فإذا فتح للناس رحمه فلا أحد يمسكها، وإذا أمسكها فلا أحد يرسلها، فهو العزيز الحكيم، و هو الذي يرزق الناس من السموات والأرض، و من نعمه الظاهره رسالاته التي يكذب بها الناس عاده، ولكنَّ الأمور ترجع إلى الله سبحانه فلا يجوز أن نغتر بزينة الدنيا أو بتضليل الغرور، و يحذرنا رب من الشيطان، و يدعونا إلى عداوته، لأنَّه يدعو حزبه إلى عذاب السعير.

هكذا نتلوا في الدرس الأول من سورة فاطر التذكرة بالأصول الثلاثة:

التوحيد، و الرساله، و اليوم الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نزلت البسمة مع جبريل كلما نزلت سوره، و كان الأصحاب يعلمون نهايه السوره إذا نزلت البسمة.

و قد أكدنا: ان اسم الله يعني الصفات الجلالية و الجمالية التي يذكر بها، كصفه العزه، و القدرة، و العظمه من الصفات الجلالية، و صفة الرحمة، و الغفران، و الخلق، و الرزق من الصفات الجمالية، و لقد خلق ربنا بهذه و تلك الخليقه، فلو لا رحمه الله، و قدرته، و علمه ما وجدت.

فلو كان ربنا مقتدا، و لم يكن رحيم، لم يكن ليخلق الخلق، و لماذا يخلقه؟ بلـيـ. لقد خلقنا برحمته فقال تعالى: «وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذِلِكَ خَلَقَهُمْ ». (١)

و في الحديث عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله عن الآية فقال:

«خلقهم ليجعلوا ما يستوجبون به رحمه الله فيرحمهم » (٢) و هكذا على البشر التوسل الى الله بأسمايه الحسني، و البسمة أعظمها، فبرحمته التي وسعت كل شيء (الرحمن) و برحمته الدائمه التي لا تزول (الرحيم) نستعين في أعمالنا.

(١) الحمد لله

ص: ١٥

١ - ١ هود/ (١١٨-١١٩).

٢ - ٢ نور الثقلين/ ج (٢) ص (٤٠٤).

لَا حَمْدٌ لِأَحَدٍ، إِلَّا مَجَازًا، إِنَّ الْحَمْدَ حَقًّا فَهُوَ لِلَّهِ، الْخَالِقُ الرَّازِقُ.

وَقَدْ يَفْتَنُ الْإِنْسَانَ بِحَمْدِ مَا سُواهُ، لَأَنَّهُ تَسْبِبُ فِي وَصْولِ نِعْمَةِ إِلَيْهِ، وَيَغْفِلُ عَنْ حَمْدِ رَبِّهِ الَّذِي وَهَبَ لَهُ الْكِيْنَوَنَةَ الْأُولَى، وَلَا تَرَالْ نِعْمَةَ تَرَى عَلَيْهِ بِمَا لَا يُحْصِيهَا الْعَادُونَ.

أَمَّا الْذَّاكِرُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ كُلُّهَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَيُسْتَحْقِهُ حَمْدًا كَثِيرًا كَمَا يُحِبُّ رَبَّنَا وَيُرْضِي.

وَأَوْلَى مَا نَحْمَدُ رَبَّنَا عَلَيْهِ أَنَّهُ خَلَقَنَا وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْفَطْرُ فِي الْلُّغَةِ هُوَ الْأَنْشَقَاقُ، وَقَدْ قَالَ رَبُّنَا فِي سُورَةِ (الْمُلْك): «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ».

وَفَطَرَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَنْشَأَهُمَا مِنْ غَيْرِ مَثَلٍ يَحْتَذِي بِهِ، أَوْ خَلَقَ عَلَى شَاكِلَتِهِ لَقَدْ اَنْشَقَ جَدَارُ الظَّلَامِ الْأَبْدِيِّ بِإِذْنِ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْخَلَائِقِ الَّتِي لَا تَحْصَى وَلَا تَحْدُو. لَعِلَّ الْكَلْمَهُ تَوْحِي بِمَعْنَى الْإِبْدَاعِ، وَالْإِنْشَاءِ، وَالتَّكْوِنِ مِنْ دُونِ أَصْلٍ سَابِقٍ، أَوْ مَادَهُ قَدِيمَهُ، حَسْبَمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامِ أَنَّهُ قَالَ :

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوْيَهُ أَجَالَهَا، وَلَا تَجْرِيَهُ اسْتِفَادَهَا، وَلَا حَرَكَهُ أَحَدُهُنَّا، وَلَا هَمَّاهُ نَفْسٌ اضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا، وَلَأَمَّ بَيْنَ مُخْتَلَفَاتِهَا، وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وَأَنْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالَمَا بَهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مَحِيطًا

بحدودها و انتهائهما، عارفا بقرائتها و أحنائهما، ثم انشأ سبحانه -فتق الأجواء، و شق الأرجاء، و سكائق الهواء «[\(١\)](#)» و ربما توحى الكلمة أيضاً: بـأيـان الله فـتق السـموات بـعـد أـن كـانـت رـتقـا، أـى كـانـت كـتلـه مـترـاـصـه، فـحـدـث فـيـها انـفـجـار عـظـيم مـن هـيـه اللهـ، يـعـبر عنـهـ سـبـحانـه -بـقولـه: «[ثـم اـسـتـوـى إـلـى السـمـاء و هـي دـخـان فـقـال لـهـا و لـلـأـرـض اـتـيـا طـوـعاً أـو كـرـهـا قـاتـلـاـتـاـتـيـنا طـائـعـين](#)» [\(٢\)](#) فـكـانـت السـموـات و الأـرـض، و لـعـلـ الـآـيـه التـالـيه تـشـير إـلـى ذـلـكـ: «[أـو لـم يـرـ الـذـيـن كـفـرـوا أـنـ السـمـاءـات و الأـرـضـ كـانـتـا رـثـقـا فـقـتـنـاهـمـا](#)» [\(٣\)](#).

و تـقـول بـعـض النـظـريـات العـلـمـيه الـحـديـثـه: إـنـ الكـونـ كانـ سـديـما [\(٤\)](#) فـتـكـونـت مـنـ الشـمـوسـ بـمـا لا يـعـلمـونـ.

جـاعـلـ الـمـلـائـكـه رـسـلاـ المـلـائـكـه: هـيـ القـوىـ العـالـمـهـ، الشـاعـرـهـ، المـطـيعـهـ لـلـهـ، وـ بـعـضـهـمـ موـكـلوـنـ بـالـخـلـيقـهـ، فـلـلـسـمـاءـ مـلـكـهـ، وـ لـلـشـمـسـ مـلـكـهـ، وـ لـلـبـحـرـ مـلـكـهـ، وـ لـلـرـيحـ مـلـكـهـ، وـ لـلـمـطـرـ مـلـكـهـ، وـ لـلـإـنـسـانـ مـلـائـكـهـ حـفـظـهـ وـ كـتـبـهـ.

وـ بـمـا أـنـ هـذـهـ السـورـهـ تـذـكـرـنـا بـتـدـبـيرـ اللـهــ سـبـحانـهـ وـ تـعـالـىـ لـلـسـمـوـاتـ وـ الـأـرـضـ كـانـ منـاسـبـاـ إـلـىـ الـمـلـائـكـهـ المـوـكـلـينـ بـهـ، لـكـيـ لاـ يـزـعـمـ بـعـضـهـمـ أـنـ الـمـلـائـكـهـ قـوىـ مـسـتـقـلـهـ فـيـعـبـدـوـهـمـ مـنـ دـوـنـ اللـهــ، كـمـاـ عـبـدـ بـعـضـهـمـ الشـمـســ، وـ بـعـضـهـمـ الـقـمـرــ، وـ بـعـضـهـمـ النـجـومــ، وـ وـ وـ...ـ

ص: ١٧

١- (٣) نـهـجـ الـبـلـاغـهـ /ـ خـ (١) صـ (٤٠).

٢- (٤) فـصـلـتـ /ـ (١١).

٣- (٥) الـأـنـبـيـاءـ /ـ (٣٠).

٤- (٦) السـدـيـمـ: هـوـ الغـبـارـ الـكـيـفـ.

هكذا نستوحى من كلمة «رسلا» انهم مجرد حمله للأوامر إلى حيث يجرى تنفيذها بإذن الله و بحوله و قوته.
و كلمة «رسلا» لا تعنى الاختصاص بالرسالة التشريعية، التي منها (التوراه والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وقرآن محمد) و لكن الملايكه تنزل بإذن ربها من كل أمر، فيسائر شؤون الخليقه.

أُولَى أَجْنَاحِهِ مَثْنَىٰ وَ ثُلَاثَةٍ وَ رُبَاعَ

جاء في الأثر عن طلحه بسانده، يرفعه إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- قال :

«الملايكه على ثلاثة أجزاء، فجزء لهم جناحان، وجزء لهم ثلاثة أجنه، وجزء لهم أربعه أجنه» [\(١\)](#) و لبعض الملايكه أكثر من ذلك بكثير،

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الملايكه :

«ان لله تبارك و تعالى ملايكه لو أن ملكا منهم هبط إلى الأرض ما وسعته، لعظم خلقته، و كثره أجنته، و منهم من لو كلفت الجن و الانس أن يصفوه ما وصفوه، وبعد ما بين مفاصله، و حسن تركيب صورته، و كيف يوصف من ملايكته من سبعمايه عام ما بين منكبه و شحمه أذنيه، و منهم من حد الأفق بجناح من أجنته دون عظم بدنه» [\(٢\)](#) يزيد في الخلق ما يشاء

ص: ١٨

١-٧) تفسير نور الثقلين / ج (٤) ص (٣٤٦).

٢-٨) نور الثقلين ج (٤) ص (٣٤٦).

و قد أكدنا القول في سورة سابقه: إن الكون في حالة توسيع دائم و مستمر، و هذه الآية توحى بأنّ يد الله مطلقة، و أنّ بيده البداء.

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢] و ما نراه من صنوف الخالق، و عجيب صنعها، و عظيم تقاديرها، و تدبير شؤونها، يهدينا إلى أنّ خالقها مقتدر لا- يعجزه شيء، مما يزيدنا ثقه به و اطمئناناً لتدبيره، و سكينه في القلب تساعدننا على تقلبات الحياة، فلا نقطط بالبلاء، و لا نستريح عند الرخاء، و لا نطمئن إلى الدنيا و أسبابها التي لا تثبت على حال.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا إِنَّ رَحْمَهُ اللَّهُ لَا أَحَدٌ يُسْتَطِعُ أَنْ يَمْنَعَهَا عَنْكَ إِذَا قَدِرْتَ لَكَ.

وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْغَزِيزُ الْحَكِيمُ عزيز لأنّه قادر، و حكيم يرسل لمن يشاء و يمسك عنمن يشاء، كيما يشاء بحكمه و ليس عبثا.

[٣] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَاتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فَهُوَ الَّذِي خَلَقَنَا، وَ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُنَا، وَ فِي آيَاتِ قرآنِهِ قالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى:

إِنَّهُ خَلَقَ الْكَوْنَ فِي يَوْمَيْنِ، وَ قَدْرُ الْأَقْوَاتِ فِي أَرْبَعَهُ أَيَّامٍ، مِمَّا يَهْدِيَنَا إِلَى أَنَّ الَّذِي خَلَقَنَا فِي يَوْمَيْنِ أَعْطَى ضَعْفَ الْوَقْتِ لِلرِّزْقِ، فَلِمَ الخوفُ إِذَا مَنْ توقَّفَ رِزْقَهُ؟ فَهَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُنَا، مِنَ الَّذِي وَزَعَ الثَّرَوَاتِ فِي الْأَرْضِ، وَ مِنَ الَّذِي

و هب لمنطقه أرضا زراعيه، و لأخرى معادن أودعها ضمير الأرض منذ ملايين السنين ليستفيد منها الإنسان الآن و غدا.

و ثقه البشر بربه كفيله بسد أبواب الشيطان التي يلج منها لتضليله إذ يصور له أن الآخرين يرزقونه.

و لعل هذه الثقه تدفعه إلى البحث عن الرزق في حقول الطبيعة، و يسعى في مناكب الأرض يحرثها، و يشير دفائنهما، و يسخر طاقاتها لمصلحته، و لا يجلس في انتظار الآخرين أن يرزقونه أو يطعمونه.

و هكذا تكون الفكره المستوحاه من الآيه أولاً تساهم في تركيه النفس، بينما تساهم الفكره الثانيه في بناء الحضاره بالاعتماد على رزق الله، و تفجير الطاقات المهيأه للإنسان.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤْفَكُونَ أَيْنَ تَذَهَّبُونَ؟! وَ إِلَى أَيِّ إِفْكٍ وَ كَذْبٍ يُدْفَعُكُمْ شَيَاطِينُ الْجَنِ وَ الْأَنْسَنِ الَّذِينَ يُوَحِّنُونَ إِلَيْكُمْ بِأَنَّهُمْ رَازِقُوكُمْ.

[٤] وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبْتُ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فِي الْآيَاتِ الْقَرَآنِيَّةِ تَأْكِيدَاتٍ كَثِيرَهُ عَلَى هَذِهِ الْفَكْرَهِ: وَ نَسْتَوْحِي مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ آرَاءَ النَّاسِ لَيْسَ مَقِيَاسًا سَلِيمًا لِمَعْرِفَهُ الْحَقِّ، ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْسَنَ يَجْعَلُ -عَادَه- آرَاءَ الْآخَرِينَ مَقِيَاسًا، فَيَقُولُ: مَا دَامَ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا كَذْبٌ فَهُوَ كَذْلِكُ، وَ مَنْ هُنَا يُؤْكِدُ رَبِّنَا: «وَ مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِيْنَ» وَ أَكْثَرُ النَّاسِ قَاتِلُوْنَا رسالاتَ اللَّهِ فَأَظَهَرُهَا اللَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ.

وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأَمْوَارُ وَ هَكُذا أَكَدَ السِّيَاقُ أَنَّ الرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ، وَ أَنَّ آرَاءَ النَّاسِ لَيْسَ مَقِيَا سَاءَ، وَ أَنَّ الْأَمْوَارَ لَا تَعُودُ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ، مَمَنْ يَتَخَذُهُمُ النَّاسُ أَنْدَادًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، بَلْ إِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأَمْوَارُ، وَ هَنَاكَ يَكُونُ الْحِسَابُ عَادِلًا حِيثُ يَجَازِي الْمُحْسِنُ جَزَاءَ الْبُطْشَفِ، وَ لَا يَعْاقِبُ الْمُسَيْءَ إِلَّا بِمِثْلِ عَمَلِهِ.

[٥] ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللَّهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَيَقُولُ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعِيدَ اللَّهِ حَقٌّ إِنَّمَا يَكْذِبُ النَّاسُ بِرِسَالَةِ اللَّهِ لَأَنَّهُمْ عَبَدُوا الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا مِنْ مَبَاهِجٍ وَ زِينَةٍ، فَبَعْضُ غَرَّهُمُ الدُّنْيَا مُبَاشِرٌ كَالْطَّغَاهُ وَ السَّلاطِينَ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَ بَعْضُ غَرَّهُمُ الْمُغْرُورُونَ بِالدُّنْيَا مِنْ هُؤُلَاءِ، وَ إِنَّمَا أَهْلُكَ هُؤُلَاءِ السَّذْجُ اتَّبَاعُهُمْ لِأُولَئِكَ مِنْ دُونِ لَذَهَابٍ أَوْ شَهْوَهٍ.

فَتَرَى أَدْعِيَاءُ الدِّينِ وَ الْعِلْمِ يَسْتَخْدِمُهُمُ السَّلَاطِينَ لِلتَّغْرِيرِ بِالْبَسْطَاءِ مِنَ النَّاسِ فَيُسْلِبُونَ مِنْهُمْ دِينَهُمْ وَ دُنْيَاهُمْ، وَ إِنَّمَا يَرْفَلُ بِالنَّعْمَ الطَّغَاهُ وَ أَعْوَانَهُمْ، وَ لَا يَقِنُ لِلْمُعْنَفِيَّاتِ سَوْيَ الْضَّلَالِ وَ الْغَرْوَرِ.

فَلَا تَغْرِبُنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يُغَرِّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ وَ قِيلَ أَنَّ الْغَرُورَ: هُوَ الشَّيْطَانُ.

[٦] لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا: عَدُوُّ دَاخِلٍ وَ هُوَ النَّفْسُ، وَ عَدُوُّ خَارِجٍ وَ هُوَ الشَّيْطَانُ، وَ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَتَخَذِّ مَوْقِفًا وَاضْحَى مِنَ الشَّيْطَانِ لَكِي يَتَمَيَّزَ نَدَاءُهُ التَّضْلِيلِيَّ عَنْ دَاعِيِ اللَّهِ، ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَمْلُكُ فِي نَفْسِهِ قَوْتَيْنَ مُتَضَادَتَيْنَ هُمَا: الْعُقْلُ وَ الْهُوَى،

و يؤيد العقل الملائكة بينما الهوى يدعمه الشيطان، و في الحديث: ان كل شخص موكل به ثلات و ثلاثون ملكاً، و مثلهم من الشياطين.

و من مكر الشيطان بالإنسان خلط الأوراق عليه، حتى لا يميز هذا عن ذلك، فتراه يلبس الباطل بالحق، و يوسوس في الصدور حتى يتشبه الحق بالباطل، و لكن إذا عرف الإنسان أن في قلبه شيطاناً يسعى لاغوائه، و اتخذه عدواً تميز العقل عن الهوى في نفسه، و أمكنه معرفة طبيعة دواعيه النفسية هل هي من عقله أو من هواه.

و في الروايات: «انظر أيهما أقرب إلى نفسك فخالقه لأن الأقرب إلى النفس أقرب إلى الشيطان.

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا عَلَمَا إِنَّهُ يَأْتِي بَعْضَ الْأَحِيَانِ فِي صُورِ النَّاصِحِ، إِنَّهُ عَدُوٌ مُبِينٌ، يَأْتِي لَكُمْ مِنْ تِسْعَ وَ تِسْعِينَ بَابًا مِنَ الْخَيْرِ كَيْ يُوقَعَكُمْ فِي الْمَأْوَى. إِنَّهُ عَدُوٌ وَ قَدْ آتَى عَلَيْكُمْ نَفْسَهُ إِنْ يَضْلُلَ بْنَ آدَمَ، وَ يَدْخُلُهُمْ مَعَهُ النَّارَ.

هكذا تناصح الصالحون بألا يغفل ابن آدم عن عدوه الخطر و هو الشيطان، فهذا

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين يأتي إليه رجل و يقول له: يا بني أنت وأمي عظى موعظه يقول له:

«إن كان الشيطان عدوا فالغفلة لماذا؟!» [\(1\)](#)

و جاء في حديث الله أوحى إلى كليمته موسى بن عمران عليه السلام، و كان من بين وصاياته:

ص: ٢٢

«ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره » (١) و خطوره هذا العدو اللدود انه لا يرضيه شيء إلا إذا أوقع فريسته في نار السعير مباشرة.

إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ مِنْ يَطِيعُونَهُ...

لِيُكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [٧] الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عِذَابٌ شَدِيدٌ وَعِذَابُ الدُّنْيَا مِنْهَا كَانَ لَا يَبْلُغُ شَدَّهُ عِذَابُ الْآخِرَةِ، فَعَلَى الْعَاكِلِ
أن يتحمل صعوبات الدنيا لكي يتتجنب عذاب الآخرة، كمن يهرب من النار عبر طريق شائك يدمى رجله، بلـ. أن ينجو من النار
على حساب رجله أفضل من أن يتهمه سعيرها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ لِمَا يُؤْكِدُ الْقُرْآنُ عَلَى الْمَغْفِرَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؟ رِبِّمَا
لَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ لِلْمَذْنُوبِ، وَأَبْنَاءِ آدَمَ -عَادَهـ -يَذْنُوبُونَ إِذَا عَرَفُوا غُفْرَانَ اللَّهِ عَظِيمَ الْأَمْلِ فِي قُلُوبِهِمْ حِيثُ يَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ: مَا دَمْتُ تَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ فَسَوْفَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذَنْبَكُمْ.

ص: ٢٣

١٠ - ١) المصادر.

[٨] ثم يؤكّد القرآن على أنّ الشيطان يزيّن الأفعال السيئة للإنسان حتى يراها صالحة.

أَفَمِنْ زُيَّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَّنَاً يَزِينُهُ لِهِ الشَّيْطَانُ، فَيَرَاهُ حَسَنًا، ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ نَفْسَهُ وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُقَالَ عَنْ عَمَلِهِ أَنَّهُ سَيِّءٌ، وَهَكُذا تَتَكَرَّسُ الْخَطَايَا عِنْدَهُ، إِذْ تَنْقُلُ مَقَايِيسَهُ وَقِيمَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَتَحَشَّا هَا أَصْحَى الْيَوْمِ يَرَاهَا حَسَنَهُ.

وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يَصُعبُ عَلَيْهِ الْإِقْلَاعُ مِنَ الذَّنَوْبِ فَضْلَهُ اللَّهُ.

يقول الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه و آله :

«يَنِمَا مُوسَى جَالِسًا، إِذْ أَقْبَلَ إِبْلِيسُ وَعَلَيْهِ بَرْنَسٌ ذُو الْأَلْوَانِ، فَلَمَّا دَنِيَ مُوسَى خَلْعَ الْبَرْنَسِ، وَقَامَ إِلَيْهِ مُوسَى فَسَلَمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:

أَنَا إِبْلِيسُ، قَالَ: أَنْتَ فَلَا قَرِبْ اللَّهَ دَارِكَ، قَالَ: أَنِّي اتَّمَّتْ لِأَسْلَمَ لِمَكَانِكَ مِنَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: فَمَا هَذَا الْبَرْنَسُ؟ قَالَ: بِهِ اخْتَطَفَ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى فَأَخْبَرْنِي بِالذَّنْبِ الَّذِي إِذَا أَذْنَبَهُ أَبْنَ آدَمَ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِذَا أَعْجَبْتَهُ نَفْسَهُ، وَاسْتَكْثَرْتَ عَمَلَهُ، وَصَغَرَ فِي عَيْنِهِ ذَنْبُهُ» ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَاللَّهُ يَضْلِلُ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي يَبْرُرُ أَعْمَالَهُ الْفَاسِدَةِ، فَيُسْلِبُ عَقْلَهُ، وَيَتَرَكُهُ فِي ظَلَمَاتِ لَا يَبْصِرُ، وَيَهْدِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِمَا صَبَرُوا وَأَطَاعُوا.

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ

ص: ٢٤

.١١) المصدر /ص (٣٥٢).

حين لا يؤمنون بك.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

ص: ٢٥

اشاره

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتَشِيرُ سَحابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذِلِكَ الْأَنْشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْبِحُ عَدُوكُ الْكَلْمُ الظَّيْبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عِذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمَلُ مِنْ أُثْنَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنَقْصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسِّيَّرُ الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبُ قُرَاثٍ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَهُ تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

اللغه

[١٠] [يبور]: من بار إذا فسد، أى أن مكرهم يفسد ولا ينفذ.

ص: ٢٦

[موآخر]: جمع ماخره، يقال مخرت السفينه الماء إذا شقته لتسير.

٢٧: ص

هدى من الآيات:

فِي إِطَارِ تِبْيَانِ تَدْبِيرِ اللَّهِ لِأَمْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَكْرِيسِ حَالَةِ السَّكِينَةِ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، يُرْبِطُ السِّياقَ هُنَا بَيْنَ سُنْنِ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ وَبَيْنَ سُنْنِهِ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ.

وَيَدْعُونَا إِلَى إِلْقاءِ نَظَرِهِ فَاحْصَهُ إِلَى السَّحَابِ الَّذِي تَحْمِلُهُ الرِّيَاحُ، وَتَبْعَثُهُ إِلَى الْبَلَادِ الْمَيِّتِهِ فِي حِسَابِهَا، ثُمَّ نَظَرِهِ إِلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَمَا يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَزَعَاتٍ وَتَطْلُعَاتٍ، فَكُلُّ شَخْصٍ يُرِيدُ أَنْ يَصْبِحَ عَزِيزًا، مُنْيِعًا لِلْجَانِبِ، وَلَكِنَّ الْبَعْضَ قَدْ يَخْطُئُ الطَّرِيقَ، فَلَا يَعْرِفُ أَنَّ الْعَزَّةَ الْحَقِيقِيَّهِ إِنَّمَا هِيَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّ الْمَعْرَاجَ إِلَيْهِ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَيُدْفِعُهُ هَذَا الْخَطَأُ إِلَى اصْطَنَاعِ الْمَكَائِنَ وَالْمَكْرِ، وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّءَ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَلَا يَحْصُلُ عَلَى عَزَّهُ وَلَا غَنِّيَّهُ.

إِنَّ رَبَّنَا سَبَّحَنَهُ يَذَّكَّرُنَا بِأَيَامِ ضُعْفَنَا: مِنَ الَّذِي قَوَانِي؟ أَوْ لَمْ نَكُنْ نَطْفَهُ مِنْ مَنْيَ

يمنى؟ من الذى سوانا فعدلنا؟ إنَّ الرَّبَّ الَّذِى جَعَلَ مِنَ النَّطْفَهُ الْمَهِينَهُ إِنْسَانًا سُوَيْا، هُوَ الَّذِى يَعْزَزُ مِنْ يَشَاءُ، وَيَذْلِلُ مِنْ يَرِيدُ، وَيَتَصلُّ
الحاديَثُ عَنِ الْعَزَّهُ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبُ فَرَاتِ سَاعَهُ شَرَابَهُ، وَهَذَا مَلْحُ أَجَاجَ، وَمَعَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
الْعِبَادَ مِنْهُمَا جَمِيعًا بِحِيثِ يَسْتَخِرُ جُونَ لِحَمَّا طَرِيَّا كَمَا يَسْتَخِدُهُمْ نَحْنُ لِمَصْلِحَهِ النَّقلِ فِيهِمَا عَبَرَ السُّفُنِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ الْحَدِيثُ يَرْبِطُهُ سُبْحَانَهُ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ: فَمَنْ يَوْلُجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ، وَيَوْلُجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ؟! أَوْ لَيْسَ اللَّهُ، فَلَمَّا ذَانَ نَطْلَبُ
الْعَزَّهُ عَنْدَ غَيْرِهِ؟!

بيانات من الآيات:

[٩] إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ مَدْرَسَهُ، وَيَجْوَلُ بِبَصَرِهِ فِي أَرْجَائِهَا لِيَزْدَادَ وِعَيَا وَهَدِيًّا، وَمِنْ أَكْثَرِ تَجَلِّيَاتِ الْحَيَاةِ رُوعَهُ سَاعَهُ اِبْتَاقَهَا
عِنْدَ مَا يَأْمُرُ اللَّهُ الْرِّيَاحَ لِتَحْمِلَ السُّحبَ الثَّقِيلَهُ بِالْبَرَكَاتِ إِلَى مَوَاتِ الْأَرْضِ حَيْثُ يَحِيطُ السُّكُونُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَيُحِيِّهَا الرَّبُّ بِهَا.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَشَيَّرَ سَحَابًا الْرِّيَاحَ تَشِيرُ السَّحَابَ، كَمَا يُشِيرُ الزَّارِعُ الْأَرْضَ لِلزَّرْعِ، فَتَرْسِلُهُ كَيْفَمَا يَشَاءُ اللَّهُ.

فَسُئِلَ قَنَاهُ إِلَى بَلَدِ مَيِّتٍ وَكَلَمَهُ «فَسَقَنَاهُ» تَدَلُّ عَلَى أَنَّ رَبَّنَا هُوَ الَّذِي يَدْبِرُ الْغَيْثَ فَيَرْسِلُهُ إِلَى بَلَدِ مَيِّتٍ فَيُحِيِّهِ، وَسَقَاهُ الْغَيْثُ لَيْسَ
فَوْضَى إِنَّمَا هُوَ خَاضِعٌ لِعَمَلِ بَنِي آدَمَ، فَلَيْسَ مَطْرُسَنَهُ أَقْلَى مِنْ مَطْرُسَنَهُ أَخْرَى فِي بَلَدٍ، وَلَكِنَّ عَمَلَ الْبَشَرِ هُوَ الَّذِي يَزِيدُهُ أَوْ
يَنْقُصُهُ

تماماً، و ما الريح الى وسيلة لان الله أجرى الأمور بأسبابها.

فَأَحْيِنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا تَعَالَى إِلَى أَرْضِ مَوْاتٍ لِتَجِدُ الْبَشَرَ صَرْعِيَّ الْجَوْعِ، وَ الْأَحْيَاءُ فِي ضَمُورٍ، وَ أَدِيمِ الْأَرْضِ يُشَكُّوِّ
الْعُطْشُ، فَإِذَا أَنْزَلْتُ عَلَيْهَا الرَّبَّ الْمَاءَ اهْتَرَّتْ، وَ دَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ، وَ انتَعَشَ الْأَحْيَاءُ. إِنَّ هَذَا مَظَاهِرٌ مِنْ مَظَاهِرِ انباثِ الْحَيَاةِ.

كَذَلِكَ النُّشُورُ [١٠] وَ كَمَا الْأَرْضُ يُحِيِّنُهَا الرَّبُّ بِالْغَيْثِ، وَ كَمَا الْأَمْوَاتُ يُنَشِّرُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ الْمَجَمِعُ الْمُتَخَلَّفُ
الَّذِي يُحِيطُ بِهِ سَكُونُ الْمَقَابِرِ يُحِيِّنُهَا رَبُّنَا بِعَزَّتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ الْمَجَمِعُ الْاسْتِقْلَالَ وَ التَّقدِيمَ وَ الْعَزَّةَ وَ بِالْتَّالِي الْحَيَاةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرُجَ إِلَى
الله بالعمل الصالح والكلم الطيب.

هَذِهِ قَدْرَهُ اللَّهُ أَنْ جَعَلَ -هَذَا الْبَلْدُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ- يَنْبَضُ بِالْحَيَاةِ، فَكَيْفَ يَكْفُرُونَ بِالْبَعْثِ وَ النُّشُورِ، أَفَلَا يَؤْمِنُونَ بِأَنَّ رَبَّنَا
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَزِلَ مِثْلَ هَذَا الْمَطَرِ عَلَى أَجْدَاثِهِمْ، فَتَنَمُّ فِيهَا الْحَيَاةُ، مِثْلَمَا يَنْمُوا الزَّرْعُ، وَ يَخْرُجُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ كَمَا تَخْرُجُ
الْبَنَاتُ؟! وَ قَدْ دَلَّتْ بَعْضُ الْرَّوَايَاتِ عَلَى هَذِهِ الْفَكْرَهِ أَنَّ اللَّهَ يَمْطِرُ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَتَنَبَّتِ الْأَجْسَامُ فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَمَا رَحَمَ
الله .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا لَا عِنْدِ الشَّرِكَاءِ أَوْ لَيْسَ (مَنْ اعْتَزَ بِغَيْرِ اللهِ ذَلِّ)! إِلَيْهِ يَصْبِحُ عَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ

الكلم الطيب هو العقيدة الصالحة، لأن الكلمة في القرآن لا تدل على اللفظ، بل على ما ورائها من معنى، كما قال ربنا سبحانه: «مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ أَصْبَلَهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ» وقد فسرت هذه الآية بالقيادة الرسالية، ولا ريب أن سبب العقيدة الصالحة و مظهر صدق الإنسان في إيمانه هو التسليم للقيادة الإلهية(الولائية) و الكلم الطيب يصعد إلى الله و يصعد معه صاحبه معنوياً. أو ليس الإيمان هو أثقل ما في ميزان العبد، و ما عبد الله بمثل التوحيد؟! ولا ريب أن الكلم الطيب -كما الشجرة الطيبة- تنتشر فروعها في كل أفق، فمن عقيدة الصحيح يشع التسامح و الحب و نبذ العصبيات و الأفكار اليائسة و السلبية، و كل أولئك يقرب العبد إلى ربه زلفى.

كما أن العمل الصالح يرتفع إلى الله ويرتفع صاحبه به فيقرب إليه، و بالكلم الطيب و العمل الصالح يصل المجتمع إلى العزة الالهية.

و قد ذكر للعمل الصالح تفسيران:

التفسير الأول: إن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب [\(1\)](#) فالعقيدة الطيبة ترفع العمل الصالح، لأن عامل الحسنة بلا إيمان لا يقبل منه «إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

التفسير الثاني: إن العقيدة الصادقة و الكلم الطيب يرفعه العمل الصالح، فالعمل الصالح بمثابة الأجنحة للطير.

و تتجلى هذه الحقيقة في الحياة الاجتماعية بأن الكلمة الطيبة و العمل الصالح

ص: ٣١

١- التفسير الكبير: الإمام الفخر الرازى ج (٢٦) ص (٨).

يرفعان المجتمع الى الأعلى دائمًا حيث العزّة الإلهية. كيف يتم ذلك؟ كما القارب يسیر مع التيار كذلك الحياة تسیر مع السنن الحاكمة عليها، فمن مشى مع تلك السنن حملته الحياة إلى الأعلى، ومن عارضها خاب سعيه و بارت خطته.

فالحقد والبغضاء والتهمة والعداوة تفصّم عرى المجتمع، وقد بنى الله الحياة على أساس الوحده لا التفرقة، فتيار الحياة يجري باتجاه التجمع، و هل يصعد ذلك التيار إليه سبحانه؟! كلاً... إنما الصاعد إليه الحب والتعاون والإيثار.

إن الكون قائم على أساس البناء لا الهدم، وإن الذي يبني يتقدم على الذي يهدم لأن سنن الله تؤيد الذين يبنون، ويخطئ أولئك الذين يمكرون السينات، و يعتقدون أن باستطاعتهم أن يتقدموا بها، فليس هؤلاء فقط لا يصعدون إلى الله، ولا ينالون من عزّه الله شيئاً، بل لهم عذاب شديد.

وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ[□] المكر هو الحيلة، و من يعيش عليها لا يفلح.

وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَمْكُرُ عَمَلَكَ الصالِحِ يَرْفَعُهُ الرَّبُّ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ يَنْزَلُهُ، وَيَبُورُ أَيْ يَفْسُدُ، وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَسْتَرُونَ النَّاسَ، كَالْمَهْرَ بَيْنَ وَالْمَحْتَالِينَ، نَجْدُهُمْ رَبِّا يَرْبِحُونَ مَرِهَ رَبِّا خَيَالِيَا، وَلَكُنْهُمْ بِالْتَّالِي يَخْسِرُونَ.

والعزّة يعني أن تبحث عن الطريق القويم، فتمشى فيه، و آنئذ سوف تجد أن سنن الحياة كلها تخدمك.

[١١] وَيُؤْكِدُ السِّيَاقُ شُمُولَ تَدْبِيرِ اللَّهِ لِشَوْؤُنِ الْإِنْسَانِ، وَيَبْيَّنُ كَيْفَ تَجْرِي تَقْلِيبَاتُ حِيَاةِ الْبَشَرِ عَلَى كَفَّ تَقْدِيرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَقَدْ خَلَقْنَا مِنْ تَرَابٍ أَوْلًا ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ أَزْوَاجًا حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا إِلَيْهِ بَعْضَكُمْ.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا إِلَيْهِ بَعْضَكُمْ.
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ لَأَنَّكَ فِي لَحْظَاتِ الْجِنْسِ قَدْ لَا تَفْكِرُ فِي شَيْءٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلَّ أُنْثَى. أَهُو ذَكْرُ أَمْ أُنْثَى، كَمَا يَعْلَمُ مَاذَا يَقُولُ إِلَيْهِ مَصِيرُه.

وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنَقْصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ كُمْ يَكُونُ عُمُرُ هَذَا الْمَوْلُود؟ وَهُلْ سَيَعْمَرُ طَوِيلًا؟ أَوْ يَبْاغِثُهُ الْأَجْلُ فِي عَزَّ طَفُولَتِهِ أَوْ رِيعَانَ شَبَابِهِ؟ كُلُّ هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ فِي كِتَابٍ عِنْدَ اللَّهِ، لَا يَضُلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي.

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ هَذِهِ الْأُمُورُ لَيْسَ عَسِيرٌ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا هِيَ عَسِيرٌ عِنْدَكَ.

[١٢] وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرُانِ هَذَا عَذْبُ فُرَاتٍ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجُ الْفَرَاتِ وَالْأَجَاجُ تَأْكِيدُ لِشَدَّهُ الْعَذُوبَةِ وَلِشَدَّهُ الْمَلْوَحَةِ.

وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَهُ تَلْبَسُونَهَا

من الماء العذب و المالح تأكلون لحما و تستخرجون حليه،و قد وقف المفسرون طويلا حائرين،كيف يمكن استخراج الحلية من الماء العذب الفرات،فجاء العلم و أثبت إمكانية تربية المؤلئ في الأنهر.

وَ تَرَى الْفُلَكَ فِيهِ مَا خَرَ في عموم الماء،عذبه و مالحه،من أجل أمرين:

الأول:

لِتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ لِأَنَّ السَّفِينَةَ لَمْ تَرُلْ أَفْضَلَ وَسِيلَهُ لِنَقْلِ الْبَضَائِعِ بَيْنَ الشَّعُوبِ.

الثاني:

وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ حيث ان النعم وسيلة للكمال المعنى المتمثل في شكر الله.

ص: ٣٤

اشاره

يُولج اللَّيلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولج النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وَ سِخَرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَيْمَى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سِمِعُوا مَا إِسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُفُرُونَ بِشَرِكَكُمْ وَ لَا يَبْيَسُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَسَأُ لِيْهِنَّكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَ لَا تَنْزِرُ وَازْرَهُ وَزْرَ أَخْرَى وَ إِنْ تَدْعُ مُشْفَلَهُ إِلَى حِمْلَهَا لَا يُحَمِّلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَمُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكُ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا الْنُورُ (٢٠) وَ لَا الظُّلُلُ وَ لَا الْحُرُورُ (٢١) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)

اللغه

١٣. [قطمير]: هو قشر النواه أي اللفقات التي فوقها.

هدى من الآيات:

يتثبت الإنسان بعض الخيوط الواهية (العنكبوتية)، ويترك ذلك الحبل المتن الذي لا بد أن يعتض به، و تذكّرنا آيات القرآن بأنّ مدبر السموات والأرض هو الله، فهو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، و سخر الشمس والقمر، وأنّ له الملك، فلما ذا لا ندعوه، بينما الذين يدعونهم من الشركاء لا يملكون حتى بمقدار قطمير.

و بالذات عند الضراء، حيث يتحسّس البشر بضعفه الحقيقي، لا يعقل هؤلاء الأنداد شيئاً إذ لا يسمعون النداء، ولو سمعوا لم يستجيبوا.

أمّا يوم القيمة فهو لاء لا يشعرون لأحد إذ يكفرون بالمسركين.

ثم يؤكّد ربنا هذه الحقيقة قائلاً: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ**

الْعَنْيُ الْحَمِيدُ لِمَاذَا؟ لَأَنَّهُ يُسْتَطِعُ بِأَقْلَمِ لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ أَنْ يَفْنِيَكُمْ عَنْ أَخْرَكُمْ، وَيَنْشِئَ مَكَانَكُمْ مَجْمُوعَهُ بِشَرِيكِهِ جَدِيدِهِ، وَهُلْ هُنَّا كَفَرُ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا الْفَقْرِ؟ فَإِلَيْهِ اسْتَمْرَارُ بِقَائِمِهِ يَحْتَاجُ إِلَى رَبِّهِ، وَهُلْ هُنَّا كَغْنِيٌّ أَكْبَرُ مِنْ غَنْيَ الرَّبِّ، الَّذِي لَوْ شَاءَ أَذْهَبَكُمْ، وَأَتَى بِخَلْقٍ جَدِيدٍ؟ وَهُذَا هَيْنَ عَلَيْهِ وَيُسِيرٌ.

ثُمَّ يَحْدُثُنَا السِّيَاقُ عَنْ مَسْؤُلِيهِ إِلَيْهِ اسْتِدَارُ أَمَامِ رَبِّهِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ، وَإِنَّهُ لَا يُسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ الصَّالِحُ وَالْكَافِرُ، كَمَا لَا يُسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظَّلَمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا الْحَرَوْرُ، وَلَا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ.

فَلَا يَجُوزُ الْاعْتِمَادُ عَلَى الْأَنْدَادِ لِلْهُرُوبِ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ كَمَا لَا يُمْكِنُ القَوْءَاهُ عَلَى الْآخَرِينَ.

وَإِنَّمَا جَاءَ الرَّسُولُ نَذِيرًا (بِأَنَّ السَّيِّئَاتِ تَسْتَبِعُ عَقَابًا) وَهُوَ بِالْتَّالِي لَا يَحْمِلُ مِنْ تَبْعَاتِ أَمْتَهِ شَيْئًا.

بيانات من الآيات:

[١٣] يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَلْجِ أَحَدُهُمَا فِي صَاحِبِهِ بِصُورَهِ مُسْتَمِرٌ، بِسَبِبِ حَرْكَهِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ.

قال بعض المفسرين: إنّ كلامه «يولج» تدل على الاستمرار، لأنّه في كل لحظه يتم إيلاج، ففي هذه الساعه حكم الليل في أحد البلدان، وبعد دققتين سيحل الليل على بلد آخر، وفي المقابل يحل النهار على بلد في نفس الوقت، والظهر

في بلد ثالث.

و هناك تفسير آخر يحتمله الكلام هو إن الليل والنهار يأخذ أحدهما من الآخر في فصول السنة فمرة يكون الليل أطول و مرتاحه النهار.

و سحر الشمس و القمر كُلٌّ يجري لأجل مُسَمٍّ الشمس و القمر يجريان، ولكن ليس إلى ما لا نهاية، و كذب من قال: إن الشمس و القمر أبديان، كلا.. فشمسنا هذه مثلاً في حاله الكهوله، و كل ما في الكون يؤكد على النهايه، فهذه الانفجارات الهائله في الشمس شاهد على تناقصها بشكل دائم، و الانفجارات التي نسمعها بين الفينة والأخرى لبعض الشموس تؤكد لنا أنه لا بد من نهايه لشمسنا أيضاً.

ذِكْرُمُ اللَّهِ رَبِّكُمْ مِنَ الَّذِي أَوْلَجَ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ، وَأَوْلَاجَ النَّهَارَ فِي الْلَّيلِ، وَمِنَ الَّذِي سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمٍّ؟ إِنَّهُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، وَهُوَ الْمَالِكُ حَقًا.

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرِ الْقَطْمِيرِ هُوَ قُشْرُ النَّوَاهِ الرَّقِيقِ، وَمَا يَمْلِكُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مُثْلُهَا.

[١٤] إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مِمَّا اسْتَجَبْتُهُمْ فَكَيْفَ يَسْمَعُونَ نِجْوَاكُمْ أَوْ سَرَّكُمْ، أَوْ حِينَ تَدْعُونَهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ؟ وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّهُمْ سَمَعُوا دُعَاءَكُمْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكُمْ، لَأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ دُفَعَ الضُّرِّ عَنْ أَنفُسِهِمْ، فَكَيْفَ بِجَلْبِ الْخَيْرِ لَكُمْ؟!

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمُ الْمُلَائِكَهُ وَالْأَنْبِيَاءَ كَعِيسَى وَالْأُولَيَاءَ الصَّالِحُونَ سِيَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمُ، وَسِيَتَبَرَّأُونَ مِنْكُمْ وَمِنْ عَبادَتِكُمْ لَهُمْ، كَمَا يَكْفُرُ الْأَنْدَادُ بِكُمْ وَبِشِرْكِكُمْ.

وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَيْرِ الْخَيْرِ هُوَ الَّذِي خَبَرَ الشَّيْءَ، وَعْرَفَ أَبْعَادَهُ، وَمِنْ أَخْبَرَ مِنَ الرَّبِّ وَهُوَ الْخَالِقُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِمًا؟
[١٥] إِنَّ الْإِحْسَاسَ بِالْغُنْيَى الَّذِي يَسْمِيهِ الْقُرْآنُ بِالْإِسْتِغْنَاءِ، وَالَّذِي يَدْعُو صَاحِبَهُ إِلَى الْبَطْرِ وَالْطَّغْيَانِ، إِنَّهُ مَرْضٌ خَطِيرٌ، إِذَا يَجْعَلُ
الْإِنْسَانَ يَعِيشُ الْوَهْمَ، وَلَا يَعِيشُ الْحَقَّاَتَ، لِذَلِكَ يَذَّكَّرُنَا رَبُّنَا بِوَاقِعِ الْعَجزِ الْمُحِيطِ بِنَا.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَمِنْ أَشَدِ فَقْرَاءِهِ مَنْ تَرَكَنَا الرَّبَّ فِي الْعَجزِ وَالْعَصْفِ وَالْمَسْكَنَهُ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَنْدَنَا مِنْهُ
سَبْحَانَهُ.

يقول الإمام الحسين (عليه السلام) في تصرعه المخصوص بيوم عرفة:

إِلَهِي! أَنَا الْفَقِيرُ فِي غَنَّاي فَكِيفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي؟ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ الْغَنِيُّ عَادَهُ مَا يَكُونُ مَعَ الْلَّوْمِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ غَنِيُّ
حَمِيدٌ، فَهُوَ غَنِيٌّ وَيُعْطِي مِنْ غَنَاهُ لِلآخَرِينَ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا يَبْخُلُ عَلَى الْآخَرِينَ، بَلْ «لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّيِّ إِذَا لَأَمْسِكْتُمُ
خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ» (١) وَهُوَ حَمِيدٌ يَحْمِدُ عَلَى غَنَاهُ.

ص: ٤٠

١- (١) الإسراء / (١٠٠).

[١٦] وَ مِنْ آيَاتِ فَقْرَنَا نَحْنُ الْبَشَرُ قَدْرَهُ اللَّهُ الْمُحيَطُهُ بَنَا حَيْثُ يَهْلَكُنَا إِذَا شَاءَ وَ يَسْتَبَدُ بَنَا غَيْرُنَا.

إِنْ يَسْأَلُونَكُمْ وَيَأْتِيَنَّكُمْ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [١٧] يُسْتَطِعُ أَنْ يَذْهَبَكُمْ جَمِيعاً، وَ يُسْتَبَدِّلُكُمْ بِغَيْرِكُمْ، يُخْلِقُهُمْ بِيُسْرٍ، لَأَنَّهُ لَا يُمارِسُ فِي خَلْقِهِ عَلَاجاً وَ لَا يُمْسِهِ لَغْوَبَ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

وَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَالَ :

«خَلَقَ اللَّهُ الْمُشَيْئَهُ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءِ بِالْمُشَيْئَهِ» (١) فَعِنْدَ مَا يَشَاءُ شَيْئاً فَقَدْ حَدَثَ الشَّيْءُ،

وَ فِي الْأَثْرِ : «أَمْرَهُ بَيْنَ الْكَافِ وَ النُّونِ». وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ لَنَفْتَرَضْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى شَاءَتْ مُشَيْئَتُهُ الْمُطْلَقَهُ -الَّتِي لَا يَحْدُّهَا شَيْءٌ- أَنْ يَنْهَى وَجْهَ الْكَوْنِ كُلَّهُ. هَلْ يَسْأَلُهُ أَحَدٌ عَنْ ذَلِكَ؟ كَلا...»

فَاللَّهُ يَفِيضُ نُورُ الْوُجُودِ مِنْ يَنْبُوعِ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَهُ لِحظَهِ بِلحظَهِ، وَ لَوْ تَوَقَّفَ هَذَا الْفَيْضُ لِحظَهِ وَاحِدَهُ لَتَوَقَّفَ كُلُّ شَيْءٍ، فَهَلْ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ أَمْ رَبُّنَا الْحَمِيدُ؟! مَاذَا نَسْتَاهُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ تَنْعَكِسَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَ سُلُوكِنَا؟

ص: ٤١

١-٢) التوحيد للصادق/ص (٣٣٩).

١/ لأنَّ اللَّهَ غُنِيَ حَمِيدٌ فَهُوَ يَفِي بِعِصْبَتِهِ عَلَى الْخَلِيقَةِ، إِلَّا إِذَا عَصَوْهُ وَغَيْرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ بِغَايَا وَظُلْمًا، وَهُنَالِكَ يَجَازِي الظَّالِمِينَ جَزَاءً وَافِيَا، وَلَا يَتَحَمَّلُ أَحَدٌ ثُقلَ الجَرِيمَةِ عَنْ أَحَدٍ، فَلَا يَنْفَعُ إِلَقاءُ الْمَسْؤُلِيَّةِ عَلَى الْآخَرِينَ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ.

٢/ إنَّ مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ يَجَازِيَ اللَّهَ فَهُوَ إِذَا يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ.

[١٨] وَ لَا تَزِرُّ وَازِرٌ وِزْرًا أُخْرَى الْوَزَرَ: الْحَمْلُ الشَّقِيلُ، وَ الْوَزَارَةُ: النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي حَمَلَتِ ثَقْلًا.

وَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّهُ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ ذَنْبَ نَفْسٍ أُخْرَى. لِمَاذَا؟ لِأَنَّ تَلْكَ النَّفْسَ لَهَا ثَقْلًا وَ حَمْلَهَا، فَلَا تَسْتَطِعُ أَنْ تَتَحَمَّلَ حَمْلَ نَفْسِهِ.

وَ إِنْ تَدْعُ مُتَّهِمَهُ إِلَى حِيلَاهُ لَا يُحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَاقُورِيًّا وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْ لِسَانِ الْكَافِرِينَ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَبِعُو سَيِّلَنَا وَ لَنْ تَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (١).

إِنَّكَ إِنْ تَدْعُ إِنْسَانًا مَا أَنْ يَحْمِلَ عَنْكَ مَسْؤُلِيَّتَكَ، فَلَنْ يَحْمِلَ مِنْهَا شَيْئًا، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَأْتِي وَ هُوَ يَحْمِلُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ، وَ يَجِدُ أَنْ يَتَحَدِّي الْضَّعْوَطَ وَ الْأَهْوَاءَ.

إِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ عُمْرِكَ وَ شَبَابِكَ، وَ يَقْظَتِكَ وَ نُومِكَ، وَ سَعِيكَ وَ خَمْوَلِكَ، وَ إِيمَانِكَ وَ كُفْرِكَ، فَعَلِينَا أَنْ نَعْقِدَ الْعَزْمَ عَلَى حَمْلِ مَسْؤُلِيَّاتِنَا بِقَوْهٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا الْيَقِينُ.

وَ لَكُنْ كَيْفَ نَفْهُمُ هَذِهِ الْحَقْيَقَةَ الْكَبِيرَ؟ بِمَا يَلِي:

١-نَخْشِيُّ رَبِّنَا بِالْغَيْبِ.

إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَأَنَّا مَا دَمْنَا لَا نَؤْمِنُ بِالْغَيْبِ فَلَنْ نَفْهُمُ الْحَقَّاَقَ.

٢-نَقِيمُ الصَّلَاةَ.

وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ٣-نَزَّكَّيْ أَنفُسَنَا.

وَ مَنْ تَرَكَ كَيْفَ إِنَّمَا يَتَرَكُ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمُصِيرُ فَإِذَا آمَنَتْ بِالْغَيْبِ، وَ أَقْمَتَ الصَّلَاةَ، وَ رَبِّتْ نَفْسَكَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الْمُسْتَفِيدُ.

[٢٢-١٩] فِي الدُّنْيَا نَرِي النَّاسَ بَعْنَ اَنْ وَاحِدَهُ، مَنْ يَتَرَكَّيْ وَ مَنْ لَا-يَتَرَكَّيْ، وَ مَنْ قَامَ اللَّيلَ وَ مَنْ نَامَ، إِنَّكَ تَرَاهُمْ سَوَاءً، وَ لَكُنْهُمْ يَخْتَلِفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وَ الْقُرْآنُ يُؤَكِّدُ لَنَا هَذِهِ الْحَقْيَقَةَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِّنَ الْقُرْآنِ، فَالَّذِي زَوَّدَ اللَّهَ بِالْبَصِيرَةِ، وَ أَصْبَحَ يَرِي الْحَقَّاَقَ بِهَدِيِّ الرَّبِّ، يَخْتَلِفُ عَمَّنْ هُوَ أَعْمَى، قَدْ تَرَكَ بَصِيرَتَهُ لِهُوَاهُ، وَ هَدَى اللَّهُ لِضَلَالِهِ إِبْلِيسُ.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ فَالَّذِي انتَفَعَ بِنُورِ عَقْلِهِ يَعِيشُ فِي ضِيَاءِ الْوَحْىِ، أَوْ لَيْسَ شَرْطَ الرُّؤْيَةِ وَجُودَ بَصَرٍ عِنْدِ الْإِنْسَانِ وَوِجْدَانِهِ؟ كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مَزْوَدٌ بِنُورِ الْعُقْلِ، وَيَعِيشُ فِي عَالَمِ النُّورِ نُورَ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، بَيْنَمَا الْآخَرُ تَلَفَّهُ ظَلَمَاتُ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَلَاَ الظُّلْمَاتُ وَلَاَ النُّورُ وَالَّذِي يَعِيشُ فِي النُّورِ بِصِيرَاتِهِ تَطْمِئِنَّ نَفْسَهُ، وَيَقِيهُ اللَّهُ مِنَ الْكَوَافِرِ وَالْمَصَابِ، فَهُوَ فِي ظَلَّ اللَّهِ يَنْعَمُ بِالسَّلَامِ، بَيْنَمَا الْآخَرُ يَلْفَحُهُ الْحَرُورُ وَهُوَ الْحَرُ الشَّدِيدُ.

وَلَاَ الظُّلْلُ وَلَاَ الْحَرُورُ وَالْمُؤْمِنُ حَىٰ لَأَنَّهُ يَسْتَفِدُ مِنَ الْإِنْذَارِ فَيَجْتَنِبُ الْمَخَاطِرِ، بَيْنَمَا الْكَافِرُ مَيْتٌ لَا يَتَفَاعَلُ مَعَ مَحِيطِهِ.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْلَيَاءُ وَلَاَ الْأَمْوَالُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ الْقَلْبُ الْحَىٰ يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ.

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنْ فِي الْقُبُوْرِ أَمَا الْقَلْبُ الْمَيْتُ الَّذِي تَرَكَمْتَ عَلَيْهِ الْآثَامُ، وَاخْتَفَى فِي قَبْرِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِعُ أَنْ تَسْمَعَهُ.

[٢٣] إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ لِأَنَّ هَدْفَ الرِّسَالَةِ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنَ الْإِنْذَارِ، أَمَا أَنْ تَسْمَعَ لِهَذَا الْإِنْذَارِ أَوْ لَا تَسْمَعُ

فتلك مسئوليتك.

لا تنتظر أن يجبرك أحد على الإيمان، بل أنت الذي يجب أن تسعى نحو الهدى.

ص: ٤٥

اشاره

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يَكُذُّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبُيُّنَاتِ وَبِالْأَزْبَرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ فَكَانَ نَكِيرٌ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَاهُ بِهِ شَرَاثٍ مُخْتَلِفًا لَوْاْنَاهَا وَمِنَ الْجَبَالِ حَيْدَدٌ يِضْ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفُ الْأَلوَانِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابَ وَالْأَنْعَامَ مُخْتَلِفُ الْأَلوَانُهُ كَذِيلَكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَا هُمْ سِرَّاً وَعَلَيْهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لَوْفِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا يَبَيِّنُ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَحَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ إِصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)

اللغه

[٢٧] [جدد بيض و حمر]: مفرداتها جده كغرف و غرفت، و المراد بها الطرق.

[و غرابيب سود]: الغريب الشديد السود الذى يشبه لون و سمي الغراب غرابا لشدة سواده.

هدى من الآيات:

إرسال الرسل، و تكذيب الكفار بهم، و نزول العذاب عليهم بسبب التكذيب، هي من سنن الله في الخليقة، فالرغم من أن هذه السنن قد لا تبدو واضحة وضوح سائر السنن و الأنظمه إلا أنها لا تشذ عن سائر السنن في تكرارها على ذات النسق، فمن السنن ما تقع يوميا، ومنها ما تقع كل قرن مره مثلا، و منها ما تقع عند حوادث معينة.

فالرسالة من تلك السنن، إذ يرسل الله رسولا بين فتره و أخرى حسب حاجه البشر.

و مع هذه السنن تتكرر حقيقه تاريخيه حتى تكون سنه و هي: إن الرساله الجديده تصطدم بعقبات نفسيه و اجتماعيه من القوم الذين أرسل الرسول إليهم، ففراهم يرفضونها سريعا.

أَمّا السِّنَةُ الْآخِرَى فَهُىَ أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَالَفُوهَا، فَيُبَعَّثُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يَبْيَدُهُمْ عَنْ بَكْرَهِ أَبِيهِمْ.

هذه فكره تدور حولها آيات هذا الدرس، وَأَمَّا الْفَكْرَهُ الثَّانِيَهُ فَهُىَ إِنَّ الْعِلْمَ الْحَقَّ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ الْحَقَّ.

بيانات من الآيات:

[٢٤]ليس غريباً أن يبعث الرسول بالحق، لأن الله إنما خلق أساس الكون بالحق، فالسنن والأنظمه الطبيعية حق، والحالات المتغيرة التي تخضع لهذه الأنظمة حق أيضاً، وشهوات الإنسان وعقله حق، وأرسل رب رسوله بالحق ليكشف الحق ويهدي إليه، فهي رسالة تتكيف مع الإنسان والطبيعة، وتجري على ذات النهج.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَفَهَا نَذِيرٌ هَذِهِ سِنَهُ، لَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ أُمَّهٗ إِلَّا وَ لَهَا نَذِيرٌ، يَبْعَثُهُ فِي أُمَّهٗ.

[٢٥] وَ من الحقائق التي تكاد تكون سنه، تكذيب الأمم لرسلهم.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ هِيَ الشَّوَاهِدُ وَ الْحَجَجُ الَّتِي لَا رِيبَ فِيهَا لِشَدِّهِ وَضُوْحِهَا.

وَ بِالْزُّبُرِ وَ هِيَ الْكِتَبُ الْمُتَزَلَّهُ عَلَى الرُّسُلِ الْمُحْتَوِيَهُ عَلَى مَجْمُوعَهُ الْمَعْارِفِ الْالْهِيَهُ، الْهَدِيَ وَ الْبَيِّنَاتُ وَ الْمَفَصَّلَاتُ.

وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ أَيِّ الْبَصَائِرِ وَ لَعْلَ فِرْقَهُ مَعَ الزَّبَرِ أَنَّهُ خَصُوصُ الْبَيْنَاتِ الْمُحْكَمَاتِ مِنَ الْكِتَابِ، بَيْنَمَا الزَّبَرُ هِيَ الْمُتَشَابِهَاتُ وَ الْمُجَمَّلَاتُ.

وَ مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ أَرْسَلُوا بِهَذِهِ الرَّسَالَاتِ الْثَّلَاثَ، مَعَ ذَلِكَ كَذَبُهُمُ الْأَمْمَ.

فَإِذْنُ يَا مَنْ تَبَلَّغُونَ رَسَالَاتِ اللَّهِ إِلَّا تَسْتَوْحِشُوا مِنْ تَكْذِيبِ النَّاسِ، إِنَّ تَكْذِيبَهُمْ عَادَهُ جَرْتُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلُوا رَسَالَتَكُمْ، فَلَا بَدْ أَنْ تَعْرُفُوا أَنَّ مَا سِيَّجْرِيَ عَلَيْكُمْ هُوَ أَنْ يَكْذِبَكُمْ قَوْمُكُمْ كَمَا كَذَبَ الْأَوَّلُونَ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ سِيَظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، طَوْعاً أَوْ كَرْهَا.

[٢٦] ثُمَّ أَخْذَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ وَ هَذِهِ سَنَةٌ أَيْضًا.

وَ نَكِيرُ اللَّهُ لَهُمْ: أَيِّ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَسْتَأْصِلُهُمْ بِهِ أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِتَارِيَخِهِمْ، وَ يَعْرُفُونَ شَدَّهُ إِنْكَارِ اللَّهِ لِمَنْهَاجِهِمْ فِي التَّكْذِيبِ؟!
[٢٧] مِنْ أَبْرَزِ مَا يُشَيرُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ، وَ يَجْعَلُهُ يَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الْحَقَائِقِ، الْاِخْتِلَافَاتِ الَّتِي تَبْرُزُ فِي الطَّبِيعَةِ مَا يَزِيدُنَا وَ عِيَا بِتَدْبِيرِ اللَّهِ، وَ اسْتَوْا إِلَيْهِ عَلَى عَرْشِ الْقَدْرَةِ، لِأَنَّ إِدَارَهُ الْأَمْوَارِ الْمُخْتَلَفَهُ الَّتِي يَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِأَدَاءِ وَظِيفَهُ مَعِينَهُ، وَ التَّنْسِيقُ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَمْوَارِ أَكْبَرُ شَهَادَهُ عَلَى الْخَبَرَهُ وَ الْقَدْرَهُ.

وَ يَبْدُو أَنَّ السِّيَاقَ هُنَا يَذَّكَّرُنَا بِهَذِهِ الْاِخْتِلَافِ ثُمَّ يَبْيَّنُ بِأَنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبِّهِمْ هُمُ الْعُلَمَاءُ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاهِيَّةً

ماء المطر واحد إلا أن الله ينبت به ثمرات مختلفاً لوانها.

فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا اللون هو الجانب الظاهر من الاختلاف، و لكنه يعكس جوانب أخرى هي:

الاختلاف في الطعم، واللون، والفائدة، و رغبات الناس إليها.

و نترك الحقول و السهول فنصل إلى الجبال، فيقول الله فيها:

وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ يَضْعُفُونَ الْجَدَدَ مِنَ الْجَادَةِ، وَ هِيَ الْخَطَهُ أَوِ الْطَّرِيقُهُ.

وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفُ أَلْوَانُهَا وَ عَرَابِيْبُ سُودٌ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَ الْأَيْضِ ألوان تتفاوت من جبل إلى آخر، بل حتى في الجبل الواحد تختلف الألوان أعلىه عن أسفله عن جوانبه.

و هذه الآية ربما تدل على طبقات الأرض التي تتجلّى في الجبال.

و غريب: الشديد السوداء، و منه سمى الغراب لسوداته.

[٢٨] وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَمَا الْجِبَالُ وَ اخْتِلَافُ أَلْوَانِهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَهِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَ الْحَيْوَانِ، فَالْإِنْسَانُ تتفاوت ألوانه بشكل واضح و جلي، و كذا الحيوان فالماعز مثلاً تتفاوت ألوانه من الأسود إلى الأبيض.

كَذَلِكَ

هذا الاختلاف يدل على الدقة و الحكم، فربك الذى يخلق الحيوان بشكل مختلف جعل فيه أجهزه تتكيف و اختلافها، فإنك إذ ترى الهره ترى كل شئ ينسجم مع تركيبها، فيخلق فى عين الهره جهازا يكبر و يصغر حسب النور و الظلام، فترى بؤبؤه عينها تصبح مستديرة صباحا، الى أن تتحول شيئا فشيئا الى شكل هلال الى شكل خيط يشع نورا في الظلام، حتى أنك تستطيع أن تعرف الوقت من عين الهره.

إن الذى خلق بؤبؤه الهره خلق جهازا في رأس النعامه لينظم ضغط الدم فيه، إذ أنها لو عدلت هذا الجهاز لانفجر دماغها حالما تنكسه الى أسفل إذ يصل الضغط في دماغها آنئذ إلى ثلثمائة درجة، ولكن وجود هذا الجهاز يكيف الضغط فيه، فكلما نكست رأسها كلما خف الضغط بسبب هذا الجهاز الدقيق حتى يبقى الضغط على دماغها بدرجة واحدة سواء كان رأسها أعلى عن الأرض بستة أمتار أو كان فوق التراب مباشره.

و هكذا فإننا لو تعمقنا في الخليقه لعرفنا وحده التدبير في اختلاف الصنع، ولكن من الذى يفهم هذه الحقيقه حتى يعرف ربه فيخشأه، إنهم العلماء.

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْخَشِيهِ هِيَ مِيرَاثُ الْعِلْمِ،

جاء في الحديث:

عن أبي عبد الله - عليه السلام :-

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وَجَلَّ -يقول الله- عَزَّ وَ جَلَّ:

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (١).

ص: ٥٢

١- (١) تفسير نور الثقلين / ج (٤) ص (٣٥٩).

و في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال :

«...و حسبك من العلم أَن تَخْشِيَ اللَّهَ» (١) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ عزيز بقدرته،غفور للجاهلين.

[٢٩] أو استطراداً للحديث عن العلماء يتحدث الله عمن هو العالم؟ العالم له صفات أربع هي:

١- إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ أَئِ يَسْتَوِحُونَ علهم من كتاب الله،أو يمنهجهونه حسب كتاب الله.

٢- وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أَيْ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بحدودها و مواقيتها،بحيث تنهى عن الفحشاء و المنكر.

٣- وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وَ عَلَاتِيهِ سَرَّاً لأنه بعيد عن الرياء و الجبت،و علانيه لأنه تحد للطاغوت،فهم يتحدون بالإنفاق جبت أنفسهم و طاغوت زمانهم.

ولكل شيء إنفاق و زكاه،فرakah العلم نشره،و زكاه الجاه بذله،و زكاه المال العطاء.

ص: ٥٣

١- (٤٨) / ص (٢) / ج (٢) / بحار الأنوار.

٤- يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ يرجون من الله فكاك رقابهم من النار، و هل تبور تجاره أحد مع الله العزيز الغفور؟ و نستوحى من مجمل الآيات في هذا السياق خصوصا من هذه الآية و التي سبقت في بيان عاقبه المكر و انه يقول الى البار» وَمَكْرٌ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ «نستوحى: أن على الإنسان أن يختار الطريق السليم في بلوغ أهدافه المشروع حتى ينجح(لأن إلى الله يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه) أما الذين يختارون الطرق الملتويه، و يريدون بلوغ أهدافهم بالمكر و الحيلة فإن سعيهم يضيع، و عاقبتهم البار.

و لعل السياق يعالج وسوسا شيطانيا حيث يدعو البشر أبدا الى اختيار الطريق الأسهل و الأقرب الى الكسب حتى و لو كان على حساب القيم أو حقوق الآخرين، و يوحى الى الإنسان أن العمل الصالح لا ينفع أو أن نفعه قليل، بينما يؤكّد القرآن على أن الله يبارك في العمل الصالح و التيه الصادقة.

[٣٠] لَيَوْفِيهِمْ أَجُورَهُمْ كامله، بل:

وَيَرِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ غفور يغفر زلاتهم، و شكور لما قدموه من عمل يرجون به وجه الله، عارفين أنه يعوضهم خيرا مما أنفقوا حيث يدخلهم الجنة دار ضيافته.

[٣١] من صفات المؤمنين التصديق بكل الكتب.

وَ الَّذِي أُوحِيَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَخْرَى.

إِنَّ اللَّهَ يُعَبَّادُ لَخَيْرٍ بَصِيرٌ [٣٢] وَ لَكُنْ هُنَاكَ أَجِيالٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَسْمُونُ بِعُلَمَاءِ الْوَرَاثَةِ وَ لَيْسُ عُلَمَاءَ التَّجْرِبَةِ وَ الْمَعَانَةِ.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا مِنْهُمْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ الرَّبُّ لِحَمْلِ كِتَابِهِ؟ يَبْدُو مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُمْ الْعُلَمَاءُ، وَ لِذَلِكَ

جاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ :

«الْعُلَمَاءُ وَرَثُوا الْأَنْبِيَاءَ» فَإِذَا: الْمُصْطَفَوْنَ طَبَقُوا الْعُلَمَاءَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَالْاِصْطَفَاءُ هُنَّا لَيْسُ شَخْصِيَا حَتَّى يُشَبِّهَ اجْبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَئِمَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِلَّا بِتَحمِيلِ الرِّسَالَهِ لِأَئِمَّهِ مِنَ النَّاسِ لِمَجْمَلِ الْخَصَالِ الَّتِي فِيهِمْ وَلِمَكَانِ وَجْهِ الْسَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ أَئِمَّهُ الْهَدِيَّ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

جاءَ فِي الْأَثْرِ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-:

«الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُ حَقَّ الْإِمَامِ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ لَا يَعْرِفُ حَقَّ الْإِمَامِ، وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ هُوَ الْإِمَامُ، وَهُؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَغْفُورُ لَهُمْ» [\(١\)](#)

ص: ٥٥

١ - [\(٣\)](#) نور الثقلين / ج (٤) ص (٣٦٥).

و نعرف من ذلك أنّ الظالم هنا مغفور له لأنّ ظلم نفسه لا يبلغ درجه دعوه الناس إلى الضلال، بل فيه ما في الناس من زلات يظهرها بحسنته، و هو ظالم لنفسه إذا قيس بالمقتصد، و السابق بالخيرات هو من عرف واجبه باعتباره وارث علم الكتاب،

و قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال -بعد أن سئل عن الآية و عن معنى الظالم لنفسه فيها:-

«من استوت حسناته و سيئاته ممّا -أهل البيت- فهو الظالم لنفسه، فقلت:

ال المقتصد منكم؟ قال: العابد لله في الحالين حتى يأتيه اليقين فقلت: فمن السابق منكم بالخيرات؟ قال: من دعا -و الله -إلى سبيل ربه، و أمر بالمعروف، و نهى عن المنكر، و لم يكن للمضلين عضدا، و لا للخائنين خصيما، و لم يرض بحكم الفاسقين، الا من خاف على نفسه و دينه و لم يجد أعزانا» [\(١\)](#) و نستوحى من هذا النص: أنّ لذرية رسول الله (ص) المصطفين للقياده مسئوليات أكبر، فالظالم نفسه منهم هو الذي تستوي حسناته و سيئاته، و لا يدعوا إلى ضلال كما

جاء في حديث آخر :

«الظالم لنفسه الذي لا يدع الناس إلى ضلال و لا هدى» و لعل في كلامه «لنفسه» شهادة على ظلم لا يتجاوز نفسه إلى الآخرين.

أما الشاهد على أنّ الآية تعنى مثل هؤلاء فهو الآية التالية التي تدل على أنّ جميع هؤلاء في الجنة... هكذا استدل الإمام الرضا -عليه السلام -للأمّون العباسي حينما سأله عن الآية. لنستمع إلى تحاورهما:

حضر الرضا عليه السلام مجلس المؤمن بمرو -و قد اجتمع في مجلسه جماعه من علماء أهل

ص: ٥٦

العراق و خراسان- فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: «ثُمَّ أُورَثُنا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» فقال العلماء: أراد الله بذلك الأمة كلها، فقال المأمون: ما تقول يا أبو الحسن؟ فقال الرضا عليه السلام:

لا- أقول كما قالوا، ولكنني أقول: أراد الله عز وجل بذلك العترة الطاهره، فقال المأمون: و كيف عنى العترة من دون الأمة؟ فقال الرضا عليه السلام: إنه لو أراد الأمة ل كانت بأجمعها في الجنة، يقول الله عز وجل: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ آسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» الآيه، فصارت الوراثه للعترة الطاهره لا لغيرهم (١) فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ تساوت حسناته و سيئاته،

و في حديث مؤثر عن أبي الدرداء عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - في هذه الآية في مصير الظالم نفسه قال:

أمّا السابق فيدخل الجنـه بغير حساب، وأمّا المقتصـد فيحاسب حسابـاً يـسيرـاً، وأمّا الظـالم لنفسـه فيحبـس فـي المـقام ثـم يـدخل الجنـه، فـهم الـذـين «قـالـوا الـحـمـد لـلـه الـذـى أـذـهـب عـنـا الـحـزـن» (٢) و مـنـهـم مـقـتـصـد و هو الـذـى يـصوم نـهـارـه، و يـقوم لـيـلـه- كما جاء فـي الحديث السابق-.

و مـنـهـم سـابـق بـالـخـيـرـات يـإـذـن اللـهـ

ص: ٥٧

١- (٥) المصدر/ص (٣٦٥).

٢- (٦) المصدر/ص (٣٦٥).

و هو الإمام.

ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ السُّبْقُ بِالْخِيرَاتِ.

و هذا التفسير للأية يتناسب و السياق، و تؤيده أحاديث كثيرة عن النبي و أصحابه، حتى قال الشوكاني بعد ذكرها: و هذه الأحاديث يقوى بعضها ببعض، و يجب المصير إليها، و يدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، و يؤيدها ما

أخرجه الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن أسامة بن زيد «فمنهم ظالم لنفسه... الآية» قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:-

«كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكُلُّهُمْ فِي جَنَّةٍ» [\(١\)](#) و هناك تفسيران آخران:

أولهما: أن المراد بالظالم هو الكافر.

الثاني: أن المراد مجموع الأمة.

و هذا مخالف لاجتماعهم في الجنة مع أن بعضهم من أهل الكبائر و من وعد الله لهم بالنار.

ص: ٥٨

١-٧) تفسير فتح القدير المجلد/ج (٤)/ص (٣٥٢).

اشاره

جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسٍ هُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحْلَنَا دارَ الْمُقَامِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمْسُنا فِيهَا نَصْبٌ وَلَا يَمْسُنا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمْ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذِلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعْمَرْ كُمْ مَا يَتَدَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُمْ الَّذِيْرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصْيَرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِمَذَادِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَنْبُدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَنْبُدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ إِلَّا حَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوَنِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شَرِيكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنِهِ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنَّ أَمْسِكَهُمَا مِنْ أَحِيدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)

اللغه

[لغوب]: هو المشقه في طلب المعاش و نحو ذلك.

هدى من الآيات:

بين البشر وبين التحسيس بالآخره حجاب الغور، إذ يمنع هذا الحجاب من أن يضحي الإيمان بالآخره جزءاً من معادله البشر النفسيه.

و الإنسان يشعر في قراره نفسه بضروره التخلص من العذاب، وإيجاد حاله من الأمان و السلام المستقبلي لنفسه.

ولكن قد يرفع هذا الخطر بالعمل و السعي الجاد، وقد يرفع هذا الخطر بالتمني و الأحلام فيصنع لنفسه تعويضاً نفسياً عن الواقع، ولكن يزيل القرآن هذه التمتيات، ويعطينا صوره حقيقية عن ذلك اليوم الرهيب حين نقف أمام ربنا الجبار، وصور مشاهد الآخره حتى لكاننا نراها، ثم يضع الإنسان أمام وجدانه.

وفي هذه الآيات تذكره لعمر الإنسان في الحياة بأنه كان كافياً لامتحانه.

[٣٣] ما هو جزاء المصطفين من عباد الله الذين أورثوا الكتاب؟ جنات عيدين يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً ولباسهم فيها حريم يحلون بها، فلقد حرم الله عليهم الذهب والحرير في الدنيا، و عرضهم في الآخرة.

و قد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله(ص) :

إذا دخل المؤمن في منازله في الجنة، وضع على رأسه تاج الملك والكرامة، وألبس حلل الذهب والفضة، والياقوت والدر منظوما في الإكليل تحت التاج، وألبس سبعين حلها حرير بألوان مختلفه منسوجه بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر، و ذلك قوله: «يحلون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً ولباسهم فيها حريم» [٣٤] (١) وبالاضافه الى هذه النعم المادييه هناك نعم معنييه اخرى هي نعمه الأحساس بالرضى الذي يعبرون عنه بالحمد لله.

و قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ما هو الحزن؟ الحزن يتعدد بتنوع الظروف، فمن الحزن القلق والهم، كقوله تعالى لام

ص: ٦٢

١- (١) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٣٦٦).

موسى عليه السلام : « وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي »، و من الحزن الخوف من الفزع الأكبر، كقوله تعالى: « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَرَّعُ الْأَكْبَرُ »، و من الحزن القلق من الهزيمة، كقوله تعالى:

« وَ لَا تَهْنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ »...و الله يذهب كل ذلك عنهم، لأنهم قد حزنوا على ذنبهم في الدنيا،

و قد ورد في الحديث: « إِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا حَزِينٌ » أى قلق من ذنبه.

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ فالغفران يكون عند الذنب، و الشكر يكون للنعمه، فربنا سبحانه يغفر لهم ما أذنبوا، و يشكر لهم ما عملوا.

[٣٥] إِنَّ الَّذِي أَحَلَنَا دَارَ الْمُقَامَ مِنْ فَضْلِهِ أى الدار التي يستقر فيها الإنسان، و ربما تفيد هذه الآية معنى الخلود، لأن الدنيا ليست دار مقامه بل هي دار انتقال.

لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصْبٌ وَ لَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ جاء في تفسير علي بن إبراهيم: إن النصب هو العناء، و اللغوب هو الكسل و الضجر.

و في نهج البلاغه :

«...و أكرم أسماعهم من أن تسمع حسيس نار أبدا، و صان أجسادهم أن تلقى لغوبا و نصبا» [\(١\)](#)

ص: ٦٣

و قد شوّقنا النصوص الى دار ضيافه ربنا بيان جانب من نعمها،

فقد جاء في حديث مفصل عن رسول الله(ص) :

«فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبله و حولها و صفاوها يحجبنها، عليها سبعون حله منسوجه بالياقوت و اللؤلؤ و البرجد صبغن بمسك و عنبر، و على رأسها تاج الكرامة، و في رجلها نعلان من ذهب مكللان بالياقوت و اللؤلؤ شراكمها ياقوت أحمر، فإذا دنت من ولئ الله، و هم (ان) يقوم لها شوقا يقول له: يا ولئ الله ليس هذا يوم تعب ولا نصب، أنا لك وأنت لى »[\(١\)](#) هكذا يسقط التعب والنصب من الإنسان المؤمن حتى بمقدار القيام لاستقبال زوجته من الحور العين.

[٣٦] هذا عن الذين آمنوا فما هو جزاء الذين كفروا؟ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُفْضِي عَنْهُمْ فَيَمُوتُونَ جاء في النصوص انه في يوم القيامه يذبح الموت بين الجنه والنار في صوره شاه، فلا أهل الجنـه يموتون، ولا أهل النار، بل كلهم مخلدون، و أعظم عقاب يبقى أبدا.

إن قليله كثير، و ضعيفه شديد، فكيف بعذاب النار المتناهى شده و سعيراؤ؟! وقد جرت سنـه الله في عالمنـا اليوم أنـ الجسم يتكتـيف مع الصعوبـات، و أنـ لكلـ شيء أـجل وـحدـه، و كلـما اقتـرب من نهاـيته خـفـ، بـيدـ أنـ عـذـاب الله لاـ أـجلـ لهـ، فلاـ يـخفـ أـبداـ، وـ لاـ يـتكـيفـ الجـسمـ معـهـ، بلـ يـبقـيـ يـتأـلمـ معـهـ أـبداـ(نـعـوذـ بـالـلـهـ الـعـظـيمـ مـنـهـ).

ص: ٦٤

وَ لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذِلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَ هُنَّا يَذَكِّرُ السِّيَاقُ صَفَتَيْنِ لِجَهَنَّمِ، وَ يَقَابِلُهُمَا بِمِثْلِهِمَا لِلْجَنَّةِ:
الْأُولَى: الْخَلْوَةُ «لَا يُفْضِي عَلَيْهِمْ فَيُمُوتُوا» وَ الثَّانِيَةُ: الشَّدَّهُ «لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ» وَ قَدْ ذَكَرَ صَفَتَانِ مُقَابِلَتَانِ لِلْجَنَّةِ: الرَّاحَةُ، وَ الْخَلْوَةُ.

[٣٧] وَ لَأَنَّ الْعَذَابَ شَدِيدٌ وَ مُسْتَمِرٌ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْفَكُونَ يَحَاوِلُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ لِلنِّجَاهِ، فَتَرَاهُمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ يَطْلَبُونَ الْعُودَةَ إِلَى الدِّينِ لِيَعْمَلُوا صَالِحًا.

وَ هُمْ يَصْبِرُونَ طَرِحُونَ فِيهِمَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي الدِّينِ يَدْعُى أَنَّهُ يَعْمَلُ صَالِحًا، وَ لَكِنْ حِينَما يَوَاجِهُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ هُنَّاكَ يَعْرِفُ بِلٍ وَ يَعْتَرِفُ بِأَنَّ أَعْمَالَهُ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ.

إِنَّ هُؤُلَاءِ يَصْطَرِخُونَ، وَ الاصْطَرَاخُ أَعْظَمُ الصَّرَاخِ: أَنَّ أَخْرِجَنَا رَبِّنَا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، فَيَجِيئُهُمُ اللَّهُ:

أَوَ لَمْ نُعَمِّرْ كُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أَيْ عَمَرْنَاكُمْ فِي الدِّينِ بِقَدْرِ يَكْفِي لِلتَّذَكُّرِ، فَلَمْ تَتَذَكَّرُوا، وَ جَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَلَمْ تَتَذَكَّرُوا.

قد اختلفت أقوال المفسرين في النذير: هل هو الرسول والقرآن أم هو الشيب وموت الأقارب وتقادم السن أم هو كمال العقل والبلوغ.

وَ يَبْدُو أَنَّ الْكَلْمَهُ مَطْلَقَهُ، وَ تَوْحِي بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْذَرُ بِالْتَّالِي بِطَرْيِيقَهُ أَوْ بِأَخْرِي،

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَتُوفَّاهُ حَتَّىٰ يَكْتُمَ الْمِنَاءَ.

فَذُوقُوا فِيمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ لِمَا اخْتَلَفُوا فِي الْآجَالِ؟ فَبَعْضُهُمْ يَعِيشُ عَشْرِينَ عَامًا، وَبَعْضُهُمْ أَرْبَعينَ، وَبَعْضُهُمْ سِتِينَ...؟ الشاعر إقبال اللاهوري أجاب على ذلك وقال: إن اختلاف آجال الناس مرتبط بحكمه وجودهم في الدنيا، وهو تهيئة الإنسان للجنة، وكان الدنيا مدرسه، يدخلها الناس تمهيداً لدخول الجنة.

بعض الناس ينجحون من أول امتحان، وبعضهم لا ينجحون في الامتحان الأول فيدخلون الامتحان الثاني، وهذا فان اختلاف الناس في آجالهم هو بسبب مدى استعدادهم، وتقبلهم ونجاحهم وهذه النظرية جميلة إلا أنها لا توافق القرآن الكريم، لأن الدنيا كما هي مدرسة تهيئ المؤمنين لدخول الجنة، فهي في نفس الوقت مهوى يسقط الكفار منه إلى النار.

و في بصائر القرآن الدنيا دار ابتلاء فيه فقط قاعده امتحان و ليست مدرسه.

و لعل الآية هذه تشير إلى أن اختلاف الآجال يرتبط بهذه الكلمة (الابتلاء) فالدنيا فرصه للتذكرة، وكل شخص يعم بقدر التذكرة (حسب ظروفه، وبنية شخصيته) فإذا انتهت الفرصة فإن الحكمه الرئيسيه من بقائه تنتهي، بل هناك حكم آخر: كاستدراج الكفار ليزدادوا كفراً، وإطاله عمر المؤمنين ليزدادوا ثواباً، وكان يكون وجود شخص مفيداً لابتلاء الآخرين، والله العالم.

و اختلفت الروايات في تحديد العمر في قوله: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ» فقللت بعض

الروايات: إنها لذوى الثمانية عشر سنه، وفى روايه أخرى: إنها لذوى الأربعين سنه، وفى روايه ثالثه: أنها لذوى الستين.

و لعل ما قلناه آنفا فى اختلاف الناس فى التذكير يجمع بين النصوص.

[٣٨] إِنَّ اللَّهَ عَالَمٌ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ اللَّهَ عَالَمٌ غَيْبِكَ، وَيَعْلَمُ سَرَّكَ وَمَا يَكُونُ صَدْرَكَ، كَمَا هُوَ عَالَمُ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ لَيْسُ بِحاجَةٍ إِلَى امْتِحَانِكَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا هُوَ فِرْصَتُهُ يَعْطِيهَا اللَّهُ لَكَ تجْرِيبَ نَفْسِكَ، وَتَمْتَحِنَ إِرَادَتَكَ.

[٣٩] هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ أَيْ جَعَلَ بَعْضَكُمْ يَخْلُفُ بَعْضًا، وَلَعْلَ هَذِهِ الْآيَةِ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْمَ تَنْتَهِي، وَأَنَّ لَهَا آجَالًا كَمَا لِلنَّاسِ آجَالًا مُحَدَّدةً.

وَأَمَّا مَقْيَاسُ آجَالِ الْأَمْمِ وَالْمَجَمِعَاتِ فَهُوَ كَمَا قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ:

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفُرُهُ نَتِيجَهُ الْكُفُرُ عَلَى صَاحْبِهَا.

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتَأً يَغْضِبُهُمُ اللَّهُ وَيَمْقُتُهُمْ.

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفُرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا خَسَارًا خَسَارًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٤٠] يظل الشرك بالله الحجاب الكبير الذي يفصلنا عن ربنا، و يمنع عنا خيرات عباده الله وحده، و يذكر السياق بأن الشركاء لا يملكون حق العباده لأنهم لم يخلقوا شيئا من الأرض، و لا ساهموا في تدبير السموات، و لا أذن لهم رب الأرض و السماء بقياده الناس... فبأي حق يتسلطون على رقاب الناس، و لماذا يخضع لهم الناس؟ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤني ماذا خلقوا من الأرض حتى يتسلطوا باسمه على الناس.

أَمْ لَهُمْ شُرُكٌ فِي السَّمَاوَاتِ لَا نجَدْ قدرَتِهِمْ تتجلى فِي السَّمَاءِ، كَانَ يَدِيرُوا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَهُ مِنْهُ أَمْرَنَاكُمْ بِأَنْ تَتَبعُوهُمْ بِأَنْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ كِتَابًا يَأْمُرُكُمْ بِأَنْ تَتَبعُوهُمْ.

بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا فَإِنَّ مَشَكِّلَهُ الْإِنْسَانَ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنَ الْوَصْولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ حِجَابُ الْغُرُورِ وَالْتَّمَنِياتِ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَخْرُقَهُ حَتَّى يَتَقَرَّبَ إِلَىٰ رَبِّهِ.

و ربما توحى خاتمه الآية بأن الظالمين - الشركاء والتابعين - كل واحد منهم يضل الآخر، فالمضل يعد متبوعه بأنه سوف يحمل خطاياهم، وما هو بحامل من خطاياهم من شيء، والمضللون يعدون مضليهم بالولاء والانتصار لهم، فكل واحد

منهم يمْنَى الآخر، و ما هذه الأمنيات سوى الغرور بذاته، لأنَّه لا أحد ينفع أحداً يوم القيمة، و يتبرأ الذين اتَّبعوا من الذين اتَّبعوا.

[٤١] يحيط بأولئك الشركاء والمسرِّكون بهم الغرور، إذ لم يخلقا شيئاً من الأرض، ولم يكن لهم شرك في تدبير السموات، بينما الله الواحد استوى على عرش العلم والملك، و هو يمسك السموات والأرض لكي لا تزولا، و لا شيء قادر على المحافظة عليها لو تركها ربها.

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاً وَالسُّؤال: مَا هُوَ مَعْنَى الزَّوَالِ؟ ١- لا ريب أَنَّ النَّظَامَ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَى الْوُجُودِ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْظَمٍ، وَالْتَّدَبِيرِ بِحَاجَةٍ إِلَى مَدْبِرٍ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَدْبِرُ الَّذِي لَوْ تَرَكَهَا فَسَدَ النَّظَامُ، وَزَالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِفَسَادِهِ.

٢- و إذا تعمقنا قليلاً و عرفنا شيئاً من الفيزياء الحديثة، و كيف أنَّ نظام دوران الإلكترون حول محور البروتون -في مملكته الذرية العظيمه و المتناهيه في صغر الحجم- قائم على الحركة، حتى قالوا: إنَّ الحركة لو توقفت لتلاشى الوجود، عرفنا أنَّ (قيام) كلَّ شيء إنما هو بالله عبر أنوار قدسه التي يفيض بها كلَّ خير على الخلق.

وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَيَ كَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا يُسْمِحُ اللَّهُ لِلسمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالزَّوَالِ مَعَ كُثْرَةِ الْمُعَاصِيِّ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا العباد؟

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا لَا يَبْدُرُ بِإِنْزَالِ الْعَقُوبَةِ عَلَى الْعَصَاهِ، بَلْ يُؤْخِرُهُمْ لِأَجْلٍ مُسْمَىٰ، وَفِي آخِرِ آيَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تِبْيَانٌ لِذَلِكَ.

غَفُورًا يَعْفُوُ عَنِ كَثِيرٍ مِنِ السَّيِّئَاتِ فَلَا يَعْاقِبُ عَلَيْهَا أَبَدًا.

اشاره

وَأَفْسِمُوا بِاللَّهِ جَهَنَّمَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ يَكُونُنَّ أَهْدِي مِنْ إِحْدَى الْأُمُومِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) إِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمُكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُيَّسَتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنْنَتِ اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنْنَتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوْ لَمْ يَسْتَيْرُوا فِي الْأَرْضِ فَيُنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَائِبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)

هدى من الآيات:

بالرغم من أنّ كُفّار قريش و ملهم سائر الكُفّار كانوا بفطرتهم يعرفون مدى حاجتهم إلى الوحي، و يمنون أنفسهم بأن يكونوا أهداً من إحدى الأمم لو بعث فيهم نبىٌ مرسلاً، إِلَّا أنّهم حين منّ الله عليهم بنعمه الرسول كفروا به. لماذا؟ لأنّهم استكبروا في الأرض، و مكرروا مكرًا سيئًا.

و بعد أن ينذرهم ربّهم بأنّ المكر السيء لا يحيط بالتألي إِلَّا ب أصحابه، يذكّرهم بمصير الغابرين الذين جرت سنه الله فيهم بالدمار، و لا تبديل في سنن الله و لا تحويل، و يدعوهם للسير في الأرض لينظروا كيف فعل الله بالظالمين، و أين انتهى بهم استكبارهم و مكرهم السيء مع أنّهم كانوا أشدّ منهم قوه، و يتبعهم القرآن بأنّهم لا يستطيعون الفرار من حكمه الله، و أنّه لا يعجزه شيء بل هو العليم القدير.

و يختتم سورة فاطر بـأَنَّ اللَّهَ يمْهِلُ الظَّالِمِينَ إِلَى أَجْلٍ مُسَمًّى ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ، وَ لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ بِمَا فَعَلَ الظَّالِمُونَ!

بيانات من الآيات:

[٤٢] ضمير البشر أكبر شاهد على الحق و صدق رسالات الله التي نزلت بالحق، و كل إنسان يتمنى أن يكون صالحًا لو لا دواعي الفساد تضلّه.

وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدِي مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ لِعَلْ تَأْكِيدَ الْقَسْمِ بِ«جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» كَانَ تَعْبِيرًا عَنْ مَدِي رَسُوخِ فَطْرَهُ الإِيمَانَ فِي النُّفُوسِ، أَوْ أَنَّهُ يَعْبُرُ عَنْ مَدِي النِّفَاقِ الَّذِي كَانُوا يَعِيشُونَهُ، وَ إِنَّمَا أَقْسَمُوا لِتَغْطِيهِ مَا أَضْمَرُوهُ مِنَ الْمَكْرِ وَ الْإِسْتِكْبَارِ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا سَبَّحَنَهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: «وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمْرَتَهُمْ لَيُخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُعْصِمُوهُ طَاغِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (١)

و هذه السنة جاريه عند الناس اليوم أيضًا، فتراهم يقولون: إننا لا نمتلك قياده و إمام حق نتبعه، و عند ما يرسل الله إليهم الإمام الحق إذا هم يتملّصون من المسؤولية، و لا يتبعونه، كما الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملوكا نقاتل في سبيل الله فلما بعث الله إليهم طالوت ملكا، قالوا:

أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحْقَ بِالْمَلْكِ مِنْهُ، وَ لَمْ يُؤْتَ سَعْهُ مِنَ الْمَالِ.

و التعبير القرآني: «أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» ربما يعني: سنكون أهداً من تلك الأمة التي تعتبر أهداً أمة، و لم يقولوا: سنكون أهداً من سائر الأمم، مبالغه

ص: ٧٣

وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ الْخَطْطُ الْفَاسِدُ سُوفَ تَكُونُ لَهَا انعكاساتٌ عَلَى الْوَاقِعِ الاجتماعي، بِيدٍ أَنَّ أَثْرَهَا الأَبْلَغُ سِيِّكُونُ عَلَى صَانُوكُها.

وَ الْكَلْمَهُ هَذِهِ ذُرُوهُ مَا نَفَهُمْ مِنَ الْبَلَاغَهُ، إِذْ ذَكَرْنَا الرَّبَّ بِأَنَّ الْمَكْرَ السَّيِّئَ «يَحِيطُ» بِصَاحِبِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، وَ هَذَا أَبْلَغُ مِنَ القُولِ أَنَّهُ يَلْحِقُ بِهِ أَوْ يَصِيبُهُ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْمَكْرِ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْفَرَارِ مِنْ عَاقِبَهُ عَمَلِهِ، وَ لَكِنَّهُ يَحْقِيقُ بِهِ فَلَا يَقْدِرُ هُرُوبًا، ثُمَّ أَنَّ الْقُرْآنَ عَبَرَ «بِأَهْلِهِ» وَ لِعَلِ السَّبِبِ يَكْمِنُ فِي أَنَّ كُلَّ الْعَامِلِينَ مُكْرِرًا لَيْسُوا بِأَهْلِهِ، بَلْ بِعِصْمِهِمْ مِمَّنْ تَعْمَدُهُ وَ اتَّخِذُهُ سِيَلاً، ثُمَّ إِنَّ الْحَصْرَ يَفِيدُ أَنَّ الَّذِي يَمْكُرُ بِهِمْ يَنْجُونَ عَادِهِ مِنَ الْمَكْرِ عَلَى حِسَابِ أَهْلِهِ، وَ قَدْ قَالُوا: «مَنْ حَفَرَ بَئْرًا لِأَخِيهِ وَ قَعَ فِيهِ».

وَ كَيْفَ يَمْكُنُ أَنْ نَكْتُشِفَ هَذِهِ الْحَقِيقَهُ؟ يَقُولُ رَبِّنَا: انظروا إِلَى التَّارِيخِ، فَالْتَّارِيخُ يَحْكِي سِنَنَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَ لَا تَتَحَوَّلُ، وَ يَتَسَاءَلُ: هَلْ هُمْ يَنْتَظِرُونَ عَاقِبَهُمْ مِثْلَ عَاقِبَهُمْ؟! فَهُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا سُيَّنَتِ الْأُوَّلَيْنَ كَيْفَ أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا بِمَا كَسَبُوا، وَ كَيْفَ حَاقَ مَكْرُهُمْ بِهِمْ.

فَلَنْ تَجِدَ لِسُيَّنَتِ اللَّهِ تَبَدِّيلًا عَلَى مِنْعَصِورِهِ، السَّنَهُ هِيَ السَّنَهُ فِي الْغَابِرِ وَ الْحَاضِرِ، لَنْ تَتَبَدَّلُ، وَ لَنْ تَتَحَوَّلُ، بِأَنَّ يُسْتَطِعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْفِعَهَا عَنْ نَفْسِهِ إِلَى غَيْرِهِ.

و ربما يكون قولهم هذا ردًا على اليهود الذين كانوا يعترون المشركين، و يهدّدونهم بنبيٍ لهم يكسر أصنامهم، فعرضوا بهم و قالوا: لو جاءنا رسول سنكون أهدي منكم.

فَلَمَّا جَاءُهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادُهُمْ إِلَّا نُفُورًا أَى كَانُوا نَافِرِينَ مِنْ قَبْلِهِ، فَازْدَادُوا نُفُورًا عَلَى نُفُورِهِمْ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيهِ الْحَجَّةَ يَكُونُ عِنْدَهُ عَذْرٌ لِكُفْرِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» [\(١\)](#) وَعِنْدَ مَا تَأْتِيهِ الْحَجَّةَ تَرَاهُ يَكْفُرُ بِالْحَجَّةِ.

[٤٣] و مشكله هؤلاء أنهم استكبروا، تكريساً لأنانيتهم، و قالوا: أبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رسُولًا؟! ما له يأكل الطعام، و يمشي في الأسواق؟! إنه ليس رجالاً من القرىتين عظيماً في ماله، و إنه لو نؤمن به نتخلف من أرضنا، فاستكبروا في الأرض، بحثاً عن سلطه طاغيه، و ثروه عريضه، و شهره واسعه.

و لقد قلنا مراراً: ان التكبر و مظهره الاستكبار أخطر حاجب بين البشر و بين الإيمان بالحقائق.

إِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرُ السَّيِّئِ قال الرازى عن المكر السىء: إنَّه إضافه الجنس إلى نوعه، كما يقال علم الفقه و حرفة الحداده، و تحقيقه أن يقال: معناه و مكرها مكرا سيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام و أضيف إلى السىء لكون السوء فيه أبين الأمور. [\(٢\)](#).

ص: ٧٥

١- (٢) الإسراء / (١٥).

٢- (٣) التفسير الكبير عند تفسير الآية.

وَ لَنْ تَجِدَ لِسْنَتِ اللَّهِ تَحْوِي لَا [٤٤] وَ الدَّلِيلُ عَلَى عدم تبديل سَنَةِ اللَّهِ أَوْ تحويلاً تجارب التَّارِيخِ.

أَوْ لَمْ يَسْتَيْرُوا فِي الْأَرْضِ فَيُنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً كَوْمٌ عَادُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِمْ: «وَ لَقَدْ مَكَنَاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَكُمْ فِيهِ» [\(١\)](#).

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعِجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْمًا قَدِيرًا لَا يَحْدُدُ قَدْرَتَهُ الْمُطْلَقَهُ شَيْءٌ، إِنَّهُ كَانَ عَلَيْمًا بِمَا يَعْصِي، قَادِرًا عَلَى أَخْذِهِ أَخْذَهُ عَزِيزٌ مُقتَدِرٌ.

وَ لَكِنْ لِمَاذَا لَا يُؤَاخِذُ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ وَ هُمْ يَعْصُونَهُ لِلَّيْلِ نَهَار؟ الجواب:

أولاً: لأنَّ اللَّهَ عَفْوٌ غَفُورٌ، فَيَعْفُوُ عن كثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ.

ثانياً: لأنَّهُ حَلِيمٌ يَعْطِيهِمْ فَرَصَهُ بَعْدَ فَرَصَهٖ حتَّى إِذَا انْقَضَى أَجْلُهُمْ أَخْذَهُمْ بِظُلْمِهِمْ.

ص: ٧٦

١ - ٤) الأحقاف / (٢٦).

[٤٥] وَلَوْ يُواخِدُ اللَّهُ الْأَسَمَ بِمَا كَسَبَ يُبَا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لِكُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَيلٍ مُسَيَّمٍ يُؤَخِّرُ انتقامَهُ إِلَى أَجَلٍ مُكْتَوبٍ، لَا يُستَقدِّمُونَ عَنْهُ سَاعَهُ وَ لَا يُسْتَأْخِرُونَ.

فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا بصير بما يناسبهم من الجزاء: كيف وكم ومتى.

سورہ یس

اشارہ

۷۹: ص

فضل السورة:

ألفي كتاب ثواب الأعمال بأسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال :

«إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس، ومن قرأها قبل أن ينام أو في نهاره قبل أن يمسى كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسى، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكل الله به ألف ملك يحفظونه من شر كل شيطان رجيم ومن كل آفة، وإن مات في يومه أدخله الله الجنة، وحضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار، فإذا دخل في لحده كانوا في جوف قبره يعبدون الله وثواب عبادتهم له، وفسح له في قبره مدّ بصره، وأومن من ضغطه القبر، ولم يزل في قبره نور ساطع إلى عنان السماء إلى أن يخرجه الله من قبره، فإذا أخرجه لم يزل ملائكة الله يشيعونه ويحدّثونه ويضحكون في وجهه

و يبشر ونه بكل خير حتى يجوزونه على الصراط و الميزان و يوقفونه من الله موقفا لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلا ملائكة الله المقربون و أنبياؤه المرسلون، و هو مع النبئين واقف بين يدي الله، لا يحزن مع من يحزن ولا يهتم مع من يهتم ولا يجزع مع من يجزع، ثم يقول له الرب تبارك و تعالى: اشفع عبدي أشفعك في جميع ما تشفع، و سلني أعطوك عبدي جميع ما تسائل، فيسأل، فيعطي، و يشفع فيشفع و لا يحاسب و لا يوقف مع من يوقف، و لا ينزل مع من ينزل، و لا يكتب بخطئه و لا بشيء من سوء عمله، و يعطي كتابه منشورا حتى يهبط من عند الله، فيقول الناس بأجمعهم: سبحان الله ما كان لهذا العبد من خطئه واحدا أو يكون من رفقاء محمد^(١)

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله^(ص):

«من دخل المقابر فقرأ سوره يس خفف الله عنهم يومئذ، و كان له بعدد من فيها حسنات»^(٢)

ص: ٨٢

١- تفسير نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣٧٢).

٢- المصدر.

الاسم:

اتخذ اسم السوره من الكلمه الأولى فيها التي قالوا إنّها اسم لنبينا الأكرم محمد(ص)، و لعلها ترمز اليه كما ترمز اليه كلمه(طه) والله العالم.

الإطار العام:

بعد القسم بالشأن العظيم الذي هو للقرآن الحكيم، يخاطب ربنا سيد الخلق (يس) محمد(ص) بأنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، وأن الكتاب تنزيل من رب غفور رحيم، ويهدف إنذار قوم جاهلين بما أنذر آباءهم من قبل، ثم أضحت قلوب أكثرهم كالصخر لا تقبل الإيمان.رأيت الذي وضعت على عنقه الأغلال، حتى أصبح مقمحًا، مرفوع الرأس إلى الأعلى حتى لا يرى شيئاً؟ هل يقدر على النظر؟ أم الذي وضع سد منيع أمامه و خلفه، و حجبت بصره غشاوة فهل يبصر؟! كلاً... كذلك لا ينتفع هؤلاء بالإنذار، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا

فلمن القرآن إذ؟ إنما هو ينذر من يتبع الذكر، ويهتدى ويطيع آيات القرآن، ويخشى الرحمن بالغيب، وهذا يتوجب المهالك التي تنذر بها، ويسره الله بمحفظه لذنبه السابقه و هفواته، و باجر فيه الرزق و الكرامة، و يأتي كمال الجزاء في الآخرة، حيث يحيى الله الموتى، وقد كتب من قبل ما قدموا لحياتهم هناك و ما خلفوه وراءهم من آثار، وكل شيء قد أحصى في إمام مبين.

(و هذه الرساله جاءت على سنه رسالات الله السابقة) و يضرب القرآن مثلاً من أصحاب القرىه حين جاءها المرسلون، ثم يمضي في بيان شبهاتهم الواهية، ويردّها أولاً: على لسان الأنبياء، وثانياً: على لسان واحد من هداهم الله للإيمان، ودخله جنته فقال: يا ليت قومي يعلمون، و أهلك الله قومه من بعده بصيحه، و تحسّر على العباد الذين لا يبعث إليهم رسول إلا - كانوا به يستهزءون، دون أن يعتبروا بمصير السابقين الذين سوف يحضرهم الله وإياهم لديه.

و يذكرنا القرآن بأيات الله لعلنا نهتدي إليه و نتبع رسالته: فمن الأرض الميتة التي يحييها (بالغيث) و يخرج منها حباً ف منه يأكلون، إلى الجنات ذات الثمرات المختلفة، إلى الليل و النهار و الشمس التي تجري لمستقر لها، إلى القمر الذي يجري في منازله حتى يعود كالرجون القديم، إلى التدبير اللطيف للشمس و القمر، إلى وسائل النقل من سفن و أنعام البر.

و يذكرنا بأنه يحفظهم من غضب الأمواج برحمته و حتى يقضوا آجالهم، و ترى أنَّ رب الرحيم يريد لهم الخيرات أيضاً حين يأمرهم بالتقى (ليحفظهم من عاقب

الذب) ولنهم يعرضون بالرغم من تواتر الآيات، و تراهم يبررون بخلهم بأنه كيف نفق على من لو شاء الله أطعهه(مما عكس فكرهم و قيمهم المادية) و يتساءلون باستهزاء: متى هذا الوعد بالجزاء(لماذا يتأخر) ان كنتم صادقين؟! (بلى إله آت و ماذا يتظرون و ماذا يستعجلون) ما ينتظرون إلا صيحه واحده تأخذهم و هم سادرون في بحر الجدل العقيم، و هنالك لا يسمح لهم الوقت بالتوصيه، ولا - هم يعودون الى أهلهم مره ثانية(و يبقون في عالم البرزخ حتى يوم النشور) فإذا نفح في الصور فإذا هم يخرجون من القبور، و يتوجهون الى ربهم (و بدل التساؤل المشوب بالسخرية تراهم) يقولون: يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا؟ (إله المقتدر فيعرفون و يقولون: هذ ما وعد الرحمن(من النشور) و صدق المرسلون(حين أندروا بذلك اليوم الرحيب) و هنالك الحكم العدل الذي يشمل كل الحاضرين(و يصور السياق بعض مشاهد الجزاء) فأصحاب الجنه في شغل فاكهون، بينما يمتاز المجرمون الى النار، و يحاكمون الرب عبيده قائلاً: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟! هو عدوكم، و صراطه منحرف عن الصراط الإلهي المستقيم، و إنه قد أضل كثيرا منهم و أوردهم النار، فلا اعتبرتم بمصيرهم؟! و اليوم أدخلوا جهنم تلك التي وعدتم إياها، و بعد أن يصور لنا جانبا من عذاب جهنم يقول: و لو كنا نريد لجزيناهم في الدنيا، فطممسنا على أعينهم و مسخناهم (و فعل يفعل الله ببعضهم فلا يقدرون منعه) فمن يطول عمره ينكسه في الخلق.أ فلا تعلقون(إنه قادر على أن يصيدهم بمثل ذلك).

و يعطف القرآن الحديث عن الآخره-بعد أن خشعت النفوس الطيبة بتصوير مشاهد منها-يعطفه إلى رد شبهاهاتهم حول الرسول فيقول: و ما علمناه الشعر(و لا يتناسب حديثه و الشعر أبدا) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ ، و يهدف إنذار من يملك قلبا حيا، أما بالنسبة إلى غيرهم فلكي يتم الحجه عليهم (و يذكرنا السياق بالتوحيد

الذى هو أساس كل عقيدة صالحه، فمن آمن بالله حقا لم يطع الشركاء المohoمين، بل أطاع الرسول الذى أمر الله بطاعته فقط) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا أَتَعْلَمُ (ثم خولناهم التصرف فيها، وجعلناها ذلولاً يسخرونها) فَهُمْ لَهَا مَا لَكُونَ؟! (و بعد ذكر نعم الله يوجههم إلى الشكر الذى من أبرز معانى الإيمان بالله و طاعه رسوله و لكنهم أشركوا) و اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَّهَ (و هم يريدون جبر نقصهم بها) لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (و الواقع أن العكس هو الصحيح) و الآلهة لا يستطيعون نصرهم بل إن المشركون لهم جند محضرون.

(و يخاطب السياق الرسول ليثبت فؤاده و لينذر الكفار) و يقول: لا يحزنك ما يقولون لك. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سرَّهُمْ و عَلَنَّهُمْ.

(و يعود السياق إلى الإيمان بالأخره، و كيف يكفر بها هذا الإنسان الذى أسيغ رب عليه النعم، و يخاصم فيها بكل صلافيه) أَفَلَا يَرَى إِنَّهُ مُخْلوقٌ مِنْ نَطْفَةٍ (إِنَّمَا يَعْلَمُ مَنْ يَعْلَمُ) فإذا به يصبح خصيماً لله؟! (يُتَقْلِّبُ فِي نَعْمَ اللَّهِ وَ يَجَادِلُ فِي آيَاتِهِ) و يضرب مثلاً (فَيَأْخُذُ عَظِيمًا يَفْتَهُ وَ يَقُولُ: مَنْ يُحْكِمُ الْعِظَامَ وَ هَىَ رَمِيمٌ؟! قُلْ:

يُحْكِمُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (فيعلم أين ذهب ذرأت جسد هذا الشخص أو ذاك) و هو الذى جعل من الشجر الأخضر نارا لكم توقدون عليها (مع أن النار باطنها فيها) و هو الذى خلق السموات والأرض فهل يعجزه إرجاع البشر؟! كلاماً...) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَشَيْءٌ بِحَانَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (و تعالى عما يصفه الجاهلون بالنقص و العجز، كلاماً... هو العلي المقتدر على بعث الإنسان) و إليه ترجعون.

و كلامهأخيره:

لقد ذكرت النصوص: أن (يس) قلب القرآن، و هي -بحق سخرة السور

المكيه التي جاءت فيها حقائق الرساله بصوره مركزه، مما يجعلها ركيزه الحياة للإنسان المسلم، لأنّها حوت خلاصه دروس الحياة، و حكمه المرسلين، و متطلبات الحضاره.

ص: ٨٧

[سورة يس (٣٦): الآيات ١١ إلى ١٢]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يس (١) وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَىٰ أَذْقَانِهِمْ مُمْكَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِيدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سِيدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَسِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَخْرِ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

اللغة

٨ مُمْكَحُونَ: من قمح بمعنى رفع رأسه إلى فوق، فإن الأغلال لما امتدت إلى تحت أذقانهم رفعت رؤوسهم إلى السماء حتى لا يتمكّنون من النظر أمامهم.

[فَأَغْشَيْنَاهُم]: جعلنا على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن الإبصار.

هدى من الآيات:

يقسم السياق-في البدء-بما يستدل به على صدق رساله النبى (ص) و أنه من لدن رب عزيز رحيم، يقسم بالقرآن الحكيم الذى هو الدليل الأظهر على رسالات الله، ثم بعده ذى بين ملامح المجتمع الجاهلى الذى جاء الكتاب لإصلاحه. إنه الاعرق فى الكفر حيث أن أكثرهم محكوم عليهم بعدم الإيمان (عنادهم) وقد جعلت الأغلال فى أعناقهم فهى الى الأذقان، و جعلوا بين السدين من أمامهم و من خلفهم، و حجبت أعينهم بالعشاوه، فهم لا يؤمنون بك سواء أئذرتهم أم لم تنذرهم.أو ليس شرط الاستجابه حاله الخشوع فى القلب؟ و لكن دعهم فسوف يحيى الله الموتى، و قد سجلت عليهم أعمالهم، و كل شىء أحصاه ربنا فى إمام مبين.

(و لعل ذكر هذه الحقيقة يهدف بيان دور البشر فى الهدایة، و أنها ليست كرها عليه، بل الله يصل أقواما عاندوا و جحدوا أو غفلوا عن الذكر).

باسم الله، بذلك النور القدسى، الذى خلقه الله خلقا، ثم خلق الأشياء به، برحمته التى وسعت كل شيء، وبرحمته التى لم تزل ولا تزال نزدلف الى سوره يس المباركه.

[١] إن القرآن معجزه البلاغه، فهذا الكتاب الحكيم تركيب من هذه الأحرف التي لعلها تشير اليه، وهي في ذات الوقت رموز بين الله و أوليائه المقربين.

يس و قد ذكرت النصوص أنها اسم من أسماء النبي(ص)

فقد روى عن الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام في حوار بينه وبين الخليفة العباسى المأمون أنه قال:

أخبروني عن قول الله تعالى: «يس وَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فمن عنى بقوله(يس)? قالت العلامة: يس محمد(ص) لم يشك فيه أحد.

قال أبو الحسن: فإن الله تعالى أعطى محمدا و آل محمد من ذلك فضلا لا يبلغ أحد كنه وصفه إلا من عقله، و ذلك أن الله عز و جل لم يسلم على أحد إلا على الأنبياء (صلوات الله عليهم) فقال تبارك و تعالى: «سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمَيْنَ» و قال: «سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» و قال: «سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَى وَ هَارُونَ» و لم يقل:

سلام على آل نوح، و لم يقل سلام على آل إبراهيم، و لم يقل سلام على آل موسى و هارون، و قال: سَلَامٌ عَلَىٰ إِلَيْسِينَ يعني آل محمد(ص).

فقال المأمون: قد علمت أن في معدن النبوه شرح هذا و بيانه [\(١\)](#)

ص: ٩١

١- (١) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٣٧٥).

و لعل معرفه الأحرف المتقطعه فى فواتح السور تعتبر مفاتيح لفهم أسرار كتاب الله.

[٢]القسم يربط -اعتباريا- بين حقيقه يرد التأكيد عليها، و حقيقه مؤكده فعلا، فإذا حلفت بالله سبحانه على أنك تفى بوعدك، فقد ربطت بين إيمانك بالله كحقيقة ثابته، وبين الوفاء بالوعد ترید التأكيد عليه.

و إذا كانت هنالك صله حقيقيه بين أمرتين، و كان أحدهما شاهد صدق على الثاني، فإن القسم يكون أبلغ و آكد، و لعل كل ما في القرآن من حلف هو من هذا النوع. ليس القرآن كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه؟ و هكذا ينبغي البحث دائماً عمّا يصل بين طرفى القسم، و هو في الأكثر صله الحجه و الشهاده.

و هنا يحلف الذكر بالقرآن الحكيم على رساله النبي. أو ليس القرآن أكبر شاهد على رسالته؟ أو ليس المعجزه التي لا تفنى و لا تنتهي غرائبه، الجديـد أبداً الذى يسبق الحياة دائمـا.

و القـآن الـحـكـيم ترى أيـ صـفـه فـي الـقـآن تـجـعـلـه أـكـبـرـ شـاهـدـ عـلـى الرـسـالـهـ؟ هـلـ هـىـ بـلـاغـتـهـ الـتـىـ أـخـرـسـتـ العـرـبـ الـذـينـ زـهـواـ بـلـاغـتـهـمـ وـ سـمـواـ أـنـفـسـهـمـ عـرـبـاـ لـأـنـهـمـ أـعـرـبـوـاـ عـمـاـ يـخـلـجـ فـيـ ضـمـائـرـهـمـ؟ أـمـ لـأـنـهـ جـاءـ عـلـىـ يـدـ نـبـيـ أـمـىـ مـاـ عـهـدـ القرـاءـهـ وـ الـكـتـابـهـ؟ أـمـ لـأـنـهـ تـبـأـ بـالـمـسـتـقـبـلـ فـلـمـ تـحـقـقـتـ أـنـبـأـوـهـ عـرـفـ النـاسـ صـدـقـهـ؟

أم لأنّه أنبت حضاره ربانيه فى أرض الجاهليه العريقه؟ كل تلك الصفات شواهد صدق الرساله إلّا أنّ الصفه الأسمى للقرآن حكمته.

ما هي هذه الحكمه التي يحلف بها الرب هنا ليستدل على أنّ محمدا(ص) من المرسلين؟ لا يزال «العلم» الشاهد العظيم عند كل الناس على صدق أو كذب أصحاب الدعوات الجديده، و القرآن فتح أمام البشريه ولا يزال آفاق المعرفه: عرّفهم بربهم حتى وجده العارفون، و جالسه الذاكرون، و استأنس به المریدون.

عرّفهم بأنفسهم حتى بصرروا عيوبها، و ميزوا بين فجورها و تقوتها، و اجتهدوا في تزكيتها و تنمية الموهاب فيها.

عرّفهم بالسنن الإلهيه في الأمم الغابرية حتى أخذوا بأسباب التقدم، و تمسكوا بأهداب التكامل و الفلاح.

عرّفهم بمناهج المعرفه، و سبل السلام، و مفاتيح النجاح، و وسائل القرب إلى الله.

فأى شهاده أكبر على صدق الرساله من ذات الرسالات، و على صدق الرسول من أنه يحملها و يطبقها؟ و القرآن ليس فقط كتاب علم بل هو أيضا كتاب حكمه، و الحكمه - كما يبدو لى - العلم النافع الذي بلغ في تكامله و نضجه مبلغا يجعله مؤثرا في سلوك البشر، و مغيرا للحياة، و صانعا للحضاره.

دعنا نضرب مثلاً-علم قياده السياره قد يكون نظرياً، فهو مجرد علم، وقد يتحول الى مهاره عمليه. ألا يختلفان؟ (١) و لكن أين الاختلاف؟ إنما في أن دراسه قياده السياره في معهد مرحله أوليه في علم القياده، أما إذا تدرّب الإنسان عليها بلغ العلم مرحلته النهائية، و القرآن ذلك الكتاب الحكيم الذي يشفى الصدور، و يبعث الهمم، و يعطي البصائر، و يكمل العقل، و يضع الشرائع السليمه،... فهو ليس علم الحياة بل هو الحياة.

[٣] الرساله حقيقه لا ينكرها إلا المعاندون، و قد أرسل الله أنبياءه-عليهم السلام-حتى لم يكن إنكار الرساله أصلاً يجدى أحداً نفعاً، و لعل التعبير القرآني هنا يوحى بهذه الحقيقة إذ قال:

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ فَلَسْتَ بِدُعَا مِنَ الرَّسُولِ، وَ إِنَّمَا أَنْتَ وَاحِدٌ مِّنْ أُولَئِكَ الْكَرَامِ الَّذِينَ بَلَّغُوا عَنِ اللَّهِ، وَ أَنْتَ تَصْدِقُهُمْ، وَ هُمْ بَشَّرُوا بِكَ... وَ هَذَا بِدُورِه شَهَادَه عَلَى صَدْقِ الرَّسُولِ.

[٤] و شهاده أخرى على ذلك أن الرسول على الصراط المستقيم، استقامه النفس بالعقل، و استقامه السلوك بالشرع، و استقامه القول بالصدق، و استقامه العمل بالصلاح.

فإذا ضلّ المذاهب في ربهم فإنّ الرسول يهدي الإنسان إلى الله بما يتافق مع الفطره و العقل، و حين يبلغ العبد معرفه رب لا يبقى لديه ريب في صدق الرساله.

و إذا تطرّفت المذاهب فأهمل بعضها العقل و أهمل البعض البدن، فإنّ الرسول

ص: ٩٤

١- ٢) اننا نستخدم كلمه العلم عاده في الجانب النظري بينما نستخدم للجانب العملى كلمات مثل الفن و المهاره و التدريب و التقنيه.

على طريق مستقيم وسط، لم يهمل جانباً على حساب جانب.

وإذا كانت الأهواء تسير الناس ذات اليمين و ذات الشمال فإن ضغوط المجتمع والإقتصاد والسياسة تتكتّر على صمود الرسول ثم تتلاشى أمام استقامته التي تحذّت إغراء الشمس والقمر.

إن استقامته رساله النبى و سلوكه تشهد على أنه ينطق عن الوحي، وأنه مؤيد بالغيب.

على صراطِ مُستَقِيمٍ [٥] بماذا أنزل الله الرسالة؟ أو أي اسم يعكسه كتابه؟ أو ليس الكتاب دليل صاحبه؟ القرآن تجلّ لاسم العزة التي تعنى فيما تعنى المقدّره والهيمنه، كما لاسم الرحمة، لأن رحمة ربنا اقتضت إنقاذ البشر من براثن الضلاله والشرك.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ و نسخة من الآية أن القرآن سيهزم المبادئ الباطلة عاجلاً أم آجلاً، لأنّه تنزيل العزيز الذي يؤيد بعزته رسالته، ويعكس هذا استمرار انتشار نور الإسلام في الأرض بالرغم من كل العقبات التي يجعلها أمامه الطغاة.

[٦] أما هدف الرساله فهو إنذار قوم غافلين، ما أتاهم من قبل الرسول من نذير.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ

و قد فسّر أغلب المفسرين هذه الآية بـأَنَّ أُولئكَ الْقَوْمَ لَمْ يَنْذِرُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ، مَا يَخْالِفُ قَوْلَهُ سَبَّحَانَهُ: «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ» [\(١\)](#) و هناك تفسير آخر يجعل حرف (ما) موصولة فيكون معناه تقربياً: لـتَنذِرْ قَوْمًا بِمَا أَنذَرَ آبَاؤُهُمْ مِنْ العَذَابِ».

و سواء أخذنا بهذا التفسير أو ذاك فـأَنَّ قَوْمَ الرَّسُولِ لَمْ يَنْذِرُوهُمْ مِنْ قَبْلِهِ، فَهُمْ لَمْ يَنْذِرُوهُمْ مِنْ قَبْلِهِ، وَ نَجَدُ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَةِ أُخْرَى: «وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» [\(٢\)](#) وَ لَكِنْ هَلْ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْذِرُوهُمْ أَبَدًا؟ كَلَّا...

[٧] و يذكر السياق بالتحديات التي يواجهها النبي - كسائر الرسل - في طريق الدعوه، فسوف لا يؤمن هؤلاء الناس، و سوف يقوم صراع مrir بينه وبينهم، و يستمر الصراع حتى يتلى المؤمنون و حتى ياذن الله بالنصر المبين! لـقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ و هـكذا لا ينبغي الخضوع للتيار الاجتماعي إذ عدم إيمان الأكثريه ليس دليلاً على نقص في حجـجـ الرـسـالـهـ بلـ فـيـ وـعـيـهـمـ.

و تعطينا الآية دفعـهـ معنوـيـهـ لـنـمـضـيـ قـدـمـاـ فـيـ حـمـلـ الدـعـوـهـ دونـ أـنـ نـهـنـ أـمـامـ رـفـضـ الأـكـثـريـهـ أوـ كـفـرـهـمـ بـهـاـ.

[٨] و لكن لماذا لاـ يـؤـمـنـ بـهـاـ أـكـثـرـهـمـ؟ لـأـنـ تـراـكـمـ الـمـعـاصـىـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ، وـ عـلـاقـاتـهـمـ الـاجـتمـاعـيـهـ القـائـمـهـ عـلـىـ الـظـلـمـ وـ الـاسـتـبعـادـ، وـ تـخلـفـهـمـ وـ اـنـشـادـهـمـ إـلـىـ عـادـاتـ مجـتمـعـهـمـ وـ تـقـالـيدـ آـبـائـهـمـ الضـالـلـينـ، كـلـ

ص: ٩٦

.١ - (٢٤) فاطر / .٣ - (٢٤)

.٢ - (٤٤) سباء / .٤ - (٤٤)

أولئك تشكل أغلالاً في أنفاسهم.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا الشَّهُوَاتِ غُلٌ، وَ عَادَاتِ الْمُجَتَمِعِ أَغْلَالٌ، وَ التَّكْبِيرُ وَ الْحَسْدُ وَ الْعَصْبَيَاتُ أَغْلَالٌ.

فَهِيَ إِلَى الْأَدْقَانِ لَعْلَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْأَغْلَالَ عَرِيقَهُ بِحِيثُ تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ أَعْنَاقِهِمْ وَ تَبْلُغُ الْأَذْقَانَ، وَ نَسْتَوْحِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَيْتِهِمْ شَامِلٌ.

فَهُمْ مُقْمَحُونَ أَرَأَيْتَ الْفَرَسَ حِينَما يَسْبِحُ لِجَامِهِ كَيْفَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ؟ قَالُوا: إِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْمَحُ، وَ هُوَ لَا يَمْلِكُ قَدْرَهُ الرَّؤْيَا، كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْحُرْكَةَ.

[٩] وَ يَمْضِي السِّيَاقُ فِي بَيَانِ شَقَاءِ هُؤُلَاءِ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ سَدَّتْ مَنَافِذَ عَقُولِهِمْ (الْعَلَهُ بِسَبِيلِ الْأَغْلَالِ الْمُكَبَّلِينَ بِهَا) فَأَمَامُهُمْ سَدٌ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدٌ، وَ عَيْنُهُمْ مَحْجُوبَهُ، فَلَا يَنْشَطُونَ لِلتَّحْرِكِ بِسَبِيلِ السَّدِينَ، وَ لَا هُمْ يَبْصِرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ شَيْئاً.

وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَيِّدًا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَيِّدًا فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّقدِيمِ، وَ لَا يَمْكُنُهُمُ التَّرَاجُعُ عَنِ الْغَيِّ، وَ هُمْ قَدْ أَحْيَطُوا بِعَقَبَاتِ تَصْدِهِمْ عَنِ السَّبِيلِ بِمَا اَكْتَسَبُوا مِنْ آثَامٍ.

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ لَقَدْ أَحاطَتْ بِهِمْ خَطِئَاتِهِمْ وَ غَشِيَّتِهِمْ فَلَا يَبْصِرُونَ أَنَّهُمْ مَحَاطُونَ بِالسَّدُودِ، ذَلِكَ

أن الذنوب التي يرتكبها الإنسان تخلف آثارها على الواقع الخارجي، وتحول إلى سدود أمام هداية البشر وسعادته. أرأيت الذي انتمى إلى حزب كافر، وعمل من أجل انتشار مبادئه الضاله، وتربيه جيل من الناس عليها. هل يقدر على الخلاص منه؟! كلا... بل يضحي مثل دوده القز التي تصنع الشرنقة ثم تموت فيها، و هكذا الذي أعاد ظالما حتى سيطر على البلاد. إنه يصبح أسير عمله، و كثيرا ما يسلّطه الله عليه، و يقتل بسيف البغي الذي سله على الناس.

و لعل السدين هنا إشاره الى آثار الجرائم الخارجية، بينما الأغلال تشير الى الآثار النفسيه لها، حيث يزين الشيطان للنفس أعمالها حتى تغدو ملكات يصعب تجاوزها.

أمّا الغشاوه فهي الظلمات التي تحيط بالقلب، فينطفئ فيه الضمير، و يخبو نور العقل، و لا يحسّ البشر أنّه واقع في المنهك، بل قد يزعم أنّه على صراط مستقيم.

[١٠] و عند ما تراكم الأغلال الغليظه حول القلب الغافل، و تحيط بصاحبه سدود الجريمه، و تغشاه ظلمات الجهل، يصل إلى الدرک الأسفل فلا ينتفع بالإذار و يكون مثل قلبه مثل جسم مريض لا يستجيب للدواء، فلا يرجى شفاوه.

و سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّ هَذِهِ الْعَاقِبَةَ السُّوءَ تَنْتَظِرُ كُلَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَغْفِلُونَ عَنْ رَبِّهِمْ فَيَخْتَطِفُهُمُ
الشيطان، و يسترسلون مع الأهواء و الظروف حتى تحيط بهم أغلال العاده العصبيه، و العزه بالإثم، و سدود النظام الفاسد اقتصاديا و
سياسيا و ثقافيا، و تغشامهم ظلمات الجهاله، و لا ينفعهم آنذ الإنذار. و على البشر أن يتتجنب الخطوه الأولى التي تعوده الى
الهاويه، لأنه كلما هبط أكثر كلما كانت جاذبيه الهاويه

أقوى.

[١١] و السبيل الى النجاه من الحلقات المتداخله للشقاء يمر عبر محاربه الجب و جهاد الطاغوت، و بالتالي اتقاء الأغلال و السود.

كيف؟ أولاً- باتباع الذكر الذى هو القرآن الكريم، و ذلك بأن يكون قرار الإنسان مع نفسه إتباع الحق الذى يذكر به الوحي و يعرفه العقل.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ و لعل استخدام لفظه الذكر هنا كان للإشارة الى مصدرى المعرفه: الوحي و العقل، اللذين ينتهيان- بالتالى - الى نور واحد، فالوحي يشير العقل، و العقل يصدق الوحي، و الإنسان يتبع ذلك الذكر، و أولئك الذين عُودوا أنفسهم على اتباع الحق هم الذين ينتفعون بالإذار، لأن نظرتهم موضوعية، و منهجهم الفكري سليم، و لا- يملكون حجابا يمنعهم عن فهم الحقائق.

ثانياً: بخشيه الله و رجاء رحمته، حتى يحاربوا بذلك جبت أنفسهم، و يفكوا عن قلوبهم أغلال العصبيه و العناد و الكبر و العزه بالإثم.

إن خشيه الله تضيء فى القلب مصباحا يرى به الحقائق. أو ليست خشيه الناس أو خوف الفقر أو الحذر من الطبيعة تنكس القلب، و تدع رؤيته مقلوبه؟ كذلك تضحي خشيه الله و سيله الهدى، لأن من يخشى ربه بالغيب لا يخاف شيئا.

وَخَشِّيَ الرَّحْمَنَ

لعل ذكر كلامه الرحمن هنا يهدف إيجاد حاله من التوازن بين الخشيه و الرجاء، فهو الله أرحم الراحمين و خشيته لا تبلغ درجه القنوط من رحمته،أنى كثرت الخطايا و عظمت الذنوب.

فَبَشِّرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ إِنَّ مِنْ أَبْعَادِ الْمَغْفِرَةِ تَجَاوِزُ آثَارَ الذَّنْوَبِ فِي الْوَاقِعِ الْخَارِجِيِّ أَوْ عَلَى النَّفْسِ إِنَّ السُّلْطَاتِ الظَّالِمَةِ، وَ النَّظَامِ الْاِقْتَصَادِيِّ الْفَاسِدِ، وَ الْأَنْظَمَهُ الْاجْتِمَاعِيِّهِ الْمُتَخَلِّفَهُ كُلُّهَا مِنْ آثَارَ الذَّنْوَبِ، وَ حِينَ نَتَّبِعُ نَهْجَ اللَّهِ، وَ نُطِيعُ أُولَئِكَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبِحَانَهُ يَنْصُرُنَا عَلَى الطَّغَاهُ وَ الْمُتَرْفِينَ، وَ يَسِّرْ لَنَا شَرَائِعَ سَمْحَاءَ قَائِمَهُ عَلَى أَسْسِ الْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ، كَمَا يَنْزَعُ مِنْ أَفْئِدَنَا حُبُّ الشَّهْوَاتِ، وَ يَعِينُنَا عَلَى الْعَادَاتِ السَّيِّئَهِ.

إِنَّ الْمَغْفِرَهُ بِشَرِيْعَهِ عَظِيمَهُ، فَطَوْبَى لِمَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ، وَ هِيَ تَمَهَّدُ لِلأَجْرِ الْكَرِيمِ فِي الدُّنْيَا بِحَيَاهُ فَاضِلَهُ تَعْمَلُهَا السَّعَادَهُ وَ الْفَلَاحُ، وَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَ جَنَّاتِهِ فِي الْآخِرَهِ.

[١٢] إِنَّ أَعْظَمَ إِنذَارٍ يُسْتَجِيبُ لِهِ الْمُخْتَوِنُونَ وَ لَا- يَنْتَفِعُ بِهِ الْغَافِلُونَ، هُوَ النَّشُورُ حِيثُ يَحْيَى اللَّهُ بِقَدْرَتِهِ الَّتِي لَا- تَحْدُدُ الْمَوْتَى جَمِيعًا، بَعْدَ أَنْ سُجِّلَ عَلَيْهِمُ لِلْحِسَابِ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي فَعَلُوهَا فِي حَيَاتِهِمْ وَ قَدَّمُوهَا لِتَسْتَقْبِلُهُمْ عَنْدَ الْمَوْتِ، أَوِ الَّتِي خَلَفُوهَا وَرَاءَهُمْ مِنْ سَنَهُ حَسَنَهُ أَوْ سَنَهُ سَيِّئَهُ.

إِنَّا نَعْلَمُ نُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ وَعْدُ صَادِقٍ.

وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا

من أعمال صالحه تتجسد ثمه جنات و حور عين، أو ذنوب تتجسد ثمه نيرانا و حيّات.

وَ أَثَارُهُمْ فِالصَّدَقَاتُ الْجَارِيَّهُ، وَ الْعِلْمُ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ، وَ الْأَوْلَادُ الصَّالِحُونُ، هِيَ الرَّوَافِدُ الْمُسْتَمِرَهُ التِّي تَنَمِي حَسَنَاتِ الْمُؤْمِنِ بَعْدَ مَوْتِهِ، بَيْنَمَا كَتَبَ الضَّلَالُ، وَ سُنُنُ الظُّلْمِ وَ الْإِنْحَرَافِ، وَ التَّرْبِيهُ الْفَاسِدَهُ لِلْأَبْنَاءِ، تَلَاقَ حَقُّ الْفَاسِقِ حَتَّى بَعْدَ وَفَاتِهِ.

هكذا

روى عن النبي محمد(ص) :

«من سن سن حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، ومن سن سن سيء فعليه وزرها وزر من عمل بها» ^(١) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَخْصَيْتَهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ما هو ذاك الإمام الذي أحصى الله كُلَّ شيء فيه؟ هل هو اللوح المحفوظ؟ أم طائر كُلَّ شخص الذي ألم به الله في عنقه، ويلقاه يوم القيمة منشوراً؟ أم هو إمام الحق أو إمام الضلال اللذين يتبعهما الناس؟ لعل القرآن الحكيم يشير إلى كل ذلك وأكثر، إذ أنَّ كلمات القرآن لا تتحدد في إطار السياق فقط، بل تتجاوزها لبيان حقائق الخليقة، بل يكون ذكر هذه الحقيقة هنا وتلك هناك بمناسبة موضوعات السياق.

أمّا الحقيقة التي نستوحيها من الآية فهي: إنَّ لكل شيء إماماً تتمثل فيه

ص: ١٠١

١- (٥) تفسير الرازي/ج (٢٦)/ص (٤٦).

خصائصه بصوره متكامله،فالأنبياء و أوصياؤهم -أئمه الرشاد- تتمثل فيهم كلّ صفات الخير و الفضيله، بينما الفراعنه و الطغاه -أئمه الكفر- تتجسد فيهم كلّ صفات الرذيله و الشر.

و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن أئمه الهدى تفسير هذه الآيه الكريمه بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث روى عنه عليه السلام قوله :

«أنا و الله الإمام المبين،أبین الحق من الباطل،ورثته من رسول الله »[\(١\)](#).

ص:١٠٢

٦- (٣٧٩) عن نور الثقلين/ج (٤)/ص (٤).

اشاره

وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ إِثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُكَذِّبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَتَهَوْلَا لِنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمْسَنَّكُمْ مِنْ نَا عَذَابُ أَلِيمٍ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْ ذُكْرُكُمْ بِلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرُفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمَ إِتَّبِعُو الْمُرْسَلِينَ (٢٠) إِتَّبِعُو مَنْ لَا يَسْلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لَيْ لَا أَعْبُدُ الدِّيَنِ فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخُذُ مِنْ دُونِهِ آلَهَهَ إِنْ يُرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَإِنِّي مُعُونٌ (٢٥) قِيلَ أُدْخُلِ الْجَنَّهَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلَنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنُدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَهُ وَاحِدَهُ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسِيرَهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضُرُونَ (٣٢)

الله

١٨ ١٨ تَطَيَّرْنَا: تسامنا بواسطتكم فنخاف أن يصيبنا شؤمكم فنفع في البلاء من طالعكم السيء.

٣١ [القرون]: الجيل و الأمة باعتبار تقارن أعمارهم.

ص: ١٠٤

هـدى من الآيات:

حين تراكم حجب الغفلة على الأفلاط لا ينتفع أصحابها بالنذر، كذلك قال ربنا آنفاً، و هو الآن يضرب مثلاً من أصحاب القرى التي جاءها المرسلون فلم يؤمنوا أغلبهم، بل قالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا، ولم ينفعهم أن الله يشهد على صدق الرسل، وأنهم مسؤولون عن موقفهم، وليس النذر، وبالغوا في التكذيب، إذ طيروا بالرسل، وتشاءموا من دعوتهما، ولكن الرسل استقاموا في تحديهم لأولئك الجاهلين، بالرغم من توعدهم بأنهم سوف يترجمونهم إن لم ينتهوا من دعوتهما، بأغلظ ما يمكن، فقال الرسل: إن تشومهم إنما هو من أنفسهم، وتهديدهم بالعذاب لا يلويهما عن تذكيرهم، وإنّه لدليل على توغلهم في الجريمة.

و هناك انتشرت الدعوه فجأة رجل من أقصى المدينه يسعى (لينذر قومه قبل ان يحل بهم العذاب لتذكيرهم الرسل) فنصر قومه إشراكاً عليهم باتباع المرسلين، الذين تدل على صدقهم حجتان: الأولى: أنهم لا يسألونهم أجراء، و الثانية: أنهم

مهتدون، وذَكْرُهُم بربهم بأبلغ صوره. أو ليس هو الذي فطرهم، فلما ذا ينكرونه؟! أو ليس المرجع إليه، فلم لا يرجونه أو يخافونه؟! أم يعتمدون على الآلهة التي لا تضر ولا تنفع، ولا تمنع عذاب الله عنهم؟! إنَّها الضلاله الواضحة (ثم تحداهم بكل عزم وقال): إِنِّي آمنت بربكم فاسمعون (لقد أخذ الرجل وعدُّب ثم قتل ثم أحرق، ولكن السياق يتجاوز كل ما حدث إلى العاقبة فيقول): قيل له:

ادخل الجنـهـ (و بقى حنين هذا الصـدـيقـ إلى بعد استشهادـهـ، فـتـراهـ يقولـ وـ هوـ يـدـخـلـ الجـنـهـ): يـاـ لـيـتـ قـوـمـىـ يـعـلـمـوـنـ بـمـاـ عـفـرـ لـىـ رـبـىـ وـ جـعـلـنـىـ مـنـ الـمـكـرـمـينـ .

بيانات من الآيات:

[١٣] قصه المرسلين الثلاثه الى قريه (أنطاكيه) التي جعلت قلب سورة (يس) التي هي بدورها قلب القرآن تتمثل فيها الحقائق التالية:

أولاً: توجز مفاصيلات الصراع الرسالي مع الجاهليه، حيث نرى فيها جانباً من حوار الرسل مع الأمم الغاويه، وحججه البالغ عليهم، وشبهات الكفار و ردود المرسلين عليها، وسائر فصول الصراع المعروفة، فهــىـ بالـتـالـىـ تـجـمـعـ جـمـلـهـ الحـقـائـقـ التـيـ ذـكـرـتـ بهاـ آياتـ الـكـتـابـ فـىـ هـذـاـ الـحـقـلـ .

ثانياً: تمثلت فيها سنه الله في الإنذار، وعاده الجاهليين في الإنكار، واللتين ذكرت بهما آيات الدرس الآنف، وهــكـذاـ تكونـ القـصـهـ حـجـهـ عـلـىـ الـحـقـائـقـ التـيـ يـيـنـهـ الـقـرـآنـ فـىـ فـاتـحـهـ السـوـرـهـ .

ثالثاً: إن سورة يس تبيـنـ وـاقـعـ الجـاهـلـيـنـ الـعـربـ وـ هوـ قـرـيبـ جـداـ منـ وـاقـعـ أـصـحـابـ الـقـرـيـهـ (ـفـىـ أـنـطـاـكـيـهـ)ـ ذـلـكـ لـقـرـبـ الـعـهـدـ الزـمـنـيـ،ـ وـ تـشـابـهـ الرـسـالـتـيـنـ (ـرـسـالـهـ اللـهـ إـلـىـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ وـ رـسـالـتـهـ لـمـحـمـدـ(صـ))ـ وـ هــكـذاـ وجـبـ أنـ نـسـتـخـلـصـ مـنـهـ الـعـبـرـهـ ربـماـ

أكثر من أيّ قصه أخرى.

و اضرب لهم مثلاً إنَّ هذا المثل ينطبق على مثلهم، لأنهما من نوع واحد و حزب واحد.

أَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ أَيْنَ كَانَتْ هَذِهِ الْقَرْيَةُ، وَ مَنْ هُمُ الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهَا؟ قَالُوا: إِنَّهَا كَانَتْ أَنْطَاكِيَّةَ ثَانِيَهُ حَوَاضِرِ الرُّومِ، وَ الْوَاقِعَهُ الْيَوْمَ فِي تُرْكِيَا عَلَى حَدُودِ سُورِيَا (١٠٠ كِيلُومُترٍ إِلَى حَلْبِ تَقْرِيبًا) وَ قَرِيبَهُ مِنْ مِينَاءِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَيْمَنِ (٦٠ كِيلُومُترٍ تَقْرِيبًا) وَ هِيَ لَا زالتَ كَبِيرَهُ، إِلَّا أَنَّهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَتْ أَكْبَرَهُ، وَ يَحْتَرِمُهَا الْمُسْكِيْحُوْنَ لِأَنَّ بُولْسَ وَ بُرْنَابَا وَ آخَرِيْنَ زَارُوهَا.

أمّا قصه الرساله فلم يختلف المفسرون فيها إلّا في بعض التفاصيل، و هي باختصار:

إِنَّ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بَعَثَ اثْنَيْنِ مِنَ الْحَوَارِيْنِ إِلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ بِالرَّسَالَهِ، فَلَمَّا بَلَغُاهُمَا وَجَدَا فِي أَقْصَاهَا حَبِيبَ النَّجَارِ فَدَعَاهُ إِلَيْهِ الرَّسَالَهُ فَآمَنُوا، وَ لَمَّا دَخَلَا الْمَدِينَهُ دَعَوَا النَّاسَ فَآمَنُوا بَعْضَهُمْ، وَ مَرَّ بَهُمَا الْمَلَكُ ذَاتَ يَوْمٍ فَكَبَرَا (وَ يَبْدُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَجِدَا طَرِيقًا لِلْدُّعُوهُتِ) غَيْرَ ذَلِكَ (فَحَبَسَهُمَا الْمَلَكُ)، وَ بَعْثَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الرَّسُولَ الثَّالِثَ لِتَعْزِيزِ مَوْقِفِ الْأَوَّلَيْنِ (وَ لَعِلَّهُ كَانَ وَصِيَّهُ شَمَعُونَ) فَتَقَرَّبَ إِلَى الْمَلَكِ حَتَّى اسْتَخْلَصَهُ فَحَدَّثَهُ عَنْ شَأنِ الرَّسُولَيْنِ، وَ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا الْحَجَّهُ، فَلَمَّا أَظْهَرَا حَجَتَهُمَا بِإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى (حيثُ أَنَّ ابْنَ الْمَلَكِ أَوْ ابْنَ وَاحِدٍ مِنْ حَاشِيَتِهِ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَسْبَعِ فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِدُعَائِهِمَا) آمَنَ الْمَلَكُ وَ بَعْضُ قَوْمِهِ،

إِلَّا أَنَّ الْغَلْبَةَ كَانَتْ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ أَهْلَكُوكُمُ اللَّهُ بِصِّيَحَةٍ وَاحِدَةٍ.

و هكذا يرتفع الاختلاف الظاهر بين روايات التفسير التي تنتقل أنَّ الْمَلَكَ آمِنٌ، و بين ظاهر الآية التي تبدأنا بهلاكَ أُولئكَ الْقَوْمُ، ذلك أَنَّ إِيمَانَ الْمَلَكِ -حسب هذه الرواية التي نقلها الفخر الرازى- لم يؤثِّرْ فِي الطبقات المسرفة من قومه، فأنزل اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْعَذَابَ، وَاللَّهُ الْعَالَمُ.

[١٤] وَلِسِنَ الْمَهْمَمِ أَنْ نَعْرُفْ تَفَاصِيلَ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ، إِنَّمَا الْمَهْمَمُ أَنْ نَتَدَبَّرْ فِي الْجَوَابِ الَّتِي يَخْبُرُنَا رَبُّنَا عَنْهَا، لَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَنْفَعُنَا، وَتَجْرِي عَلَيْنَا سُنُنُ اللَّهِ فِيهَا كَمَا جَرَتْ عَلَى الْأُولَئِنَّ.

و هكذا كَذَّبَ أُولئكَ الْغَافِلُونَ اثْنَيْنِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَعَزَّزَ اللَّهُ دِينَهُ بِالْ ثَالِثِ.

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْتَيْنِ هَلْ كَانَا رَسُولَيْنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَاشِرَهُ؟ أَمْ كَانَا مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ رُوحُ اللَّهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَمَا تَرَوْيُ التَّوَارِيخُ؟ وَإِذَا كَيْفَ يَقُولُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ: «أَرْسَلْنَا»؟ رَبِّمَا كَانَا نَبِيَّنِ -كَمَا هَارُونَ مَعَ مُوسَى، وَيَحِيَّ مَعَ عِيسَى- إِلَّا أَنَّ الْمُفْرُوضَ عَلَيْهِمَا كَانَ طَاعَهُ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِاعتِبَارِهِ مِنْ أُولَئِكَ الْعَزَمِ.

وَلَعَلَّ رَسُولَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يَعْتَبِرُ عِنْدَ اللَّهِ رَسُولَهُ، لَأَنَّ عِيسَى إِنَّمَا أَرْسَلَهُمَا بِإِذْنِ اللَّهِ، أَوْ رَبِّمَا بِأَمْرِ مُبَاشِرٍ مِنْ اللَّهِ، فَهُمَا بِالْتَّالِيِّ رَسُولَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

فَكَذَّبُوهُمَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْبَعْضَ آمِنٌ بِهِمَا -كَالصَّدِيقِ حَبِيبِ النَّجَارِ الَّذِي جَاءَ يَنْذِرُ قَوْمَهُ

من أقصى المدينة-إلا أنَّ الأغلب كان قد كذب بالرسولين، لأنَّهم قد حقَّ القول عليهم.

فَعَزَّزَنَا بِثَالِثٍ لَقَدْ عَزَّ اللَّهُ دِينُهُ الْحَقُّ بِالرَّسُولِ الْ ثَالِثُ، الَّذِي قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ شَمْعُونَ وَصَى عَيْسَى.

فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ لَا يَتَعَرَّضُ السِّيَاقُ لِبَيَانِ الْآيَاتِ الَّتِي تَقُولُ الرَّوَايَاتُ أَنَّهَا ظَهَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ، مُثْلِثُ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَىِ، فَهَلْ لَأْنَهَا لَمْ تَكُنْ ضَرُورِيَّةً، إِذَا أَنَّهُمْ عَرَفُوا صَلْدَقَهُمْ مِنْ خَلَالِ أَقْوَالِهِمْ، وَمَا دَعُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقَائِقٍ، وَمِنْ خَلَالِ سُلُوكِهِمْ وَاسْتِقْامَتِهِمْ؟ أَمْ لَأَنَّ ظَهُورَ الْآيَاتِ عَلَى أَيْدِي الرَّسُولِ كَانَتْ سَنَّهُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى مُزِيدٍ بَيَانًا؟ لَعَلَّ الْقَوْمَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ فَأَخْوَاهُمُ الشَّيْطَانُ، وَأَنَّ دُعَوَهُ الرَّسُولُ جَاءَتْ لِنَذْكِرِهِمْ بِالْحَقَائِقِ الَّتِي آمَنُوا بِهَا مِنْ قَبْلِ فَلَمْ تَكُنْ بِحَاجَةِ إِلَيْهِ آيَاتٌ جَدِيدَةٌ، وَاللَّهُ الْعَالَمُ.

[١٥] أَمْ إِيمَانُ شَبَهِهِ قَوْمَهُمْ فَكَانَتْ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ كَيْفَ يَبْعَثُ اللَّهُ بِشِيرًا رَسُولًا وَبِالْتَّالِي لِمَاذَا نَطِيعُكُمْ وَأَنْتُمْ مِثْلُنَا؟ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ثُمَّ تَمَادُوا فِي الْغَيْرِ حَيْثُ لَمْ يَنْكِرُوا فَقْطَ رَسُولَهُ هُؤُلَاءِ بَلْ كَفَرُوا بِكُلِّ رَسُولٍ، وَقَالُوا:

وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ لَا- رسالتكم و لا- رساله غيركم. و هكذا ازدادوا كفرا و طغيانا، و لكن لماذا جيء باسم الرحمن هنا؟ هل لأنّ الرسل ذكرروا هذا الاسم و هم يبيّنون لهم أنّ ربهم لا يتركهم بلا رساله، لأنّه واسع الرحمة شديد العطف، فقال الكفار كلاً... ما أنزل الرحمن؟ أم لأنّهم زعموا أن رحمة الله تأبى إنزال التكاليف الشاقة عليهم بالرسالة؟ يبدو أنّ الأول أقرب، فيكون جوابهم مضمرا في حديث أنفسهم.

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ فَلَأَنْ أَصْلَ الرَّسَالَةِ مَرْفُوضٌ عِنْهُمْ إِنْ دُعُواهُ الرَّسَالَةُ تَكُونُ- بِزَعْمِهِمْ- مُجْرَدَ كَذْبٍ، و لَعْلَ هَذِهِ الْآيَةِ تَدْلِي عَلَى أَنَّ الرَّسَالَةَ كَانُوا يَنْطَقُونَ عَنِ اللَّهِ مُبَاشِرَةً.

[١٦] اللَّهُ تَعَالَى أَكْبَرُ شَاهِدٍ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ أَوْ لَمْ يَوْدُعْ فِي ضَمِيرِ كُلِّ إِنْسَانٍ عَقْلًا يَهْدِيهِ إِلَى الْحَقِّ؟ أَوْ لَا يَظْهَرُ عَلَى أَيْدِيِّ رَسُولِهِ الْآيَاتِ؟ أَوْ لَا يَنْصُرُهُمْ؟ فَلَا تَدْلِي أَسْتِقْانُهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ، أَنَّهُمْ وَاثْقَنُونَ تَامًا مِنْ أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ وَأَنَّهُمْ لَصَادِقُونَ؟ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَلَكُنْ لَا يَعْنِي تَحْمِلُهُمْ لِمَسْؤُلِيَّةِ الرَّسَالَةِ أَنَّهُمْ مُسْئُلُونَ عَنْ مَوْقِفِ النَّاسِ، إِنَّمَا جَزَاؤُهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ.

[١٧] وَمَا عَلِمْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ إِذَا أَبْلَغْنَا كُمِ الرَّسَالَةَ بِوْضُوحِ تَامٍ فَقَدْ انتَهَى دُورُنَا وَبَدَأْ دُورُكُمْ.

و نستوحى من الآية: أنّ البشر مسئول عن معرفة الهدى، و لا يحقّ له أن يিّرر

جرائمه بأنه لم يكن مهتماً للحق، كلاً...إذا ظهرت دعوه الى الحق فعليك أن تتفكر من دون عصبيه أو عزه، و ترى هل هي صادقه أم لا.

[١٨] يغى الجاهليون على حرير التبريرات غارقين في شهواتهم، فإذا جاءهم نذير و قدم لهم الوعيد بأنّ عاقبه غفلتهم الدمار، فإنّهم يتشاءمون منه، و يزعمون أنه يكدر عليهم صفو معيشتهم، فمثلهم مثل مريض، تفشى في جسده مرض السرطان، و هو لا يدرى، فإذا أخبره الطيب و حذر من مغبة غفلته ثار عليه، و قال: إنك منكد، لماذا أنت سلبي؟ قالوا إنا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ تشاءموا منهم، و زعموا أنّ بيان سلبياتهم، و الدعوه الى إصلاح الفاسد من حياتهم، هو سبب الإزعاج عندهم.

و احتمل بعض المفسرين أن يكون قد نزل عليهم البلاء عند بلاغ الرسل، كما نزلت على فرعون و قومه آيات الدم و السنين و.و.، و يبدو أننا لسنا بحاجه الى مثل هذا الفرض.

لَئِنْ لَمْ تَتَّهُوا لَنَزَّجْمَنَّكُمْ هكذا بلغ عنادهم أسفل درك له حين هددوا المرسلين بالرجم لو لم يكفوا عن دعوتهم، و سواء كان الرجم هو جراحات اللسان التي لا تلتئم، حيث توعدوهم بتلفيق التهم المختلفة و رجمهم بها، كعاده الطغاه و المترفين دائماً، أم كان معنى الرجم هو الرضخ بالحجارة حتى الموت، فإن ذلك دليل على هزيمتهم أمام حجه المرسلين فتوسلوا بإرهابهم.

وَ لَيَمْسِنَكُمْ مِّنَ عِذَابِ أَلِيمٍ وَ مَاذَا فَوْقُ الرَّجْمِ (لو كان معناه الرضخ بالحجارة) من عذاب ذى ألم؟ لعلهم هددوهم بالقتل بأبشع صوره.⁵

[١٩] وَ عَكْسُ جوابِ الْمُرْسَلِينَ سَكِينَهُ الْحَقِّ، وَ طَمَانِيهُ الثَّقَهُ بِنَصْرِ اللَّهِ، إِذْ لَمْ يَهْنُوا وَ لَمْ يَحْزُنُوا بَلْ كَشَفُوا لَهُمُ الْحَقَائِقَ دُونَ لِبسٍ وَ مِنْ دُونِ اسْتِخْدَامِ الْأَفَاظِ نَايِه.

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ كَانَ شَوْمَهُمْ فِي أَنفُسِهِمُ السَّلِيلِيَّهُ، فِي عَنَادِهِمْ، وَ تَعْصِيَّهُمْ لِبَاطِلِهِمْ، وَ فِي أَعْمَالِهِمُ الَّتِي جَرَتِ الْوِيَالَاتُ إِلَيْهِمْ. أَ رَأَيْتَ الْفِيَروُسَ مُسْتَقْرِرًا فِي جَسَدِ الْمَرِيضِ أَمْ فِي كَلَامِ الطَّيِّبِ؟ أَوْ رَأَيْتَ الذِّي يَنْهَى أَحَدًا مِنَ الْوَقْوعِ فِي بَئْرِ مَحْفُورَهُ فِي طَرِيقِهِ؟ هَلُ الْخَطَرُ كَامِنٌ فِي نَهْيِهِ أَمْ فِي غَفْلَهُ مِنْ يَمْشِي؟ الْمُجَمَّعُ الْفَاسِدُ الَّذِي يَمْشِي عَلَى حَرْفِ الْهَاوِيَّهِ، وَ يَهْدِدُهُ السُّقُوطُ فِي أَيَّهُ لَحْظَهِ، طَائِرُهُ الْمَسْؤُومُ إِنَّمَا هُوَ طَبْقِيَّهُ، وَ ظُلْمُ أَفْرَادِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضٌ، وَ إِسْرَافُهُ، وَ لَيْسُ فِي دُعَوَهُ الْمَنْذُرِيَّنَ.

أَ إِنْ ذُكْرُتُمْ فَإِذَا ذُكِرْتُمْ بِمَا يَهْدِدُكُمْ مِنْ أَخْطَارٍ، فَهَلْ هَذَا يُسَمِّي طَائِرًا عِنْدَكُمْ؟! وَ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَهُ بِمَثَابَهِ إِجَابَهُ عَنْ تَهْدِيَهُمُ بِالْرَّجْمِ وَ الْعَذَابِ، أَى: هَلْ تَعْذِّبُونَا لَأَنَّا ذَكَرْنَاكُمْ؟ وَ يَبْدُو لِي أَنَّ مَحْوَرَ كَلَامِ الْكُفَّارِ هُوَ التَّطَيِّرُ، وَ أَنَّ مَحْوَرَ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الْجَوابُ

عن هذا التطهير.

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسِرِّفُونَ إِسْرَافُكُمْ هُوَ السَّبَبُ فِي الشَّؤُمِ الَّذِي أَصَابَكُمْ، وَلَعِلَّ هَذِهِ الْآيَةُ تَشَابَهُ وَقُولُهُ سُبْحَانَهُ: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا
أُتْرِفُوا فِيهِ». [\(١\)](#)

وَذَهَبَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ الْإِسْرَافَ هُنَا بِمَعْنَى الْإِسْرَافِ فِي الْجُرْيَمَهِ وَالظُّلْمِ، وَأَنَّهُ يَتَصلُّ بِتَهْدِيدِ الرَّجْمِ.

[٢٠] وَهُنَا تَدْخُلُ الْمُسَرَّحَ صُورَهُ جَدِيدَهُ، هِيَ انْعَكَاسُ الرَّسَالَهُ عَلَى قَلْبِ وَاعِ وَنَفْسِ زَكِيَّهُ، ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي وَجَدَ قَوْمَهُ
أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلاَكَ بِكُفْرِهِمْ، فَسَارَعُ إِلَيْهِمْ يَحْذِرُهُمْ مَغْبَهَ رَفْضِ الرَّسَالَهُ.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَهِ رَجُلٌ يَسْعَى ^١جَاءَ فِي الرَّوَايَاتِ أَنَّهُ الصَّدِيقُ حَبِيبُ النَّجَارِ، الَّذِي بَلَغَتْهُ الرَّسَالَهُ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ فِي أَقْصَى
الْمَدِينَهِ، وَبَادَرَ إِلَى النَّصِيحَهُ مَعَ أَنَّهُ كَانَ - حَسْبُ الرَّوَايَاتِ - رَاعِيَا، وَلَعِلَّ كَلْمَهُ «أَقْصَا الْمَدِينَهِ» تَشِيرُ إِلَى طَبَقَتِهِ الدَّانِيهِ عِنْدَ أَوْلَئِكَ
الْقَوْمِ، كَمَا تَشِيرُ إِلَى مَوْقِعِهِ الْجَغْرَافِيِّ مَا تَدَلُّ عَلَى اِنْتَشَارِ الرَّسَالَهُ فِي صَفَوفِ بَعْضِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، الَّذِينَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَعِيشُونَ فِي أَقْصَى الْمَدِينَهِ، وَلَيْسُ فِي أَعْالَيْهَا حَمِلُوا مَشْعُلَ الرَّسَالَهُ بِكُلِّ قُوَّهِ.

وَلَعِلَّ تَنْكِيرُ كَلْمَهِ الرَّجُلِ لِلْدَّلَالَهِ عَلَى اِكْتِمَالِ صَفَاتِ الرَّجُولِهِ فِيهِ مِنَ الْهَمَهِ الْعَالِيَهِ، وَالْحَزْمِ الشَّدِيدِ، وَالْقَوْلِ الثَّابِتِ، كَقُولِهِ سُبْحَانَهُ:

ص: ١١٣

.١- (١١٦) هود/.

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبَدِيلًا».

و ربما سعى الرجل سعيا لاهتمامه البالغ بالإذار، و حرصه الشديد على سلامه قوله، و هكذا يحرص أصحاب النفوس الطيبة على أمن الناس، و يتفانون في إبلاغ رسالات الله لإنقاذهم من عذابه المحتوم.

قال يا قوم اتبعوا المرسلين لقد كان الرجل منهم، و خاطبهم بما يتناسب و مقام النصيحة، إذ قال:

«يا قوم»، و كشف منذ البدء عن إيمانه حين أمرهم باتباع المرسلين.

و روى أنه كان واحدا من الصديقين الثلاثة في التاريخ، فلقد

جاء في كتاب «الدر المنثور»: أخرج أبو داود و أبو نعيم و ابن عساكر و الديلمي عن أبي ليلى قال:

قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- :

الصَّدِيقُونَ ثَلَاثَةٌ: حَبِيبُ النَّجَارِ (مُؤْمِنٌ آلَ يَاسِينَ) الَّذِي قَالَ يَا قَوْمَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ «، وَ حَزَقِيلُ (مُؤْمِنٌ آلَ فَرْعَوْنَ) الَّذِي قَالَ: «أَتَقْتَلُوكُنَّ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ»، وَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَ هُوَ أَفْضَلُهُمْ ^(١) [٢١] وَ مَضِي الصَّدِيقِ حَبِيبِ النَّجَارِ فِي سَرْدِ حَجَّ الْمُرْسَلِينَ قَائِلًا:

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَشِئُكُمْ أَجْرًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَهَمُوا بِالْكَذْبِ ابْتِغَاءَ الْأَجْرِ، فَهُمْ لَيْسُوا سَاحِرِهِ وَ مَشْعُوذِيهِ، وَ لَا طَلَابُ كِرَاسِيِّ وَ سِيَاسِيِّينَ، وَ لَا أَصْحَابُ ثَرَوَهُ وَ مَتَرَفِينَ، فَلَمَا ذَا يَكْذِبُونَ، وَ إِنَّمَا يَفْتَرُ الْكَذْبَ -خَصْوَصًا فِي مَثْلِ هَذِهِ الدَّعَاوَى الْعَظِيمَةِ- مَنْ يَطْلَبُ أَجْرًا مِنْ أَىٰ

ص: ١١٤

١- (١) راجع تفسير الميزان/ ج (١٧)/ ص (٨٣).

نوع كانت، و سيره الأنبياء كما نمط دعوتهم يشهد لهم بالتزاهه التامه.

و هُمْ مُهَتَّدُونَ بِلِي. قد يدعى البعض دعاوى كاذبه بجهل أو جنون، و حاشا رسول الله من ذلك، إن رصانه دعوتهم، و كمال عقولهم، و حسن سلوكهم و سيرتهم، و وضوح خطفهم، و استقامتهم على الطريق برغم الصعب، كل أولئك شواهد حكمتهم و أنهم مهتدون.

ثم إن مبادره الرسول-أي رسول-بالعمل بما يدعو الناس اليه من مكارم الأخلاق، و حسن الفعال تشهد على صدقه.

[٢٢] ثم إن محتوى دعوه المرسلين شاهد صدق لهم، فهم يدعونا الى الله الذي أخذ علينا ميثاقا في عالم الذر بالإيمان به، الله الذي أودع قلوب البشر فطره الإيمان به، الله الذي تابع نعمه علينا، و تأمننا عقولنا بضروره شكره؟ إن دعوه الأنبياء ليست الى أنفسهم و لا الى عنصر او حزب او طائفه، إنما هي الى الله الذي لا شك فيه، و الذي فطر الجميع على سواء.

و مَا لَيْ لَا أَعْيُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إذا كانت هذه حقيقة رسالات النبيين فلما ذا نكفر بهم؟! و ماذا يملك من فقد ربه الذي خلقه و اليه الميعاد؟! و هكذا نجد هذا الصديق العظيم لم يدع فقط الى اتباع المرسلين، بل شارك في الدعوه الى محتوى رسالاتهم، و هو التوحيد.

[٢٣] ثم ندّد بالشركاء المزعومين، وبيّن أنّ أساس عبادتهم باطل:

أَتَتَخْذُ مِنْ دُونِهِ آلَهَةً فَإِذَا خَضَع لِسُلْطَنِهِ سِيَاسِيَّهُ أَو اجْتِمَاعِيَّهُ أَو اقْتَصَادِيَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَكِي تَعْطِيهِ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ، وَلَكِي تَوَفَّ لَهُ الْحَمَاءِيَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَمَّا غَضْبُ الرَّبِّ، فَهُلْ تَفْعُلُ الْآلَهَهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟! كَلَّا...

إِنْ يُرِدُّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا وَ لَا يُنْقَذُونِ فَلَا يَخْفَفُ العَذَابُ عَنْهُ بِسَبَبِ عَبَادَتِهِ لِلْآلَهَهِ مِنْ دُونِهِ، بَلْ ذَاتُ الْعَبَادَهُ جُرْيِمَهُ نَكَرَهُ يَعْاقِبُ عَلَيْهَا اللَّهُ، وَ لَا تُسْتَطِعُ الْآلَهَهُ إِنْقَاذَ الْمُشْرِكِ مِنْهُ.

[٢٤] إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ لَوْ تَرَكْتُ عَبَادَهُ الْفَاطِرَ الذِي إِلَيْهِ النُّشُورُ، وَ الْقَاهِرَ عَلَى عَبَادَهُ، إِلَى عَبَادَهُ الْآلَهَهُ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَ لَا تَنْفَعُ.

وَ الضَّلَالُ الْمُبِينُ هُوَ: الْضَّلَالُ الْواضِحُ الَّذِي لَا رِيبٌ فِي ضَلَالِهِ.

[٢٥] ثم أُعلنَ للملائِكَهُتِهِ التَّى انتَمَى إِلَيْهَا، وَ تَحْدَاهُمْ بِإِعْلَانِ بِرَاءَتِهِمْ مِنْهُمْ، فَقَالَ:

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَإِنْ يَمْعُونَ وَ لَعْلَهُ أَبْلَغُهُمْ بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَفَضُ الْمُعَانِدُونَ قَبْوِلَ نَصِيحَتِهِ، وَ هَدَدُوهُ بِإِنْزَالِ الْعَقُوبَهُ عَلَيْهِ كَمَا هَدَدُوا الْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِهِ، وَ لَكِنَّهُ اسْتَقَامَ، وَ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَسْمَعُوا شَهَادَتَهُ بِوَحْدَانِيَّهُ الرَّبِّ بِلَا لِبسٍ.

و لا ريب أَنَّ مِنَ الْحَجَجِ الْبَلِيغَهُ عَلَى صَحَهُ الدَّعْوهُ إِيمَانٌ صَاحِبَهَا الَّذِي لَا يَتَرَلِزُ، وَ تَحْدِيهُ الْعَالَمُ بِهَا.

[٢٦-٢٧] وَ فَعْلًا نَفَدُوا التَّهْدِيدَ الْأَرْعَنَ بِحَقِّهِ، فَوَطَئُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى ماتُ، حَسْبُ قَوْلٍ، وَ حَسْبُ قَوْلٍ آخَرَ أَنَّهُمْ رُجُموهُ حَتَّى قُتُلُوهُ.

فَأَدْخُلُهُ اللَّهُ الْجَنَّهُ، وَ حِينَما هُمْ بِدُخُولِهَا تَمَنَّى لَوْ كَانَ قَوْمُهُ مَعَهُ:

قِيلَ اذْخُلُ الْجَنَّهَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْمَلُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ

و جاء في الحديث عن الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ) أنه قال عن مؤمن يس:

«إِنَّهُ نَصَحَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ وَ بَعْدَ مَوْتِهِ» [\(١\)](#) وَ هَكُذا الشَّهَدَاءِ يَتَمَنُونَ لَوْ يَعْادُوا إِلَى الدُّنْيَا لِيُخْبِرُوا أَهْلَهُمْ بِمَا لِلشَّهِيدِ مِنْ مَغْفِرَهِ وَ كَرَامَهُ.

[٢٨] مضى الصديق حبيب النجار شهيداً إلى ربه، ولم يلبث قومه الجبارون من بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله، ولكن كيف تم هلاكهم؟ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَهُ أَوْ مَا أَشَبَهُ، وَ لَعْلَ ذِكْرُ «السماء» هنا للدلالة على أنَّ الأمر المهم كان ينزل من السماء.

وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ

ص: ١١٧

١- ٣) تفسير نموذجه (١٢) / ص (٣٥).

فما كان ينبغي لرب العزه أن يبعث جنداً لمثل هذا القوم.أليس قد تحقق الهدف من دون ذلك؟ [٢٩]فبماذا تم هلاكهم؟ إنما بصيغه واحده جعلتهم في لحظه- كالرماد الخامد، لا حسّ ولا حرّكه ولا حراره.

إِنْ كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ [٣٠]و يعقب السياق على هذه القصه التي لخّصت تجارب الرسالات تقريباً قائلة:

يَا حَسِيرَةً عَلَى الْعِبَادِ إِنَّهَا تَسْتَدْعِي الْحَسَرَاتِ، حَتَّى أَنْ كُلَّ شَخْصٍ يَكُونَ فِي مُثْلِ هَذَا الْمَوْقِعِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَسَّرَ، أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ عَبَادَهُ لِيَرْحَمَهُمْ، وَأَكْرَمَهُمْ بِالْإِرَادَهُ وَالْحُرْيَهُ، فَاخْتَارُوا طَرِيقَ الْهَلاَكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ لِيُنذِرُهُمْ مِنْ مَغْبَهِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَهْزَءُوا بِهِمْ، وَعَرَضُوا أَنفُسَهُمْ لِلْهَلاَكَ الَّذِي يَجْرِي الْحَسَرَاتِ. كَيْفَ ضَيَّعُوا فَرْصَتَهُمُ الْآخِرَهُ بِالْاسْتَهْزَاءِ؟! وَ كَيْفَ أَصْبَحُوا وَقُودَ جَهَنَّمَ، وَ كَانَ مِنَ الْمُرْتَقَبِ أَنْ يَكُونُوا ضَيْوفَ الرَّحْمَنِ فِي الْجَنَّهِ؟! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا - كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَ لَعْلَ الْاسْتَهْزَاءُ هُوَ أَشَدُ أَلْوَانِ الْكُفْرِ، وَ أَبْعَدُ سُبُلِ الْضَّلَالِهِ، حِيثُ يَعِيشُ صَاحِبُهُ حَالَهُ الْعَبِيَّهُ وَ الْلَّاهُتَمَّامُ، وَ مَثَلُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُثَلُ الطَّيِّبِ الَّذِي يَنْصَحُ الْمَرِيضَ بِالدُّوَاءِ، وَ يَحْذِرُهُ مِنَ الْهَلاَكَ، فَبَدِلَ أَنْ يَشْكُرَهُ الْمَرِيضُ، وَ يَبَدِرُ إِلَيْهِ تَنْفِيذُ أَوْامِرِهِ تَرَاهُ يَضْحِكُهُ مِنْهُ. أَوْ لَيْسَ مُثَلُ هَذَا الرَّجُلِ يَسْتَدْعِي الْإِشْفَاقَ وَ الْحَسَرَاتِ؟!

[٣١] و هم يغفلون عن مصير الغابرين الذين أهلکهم الله بکفرهم و استهزائهم، و لم يبق منهم سوى العبره.

أَلَمْ يَرُوا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ وَ أَعْظَمُ مَا فِي الْغَابِرِينَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْعِظَةِ أَنَّهُمْ قَدْ ضَيَّعُوا فَرْصَتَهُمُ الْوَحِيدَةُ، وَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَبَدًا إِلَى أَهْلِهِمْ.

أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ أَلَا نَقْفُ عَلَى أَطْلَالِهِمْ، وَ نَسْأَلُ: أَيْنَ الَّذِينَ عَمِّرُوهَا وَ عَاشُوا فِي ظِلِّهَا، وَ هُلْ يَعْدُونَ يَوْمًا لِيَرَوُا آثارَ الدِّمارِ الَّذِي لَحِقَ بِبِلَادِهِمْ، أَوْ لِيَخْبُرُونَا مَاذَا كَانَ مَصِيرُهُمْ؟ كَلَّا...

[٣٢] بلی. سوف يجتمع الناس كلهُمْ فی يوم الحسره ليحاسبوا حسابا عسيرا، ثم ليجازوا جزاء واقيا.

وَ إِنْ كُلُّ لَمَّا جَعَلْنَا لِمَدِينَاتِنَا مُخْضَرُونَ قَالُوا: إِنَّ حَرْفَ «وَ إِنْ» هُنَا أَصْلُهَا إِنَّ بِالْتَّشْدِيدِ، وَ إِنَّ كَلْمَهُ «الَّمَا» جَاءَتْ لِلتَّأْكِيدِ، وَ هَكُذا يَكُونُ التَّأْكِيدُ يَتَبعُ التَّأْكِيدَ: «إِنْ» لِلتَّأْكِيدِ، وَ «كُلٌّ» تَفِيدُ مَعْنَى التَّأْكِيدِ أَيْضًا، وَ «الَّمَا» وَ الْجَمِيعُ تَأْكِيدُ أَيْضًا.

و قال البعض: «إن» نافية و «الَّمَا» بمعنى إلا، كما يقول القائل: نشدتك بالله لما فعلت، أى إلا فعلت.

و يجوز أن يكون معنى «الَّمَا» هو التوقع، و فيه معنى النفي أيضا، أى لم يقع

حتى الآن و سوف يقع.

و كلمه أخيره:

تقول آخر الدراسات التي بحثت عوامل نشوء الحرب العالميتين: إن البشرية - انساقت إليها انسياقا، فلا أحد من القادة المترافقين كان يريد لها حربا مدمرا لا تبقى ولا تذر، ولكنهم كمن ينحرس في الزحام يدفع ولا يدفع ولا يجد سبيلا للخلاص، انحشروا فيها بلا إرادة ووعي.

كذلك حين تراكم سلبيات الأمم تتفجر في صور شتى، منها:الحروب التي يجازى الله بها العباد. أو لم يقل ربنا سبحانه: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمَ عَيْنَكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يُلْسِكُمْ شِيَعًا وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» (١).

و هكذا تلاشت قوه هتلر و اليابان، وتأخرت أوروبا حتى أضحت القوه الثالثه. لماذا؟ للجرائم التي ارتكبت بشأن الإنسانيه، و لانحراف الكبير عن سنن الله التي لا تتغير.

واليوم كيف يذر رب العزيز الحكيم هذه الجرائم ترتكب بحق خلقه؟! هذا الظلم العريض، و هذا الاستضعاف الشامل، مئات الملايين من خلق الله يظلمهم حفنه من المستكبرين، فهل يهمل الله عباده؟! كلاما... و لكنه يملئ لهم إن كيده متين، فإن لم يرجعوا عن غي THEM، و يعتبروا

ص: ١٢٠

١ - (٤) الانعام / (٦٥).

بمصير القرون التي كانت من قبلهم -كيف أهلكهم الله فلم يرجع منهم أحد أبداً -فإن ترسانات الأسلحة لا بد أن تثور يوماً لتصب الحمم على رؤوس صانعها و الساكتين عنهم من الناس، أو يخسف الله بهم الأرض، أو يسقط عليهم من السماء كسفماً، أو ينشر فيهم وباء كوباء الأيدز فلا يستطيعون ردّه.

إذا علينا جميعاً أن نعي رساله ربنا العزيز الرحيم، و نأخذ إنذاره مأخذ الجدّ، و الا فساعه الجزاء رهيبه، و لا ينفع يومئذ الندم، كما لا تنفع التوبه شيئاً.

اشاره

وَآيُّهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتُهُ أَحْيَنَاهَا وَأَخْرَجَنَا مِنْهَا حَبَّاً فِيهَا جَذَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لَيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرٍ وَمِنْ عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ اللَّذِي خَلَقَ الْمَازِوَاجَ كُلَّهُمَا مِمَّا تُبْتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيُّهُ لَهُمُ الَّلَّيْلُ نَسِيَّلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّلَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ (٤٠) وَآيُّهُ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرَيْتَهُمْ فِي الْفُلُكِ الْمَسْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَاءُ نُعْرِقُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْفَدِونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنْا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)

الله

[٣٩] كالعرجون القديم: العرجون هو العذق اليابس المقوس.

هدى من الآيات:

بعد أن تهئيات النفوس الطيبة، لتلقى آيات الله، و ذلك بذكر العاقبهسوءى التي تعرض لها أصحاب القلوب المغلقة، يشرع القرآن بالتدكير بالله عبر آياته، وأولها آيه الحياة التي يبنها رب في الأرض الميته(كما يحيى بالرساله القلوب) ويخرج منها الحب(الذى يشكل أعظم طعام البشر) كما يجعل فيها جنات ذات أشجار النخيل(المتنوعه الفوائد) و كروم العنب(الذى هو من الثمرات المفيدة كما التمر) و فجر الله الأرض عيونا تجري بالبركات، والأهداف الثلاثة منها هي:أن يستفيد منها البشر رزقا، و ليصنع فيها ما يشاء من حاجاته، و لكي يشكر ربها.

(و بعد آيه الحياة) يذكرنا رب بآياته-سبحانه-في الخليقه، و من أروعها آيه الزوجيه التي تشمل البشر والأحياء و غيرهما(مما تدلنا على أن ربنا منزه عن الحاجه).

(و من طعام البشر و نظام حياته القائم على أساس التراوّج، الى بيان آيات ربنا في الآفاق) هذا الليل كيف يسلخ منه النهار(مما يدل على أنّ أول ما خلقه الله هو النهار، ثم سلخه فكان الليل) فإذا هم مظلمون.

والشمس(التي هي محور منظومتنا) تجري بسهولة و يسر(ولكن ضمن خطه مرسومه، و الى نهايته معلومة تستقر عندها) ذلك تقدير العزيز العليم(الذى رسم للشمس مدارها بعلمه، و سحرها بعزته).

أمّا القمر فقد قدره الله أيضاً(كما قدر الشمس) ضمن منازل يجري عبرها يومياً حتى عاد في نهاية الشهر كما العرجون القديم، ذابلاً مصفرًا.

و كلّما تعمقنا في الخليقه ظهرت آثار التقدير و التدبير أكثر فأكثر، فلا الشمس يجوز لها أن تسارع حتى تكون كالقمر في سرعة حركته(فإن مدار الشمس سنوي و مدار القمر شهري) و لا الليل(الذى يحتوى القمر عاده) يسبق النهار، و يتجاوز حدوده، بل كلّ جرم يسير بسرعة معينه في مداره المرسوم له.

(و هكذا يستطيع البشر أن يطمئن إلى النظام المحيط به، و أن ينظم حياته و فقهه بدقة متناهية، و أن يبني حضارته على هذا الأساس).

و هناك نعمه أخرى ضروريه لسعاده الإنسان و حضارته، هي نعمه السفن التي هي آيه إلهيه. إنها لا يه تهدينا الى ربنا، و تعرّفنا بعزّته و رحمته، فهي تمخر في البحار، و تحمل الناس و البضائع الكثيرة، أمّا في البر فقد خلق الله لنا الأنعام التي تشبه السفن.

(و ليس تسخير السفن أو الانعام من صنع البشر، لأنّه إذا لم يه الله الأمور للاستفاده منها فلن يقدر البشر على ذلك) و دليل ذلك أنه: لو أراد الله إغراقهم

فهل يغىّبهم أحد أو يقدر على إنقاذهم؟ كلاً...

بيان الآيات:

[٣٣] لأنَّ القلب الغافل كالصخرة الصماء لا ينتفع بالآيات شيئاً، فإنَّ المنهج السليم هو إنذاره بتبيهه، و ذلك أولاً: بيان عاقبه الغفلة، و ثانياً: بتخويفه بمصير الغابرين الرهيب، و ثالثاً: بتصوير مشهد من العذاب الأليم الذي ينتظره... كذلك ابتدأت سورة يس بإذار مبين، مما خشعت به القلوب الطيبة و تهافت لاستقبال نور الإيمان الذي تحمله آيات الله في النفس و في الخليقة.

و أولى الآيات هي هذه الحياة التي يعيشها رب الأرض الميته، و هي شبّيه بحياة الإيمان التي ينفحها القرآن بالتذكرة بآيات الله.

و آيَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيَّتُهُ أَحْيَيْنَا مِنْهَا موتَ الْأَرْضِ مِنْهَا، و لَكُنْ حَيَاتُهَا مِنَ اللَّهِ، كَذَلِكَ الْغَفْلَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ يَدِيْ أَنَّ إِيمَانَهُ بِاللَّهِ.

والحياة أروع ما نشاهده في الطبيعة، إننا نحبها لأنّنا أحياها بها و لا نرضى بمقارقة الحياة، و إننا نكرّها و نعظمها لما فيها من آيات القدرة و الجمال.

و يذكرنا ربّ بالحياة التي يعيشها في الأرض الميته لعلنا نزداد معرفه بقدره ربنا على إحيائنا مره أخرى للحساب و الجزاء.

و أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَجاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ أَو لَيْسَ الْحَبْ أَكْثَرُ طَعَامِ أَهْلِ الْعَالَمِ، و زرائعه القمح تعتمد على المطر أكثر من

أى زراعه أخرى؟ [٣٤] و من آيات الله الأشجار التي تظلل الأرض، و من الأشجار التي يستفيد منها البشر و بالذات في المحيط العربي - النخيل، التي تدخل في صناعة الأدوات المترهلة، كما و يبني بها البيوت، و يتخد من ثمرتها طعاما و إداما و سكراء، و يحتفظ بها من أيام ينبعها إلى سائر أيام السنة، و تهدى من بلد إلى بلد، و هي في ذات الوقت أفضل طعام للإنسان، لأنّ فيها أكثر ما يحتاجه الجسم من مواد، حتى روى أنها بمثابة عمه الإنسان،

فعن الرسول الأعظم (ص) قال :

«أَكْرَمُوا عِمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ ۝ وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ إِنَّ الْأَشْجَارَ يَحْتَاجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِهَا، وَ لَعِلَّهُ لِذَلِكَ تَذَكَّرُ بِصُورِهِ مَجْمُوعَهُ «جَنَّاتٌ» وَ قَدْ وَفَّرَ اللَّهُ لِتَنْمِيَهِ الْأَشْجَارَ مِئَاتَ السَّنَنِ الطَّبِيعِيَّهُ، مِنْ خَصُوبَهِ الْأَرْضِ إِلَى حَرَارَهُ الْجَوِيِّ إِلَى وُجُودِ الْمَاءِ وَ اعْتِدَالِ الرِّيَاحِ وَ الْأَمْطَارِ وَ وَ وَ، وَ هَذَا نَسْبَةُ اللَّهِ جَعَلَ الْبَسَاتِينَ إِلَى نَفْسِهِ».

مِنْ نَخْلِيْلٍ وَ أَغْنَابِيْلٍ وَ العَنْبِ - كَمَا التَّمْر - يَحْفَظُ لَغَيْرِ مُوسَمِهِ فِي صُورِهِ زَيْبٌ، وَ هُوَ ذُو فَوَائِدٍ غَذَائِيَّهُ كَبِيرٌ، وَ لَعِلَّ عَدَمُ ذِكْرِ الْكَرْمِ لِقَلْهِ فَائِدَتِهِ بِالْقِيَاسِ إِلَى النَّخْلِ، وَ التَّقَارِنُ بَيْنَ النَّخْلِيْلِ ذَاتِ الْأَرْتِفَاعِ الْكَبِيرِ، وَ الْكَرْمِ الَّذِي هُوَ زَرْعٌ يُشَيرُ إِلَى الْإعْجَابِ . كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ مِنْ هَذِهِ ثَمَرًا وَ مِنْ ذَاكَ عَنْبًا، وَ هَمَا مِتَّسَابِهِانِ بِالرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِ أَصْلَاهُمَا، فَهَذِهِ شَجَرَةُ بَاسْقَهِ وَ ذَاكَ زَرْعٌ مَفْرُوشٌ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ عَلَى مَا يَعْرُشُونَ.

وَ فَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ أَوْ لَا - ينظرون الى شبكة القنوات المنتظمه تحت الأرض، و الأحواض التي تجتمع إليها مياه القنوات؟! ثم اختلاف المستويات على الأرض، مما يساعد على تفجير العيون من الأرض لتزويتها، و يبعث منظرها الخلاب الى معرفه الرب و شكره.

[٣٥] إن التناسق بين حاجات البشر و صنع الله في الطبيعة دليل دقه التقدير، و حسن التدبير، فالبشر بحاجه الى رزق يأتيه رغدا، و إلى هامش من الحرية يستفيد منها في تنوع مصادر غذائه و إظهار إبداعه و فنه، كما يحتاج إلى تنمية وعيه و معرفته، و السكينة النفسيه... و كل تلك الحاجات متكمله في الجنات و العيون.

لِيأكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ فِي قُضُوا حاجاتهم المادية الى الطعام.

وَ مَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ من تنوع في الطعام، و الاستفاده من الماء و الأشجار في بناء البيوت و أدوات المنزل.

أَفَلَا يَشْكُرُونَ فـتطمئن نفوسهم بمعرفه الرب و حبه و الثقه به، مما يعتبر غذاء أساسيا لروحهم و عقولهم و إرادتهم، و هي أعظم من أجسامهم.

[٣٦] و من الطعام و الحاجات الأقرب إلى حياء البشر ينساب السياق إلى أبرز

وجوه الحاجة في الخليقة، فالناس والحيوانات وسائر الأشياء خلقت أزواجاً بحيث يحتاج بعضها إلى بعض، لنعرف أنّها مخلوقه مدبّر أمرها، و نعلم -بالتالي- أنّ خالقها مقدس عن الحاجة، فهو ربُّ السبحان الذي خلق الأزواج كلّها لتكون آية تعاليه عن العجز.

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ هَكُذا كَلِمًا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ عَنَاصِرٍ وَ نَقَاطٍ ضَعْفٍ شَاهِدَهُ عَلَى حَاجَتِهَا إِلَى خَالِقٍ مَدْبُرٍ، أَوْ لَيْسُ الصَّعِيفُ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ، وَ لَا يَدْبُرُ أَمْرَهُ؟! وَ لَوْ خَلَقَ نَفْسَهُ لِأَكْمَلِهَا، وَ لَوْ دَبَرَهَا لِأَغْنَاهَا، وَ لَكِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- أَرَكَ الْخَلَقَ فِي الْضَّعْفِ، وَ أَحْوَجَهَا إِلَى بَعْضِهَا، لِتَشْهُدَ بِأَنَّ خَالِقَهَا غَنِيٌّ مَقْتَدِرٌ، وَ لَوْ افْتَرَضْنَا فِي خَالِقَهَا ضَعْفًا لِرَجْعِ الْخَالِقِ مَخْلُوقًا، وَ لِصَدْقِ فِيهِ مَا صَدِقَ فِي سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْحَاجَةِ إِلَى مَدْبُرٍ أَعْلَى مِنْهُ.

وَ هَكُذا افْتَحَتِ الْآيَةُ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ، لِأَنَّهَا تَذَكَّرُنَا بِعِجْزِ الْمَخْلُوقَاتِ، بَيْنَمَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كَانَتْ تَذَكَّرُنَا بِآيَاتِ الْقُوَّةِ فِيهَا.

وَ سُبْحَانُ -كَمَا قَالُوا- عِلْمُ دَالٍ عَلَى التَّسْبِيحِ، وَ تَقْدِيرُهُ سَبَّحٌ تَسْبِيحُ الدُّنْيَا خَلَقَ الْأَزْوَاجَ.

مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ فَقَدْ خَلَقَ النَّبَاتَاتَ أَزْوَاجًا، مِنْهَا مَا كَانَ مَعْرُوفًا لِدِي نَزُولِ الْقُرْآنِ، وَ مِنْهَا مَا كَشَفَهُ تَقدِيرُ الْعِلْمِ الْيَوْمِ مِنْ أَنَّ فِي كُلِّ النَّبَاتَاتِ ذَكْرًا وَ أَنْثِي، وَ أَنَّهُ قَدْ يَتَمَّ تَلَاقُهُمَا بِفَعْلِ الْبَشَرِ -كَمَا يَتَمَّ تَلَقِّيَنِيَّ النَّحْلُ أَوِ النَّحْلُ أَوِ الْأَشْبَابُ.

وَ مِنْ أَنفُسِهِمْ حِيثُ الْحاجَةُ إِلَى الزَّوْجِ عَمِيقَهُ الْجَذُورُ فِي النَّفْسِ وَ فِي الْجَسْمِ، وَ هِيَ تَعْكِسُ ضَعْفَ الْبَشَرِ حِيثُ لَا يَكْتُمُ الْواحِدَ إِلَّا بِكُفَّهُ، حَتَّى وَ لَوْ طَغَى فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ يَعِيشُ مَحْتَاجًا إِلَى زَوْجٍ، وَ قَدْ تَجْمَحَ بِهِ الرَّغْبَهُ حَتَّى تَفْقَدَ صَوَابَهُ، وَ قَدْ قَالَ نَابِلِيُونَ -
الَّذِي طَغَى فِي الْأَرْضِ - مِرْهُ لَوْلَدَهُ: أَنْتَ تَحْكُمُ الْعَالَمَ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: لَا تَكَ تَحْكُمُ أَمْكَ وَ أَمْكَ تَحْكُمَنِي.

وَ كُمْ يَرَوِيُ التَّارِيخُ لَنَا قَصَصًا عَنِ الْجَابَرِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَرْكَعُونَ أَمَامَ نَسَائِهِمْ.

أَوْ لَيْسَ ذَلِكَ دَلِيلُ ضَعْفِهِمْ، وَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا آلَهَهُ كَمَا يَزَعُمُونَ؟! وَ هَذَا فَرَعُونٌ يَرْبِّي عَدُوَّهُ فِي بَيْتِهِ - بِالرَّغْمِ مِنْ تَخْوِفِهِ مِنْهُ - لِأَنَّ زَوْجَهُ طَلَبَتْ مِنْهُ ذَلِكَ فَانْقَادَ لَهَا، وَ ثَبَتَ لِلْعَالَمِ أَنَّ مَنْ يَزَعُمُ أَنَّهُ الرَّبُّ الْأَعْلَى تَحْكُمُهُ زَوْجَهُ.

وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ فَحَتَّى الْمَوْجُودَاتُ الْأُخْرَى يَكْمَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ابْتِداَءًا مِنَ الْذُرُّهِ الْمُتَنَاهِيِّ فِي الصَّغْرِ - الَّتِي تَتَرَكَبُ مِنْ بِرْوَتُونَ وَ إِلْكْتَرُونَ - وَ حَتَّى الْمَجَرَاتُ الْمُتَنَاهِيَّةُ فِي الْإِتَاسَعِ.

وَ لَا يَزَالُ الْبَشَرُ دُونَ مَسْتَوِيهِ مَعْرِفَهُ كُلَّ خَصَائِصِ الزَّوْجِيَّهِ.

وَ كَلَمَا تَعَمَّقْنَا فِي مَعْرِفَهِ حَاجَهُ الْأَزْوَاجِ إِلَى بَعْضِهِمْ كَلَمَا عَرَفْنَا دَقَهُ التَّدْبِيرِ، وَ سَلَامَهُ النَّظَمِ، وَ قَوْهُ الْهَيْمَنَهُ عَلَى الْخَلِيقَهِ، وَ بِالْتَّالِي
كَانَتْ لَدِينَا فَرْصَهُ مَعْرِفَهُ رِبِّنَا أَكْثَرُ فَأَكْثَرُ.

[٣٧] دَعَوْنَا نَنْظَرُ إِلَى هَذَا الْأَفْقَ العَرِيْضَ الَّذِي يَتَسَعُ أَمَامَنَا بِلَا حَدُودٍ نَعْرِفُهَا،

لَا لَكَ نَخْشَى مِنْ آيَاتِهِ وَ لَا لَكَ نَتْمَّعُ بِجَمَالِ مَا فِيهِ، وَ لَكَنْ لَزِدَادٌ وَعِيَا بِهِ وَ مِنْ خَلَالِهِ بِأَنفُسِنَا، فَهَذَا اللَّيلُ يُلْبِسُهُ رَبُّنَا الْحَكَمَ
ثِيَابَ النَّهَارِ بِمَا يَسْبِغُ عَلَيْهِ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَ دَفْئِهَا وَ حَرْكَتِهَا، ثُمَّ يُسْلِخُهُ مِنْهُ فَيَعُودُ كَمَا كَانَ، مَظْلَمًا هَادِئًا إِلَّا مِنْ رَوَابِطِ النَّهَارِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَا يَهُ، دُعُونَا نَبْصُرُهَا.

وَ آيَةُ لَهُمُ الَّلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظَلَّمُونَ تَعَالَوْا نَظَرُ هَذِهِ الْمَرَهِ إِلَى الْلَّيْلِ حِينَ الغَرَوبِ كَمَا نَظَرَ إِلَى الذَّبِيْحَهِ حِينَ يُسْلِخُ
جَلَدَهَا، لِنَبْصُرَ يَدَ الْقَدْرَهِ الْإِلَهِيَّهِ كَيْفَ تَفْعُلُ ذَلِكَ بِلَطْفٍ وَ بِإِتقَانٍ وَ بِنَظَامٍ دَقِيقٍ.

[٣٨] وَ آيَهُ النَّهَارُ هِيَ هَذِهِ الْكَرَهُ النَّارِيَهُ الْمُلْتَهِبُهُ الَّتِي نَسْمَيْهَا بِالشَّمْسِ، وَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ بِنَتَهَا الْأَرْضِ، مَلِيونٌ وَ مَائَتَيْ أَلْفٍ
مَرَهُ. كَيْفَ تَجْرِي فِي السَّمَاءِ بِيُسْرٍ وَ بِدَقَّهٍ، فِي حَرَكَهِ مُسْتَقِيمَهِ نَحْوَ مُسْتَقِرَّهَا النَّهَائيَّهِ، عِنْدَ نَجْمَهُ (وَغَآ) الْبَعِيْدَهُ وَ تَسْتَقِرُ فِي يَوْمٍ حِيثُ
تَكُوْرُ، ثُمَّ يَلْقَى بِهَا فِي جَهَنَّمَ فَتَصْرُخُ مِنْ حَرَّهَا.

وَ الشَّمْسُ تَعْجِرِي لِمُسْتَقِرَّهَا مِنَ الذِّي سَخَّرَهَا وَ سَيَرَهَا فِي سَيْلَهَا الْمَحْدُّدِ لَا تَتَخَطَّى بِوَصْهِ وَاحِدَهُ؟! إِنَّهُ اللَّهُ الْمَهِيمُ بِعَزَّتِهِ عَلَى
الْخَلِيقَهِ، وَ الْمَدِيرُ بِعِلْمِهِ أَمْورُهَا بِدَقَّهٍ.

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْغَزِيزِ الْعَلِيمِ [٣٩] أَمَّا الْقَمَرُ الَّذِي يَدُورُ فِي فَلَكِهِ مِنْ مَنْزِلٍ لَمْتَزَلِ، بِدَقَّهِ مُتَنَاهِيَّهِ تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الْهَيْئَهِ يَعْرُفُونَ مُسِيرَتَهِ حَتَّى
بَعْدَ مَأْهُوْلِ أَلْفِ عَامٍ، فَهُوَ آيَهُ الْلَّيْلِ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَزِدَادَ إِيمَانًا بِسُلْطَانِ رَبِّنَا.

وَ الْقَمَرُ قَدَرَنَاهُ مَنَازِلَ

لعل هذه المنازل هي المحطات اليومية التي يكبر ثم يصغر القمر عندها في كل ليله،منذ ولادته هلالا حتى تغيب في المحقق.

حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ هل اثار انتباهك يوما بقيه عرجون على النخل، بعد أن قطف ثمرة، وبقى أصله في أعلى النخل مصفرًا ذابلا؟ كذلك منظر القمر في آخريات الليل عند نهاية الشهر.

إن حركة الشمس والقمر المتناهية في وقتها حتى أنها لو حسبت بجزء من مليون جزء من الثانيه لما وجدت فيها اختلافا، إنها لا يه النظام العجيب الذي يجري عليه هذا الكون، والقدرة الإلهيه التي تضبطها، وهو في ذات الوقت دليلنا الى ضبط الوقت و تحديد الزمن.

والزمن هو أعظم مقياس لحضاره الإنسان، فكلما زاد ضبطه واحترامه كلما تقدم البشر في حقول المدئيه.

[٤٠] و ثبات نظم الموجودات دليل هيمنه رب العزيز، فهذه الشمس تجري في بروجها الإثنى عشر كل عام مره (على أن الذي يجري هو كوكب الأرض في الحقيقة، إلا أن ذلك هو ما يتراءى لنا، و نعبر عنه وبالتالي حسب ما نرى فنقول:

طلعت الشمس و غربت و زالت، وإنما أرضنا هي التي تدور عليها).

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فالقمر يدور في منازله كل شهر مره، بينما الشمس كل سنة مره، ولا ينبغي للشمس أن تتسرع سرعة القمر فتترى علينا الفصول الأربع في شهر واحد.

وَ لَا۔ الَّلَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ فَلَا تَدْخُلُ سَاعَاتُ الْلَّيْلِ فِي النَّهَارِ، إِلَّا بَقْدَرٍ وَ حَسْبٍ نَظَامٌ ثَابِتٌ مِنْذُ مَلَائِينِ السَّنِينِ، وَ هَكُذا تَكُونُ حَرْكَةُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرُقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ثَابِتَةً.

وَ لِعَلِ الْآيَةِ أَشَارَتْ أَوْلًا إِلَى ثَبَاتِ نَظَامِ الدُّورَةِ السَّنِيَّةِ لِلنَّشْمَسِ، ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى ثَبَاتِ نَظَامِ الْلَّيْلِ وَ النَّهَارِ.

وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ كُلُّ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ الْكَوَاكِبِ وَ النَّجُومِ تَتْحَرَّكُ بِسُرْعَهٖ فِي أَفْلَاكِهَا، وَ لَكُنْ دُونَ أَنْ تَحِيدَ عَنِ النَّظَامِ الْقَائِمِ قِيَدَ شِعْرِهِ أَوْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى عَزَّهُ الرَّبِّ، وَ دَقَّهُ صَنْعَهُ، وَ حَسْنَ تَدْبِيرِهِ، وَ لَطْفِ إِجْرَائِهِ لِلسَّنِنِ الَّتِي قَدَّرَهَا؟! وَ الْفَلَكُ هُوَ الْجَسْمُ الدَّائِرِيُّ، وَ هَكُذا تَكُونُ فِي الْآيَةِ إِشَارَهُ إِلَى حَرْكَةِ الدَّائِرَيِّ لِلْأَجْرَامِ السَّمَاوِيِّهِ.

وَ إِذَا أَخْذَنَا الشَّمْسَ مثلاً لِهَذِهِ الْأَجْرَامِ نَجِدُهَا تَتْحَرَّكُ فِي أَفْلَاكِ مُخْتَلِفَهُ، فَهُنَّ تَدْوَرُ حَوْلَ نُفُسُهَا كُلَّ خَمْسَهٖ وَ عَشْرِينَ يَوْمًا دُورَهُ وَاحِدَهُ، وَ تَدْوَرُ مَعَ سَائِرِ كَوَاكِبِ الْمَجْرَهِ الَّتِي هِيَ فِيهَا بِسُرْعَهٖ مَلِيُونٍ وَ مَائَهُ وَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ كِيلُومُترًا تَقْرِيبًا فِي السَّاعَهِ الْواحِدَهُ، وَ هِيَ تَحْرِي فِي ذَاتِ الْوَقْتِ نَحْوَ مُسْتَقْرِرَهَا بِسُرْعَهٖ اثْنَيْنِ وَ سَبْعينَ أَلْفَ وَ أَرْبَعِمَائِهِ كِيلُومُترًا فِي السَّاعَهِ الْواحِدَهُ، وَ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ تَدْوَرُ اقْمَارُهَا حَوْلَهَا بِنَظَامٍ ثَابِتٍ وَ دَقِيقٍ، وَ تَتْحَرَّكُ سَائِرُ الْأَجْرَامِ فِي هَذَا الْفَضَاءِ الرَّحِيبِ، كُلَّ فِي فَلَكٍ دُونَ أَنْ يَصْطَدِمُ الْوَاحِدُ بِالآخرِ أَوْ فَلَا يَهْدِيَنَا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى رَبِّنَا الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ؟!

و هكذا دبَّ اللَّهُ شؤون مملكته العظيمه، أحيا الأرض بالغيث و رزق الإنسان منها، ونظم شؤونه بثبات نظام الأرض و الشمس و القمر، و أعطى للإنسان فرصة التكامل عبر النظام الذي هو ركيزه أساسيه من ركائز الحضاره.

[٤١] و يذَكِّرنا السياق بالركيزه الثانيه، و هي وسائل النقل، فلو لا قدره البشر على الانتقال بنفسه و ببعضه لما استطاع أن يبني حضاره، و أعظم وسائل النقل هي السفن، فمن أقدم العصور و حتى اليوم كان متن الماء صهوة السفن المختلفه التي حملت الإنسان و المواد أكثر من جميع الوسائل الأخرى، و لا تزال السفن أفضل الوسائل و أرخصها و أكثرها شيوعا، و لذلك لا بد أن تكون للدوله المستقله منافذ على البحر، و الدول المهدده التي لا تملك مثل ذلك تعاني الكثير من الصعاب.

وَ آتَيْهُ لَهُمْ أَنَّا حَمَدْنَا ذُرَيْتَهُمْ فِي الْفَلْكِ الْمَسْحُونِ إِنَّ اللَّهَ وَ لِيسَ الإِنْسَانُ سَخَّرَ الْفَلَكَ لِحملِ الْبَشَرِ عَبْرَ الْمَحِيطَاتِ وَ لَعِلَّ كَلْمَه «ذريتهم» تعنى أمثالهم و نظائرهم، ذلك لأنَّه ليس كُلَّ الناس يرَكُون السفن، و قال البعض: إنَّ معناها أطفالهم، لأنَّ الطفل رمز الحنان، و حمله في السفينه يعكس متهى رحمة الله بالإنسان، على أنه كان من الصعب على الأطفال ركوب الأنعام.

و أكَّد السياق على أنَّ السفينه مملوءه بالبصائع، لأنَّ الفلك المشحون أقرب إلى الغرق لثقله، و أظهر دلالة على نعمه الله حيث حمل الإنسان و حاجاته مره واحده.

[٤٢] و خلق الله للإنسان ما يشبه السفينه من الدواب التي تحمله من بلد لبلد.

وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرَكُبُونَ

من الذى خلق الأنعام، و سخرها لنا؟ أو ليس الله؟! فلما ذا الكفر به، و التمرد على سلطانه؟! [٤٣] إن العوامل الغيبية التى تؤثر فى الطواهر المادية تفقد الإنسان قدره الدفاع عن نفسه، فلا تزال أمواج البحر تتبع المزيد من ضحايا العاصف الهوج، و لا تزال حوادث مثل انفجار تشيلنجر التى سماها صانوها بـ(التحدي) تذكر الإنسان بأن قدرته محدودة و هى مستمدة من الله، و انه إذا غضب الله عليه فلا أحد بقدار على أن ينقذه.

إِنَّكَ إِذَا ذَهَبْتَ إِلَى مَكْتَبٍ مِّنْ مَكَابِرِ التَّأْمِينِ فِي كَالْفُورِنِيَا فِي أَمْرِيْكَا، وَ طَلَبْتَ مِنْهُمْ التَّأْمِينَ ضِدَّ كُلِّ الْأَخْطَارِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: بَلِيٌّ وَ لَكِنْ إِذَا ابْتَلَعَ الْبَحْرُ هَذِهِ الْوَلَادِيَّةَ -كَمَا يَتَوَقَّعُ بَعْضُ عَلَمَاءِ الْجِيُولُوْجِيَا- فَإِنَّنَا وَ إِيَّاكُمْ سَوْفَ نَكُونُ مَعًا ضَحَايَا تِلْكَ الْزَّلَازِلِ.

وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِفُهُمْ فَلَا- صَرِيحَ لَهُمْ وَ لَا- هُمْ يُنْقَذُونَ وَ لَعِلَّ قَاعَ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ فِي أَرْضِ فَلَسْطِينِ يَنْطَوِي عَلَى بَعْضِ آثارِ قَوْمٍ لَوْطٍ الَّذِينَ انْقَلَبْتُ قَرَاهِمَ بِفَعْلِ حَرْكَهِ بِسِيطَهِ لِجَنَاحِ جَبَرَائِيلَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَغْيِثَ مَثْلَ هُؤُلَاءِ غَيْرَ رَحْمَهِ اللَّهِ؟! وَ قَبْلَ أَيَّامٍ حِينَما احْرَقَتْ مَسَاحَاتٍ شَاسِعَهُ مِنْ غَابَاتِ الْصِّينِ، لَمْ تَسْتَطِعْ إِحْمَادَهَا الْوَسَائِلُ الْبَشَرِيَّهُ، وَ إِنَّمَا أَطْفَأَهَا هَطُولُ الْأَمْطَارِ الْطَّبِيعِيهِ.

لَا أَحَدٌ يَغْيِثُ مِنْ غَضْبِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَ لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ إِنْقَاذَهُمْ حَتَّىٰ وَ لَوْ وَجَدَ مَنْ يَهْرُعُ لِإِنْقَاذِهِمْ.

[٤٤] بلی. رحمه الله التي تتجلّى عند الكوارث، و تنقذ البعض بصورة عجيبة، هي الملجأ الوحيد عند غضب الجبار.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ عَادَهُ مَا نَجَدَ بِقَايَا لِكَوَارِثِ طَبِيعَتِيهِ أَنْقَذَتْ بِمَا نَسَمَّيْهُ (الصَّدْفَهُ) فَسِيَارَهُ كَبِيرَهُ تَنَقَّلُبُهُ، وَ يَمُوتُ جَمِيعُ رَكَابِهَا، غَيْرُ طَفْلٍ رَضِيعٍ، أَوْ سَفِينَهُ ضَخْمَهُ تَغْرِقُهُ، وَ لَا يَنْقَذُهُمْ مِنْهَا إِلَّا رَجَالٌ مَعْدُودُونَ، يَتَعلَّقُونَ بِخَشْبِهِ، أَوْ يَبْتَلُعُ زَلْزَالٌ قَرِيبَهُ، وَ لَكِنْ عَجَوزَهُ خَاوِيَهُ تَسْتَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الْأَنْقَاضِ بَعْدِ عَشَرَهُ أَيَّامٍ سَالِمَهُ، وَ حَتَّى عَنْدَ هَلَاكَ ثَمُودَ وَ عَادَ وَ قَومَ لَوْطَ وَ قَومَ نُوحٍ، بَقَى الرَّجَالُ الصَّالِحُونَ يَرَوُونَ لَنَا تَلَكَ الْمُثَلَّاتِ، وَ لِيَكُونُوا شَهُودًا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللهِ.

وَ مَتَاعًا إِلَى حِينِ الَّذِينَ أَنْقَذُوا مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَهُ لَيْسُوا أَنْصَافَ آلِهَهُ، بَلْ إِنَّمَا تَأْخَرَتْ آجَالَهُمْ لِحِينِ، إِنَّمَا جَاءَ أَجَلَهُمْ إِنْ أَبْسَطَ الْأَسْبَابَ كَفِيلٌ بِهِلَاكِهِمْ.

اشاره

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِعُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمْهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِيَحَّةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ لَا يَخْصِمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَهُ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْيَادِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِتَلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتِ إِلَّا صِيَحَّةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدِينًا مُخْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُعْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُنَكَّوْنَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَهُ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَيِّلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَإِمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

اللغه

[٤٩] يخصمون: يختصمون في أمورهم، من خصم وأصله اختصم.

[٥١] الأجداث: جمع جدث وهو القبر.

[ينسلون]: يخرجون سراعا إلى الموقف، فإن النسoul هو الإسراع في الخروج.

[الأَرَائِكَ]: جمع أَرِيكَه و هى السرير الذى يصنع للعروس.

[أَمْتَازُوا]: انفصلوا عن جماعه المؤمنين.

ص: ١٣٨

هدي من الآيات:

بعد أن ذكرنا الآيات بربنا العزيز الرحيم، جاءت تفند شبهات الكفار (لتحصن ضدها) فإذا قيل لهم: اتقوا عذاب الدنيا و عقاب الآخرة، وجئ إليهم بالآيات أعرضوا، وإذا قيل لهم: أنفقوا بزرروا بخلهم بآن الله لو شاء أطعم الفقراء (و إذا خوفوا بالساعه) يقولون: متى هذا الوعد؟ (ولكى تخشع القلوب، و تستعد لفهم الحقائق، و تنقض عنها سحب الغفله، يذكر السياق بالساعه، و يقول:) ماذا ينتظر هؤلاء (و ماذا يستعجلون؟) إنها ليست إلا صيحه واحده تأخذهم و هم فى جدارهم الفارغ (حول حقائق الرساله) فتأتيهم بعثه بحيث لا يستطيعون كتابه توصيه و لا إلى أهلهم يرجعون (و بعد أن يمكثوا ما شاء الله فى القبور) ينفعن الصور فإذا هم يخرجون من أجاداثهم، و بصيحه واحده تراهم حاضرين أمام ربهم (و هم يزعمون أنهم كانوا نيااما) و يتساءلون: مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟! فتأتيهم الجواب: **هذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**، و يكشف السياق عن مشهدين من

مشاهد القيامه،بعد أن يثبت عداله الجزاء:فهنا ترى أصحاب الجنه فى شغل (يتلذذون و هم)فاكهون، بينما ينفصل المجرمون عنهم.

بيانات من الآيات:

[٤٥]بصائر القرآن تهدى الى أن حياه البشر هي نتيجة ثقافته و سلوكه، عقيدته و عمله، و هكذا تجعل -هذه البصائر- لكل ظاهره أو حدث سببا متصلة بإراده البشر و اختياره، و بعكسها تماماً أفكار الجاهليه-قديمهما و حديثها- فهي تفضل في ربط حياه البشر بسلوكه، لأنها لا تؤمن بالغيب، و لا تعترف إيه يقدر و يدبر، برب يهيمن و يسيطر، فلا تقدر على ربط ما يجري على الإنسان بما يفعله، فإذا أصيب المؤمن بمرض أو فقر أو ذلة، فتش عن سبب ذلك، و عاده يجده في ذنب ارتكبه فعاقبه الله بذلك البلاء ليظهره، بينما يبقى الكافر سادرا في غيه، إذ لا يعتقد بأن هناك مدبرا لشؤون العباد، و بالتالي ينسب كل شيء للصدفة، أو لأسباب ظاهره لا تغنيه علما، و لا تفيده حكمه و رشدا.

و هكذا كانت ثقافه المؤمنين عقلانيه، و ثقافه غيرهم جاهليه، لأن زعموا العلميه و العقلانيه.

و هكذا نرى السياق القرآني هنا يذكر بالتفويى بعد سرد آيات الرحمن، لأن معرفه الرب و سلطانه هي صله الربط بين عمل البشر و جزائهم.

أمّا الکفار فإنّهم يعرضون إذا أمرّوا بالتفويى، لأنّهم لا يؤمّنون برب يدبر شؤونهم، فلا يعلمون أن ما يصيّبهم من ضرّاء و بأساء فإنّما بما كسبت أيديهم، فكيف يتقوّنهم؟ و إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم

من عذاب الدنيا، من صيحة واحده تصيبكم كما أصابت قوم المرسلين في أنطاكيه، من غرق أو حرب أو أي بلاء آخر.

وَمَا خَلْفُكُمْ مِنْ عَذَابٍ إِلَّا مَا يُرَدُّونَ

وفي الحديث المأثور عن الإمام الصادق -عليه السلام- أنه قال :

«اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب، وما خلفكم من العقوبة » (١) لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ إِذَا اتَّقَيْتُمُ الْعَذَابَ بِاجْتِنَابِ الْمُعَاصِي فَإِنْ ذَلِكَ يُوْفَرُ لَكُمْ فِرْصَةٌ رَحْمَةُ اللَّهِ.

[٤٦] وَلَكُنْهُمْ يَعْرِضُونَ لِجَهَلِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِالآيَاتِ الَّتِي تَتَرَى عَلَيْهِمْ، وَكُلُّهُمْ تَنْطَقُ بِضُرُورَةِ التَّقْوَى.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُرْعِضِينَ وَهُلْ تَنْفَعُ الْآيَاتُ مِنْ يَعْرِضُونَ [٤٧] وَيُضَرِّبُ السِّيَاقُ الْأَمْثَالَ لِعِرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِ التَّقْوَى، وَالْمَعَاذِيرُ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا أَمَامًا مِنْ يَأْمُرُهُمْ بِهَا، فَحِينَ يُؤْمِرُونَ بِالإنْفَاقِ عَلَى الْفَقَرَاءِ، تَرَاهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قَدْ خَلَقَ بَعْضَ النَّاسِ أَغْنِيَاءَ وَبَعْضَهُمْ فَقَرَاءَ، بَعْضَهُمْ

ص: ١٤١

١- (١) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣٨٩).

ساده و البعض عبيدا، فلا ينبغي السعي لردم الفجوة بين الطبقات، أو لتحقيق المساواه بين الناس. هكذا يبررون استثمارهم بالخيرات في كل عصر، فالمستكرون يزعمون أن تخلف البلاد المستضعفه شأن مفروض عليهم من الله، أما تقدّمهم الاقتصادي فإنه من أنفسهم، والطبقات المترفة تزعم أن غناهم آت من سعيهم، أما فقر الآخرين فهو من ربهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْقَاتِلُ هُوَ اللَّهُ أَوْ الْمُؤْمِنُونَ النَّاطِقُونَ عَنْ رَبِّهِمْ، فَإِنَّ إِجَابَتِهِمْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الرُّفْضُ، وَلَكِنْ أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ الْغَنِيَّةِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ - رَزْقُ اللَّهِ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لِمَنْعِمَهُمْ مِنْهُ؟ أَوْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى أَنَّ تَوزِيعَ الْمَعَادِنَ عَلَى أَفْطَارِ الْأَرْضِ تَمَّ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَنَّ خَصُوبَةِ الْأَرْضِ كَانَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَهُنَّ تَوَفَّ الْمَنَاطِخُ الْمُنَاسِبُ لِنَمْوِ الصَّنَاعَةِ كَانُوا بِإِذْنِ اللَّهِ؟ وَلَوْ تَدَبَّرَ كُلُّ غُنْيَّ فِي الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ لِنَمْوِ ثَرَوَتِهِ لِرَأْيِ يَدِ الْغَيْبِ وَرَاءَهَا، فَأَوْلَى بِهِمِ الْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، مَا دَامَ اللَّهُ يَأْمُرُ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَخْلَفَهُمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ بِهِ أَلَا - يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ يَوْحِيُ بِأَنَّهُ جَاءَ لِهَذِهِ الدُّنْيَا لِكَيْ يَمْتَحِنُ؟ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ امْتِحَانَ الْفَقِيرِ بِالْغَنِيِّ لِيَرَى هُلْ يَصْبِرُ، وَامْتِحَانَ الْغَنِيِّ بِالْفَقِيرِ لِيَعْلَمْ مِنْ يَنْفُقُ وَمِنْ يَبْخُلُ، وَافْتَنَ الْعَالَمَ بِالْجَاهِلِ وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَعْلَمَ كَمَا ابْتَلَى الْجَاهِلَ بِالْعَالَمِ وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَجَعَلَ الْحَكَامَ فَتَنَهُ لِلنَّاسِ وَافْتَنَ النَّاسَ بِحُكْمَهُمْ وَقَالَ عَزِّزُ مِنْ قَاتِلٍ: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِيَعْضُ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا» [\(١\)](#).

وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ زَعَمُوا أَنَّ غَنَاهُمْ وَعَدْ الْفَقَرَاءِ أَمْرٌ حَتَّمِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا

ص: ١٤٢

و هكذا خاطب الكفار الذين آمنوا لأنهم الذين أمرتهم بالإنفاق، وأنهم المؤمنون بالله، فكان الأحرى بهم -حسب زعمهم- أن يؤمنوا بالقدر، فقالوا:

أَنْطِعُمْ مَنْ لَوْيَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ وَلَمْ يَقُولُوا أَنْفَقَ، لَأَنَّهُمْ مَنْعَوْا عَنِ الْفَقَرَاءِ حَتَّى الْطَّعَامُ الَّذِي هُوَ حَقٌ كُلُّ حَيٍ، فَكَيْفَ بِالْإِنْسَانِ
الْكَرِيمِ عِنْدِ رَبِّهِ.

أنظر إلى مدى إمعانهم في البخل، والإعراض عن التقوى؟ بل الله يطعم من يشاء من رزقه الواسع، ولكنّه جعل رزق هؤلاء
الفقراء على أيديكم، لينظر كيف تعملون، وهو القائل -حسب

حديث قدسي :-

«المال مالى، والفقراء عبالي، والأغنياء وكلائى، وخيرهم خيرهم لعيالى» ثم أن ربنا سبحانه وأكرم بنى آدم فجعلهم أحرازاً في
الدنيا، ووفر في الأرض ما يزيد على رزقهم، إلا أن كسل البعض عن السعي بأفكار جاهلية، واستئثار البعض برزق الآخرين تحت
مظلة من القوانين الجائرة، مما السببان الرئيسيان لانتشار الفقر، ومن أساليب محاربه الفقر نبذ الثقافة الجاهلية، وإصلاح الأنظام
الجائرة، والإإنفاق واحد من أهم السبل لمحاربه الفقر لأنّه علاج فوري، ووسيلة مستقبلية أيضاً لتوزيع الثروة وتدويرها وتحريك
الطاقة بها.

ولكن الكفار جمدوا الثروة، و Zumوا أنها حقهم الإلهي بل قالوا لمن أمرهم بالإإنفاق:

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ لَأَنَّكُمْ تَرِيدُونَ تَغْيِيرَ سُنَنِ اللَّهِ، وَجَعَلَ الْفَقَرَاءَ أَغْنِيَاءَ، وَهُمْ قَدْ خَلَقُوا فَقَرَاءَ.

ص ١٤٣

و ترك السياق لقارئ القرآن الحكم على هذه العقلية، و لا ريب أنّه يحكم عليها بالضلال المبين، و لذلك احتار المفسرون في معرفه قائل هذه الكلمة، فمنهم من قال: إنّهم الكفار، و منهم من قال: بل هم المؤمنون قالوا لها للكفار، و قال بعضهم:

بل الله قالها للكفار.

و الظاهر أنّها كلام الكفار للمؤمنين، و لكنّها تردّ عليهم بطبعها، فبمجرد أن يقول المجنون للذى يأمره بالحكم: إنّك مجنون، نعرف أنّ المتكلّم نفسه مجنون.

أليس كذلك؟ هكذا نعرف ضلاله الكفار بمجرد أنّهم يقولون لمن يأمرهم بالإنفاق:

إنّك في ضلال مبين، كلاً... إنّهم هم في ضلال مبين! [٤٨] من التبريرات النفسيّة التي يتشبّث بها الكفار هو استبعاد الجزاء زمانياً، و نجد في آيات الذكر ردّ هذه الشبهة بكلمات بليغه نافذه، فالجزاء ليس لعباً حتى يستخفّ به، إنّه الساعه التي ثقلت في السموات والأرض، فما ذا ينتظرون؟ و بهم يستهزءون؟ و يقولون متى هذَا الْوَعْدُ و بالرغم من أنّ كلامه «متى» أصلاً للاستفهام، إلا أنّها هنا جاءت للاستنكار بدليل قولهم:

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ جَزَاءً عَاجِلًا بَعْدَ أَنْ أَنذَرُوهُمْ بِالْعَذَابِ، وَ أَمْرُوهُمْ بِاتِّقاءِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

[٤٩] إنّ النفس البشرية لا ترى بطبعها إلا ما أمامها من الحقائق المشهودة،

و لاـ تتأثر بالمستقبل البعيد حتى و لو كان من الحقائق المعلومه يقينا، و بضغط من الشهوات العاجله، و بوساوس إبليس تعرض النفس عن الغيب للشهود، و عن المستقبل للحاضر، و لا بد من تصوير الغيب، و إبراز مشاهد من المستقبل حتى تهتم النفس بها، و لعل منهج القرآن في تصوير مشاهد البعث و الجزاء باستثاره قوه الظن و الخيال يتم لهذه الغايه، فهو ليس مجرد أسلوب في البيان، بل هو منهج علمي لإصلاح النفس، و إيجاد التوازن بين قوه الشهود و حقائق الغيب، و إنما المؤمنون الذين يستشرفون المستقبل، و ينظرون الى الغيب بقوه الظن، و يستثرون كوامن الخوف و الرجاء بالذكره الذاتيه.

و السياق هنا يصور جانبا من مشاهد الهالك ثم النشور و الجن و النار.

ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون إنهم يستعجلون العذاب، و يقولون: متى هذا الوعد؟ بلـ و لكنـهم ينتظرون بذلكـ أمرا عظيما، إذا جاء لا يمكن رده أو تأجيله، فإنـما هو صيحـه واحدـه لا ثانية لها، لأنـها القاضـيه، و هـى تعمـهم بالأـخذ بـغـته فـى وقت تراهم يخوضـون فى جـدلـياتـهم التـى لا تـغـنى شـيـئـا.

و الإنسان يتمنىـ عـادـهـ لو يـغـيرـ الحقـائقـ بالـجـدلـ، زـاعـماـ أـنـهـ لو نـفـىـ شـيـئـاـ فإـنـهـ يـنـتـفـىـ أوـ أـنـهـ لوـ أـسـكـتـ صـاحـبـ الحقـ فإـنـ الحقـ يـزـولـ، كـلـاـ... فـحتـىـ فـىـ حـالـهـ جـدـالـهـمـ وـ خـصـامـهـمـ تـأـخـذـهـمـ الصـيـحـهـ.

[٥٠] و المبالغـهـ سـريـعـهـ إـلـىـ درـجـهـ أـنـهـ تـمـنـعـهـ مـنـ أـنـ يـخـلـفـواـ وـ صـيـتـهـمـ، بالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـمـ لـاـ يـعـودـونـ إـلـىـ أـهـلـهـمـ فـهـمـ أحـوجـ مـاـ يـكـونـونـ إـلـىـ التـوـصـيـهـ.

فـلاـ يـسـتـطـيـعـونـ تـؤـصـيـهـ

بأيّ شكل كانت التوصيه قوله أو إشاره، و إذ لا يستطيعون حتى التوصيه و هي أسهـل الأشياء، و أشدـها ضرورـه، فهم لا يستطيعون بالطبع-إصلاح ما أفسدوه من واقعـهم! و لا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ فـهم ليسوا على سفر سرعـان ما يعودـون منه حتى لا يحتاجـوا الى وصـيه.

و يـبدو أنـ الآيات تصـور مشـهد العذـاب الدـنيـوى المـتمـثـل فـى الـهـلاـك بالـصـيـحـهـ، مثل ما أـصـابـ الـذـينـ كـذـبـواـ بالـمرـسـلـينـ الـثـلـاثـهـ فـىـ القـصـهـ الـماـضـيهـ.

و قال البعض: إنـها تصـور قـيـامـ السـاعـهـ...ـوـ السـاعـهـ أـدـهـيـ وـ أـمـرـ،ـوـ

جاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ عـنـ الرـسـولـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـ آـلـهــ:ـ

«تـقـومـ السـاعـهـ وـ الرـجـلـانـ قدـ نـشـرـاـ ثـوـبـهـماـ يـتـبـاعـانـهـ فـمـاـ يـطـوـيـانـهـ حـتـىـ تـقـومـ،ـ وـ الرـجـلـ يـرـفـعـ أـكـلـتـهـ إـلـىـ فـيـهـ،ـ فـمـاـ تـصلـ إـلـىـ فـيـهـ حـتـىـ تـقـومـ!ـ وـ الرـجـلـ يـلـيـطـ حـوـضـهـ (١)ـ لـيـسـقـىـ مـاـشـيـتـهـ فـمـاـ يـسـقـيـهـ حـتـىـ تـقـومـ» (٢)ـ وـ لـعـلـ الـحـدـيـثـ الـقـرـآنـيـ يـشـمـلـ الـجـزـاءـ بـصـفـهـ عـامـهـ فـيـ الـدـنـيـاـ بـعـدـ الـعـذـابـ الـاسـتـئـصالـ أـوـ فـيـ الـآـخـرـهـ عـنـ قـيـامـ السـاعـهـ.

[٥١]ـ وـ يـمـكـثـ الـكـفـارـ فـيـ قـبـورـهـمـ مـاـ شـاءـ اللـهـ،ـ حـتـىـ يـنـفـخـ فـيـ الصـورـ الـكـرـيمـ إـسـرـافـيلـ،ـ وـ بـمـجـرـدـ النـفـخـ تـرـاهـمـ يـسـرـعـونـ إـلـىـ رـبـهـمـ حـيـثـ وـضـعـ الـمـيزـانـ الـعـادـلـ.

وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

ص: ١٤٦

١- ٣) يـسـوـىـ حـوـضـهـ بـالـطـينـ حـتـىـ لـاـ يـتـسـرـبـ مـنـهـ المـاءـ.

٢- ٤) نـورـ الثـقـلـينـ /ـجـ (٤)ـ /ـصـ (٣٨٨)

و نجد في بعض الآيات **أَنَّهُمْ** عند النفح قيام ينظرون، بلـ **فَهُمْ** قيام في لحظه، و لكن سرعان ما يتحرر كون حيث يريد الله.

و نقل عن الرغب في مفرداته: **إِنَّ النَّسْلَ** في الأصل الانفصال، و **إِنَّمَا سَمِّيَ** ولد الإنسان نسلا لأنَّه ينفصل عنه. و لعلنا نستوحى من هذا أنَّ القبر يضحي كرحم الأم ينسى منه أبناء آدم نسلا.

[٥٢] و هنالك يعترف هذا الإنسان الخصيم الذي استهزأ بكل المرسلين، و أعرض عن كل الآيات، و ينادي بالويل لنفسه، و يزعم أنه كان نائماً، و يتساءل: **أَيْهُ** قدره استطاعت بعثه من محل نومه بعد طول الرقاد؟! **قَالُوا يَا وَيْتَنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَوْقَدِنَا** و هنالك يأتيه النداء من الملائكة:

هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْجَزَ وَعْدَهُ، لِيَرْحَمَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا.

و يمكن أن يكون القائل هم الكفار، فيكون اعترافاً منهم بوعد الله، و يمكن ألا يكون لهذه الكلمة أساساً قائل خاص بل يكون مقتضى المقام هذا المقال، سواء وجد قائل أم لم يوجد.

وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ الذين أنبأوا عن الرحمن وعده.

إن سورة يس قلب القرآن، و هو يعبر عن ضمير الخليقة، الذي يتمثل في رحمه

الله، و لعله لذلك تتكرر كلمه «الرحمن» فيها.

[٥٣] بصيحه أهلك القوم جمیعاً، وبصيحه ابتعثوا جمیعاً، وبصيحه يحضرون في مقام الحساب عند ربهم.

إِنْ كَانَتِ إِلَّا صِيَحَةً وَاجِدَةً فَإِذَا هُنْ جَمِيعُ لَدُنِّنَا مُحْضَرُوْنَ وَيَدُوْنَ أَنَّ التَّعْبِيرَ هُنَا يَوْمَ يُوحَى بِمَا يُوحِيَهُ قَوْلُهُ -سَبَحَانَهُ- فِي خَاتَمِ السُّورَةِ: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» وَلَكِنْ هَذَا التَّعْبِيرُ جَاءَ فِي مَقَامِ الشَّدَّهِ فَنَاسِبُ الْحَدِيثِ الصَّحِيْحِ، وَهُنَّ تَدَلُّ عَلَى سَرْعَهِ نَفَادِ أَمْرِهِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَجِيبٌ لِإِرَادَتِهِ.

[٥٤] هنالك يتجلّى العدل الإلهي الذي قامت به الخليقة جمیعاً، فلا يظلم أحد شيئاً، بل حتى جزائهم إنما هو ذات أعمالهم التي تتجسد، فإن كانت صالحة فهي الجنات والفاكه و حور العين، وإن كانت الأخرى فعذاب شديد.

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَاللهُ لَيْسُ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ، لَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا فِي أَيِّ يَوْمٍ، بَلِّي: إِنَّهُ أَعْطَى الْحَرِيَّهِ الْمَحْدُودَهُ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا لِيَتَلَيهُمْ بِهَا فَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ جَعَلَ دَارَ الْبَقاءِ (الآخِرَه) وَجَعَلَ فِيهَا جَزَاءً وَافِيَّا لِلظَّالِمِ وَالْمُظْلَومِ لَمَا سَمِحَ لِأَحَدٍ بِظَلَمِ أَحَدٍ حَتَّى فِي الدُّنْيَا، لَأَنَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ، وَأَسَاسًا إِنَّا نَعْرَفُ وَجُودَ الدَّارِ الْآخِرَهْ مِنْ خَلَالِ مَعْرِفَتِنَا بِأَمْرَيْنِ: أَوَّلًا: إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَظْلِمَ بَحْضُرَتِهِ أَحَدًا مِنْ عَبَادِهِ دونَ أَنْ يَغْيِيَهُ، ثَانِيًا: إِنَّهُ قَدْ يَدْعُ الظَّالِمَ يُوَغِّلُ فِي ظُلْمِهِ فِي الدُّنْيَا فَنَعْرَفُ أَنَّ هَنَاكَ دَارًا آخِرَهْ يَجَازِي فِيهَا الظَّالِمُ وَيَتَصَرَّفُ مِنْهُ لِلْمُظْلَومِ.

وَ لَا تُجَرِّوْنَ إِلَّا مَا كُتُّبْتُمْ تَعْمَلُوْنَ فَإِنْ كَانَ هَنالكَ جَزَاءٌ سَيِّءٌ فَهُوَ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي تَجْسِيْدُتْ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَشْرُبْ مَاءَ قَدْرًا فِيمَرْضُ، هَلْ ظَلَمَهُ الطَّيِّبُ الَّذِي نَهَاهُ وَ حَذَرَهُ مِنَ الْعَاقِبَةِ، أَمْ أَنَّ مَرْضَهُ هُوَ ذَاتُ الْمَاءِ الْقَدْرِ الَّذِي شَرَبَهُ؟ [٥٥] أَمَّا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ فَازُوا بِصَاحْبِهِ الْجَنَّةِ وَ امْتَلَكُوهَا وَ وَرَاثَتُهَا فِي الدُّنْيَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَهُمْ فِي شُغْلٍ عَمَّا يَجْرِي فِي الْطَّرْفِ الْآخَرِ عِنْدَ أَهْلِ النَّارِ فَلَا يَحْزُنُهُمْ شَيْءٌ مَا ثَمَّهُ وَ لَا يَفْزُعُهُمْ.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُوْنَ وَ الشُّغْلُ بِذَاتِهِ نَعْمَهُ لَأَنَّهُ يَنْشَطُ الْجَسْمَ، وَ يَنْفَسُ عَنِ النَّفْسِ، إِلَّا أَنَّ الْإِشْتِغَالَ بِمَا يَفْكُّهُ أَعْظَمُ نَعْمَهُ وَ أَشَدُّ رَاحَهُ.

[٥٦] بِمَاذَا يَشْتَغِلُ هُؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَ كَيْفَ يَقْضُونَ سَاعَاتِهِمُ الَّتِي لَا تَنْتَهِي، وَ لِمَاذَا لَا يَمْلُوْنَ...؟ يَبْدُو أَنَّ أَعْظَمَ الْلَّذَاتِ الْجَسْدِيَّةِ وَ الْرُّوحِيَّةِ الْإِشْتِغَالُ بِالْأَزْوَاجِ الْمُطَهَّرَةِ، لَأَنَّهُ إِنْسَانٌ مَعْنَوِيٌّ، وَ سَكْنٌ روْحِيٌّ، وَ لَذَّهُ جَسْدِيٌّ مِنْ كُلِّهِ.

هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِي ظَلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكَبُّرُوْنَ فَهُمْ فِي ظَلَالٍ يَحْسُونُ بِالسُّكُنِ، وَ هُمْ عَلَى الْأَرَائِكِ يَسْتَرِيحُونَ بِلَا تَعْبٍ، وَ هُمْ مُتَكَبُّرُوْنَ لَأَنَّهُ لَا يَشْغُلُهُمْ شَيْءٌ يَتَحَفَّزُونَ لِأَدَائِهِ، فَهُمْ فِي كَامِلِ الرَّاحَهِ، وَ

قد روى عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- قوله (عن صفة أهل الجنة) :

«وَ الْمُؤْمِنُ سَاعَهُ مَعَ الْحَوْرَاءِ، وَ سَاعَهُ مَعَ الْأَدْمِيَّهِ، وَ سَاعَهُ يَخْلُو بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَرَائِكَ مُتَكَبِّرًا يَنْظُرُ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى بَعْضٍ» (١)
[٥٧] وَ بَعْدَ لَذَّهِ الْإِنْسَنِ مَعَ الْأَزْوَاجِ فِي مَقْعُدِ مَرِيجٍ تَأْتِي لَذَّهُ الطَّعَامِ، وَ أَفْسَلُ الطَّعَامِ مَا يَتَفَكَّرُ بِهِ الْفَرَدُ بَعْدَ قَضَاءِ حَاجَتِهِ الضروريَّه
مِنَ الطَّعَامِ، لِأَنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّهِ لَا يَعْدُمُونَ الطَّعَامَ حَتَّى يَحْسُسُوا بِالجُوعِ وَ يَتَأَلَّمُوا بِهِ حِينَا مِنَ الْوَقْتِ مُثْلِمًا الْبَشَرَ فِي الدِّينِ.

لَهُمْ فِيهَا فَارِكَهُهُ وَ لَهُمْ مَا يَدْعُونَ فَكُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ أَنفُسُهُمْ يَجِدُونَهُ أَمَانَهُمْ.

[٥٨] وَ أَعْظَمُ النَّعْمَ جَمِيعًا نَعْمَهُ الْحَضُورُ عِنْدَ رَبِّ الرَّحْمَهِ الْحَنِيَّانِ الْكَرِيمِ، فَأَيُّ نَعْمَهُ أَسْمَى مِنَ الْجَلوسِ عِنْدَ الْمَلِكِ الْمُقْتَدِرِ، وَ
تَلَقَّ السَّلَامُ الْقَوْلِيُّ مِنْهُ، بِالاضافَهِ إِلَى حَالَهُ السَّلَامُ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا، ذَلِكَ أَنَّ حَالَهُ الْأَمْنِ وَ السَّكِينَهُ وَ السَّلَامُ الْفَعْلِيُّ هُوَ مِنْ نَعْمَهُ
الْجَسْمِ غالباً بَيْنَمَا السَّلَامُ الْقَوْلِيُّ نَعْمَهُ لِلرُّوحِ أَيْضًا.

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ [٥٩] وَ لَا يُشَتَّرِكُ فِي مَهْرَجَانِ النَّعْمَ الْمُمْتَنَعِهِ أَوْ لِئَكَ الْمُجْرُومُونَ، الَّذِينَ يَفْسَلُونَ عَنِ النَّعْمَ، وَ أَيُّ حَرْمانٍ
أَعْظَمُ مِنْ طَرْدِهِمْ عَنِ مَائِدَهُ الْكَرِيمِ حَقًا؟! أَيُّ رَبٌّ رَحْمَنٌ وَ أَيُّ مَائِدَهُ غَنِيَّهُ؟! يَا لِلخَسَارَهُ الْكَبِيرِيِّ خَسَارَتِهِمْ.

وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيْمَانَهَا الْمُجْرِمُونَ

جاءَ فِي تَفْسِيرِ عَلَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ حَولَ هَذِهِ الْآيَهِ :

ص: ١٥٠

١- ٥) المُصْدِر / ج (٤) / ص (٣٩٠).

إذا جمع الله الخلق يوم القيامه، بقوا قياما على أقدامهم حتى يلجمهم العرق، فينادون: يا رب حاسينا و لو إلى النار، قال فيبعث الله عز و جل رياحا فتضرب بينهم، و ينادي مناد: «إِمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ» فيمتاز بينهم، فصار المجرمون في النار، و من كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة [\(١\)](#)

ص: ١٥١

٦-١ المصدر/ص (٢٩٠).

اشاره

أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ (٦٠) وَ أَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلُوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ شَهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَإِنَّهُمْ فَاسِيَّتَقُوا الصَّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبَصِّرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسِيَّخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا إِسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَ لَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَ مَا عَلِمْنَاهُ أَشْعُرْ وَ مَا يَتَبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَ يَحْقِقَ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

الله

[٦٢] جِبِلًا: خلقا.

[٦٦] [لَطَمَسْنَا]: أي لأعميناهم، يقال طمس على عينه إذا محاها حتى لم يبق منها أثر.

[٦٧] [لَمْسِخْنَاهُمْ]: قلب الصوره إلى خلقه مشوهه كما المسخ إلى قرده و خنازير.

ص: ١٥٢

[نكسه في الخلق]: نكس قواه و خلقته فيصير بعد القوه ضعيفا، و بعد العقل خرفا، و بعد النضاره ذابلا، و بعد العلم جاهلا، و هكذا فهو راجع الى حاله الطفوله و الضعف.

ص: ١٥٣

هدي من الآيات:

لقد أكَدَ اللَّهُ عَهْدَهُ مَعَ بَنِي آدَمَ بِأَنَّ يَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ لِأَنَّهُ عَدُوُّ مَبِينٍ، وَأَنْ يَخْلُصُوا عَبْدَتَهُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِيَكُونُوا عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، (وَ دَلِيلُ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ) أَضَلَّ خَلْقًا كَثِيرًا (حَتَّى ظَهَرَ انْحرافُهُمْ وَ هَلَكُوا وَ أَمْسَوْا عَبْرَهُ لَنَا) وَ لَكِنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْقُلُونَ ذَلِكَ (ثُمَّ اسْتَحْقَوُا بَعْدَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا النَّارَ، وَ قِيلَ لَهُمْ: ادْخُلُوا جَهَنَّمَ، وَ أَصْلُوْا بِنَارِهَا، وَ هَنَالِكَ (لَا يَمْكُنُهُمُ الجَدَلُ بَلْ: يَخْتَمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَ يَسْتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، وَ يَشَهَّدُ عَلَيْهِمْ أَرْجُلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

(وَ إِنَّ نِعْمَةَ الْهُدَىٰ يَهُ منَ اللَّهِ كَمَا نِعْمَةُ الْعَيْنِ وَ الْأَذْنِ وَ الْإِحْسَاسِ) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَمْحَى أَعْيُنَهُمْ حَتَّى يَتَبَادِرُوا إِلَى الصِّرَاطِ فَلَا يَبْصُرُونَهُ، أَوْ يَمْسِخُهُمْ وَ هُمْ فِي مَكَانِهِمْ حَتَّى لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى التَّقْدِيمِ أَوِ الْعُودَةِ.

(وَ شَاهَدَ آخَرُ عَلَى أَنَّ الْهُدَىٰ يَهُ مِنَ اللَّهِ الْعُقْلُ الَّذِي يَسْلِبُهُ اللَّهُ مَمَّنْ يَعْمَرُ حَتَّى يَعُودُ

طفلا) فمن بلغ من العمر أرذله نَكْسَهُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ. أَفَلَا يَعْقُلُونَ؟ (و كذلك الرساله من الله و هي ليست شعرا) فالله لم يعلم نبيه شعرا و لا- ينبغي له(فالشعر يحتوى على ثقافه باطله و غامضه، و هى تبرير و تكريس للواقع الفاسد، بينما الكتاب بخلاف ذلك كله) فما جاء الرسول إِلَّا بالذكر(الذى تصدقه الفطره و العقل) و قرآن مبين(واضح لا غموض فيه) و هو نذير لمن كان له قلب حى(فهو تحذى للفساد و الطغيان) و هو بالتالى حجه على الكافرين.

بيانات من الآيات:

[٦٠] حينما نشر الله ذريه آدم في صوره (ذر) و قال لهم: أَلَست بِرَبِّكُمْ؟ فَقَالُوا: بَلِّي، أَخْذَ مِنْهُمْ عَهْدًا بِعِبَادَتِهِ، وَ رَفَضَ الْأَنْدَادَ مِنْ دُونِهِ.

و هكذا عند ما فطّرهم على معرفته، و أودع ضمائرهم عقولا تهديهم إلى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث إليهم رسّلـهـ منذرـينـ وـ مبشرـينـ، يستأدونـهمـ مـيثـاقـهـ، وـ يـسـتـشـيرـونـ عـقـولـهـمـ بالـتـذـكـرـهـ بهـ سـبـحـانـهـ، وـ كـانـ فـيـ ذـلـكـ عـهـدـ اللـهـ إـلـىـ بـنـيـ آـدـمـ بـعـبـادـتـهـ، وـ تـرـكـ عـبـادـهـ الشـيـطـانـ، وـ لـكـنـ هـلـ يـمـكـنـ أـنـ تـجـمـعـ عـبـادـهـ اللـهـ مـعـ عـبـادـهـ الشـيـطـانـ؟ كـلـاـ... فـلـاـ بـدـ مـنـ رـفـضـ الشـيـطـانـ لـتـسـمـ عـبـادـهـ الرـحـمـنـ.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يـاـ بـنـيـ آـدـمـ أـنـ لـاـ تـعـبـدـ دـُلـوـ السـيـطـانـ أـيـنـ هـوـ السـيـطـانـ؟ إـنـهـ يـجـرـىـ مـعـ اـبـنـ آـدـمـ مـعـرىـ الدـمـ، وـ لـكـنـ القـلـبـ يـنـتـبـهـ بـإـذـنـ اللـهـ وـ بـمـاـ أـلـهـمـهـ الرـبـ مـنـ فـجـورـهـ وـ نـقـواـهـ إـلـىـ وـجـودـهـ وـ يـمـيـزـ وـسـوـاسـ الشـيـطـانـ عـنـ وـحـىـ الـعـقـلـ.

و عند ما يعقد الإنسان العزم على محاربه الشيطان يتميّز في قلبه أكثر فأكثر نداء الغواية عن فطراه الهدایة.

ثم يأتي الوحي عبر رسول الله و رسالاته لستم الحجج عليه، فإذا بنداء الرحمن في قلبه يلتقي بندائه على لسان النبي و كتاب الله الذي أرسل به.

و هكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفة الشيطان. الأول: ما بقلبه من العقل، و الثاني: ما أوحى به الرسول.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ يسعى الشيطان لخداع البشر بأنّه صديقه، و أنّ ما يشير إليه من الضلاله محض نصيحة، و قد يسترسل البعض معه بحجه أنّهم خدعوا به، و لكن ربنا يقول: إِنَّهُ عدوٌ واضحٌ، و لا عذر لأحدٍ في اتباع عدوه، إِلَّا إِذَا خدع نفسه، و سرّ عداوته أنّه يأمر بما يعلم الإنسان أنّه مضر.

أولاً - يأمر بالإسراف و التبذير، و بالفحشاء و المنكر، و بالاعتداء و الظلم و البغي، مما يستقبّه البشر؟! لا أقلّ عند ما يصدر من الآخرين، و مما يرفض أيّ عاقل نسبته إليه.

كثّنا نعرف أنّ مأسى البشرية آتىه من الظلم و العداوة و الاستئثار و البخل و الكسل و الاختلاف، و نحن جميعاً نعرف أنّ ذلك هو من وحى الشيطان. أ. فلا تتخذه عدواً؟! و عباده الشيطان لا تعنى السجود له، إنّما طاعته بوعي، و التسليم التام لإغوائه.

و تتجسد عباده الشيطان فى طاعه أوليائه من سلاطين الجور، و طغاه السلطة و الثروه.

و يقول الفخر الرازى فى قوله: «**لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**» معناه: لا تطیعوه، بدلیل أن المنهی عنه ليس هو السجود له فحسب، بل الانقياد لأمره و الطاعه له، فالطاعه عباده، لا۔ يقال: فنكون نحن مأمورین بعباده الأمراء حيث أمرنا بطاعتھم فى قوله تعالى: «**أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ**» لأننا نقول: طاعتھم إذا كانت بأمر الله لا تكون إلا عباده لله و طاعه له، وأضاف: و إنما عباده الأمراء هو طاعتھم فيما لم يأذن الله فيه. [\(١\)](#)

[٦١] رفض عباده الشيطان تھياً لعباده الله، بل مجرد الكفر بالأنداد عباده الله، كما أن من ضييع عباده الرحمن وقع في شرك الشيطان، لذلك قارنت الآيات بين رفض هذه و الالتزام بتلك، كقوله سبحانه: «**فَمَنْ يَكُفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اشْتَمَسَكَ بِالْعَرْوَةِ الْوُثْقَى**» [\(٢\)](#) و هنا يقول ربنا:

وَ أَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَ اسْتَقَامَهُ الصِّرَاطُ نَابِعٌ مِّنْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي رَسَمَهُ لَنَا تَعَالَى عَنِ الْمَيْوَلِ الَّتِي تَضَلُّ الْبَشَرُ يَمْنَهُ وَ يَسَارَهُ، وَ عَنِ الْجَهَلِ الَّذِي يَتَطَرَّفُ صَاحِبُهُ نَاحِيَهُ الْإِفْرَاطُ أَوُ التَّفْرِيظُ.

و من أبرز مظاهر الاستقامه في الصراط أن المؤمنين يؤيدون على السير فيه، متحددين ضغوط الهوى و الشهوه و السلطة و الثروه و التزييف و التلبيس بإذن ربهم.

ص: ١٥٧

١- التفسير الكبير للفخر الرازى/ ج (٢٦)/ ص (٩٦).

٢- البقره/ (٢٥٦). المصدر.

و لعل الفرق بين القويم والمستقيم يكن فى أن المستقيم يوحى بأن صاحبه يستقيم عليه متحدّيا عوامل الانحراف.

و عباده الله تعنى طاعته، و طاعته لا- تتجزأ، فمن صلّى دون أن يؤتى الزكاه، أو خضع للإسلام في شؤونه الشخصيه دون نظامه الاقتصادي السياسي، فإنه لا يعبد الله، بل إنه يعبد الشيطان.

إن جذر الشرك بالله هو الاستسلام أمام الضغط أتى كان مصدره، و هذا يخص فقط موارد الضغط، و إنما المؤمن الذي يتحدى الضغط، أمّا من جعل القرآن عضين فقال: نؤمن ببعض و نكفر ببعض، و أراد أن يؤمن فقط بما يتفق و مصالحه، و أمّا عند ما تضرب مصالحه يذهب معها فإنه بالذات الذي يحاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلا قليلا أولئك الذين يكفرون بالدين رأسا، و إنما يحدّد في الأكثر أولئك الذين يشركون بالله، فيخضعون لشهواتهم و سلطانهم و المترفين، و يخدعون أنفسهم بعباده الله فيما لا تتنافى و مصالحهم و شهواتهم و كبرائهم.

[٦٢] عند ما يتعظ المرء بتجارب غيره يهتدى إلى الطريق، و إنما ينتفع بها من يعقلها و يجعلها وسيلة لإثارة دفائن عقله، و كواطن فطرته.

و إن من أظهر الحقائق التي يعقلها من شاء الهدى هي: أن بعض الناس في ضلال، فأنى ذهبت، و أي شخص سألت، قال لك: إن بعض الناس على خطأ، و لكن لا- تقودهم هذه الحقيقة إلى معرفه حقيقتين آخريين هما: أولاً: إنه كما أصل الشيطان كثيرا من الناس كذلك يضلنا فلنحذر منه، و ثانيا: ماذا كانت عاقبه الضالين. أو ليس الهالك؟! فلما ذا لا نعتبر بذلك؟! و لَقَدْ أَصَلَ مِنْكُمْ جِلَّا كَثِيرًا

فإذا كان الشيطان قد نجح في إضلال خلق كثير منكم فلما ذا لا يحذر منه؟! أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ فهذا فريق أضلّه الشيطان، و هداه إلى سبيل البوار، وأهلكه أمام أعينكم، ثم لم يصبح عبره لفريق آخر، و هكذا استمر الشيطان يضلّ منكم فثاماً بعد فتام، دون أن يعقل اللاحقون، و يعتبروا بمصير الغابرين.

بينما كان مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه في تحديد طريق النجاة، و تجنب سبل الهالك.

و من أبرز ما يستفيده العاقل من مصير الغابرين كيفيه إضلال الشيطان لهم، ذلك أن الشيطان ليس خلقاً غريباً يقترب عليك بينك حتى تتحذر منه، كلاً... إنّه في عروقك، في أعماق فؤادك، في أقرب الأصدقاء إليك، في زوجك و أخيك، في تربيه أمّك و أبيك، في كلمات معلميك، و حتى في توجيهات من نصب نفسه عالم دين، و أولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و شمائهم، و شبيه لهم، و زين لهم، و بئر لهم بوسائل شتى، فإذا أردنا أن نمنعه فلا بد أن نكون في أقصى الحذر و العقل.

[٦٣] إِنَّا رأَيْنَا هلاكَ الْغَابِرِينَ، وَ لَا - تزال آيات دمارهم مكتوبه على آثارهم، و محفوره في أفئدتهم الأجيال، و لكن الأدھى من هلاكهم النار التي وردوها.

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [٦٤] إِنَّهُمْ سُوفَ يَدْخُلُونَهَا، وَ يَصْطَلُونَ بِنَارِهَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.

إِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

[٦٥] إنهم كانوا يبَرُّونَ كفراهم بأعذار واهية، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ويزعمون أن جدالهم يعني عنهم شيئاً، ولكن في ذلك اليوم الرهيب لا يسمح لهم بالكلام، وإنما تنطق عليهم جوارحهم بدل الاستئتم.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَقْوَاهِهِمْ فَلَا يَعْتَذِرُونَ وَلَا يَجَادِلُونَ.

وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهُدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَالْأَيْدِي وَ الْأَرْجُلَ تَشَهِّدُ بِأَعْمَالِهِمْ، فَلَا سَبِيلٌ إِذَا إِلَى الْإِنْكَارِ أَوِ الْاعْتَذَارِ أَوْ حَتَّىٰ إِلَى الْجَدَالِ.

وَ لَعْلَ الشَّهَادَهُ هُنَا تصوِيرِيهِ. أَوْ لَسْنًا قَدْ اكْتَشَفْنَا -بِمَا أَوْتَيْنَا مِنْ عِلْمٍ قَلِيلٍ- كَيْفَ نَسْتَنْطِقُ أَصَابِعَ الْيَدِ لِنَعْرِفَ الْمُجْرِمِينَ بِطَبْعِ الْإِبَاهَمِ؟ أَوْ لَمْ نَبْتَدِعْ جَهَازَ كَشْفِ الْكَذَبِ الْمُعْتَمَدِ عَلَى نَبَضَاتِ الْقَلْبِ؟ أَوْ لَمْ نَهْتَدِي إِلَى مَرْتَكَبِ الْجَرَائِمِ بِآثَارِهِمُ الْخَفِيَّهِ؟ وَ لَا رِيبٌ أَنَّهُ كَمَا تَنْعَكِسُ الْأَعْمَالُ عَلَى الطَّبِيعَهُ، تَنْعَكِسُ آثارُهَا عَلَى الْجَوَارِحِ ذَاتَهَا، بِيَدِ أَنَّا لَمَّا نَكْتَشَفْنَا وَسِيلَهُ لِمَعْرِفَهِ أَبعَادَهَا.

وَ لَكِنَّ الرَّبَّ -سَبْحَانَهُ- يَظْهِرُ الْخَفَايَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهِيبِ، فَيُرِيُ الْإِنْسَانَ شَرِيطَاً مَسَجَّلاً عَلَى يَدِهِ وَرِجْلِهِ يَعْرُضُ صُورَانَاطِقَهِ بِكُلِّ مَا جَرِيَ.

[٦٦] كَيْفَ يَسْتَنْطِقُ الرَّبُّ الْأَيْدِي وَ الْأَرْجُلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؟ لَنَعْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ وَ نَتْسَاءَلُ: مَنْ ذَا الَّذِي رَزَقَنَا الْجَوَارِحَ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ؟ إِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْأَيْدِي تَنْطِقَ كَمَا جَعَلَهَا هُنَا تَبْطَشُ.

وَ لَعْلَ هَذِهِ الْمَنَاسِبَهُ لِتَذَكِّرِهِ السِّيَاقُ بِنَعْمَهِ الْبَصَرِ وَ الْإِحْسَاسِ وَ الْعُقْلِ فِي

الآيات الثلاث التالية، وهي في ذات الوقت تمهد لبيان نعمه الهدایة، فالله الذي آتانا نعمه العين ولو شاء لطمسها، و الذي رزقنا سائر النعم التي نهتدى بها من سمع و لمس و ذوق و ما أشبه و لو شاء لمسحهم على مكانتهم فلا يتقدموه، فلا يستطيعون مضيًا إلى الأمام و لا عوده إلى الوراء، و الذي أعاد البشر إلى حاله الضعف عند ما يعمره طويلاً، هو الذي أرسل إلى الناس من يهدىهم إلى صراط العزيز الرحيم.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَمْسَحُ الْكَفَ حَفْنَهُ مِنَ الرَّمْلِ حَتَّىٰ لَا تَبْقَىَ لَهَا أَثْرًا عَلَىٰ الْبَسِطَةِ؟ كَذَلِكَ لَوْ شَاءَ
الرب لمسح على الأعين حتى لا يبقى لها أثراً على الوجه.

فَاسْتَبِقُوا الصَّرَاطَ إِذَا هُمْ يَتَبَادِرُونَ إِلَى الظُّرُفِ لِعَلَمِهِمْ يَهْتَدُونَ إِلَى سَبِيلِهِمْ.

فَأَتَىٰ يَعْصِمَةُ رُونَ رَبِّما تَشِيرُ إِلَيْهِ إِلَى أَنَّ الَّذِي يَفْقَدُ عَيْنَهُ يَحْسَنُ بِعْقَدِهِ الضَّلَالِ، فَيَبْدُرُ لِمَعْرِفَةِ الصَّرَاطِ، وَ تَلَمَّسُ الطَّرِيقِ، لِأَنَّهُ يَخْشِيُ
الانحراف عنه و الوقوع في المهالك، و لكن دون جدوٍ إذ لا يملك ما يرى به طريقه.

و قال البعض: إن الاستباق هو تجاوز الطريق و الانحراف عنه، بينما قال آخر: إن التدافع على الطريق شأن العميان الذين
يتراحمون على الطريق لعدم رؤيه بعضهم.

و أَنِّي كَانَ فِي الْمُبَادِرَةِ وَ التَّسَابِقِ لَا يَجْدِيَنَاهُمْ نَفْعًا، لَأَنَّهُمْ فَقَدُوا وَسِيلَةَ الرَّؤْيَا

و هى الأعين.

و هكذا من لم يرزقه الله الهدى فإنه لا يجد من يهديه سبيلا حتى لو بادر الصراط و تدافع عليه.

[٦٧] أعظم النعم في مجال التحرك العين، ولكن هناك نعم أخرى كاللمس والشم والإحساس يتسلل إليها فاقد البصر، ولكن من الذي أسبغ هذه النعم؟ أو ليس الله؟! أو لو شاء لسلبها، وجعل الإنسان مسخا جاما على مقامه كالحجر.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ إِذَا بَهُمْ كَالْحَجَارِ.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا نَحْوَ الْأَمَامِ.

وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْخَلْفِ، وَبِمَا يَتَقْدِمُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَأَخَّرُ؟ أَلَيْسَ بِالسَّمْعِ وَالْإِحْسَاسِ؟ إِذَا فَقَدَهَا جَمِيعًا فَهُوَ أَضْعَفُ مِنْ أَحْقَرِ حَشَرٍ.

[٦٨] إذا فقد الشخص بصره لم يهتد إلى طريقه، وإذا فقد سائر الجوارح لا يستطيع مضيًّا ولا عوده، ولكن يبقى يملأ العقل، بيد أن العقل بدوره موهبه إليه إن شاء وأراد الله سلبها، فعلا إنه يسلبها عند ما يبلغ الإنسان أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

وَمَنْ نُعَمِّرُهُ نُنَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ

فبدل أن ينمو و يتكمّل باستمرار تراه يبلغ قمه رشه البدنى والعقلى فى حدود الأربعين، ولا يلبث أن يسير القهقري، لأنّ خلايا المخ التي تتنشر فى أطراف الجسد فى صوره أعصاب، و تقوم بالدور الرئيسي فى بناء الجسم، إنّها تستهلك مع الزمن و لا تعوض أبداً، و يقول العلم: إذا بلغ المرء الثمانين من عمره فقد نصف خلايا مخه.

و التنكيس الذى يصيب البشر يشمل الجوانب الماديه، كطريقه مشيه و وقوفه و فقد أسنانه و ضعف قواه، كما يطال الجوانب المعنويه، فهو يفقد قدراته العلميه و خصائصه النفسيه فتراه يرجع طفلاً. يحرض على ما يخصه، و يغضّ بنا جذبه على حياه، و يضحي خائفاً يلاحقه هاجس الزائر المخيف الذي قد يدخل عليه في أيّه لحظه و بلا استئذان ألا و هو الموت.

أَفَلَا يَعْقِلُونَ لِيَذْعُنُوا اللَّهُ الَّذِي أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ تَلْكَ النِّعَمَ الْآنَ، وَ يَسْلِبُهَا مِنْهُمْ عِنْدَ الشِّيخُوخَةِ

[٦٩] وَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَانَا جَوَارِحَ لِنَهْتَدِي بِهَا فِي حَيَاةِنَا مِنْ سَمْعٍ وَ بَصَرٍ وَ عَقْلٍ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لِيَهْدِنَا بِهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

و نحن بحاجه إليه، و لا يمكننا الاستغناء عنه بالثقافات الموجودة لدينا التي هي أقرب إلى الشعر منه إلى بيان الحقائق.

بينما القرآن جاء ذكراً و بياناً و إنذاراً و تبييراً.

وَ مَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَبْيَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ

ذلك أنَّ الشعر يتميَّز بالخصائص التالية:

أولاً: يعكس ثقافة المجتمع السائد ويسير بها دون أن يتقدّمها أو يثور عليها.

ثانياً: يكرِّس الواقع الفاسد بتبريره وتلميع رموزه وستر أخطائه.

ثالثاً: يخدُّر الإنسان ويرضيه بوضعه بإثاره مشاعره الجاهليه من الفخر والعصبيه والاعتزاز بالإثم.

و بكلمه إذا كان للإنسان بعدان: بعد جاهلي يعكس شهواته وأمانياته ونوازع الشر عنده، وبعد رسالى يعكس عقله وعواطف الخير فيه، فإنَّ الشعر إفراط للبعد الجاهلي و تكريس له، سواء عبر عنه بقصائد موزونه و منسقه أو بتعابير نثرية و عاديه، ولكن بما أنَّ الباطل مرفوض عند البشر بذاته فإنَّ أصحاب الثقافة الجاهليه يزيونها للناس تاره بأنغام الشعر، و أخرى بأنواع البديع و البلاغه.

بينما الحق ليس بحاجة إلى كل ذلك، وإن كان الأدب الرفيع والملهم القشبيه، و البلاغه النافذ يزيدها جمالاً وبهاء، إلا أنَّ قدرته ليست في حلته إنما في محتواه، بينما قدره الثقافة الجاهليه في التعبير عنها، ولذلك سمى شعراً، إشاره إلى أنه لو لا وزنه وقافيته والتشبيهات الخياليه فيه لا يعنيه أحد، حتى قالوا: الشعر أذبه أكذبه.

وهكذا

جاء في الحديث في تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَبَعُهُمُ الْعَاقُولُونَ » قال:

«نزلت في الذين غيروا دين الله، وخالفوا أمر الله عز وجل. هل شاعراً قط يتبعه أحد؟ إنما عنى بذلك الذين وضعوا دينهم بأرائهم فيتبعهم الناس على

و في روايه مأثوره عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير ذات الآيه قال :

«هلرأيت شاعرا يتبعه أحد؟ إنما هم قوم تفَّهُوا لغير الدين فضلوا وأضلوا» (٢) هذا عن الثقافه الجاهليه أمّا عن رسالات الله فإنّها تميّز بما يلى:

أولاً: إنّها تذكره، فهي إثارة للعقل، و إيقاظ للضمير، و تحريض للفكر، و أبلغ حجه لصدقها أنّها تتوافق و عقل الإنسان و ما أودعه الله فيه من فطره التوحيد.

ثانياً: إنّها بلاغ مبين، فليس فيه لف و دوران، و تعابير غامضه، و كلمات جوفاء، و تشبيهات خيالية، إنّما بيان للحقائق بوضوح شديد.

ثالثاً: إنّها تنذر بالأنحطاط التي تهدّد الفرد و المجتمع، فهي تفجّر الطاقة بدل أن تخدرها، و تنتقد الواقع الفاسد بدل أن تبرّره، و تواجه الانحراف و الضلال، و تتحدى الظلم و الطغيان.

و الرسول الذي حمل مشعل الهدایه، و تحدى قوى الكفر و الضلال، و أعلن منذ البدء أنّه النذير المبين، و الذي جانب و منذ صباح اللهو و العبث، و اتسمت حياته الرسالية بأقصى درجات الصراع ضد الباطل، و الاجتهد في إبلاغ الدعوه، و الجهاد و القتال في سبيل إعلاء كلامه الله، إنّه لا تتناسب حياته و الشعر (تلك الثقافه الجاهليه) فكلّ شيء في حياته منافق للشعر، لذلك قال ربنا عنه: «و ما يَبْغِي لَهُ».

ص: ١٦٥

١- (٣) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٧٠) نacula عن تفسير على بن إبراهيم.

٢- (٤) المصدر.

و لذلک فقد ترك الرسول حتى هذا الشعرا المعروف و الكلام المقتفي، لأنّه أضحت لباسا للتفكير الجاهلي يومئذ، و كان إذا قرأ شيئا منه غيره بما يتناسب و الحقيقة، و لكن ذلك لا يعني أنّ الرسول كان مخالفًا أساسا للوزن و القافية، كلاً... بل نجده يشجّع بعض أصحابه على ذلك تشجيعا كبيرا.

[٧٠] بل الرسول منذر يصدع بالحق، و يقاوم أهل الباطل، و يتحدى الثقافة الجاهلية.

لَيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيَا فِيهِ النَّذِيرُ الْمُبِينُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ إِحْسَاسٌ بِتَقْبِيلِ الْإِنْذَارِ

أمّا بالنسبة الى غيرهم فإن الكتاب حجّه بالغه عليهم تمهد لإنزال العقاب عليهم.

وَ يَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكُفَّارِيْنَ وَ هُمُ الظَّالِمُونَ لَا حَيَاةَ لِقُلُوبِهِمْ، وَ لَكُنْ لَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الْكُفَّرِ، كَلَّا... بل هم الذين
كفروا فقدوا حياء الإيمان فلم يستجعوا للنذر.

اشاره

أَوْ لَمْ يَرُوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا أَعْلَمُ فَهُمْ كَلَّا مَا لَكُونَ (٧١) وَ ذَلِّلَاهَا لَهُمْ مِّنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَ مَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَشْتَطِئُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسَرِّونَ وَ مَا يُعْلَمُونَ (٧٦) أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ صَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْلِقَ مِثْلَهُمْ بِأَيِّ وَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

اللغه

[٧٨] [رميم]: باليه متفته.

ص: ١٦٧

[ملکوت]: هو الملك، و زيد فيه الثناء للعظمه نحو جبروت، و ملکوت كل شئ ما يقوم به ذلك الشئ.

ص: ١٦٨

هدى من الآيات:

تنبض سوره يس بالحقائق الكبرى التي تذكّر بها آيات الذكر في نسق بديع.

أو ليست هي قلب القرآن الحكيم و محور الحديث فيها الرساله، ولكن الرساله تتصل بحقيقة البعث، لأنّها تذكّر به، وأنّ الرساله دليل المسؤوليه، و تتجلى مسئوليته الإنسان في الآخره.

وفي الدرس الأخير من سوره يس تذكّرنا الآيات بهذه الحقيقة عبر بيان شواهد تدبير الله لحياة البشر.

بيانات من الآيات:

[٧١] ظواهر كثيرة نتعامل معها يومياً، ولكن دون أن نتبصّر ما وراءها من حقائق، وأعظمها نعم الله السابغة التي تهدينا إلى حبه و شكره و معرفه أسمائه الحسنى، و من أبرزها قدرته و حكمته، و هما اسمان كريمان يدلان على يوم البعث.

من تلك الظواهر امتلاـك ناصيه الأنعام، فلقد خلقها الله بيد قدرته خلقا، ثم أودع فيها منافع شتى، و سخرها للإنسان، و لو شاء لجعلها وحشـيـه صعبـه المراسـ، كما جعلـ فى البشر حـبـ التملـكـ و قدرـه التـملـكـ. أـرأـيـتـ لو لمـ يـكـنـ البشرـ يـحـبـ السـيـطـرـهـ هـلـ كانـ يـسـخـرـ شـيـئـاـ مـاـ حـولـهـ؟ـ أـوـ لـمـ يـرـؤـاـ هـذـهـ الـظـاهـرـهـ المـتـكـرـرـهـ التـىـ يـمـرـونـ عـلـيـهـاـ دـوـنـ أـنـ يـتـفـكـرـوـاـ فـيـهـاـ،ـ وـ إـذـ هـمـ لـاـ يـتـفـكـرـوـنـ فـكـاـنـهـمـ لـاـ يـرـونـ شـيـئـاـ.

أـنـاـ خـلـقـنـاـ لـهـمـ مـمـاـ عـمـلـتـ أـيـدـيـنـاـ وـ الـلـهـ لـمـ يـخـلـقـ الـأـنـعـامـ خـلـقاـ مـبـاـشـرـاـ،ـ بـأـنـ يـقـولـ لـهـاـ:ـ كـوـنـيـ فـكـانـتـ،ـ إـنـماـ خـلـقـهـاـ عـبـرـ شـبـكـهـ مـنـ الـأـنـظـمـهـ وـ السـنـنـ لـاـ تـحـصـىـ عـدـدـاـ،ـ وـ لـعـلـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ «ـ مـمـاـ عـمـلـتـ أـيـدـيـنـاـ»ـ إـشـارـهـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـقـيقـهـ التـىـ تـجـعـلـنـاـ أـكـثـرـ اـمـتـنـانـاـ لـبـارـئـنـاـ،ـ وـ أـكـثـرـ وـعـيـاـ بـقـدـرـهـ رـبـنـاـ وـ حـكـمـتـهـ،ـ وـ بـالـتـالـىـ يـوـمـ الـجـزـاءـ الـأـوـفـىـ.

أـنـعـامـاـ فـهـمـ لـهـاـ مـاـلـكـونـ فـهـمـ الـآنـ يـمـلـكـونـ تـلـكـ الـأـنـعـامـ فـعـلـاـ،ـ وـ يـسـيـطـرـونـ عـلـيـهـاـ وـ يـسـخـرـونـهـاـ لـمـنـافـعـهـمـ.

[٧٢] تـكـامـلـيـهـ نـعـمـ اللـهـ دـلـيلـ عـلـمـهـ وـ قـدـرـتـهـ.ـ إـنـكـ تـجـدـ الـإـبـلـ مـثـلـاــيـقـومـ بـذـاتـ الـحـاجـاتـ الـمـتـنـوـعـهـ التـىـ يـعـيـشـهـاـ الـبـشـرـ،ـ فـهـوـ يـحـمـلـ مـسـافـاتـ شـاسـعـهـ دـوـنـ كـلـلـ.

أـرـأـيـتـهـ كـيـفـ يـقـطـعـ الـرـيـبـ الـخـالـىـ فـىـ الـجـزـيرـهـ الـعـرـبـيـهـ مـعـتـمـداـ عـلـىـ ماـ فـيـهـ مـاـشـواـكـ حـادـهـ وـ مـاءـ قـلـلـ؟ـ!ـ أـرـأـيـتـهـ كـيـفـ يـتـحـمـلـ وـعـاءـ السـفـرـ وـ الـعـوـاصـفـ الـرـمـلـيـهـ الـهـوـجـ،ـ وـ يـجـرـىـ فـىـ الـرـمـالـ الـمـتـحـرـكـ كـمـاـ تـجـرـىـ السـفـنـ بـيـنـ الـأـمـواـجـ؟ـ وـ فـىـ ذـاتـ الـوقـتـ تـرـاهـ

يسقى الإنسان لبنا سائغاً، و إذا اشتهرى لحمة نحره واستفاد منه، و فيه بعد كل ذلك جمال و عزّه، و كما الإبل سائر نعم الله.

وَذَلِكُنَا لَهُمْ فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [٧٣] و تجد في أوبارها وأشعارها و جلودها ماتعاً و لباساً و بيوتاً خفيفه.

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ وَالْهَدْفُ الْأَسْمَىٰ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ لَيْسَ مَجْرِدُ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا وَلَكِنَّ التَّسَامِيَ الرُّوحِيِّ إِلَى مَعْرِفَةِ الرَّبِّ وَشُكْرِهِ.

أَفَلَا يَشْكُرُونَ [٧٤] و البشر يبحث عن قوّه، و لقد أودع في ضميره الإحساس بالضعف الذي يهديه-إن أحسن التفكّر-إلى ربّه، و لكنّ الشيطان يغويه عن السبيل القويم، و يوحى إليه أنّ القوه عند الآلهه التي تعبد من دون الله.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَّهَ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ فَهُمْ يَعْبُدُونَ الْقُوَّةَ السِّيَاسِيَّةَ وَالْقُوَّةَ الْإِقْتَصَادِيَّةَ وَالْوَطْنَ وَالْعَشِيرَةَ وَالْحَزْبَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْوَمَ وَالْأَحْجَارَ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَيْهَا، وَيَتَعَوَّذُونَ عَنْهُمُ الْقُدْرَةُ عِنْدَ الْصَّرَاعِ، لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَهُمْ أَمَامَ الْقَوَىِ الْمَعَادِيَّةِ.

هكذا بينت الآية الكريمهه خلفيه الشرك بالله، و هي البحث عن قوه تنصرهم في مواجهه الطبيعه أو الأعداء.

[٧٥] و لكن من ينصر من؟ هل الآلهه تنصرهم أم هم ينصرونها؟

لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَهُمْ يَقُولُ رَبُّنَا بِصَرَاحَهُ بِالْغَهْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ إِعْجَازٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَهُ لَكَانَتْ شَاهِدَهُ صَدْقَهُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ، إِذْ يَزْعُمُ النَّاسُ –إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ– أَنَّ الْطَّاغُوتَ أَوْ أُولَئِي الْأَرْمَانِ وَالْجَاهِ وَالْعَشِيرَهِ يَنْصُرُونَ مِنْ يُشَرِّكُ بِهِمْ، بَيْنَمَا يَؤْكِدُ رَبُّنَا أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الصَّحِيحُ، وَعِنْدَ مَا نَتَفَكَّرُ جِيدًا نَعْرُفُ أَنَّ الْآلهَهُ هُمُ الَّذِينَ يَتَبعُونَهُمْ، فَمِنَ الْطَّاغُوتِ لَوْ لَا اتَّبَاعُهُ الَّذِينَ اسْتَسْلَمُوا لَهُ رَغْبَهُ أَوْ رَهْبَهُ أَوْ ضَلَالَهُ؟ الْأَثْرَيَاءُ فَظَلَمُهُمْ وَاسْتَضْعافُهُمْ إِنَّمَا بِسَكُوتِ النَّاسِ عَنْهُمْ أَوْ طَعْمُهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَهَكُذا الْعَشِيرَهُ وَالْوَطْنُ وَالْحَزْبُ.

وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ مُّخْضُرُونَ وَلَعِلَّ هَذَا التَّعْبِيرُ يُوحِي بِأَنَّ قُوَّهَ الْآلهَهِ هُوَ مَجْمُوعُ قُوَّهِ التَّابِعِينَ، فَهُمْ رَمْزُ التَّجَمُّعِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقْلَ.

وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّمَا عَنِ اللَّهِ بِذَلِكَ يَوْمِ الْقِيَامَهِ حِيثُ يَصْطُفُ الْمُشْرِكُونَ خَلْفَ آلِهِهِمُ الْمُزَعُومِهِ وَيُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ زَمْرَهُ، وَلَا رِيبَ أَنَّ الْأَمْرَ لِكَذَلِكَ، وَلَكِنْ –يَسِدُوا لِي– أَنَّ الْآيَهُ تَشْمِلُ الدُّنْيَا أَيْضًا، إِذَا الْمُشْرِكُونَ هُمْ أَنْصَارُهَا هُنَّا، وَفِي الْآخِرَهِ تَجَلِّي هَذِهِ الْحَقِيقَهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، قَالَ رَبُّنَا سَبَحَانَهُ: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَّهَهَ لَيُكُونُوا لَهُمْ عِزًّا»* كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيُكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَهَّادًا»^(١) وَ كَلِمَهُ أَخِيرَهُ: إِنَّ الْعِوَامَلَ الْمُؤَثِّرَهُ فِي حَيَاهِ الْبَشَرِ لَيْسَ جَمِيعًا ظَاهِرَهُ بَلْ هُوَ عِوَامَلٌ غَيْيَهُ، وَهُنَّ الْعِوَامَلُ الظَّاهِرَهُ كَالْسِيَاسَهُ وَالْإِقْتَصَادِ وَمَا أَشْبَهُ فَهِيَ –لَوْ أَمْعَنَا النَّظرَ– تَنْصُلُ بِعِوَامَلٍ غَيْيَهُ، وَبِالْتَّالِي لَا تَسْتَطِعُ القَوَى الْمُعْبُودَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

ص: ١٧٢

.(٨١-٨٢) مَرِيم / (١-١).

أن تؤثر فيها شيئاً، ثم إن قوتها الموهوبه محدوده بعالم الدنيا، و هي وبالـ فى العالم الثانى. إن الغباء يبلغ مداه حين يتخد الإنسان نظيره الإنسان إليها من دون رب العزه لينصره أمام سنن الله و قدره و قصائه، ولكن هذا الغباء هو بالضبط ما يركبـ الإنسان إلاـ من عصمه الله، فأغلب الناس يشركون بربهم، و يعبدون بنسبـه معينـه آلهـه القـوه و الثـروـه و الجـاه، فيفقدون بذات النسبـه قوتـهم التـى و هـبـها الله لهم لمصلحة تـلك الآلهـه، و هـم يـزعمـون أنـهم يكتـسبـون منها قـوه و منـعـه و عـزاً.

كما أنـهم بـشرـكم يـفقدـون نـصرـ الله لهم، و لو أنـهم توـكـلـوا على الله، و توـجـهـوا تـلقـاء نـعـمه التـى أـسـبـغـها عـلـيـهم ظـاهـرـه و باـطـنه، و فـجـروا طـاقـاتـهم التـى لا تـحدـدـ، و استـخـرـجوـا منـ أنـفسـهم كـنـوزـها التـى لا تـنـفـدـ، إذا حـقـقـوا المـزـيدـ منـ تـطـلـعـاتـهم بتـأـيـيدـ رـبـهم و تـسـدـيـدهـ.

و لـعـمرـى هـذا سـرـ العـظـمـه و مـفـتـاحـ الفـلاحـ لو كانوا يـعـقـلـونـ.

[٧٦] و حين يتخلصـ الإنسان منـ حـجابـ الشـرـكـ يـتـهـيـأـ نـفـسيـاـ و منـ ثـمـ عـقـليـاـ لـتـقـبـلـ المسـؤـولـيهـ، لأنـ أعـظـمـ دـافـعـ للـبـشـرـ نحوـ الشـرـكـ الـهـرـوبـ منـهاـ، و التـخلـصـ منـ جـزـاءـ أـعـمالـهـ حـسـبـ زـعـمـهـ، و هـكـذـا يـذـكـرـنا السـيـاقـ بـيـومـ الـجـزـاءـ الـأـوـفـيـ بعدـ أـنـ يـرـفـعـ شـبـهـهـ المـجـادـلـينـ فـيـهـ، القـاتـلـهـ: كـيـفـ يـحـيـيـ اللهـ الموـتـىـ؟ إـنـ هـذـهـ الشـبـهـ آـتـيـهـ منـ نـسـيـانـ الـخـلـقـ، و عـظـمـتـهـ التـىـ تـدـلـ عـلـىـ عـظـمـهـ الـخـالـقـ، أـمـاـ إـذـا تـذـكـرـناـهـ فـإـنـ الشـبـهـ تـتـلاـشـىـ.

و يـبـدـأـ الـحـدـيـثـ بـبـيـانـ أـنـ كـلـامـهـمـ الـجـدـلـيـ يـجـبـ أـنـ لاـ يـحـزـنـ أـصـحـابـ الرـسـالـهـ، لأنـهـ مـحـفـوظـ عـنـدـ اللهـ، يـعـلـمـ اللهـ خـبـيـاـهـ كـمـ يـعـلـمـ ظـاهـرـهـ، فـلـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـقـرـبـهـ و يـؤـخـذـ مـأـخذـ الـجـدـ.

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ وَيَبْدُوا أَنَّ الْحَزْنَ بِالْكَلَامِ قَدْ يَجْرِي إِلَى التَّنَازُلِ لَهُمْ تَحْتَ ضَغْطِهِ فَلَذِلْكَ نَهْيٌ عَنْهُ.

إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ مِنْ نَيَّاتِ مُغَايِرِهِ لِلْكَلَامِ حِيثُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ جَدْلًا.

وَمَا يُعِنُّونَ فَيُسَجَّلُ عَلَيْهِمْ لِلْجَزَاءِ.

[٧٧] ثُمَّ يَعْرِفُ رَبُّنَا أَكْبَرَ شَبَاهَهُمُ الَّتِي تَشَكَّكُ بِقَدْرَتِهِ -تَعَالَى- وَيَقُولُ:

أَوْ لَمْ يَرِدِ الْإِنْسَانُ قَالُوا: إِنَّ الرَّؤْيَا هُنَا تَعْنِي الْعِلْمَ، أَيْ أَوْ لَمْ يَعْرِفِ الْإِنْسَانُ، وَنَقُولُ: نَعَمْ.

وَلَكِنْ مُثْلُ هَذَا الْعِلْمَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ نَظَرٍ، وَنَحْنُ لَمْ نَشَهِدْ خَلْقَ أَنْفُسِنَا، وَلَكِنَّا شَهَدْنَا كَيْفَ خَلَقَ نَظَرَاؤُنَا مِنَ النَّاسِ حَتَّى
لَكَانَنَا شَهَدْنَا خَلْقَ أَنْفُسِنَا.

أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ هَذَا الْمَاءُ الْمَهِينُ هَذَا مَا نَرَاهُ، أَمَّا مَا نَعْلَمُ فَإِنَّ الْخَلْقَ تَمَّ بِجَزْءٍ بَسِيِطٍ جَدًّا مِنْ هَذِهِ الْقَطْرَهِ الدَّافِقَهِ مِنَ الْمَاءِ. اِنَّهَا
الْخَلِيَّهُ الْمُتَنَاهِيهُ فِي الصَّغْرِ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَهِ.

وَبَعْدَ أَنْ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ الْمَهِينِ رَبِّاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ لِخَلْقٍ، وَمِنْ طُورٍ لِطُورٍ، وَمِنْ مَرْحلَهٍ لِآخَرَهُ حَتَّى سُوَاهُ رِجَالًا نَاطِقَانِ.

فَإِذَا هُوَ خَصِّيْمٌ وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْكَمَالَ مَدَاهُ حَتَّى اغْتَرَ بِهِ، وَأَخْذَ يَجَادِلُ - وَبِوضُوحِ تَامٍ - خَالِقَهُ وَرَازِقَهُ! [٧٨] وَمِنْ مَظَاهِرِ جَدِّلِهِمْ الْبَاطِلُ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَأْتِي بِقَطْعَهُ عَظِيمٌ بِالْيَدِ، وَيَسْعَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ سُوفَ يَخْصِمُهُ بِهِ.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا يَبْدُوا أَنَّ الْمَثَلَ هُوَ الْوَاقِعُهُ الَّتِي يَسْتَشْهِدُ بِهَا عَلَى فَكْرِهِ أَوْ حَقِيقَتِهِ، وَإِنَّمَا يَقُولُ ضَرْبَهُ لِأَنَّهُ يَشْبَهُ غَيْرَهُ وَالضَّرْبُ هُوَ الشَّيْءُ.

وَنَسِيَ خَلْقَهُ وَلَوْ لَمْ يَنْسَهُ خَلْقَهُ لِمَا ضَرَبَهُ مَثَلًا.

أَفَلَمْ يَرَ أَنَّهُ قَدْ خَلَقَ مِنْ غَيْرِ مَثَلٍ يَحْتَذِي؟! فَكَيْفَ يَسْتَعْبُدُ قَدْرَهُ اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ؟! قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ لَقَدْ جَاءَ أَبِي بنِ خَلْفِ الْجَمْحِيِّ مَعَهُ عَظِيمٌ نَحْرٌ فَرَكَهُ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟! فَأَنْطَقَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِمَحْكُومٍ آيَاتَهُ وَبِهِتَهُ بِبَرْهَانِ نُوبَتِهِ قَالَ: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» فَانْصَرَفَ مِبْهُوتًا.

[٧٩] الْقَدْ كَانَتْ إِزَالَهُ الشَّبَهِ قَدْ بَدَأَتْ مَعَ بَدَائِهِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَهُ مِنَ الْآيَاتِ حِيثُ مَهَدَ اللَّهُ لَهَا بِالنَّهِيِّ عَنِ الْحَزَنِ لِمَا يَقُولُونَهُ لِأَنَّهُ بَلَمْ يَرَ اللَّهَ، ثُمَّ ذَكَرَ الإِنْسَانَ بِأَصْلِ خَلْقَهُ مِنَ النَّطْفَهِ مُشِيرًا إِلَى تَلْكَ الْبَدَائِهِ الْبَسيِطَهُ الَّتِي يَرَاهَا الإِنْسَانُ، ثُمَّ نَوَّهَ بِذَلِكَ مِرَهُ أُخْرَى حِينَ قَالَ: وَنَسِيَ خَلْقَهُ، ثُمَّ قَالَ:

قُلْ يُحِبِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ هنالك أنساها إنشاء و ابتداعها ابتداعا من غير مثال يحتذى، و لا أدوات تستخدم، و لا أنصار و شركاء يساهمون. إن تذكّر هذه الحقيقة تذهب أي شك في قدره البارئ في ذلك، بل يبقى تساؤل قد يلقيه الشيطان في قلب الإنسان الذي يسعى بدوره للتخلص من ثقل المسؤولية و هاجس الجزاء، و التساؤل هو: كيف يجمع الله الأجزاء المتناثرة في أقطار الأرض حول هذا البدن؟ فيقول ربنا و هو يشير إلى تنوع خلق الله، الذي يهدينا إلى علمه المحظى:

وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ فَإِنِّي أَقِيتُ بَصْرَكَ وَ أَدْرَتُ بَصِيرَتَكَ رَأَيْتُ خَلْقاً عَجِباً، حَسَنَ التَّقْدِيرِ، جَمِيلَ الظَّاهِرِ، مَتِينَ الصَّنْعِ، مَتَنَاسِباً مَعَ هَدْفَهُ، مَتَنَاغِماً مَعَ نَظَائِرِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ، وَ أَلْوَانِ النَّبَاتَاتِ وَ مُخْتَلِفِ الْمَعَادِنِ، وَ صَنُوفِ الْجَمَادَاتِ، مَا لَا يَدْعُ عَنْدَكَ شَبَهَهُ فِي سَعَهُ قَدْرَهُ بَارِئَهَا، وَ مَحِيطُ عِلْمِهِ وَ قَدِيمُ خَبْرِهِ، فَكَيْفَ يَشْكُكَ فِي إِمْكَانِيَّهِ إِعْادَهُ الْخَلْقِ؟!

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال منكرا للبعث: و أني له بالبعث و البدن قد بلي، و الأعضاء قد تفرقـتـ، فغضـبوـ بيـلهـ يـأكلـهـ سـبـاعـهـ، و عـضـوـ بـأـخـرـىـ تمـزـقـهـ هوـامـهـ، و عـضـوـ قدـ صـارـ تـرـابـاـ يـبـيـنـىـ بـهـ معـ الطـينـ فـىـ حـائـطـ؟ـ!ـ قالـ الإـمامـ مجـيبـاـ:

«إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَ صَوْرَهُ عَلَى غَيْرِ مَثَلٍ كَانَ سَبِقَ إِلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ يَعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ».

قال: أوضح لي ذلك؟ قال: إنَّ الروح مقيمه في مكانها، روح المحسن في ضياء و فسحه، و روح الممسىء في ضيق و ظلمه، و البدن يصير تراباً كما منه خلق، و ما تقدر به السباع و الهوام من أجواهها، فما أكلته و مزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، و يعلم عدد الأشياء و وزنها، و إنَّ تراب الروحانيين بمترله الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر الشور، فتربو الأرض، ثم يمتص مخصوص السُّقاء، فيصير تراب البشر كصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، و الزبد من اللبن إذا مخصوص، فيتجمع تراب كل قالب إلى قالبه فينقل بإذن الله تعالى القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها، و تلتج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً^(١) و لعل إشاره القرآن إلى بدايه الخلقه توحى بنظريه تقول: إنَّ الخلية الأولى التي تلاقحت في الرحم تبقى على حياتها ثم تنمو في رحم الأرض كما نمت أولاً في بطن الأم، و لكنَّ الحديث المذكور آنفاً صريح في أنَّ ذرات البدن المتناثره في الأرض تلتحق به أنَّى كانت عن طريق المخصوص، و لنا أن نشبِّه ذلك بقطعة مغناطيس إذا حركت في تراب مخلوط بذرات الحديد. كيف تجتمع عليها تلك الذرات؟!^[٨٠] ثم يمضي السياق قبلاً في أنَّ البعث حق، و يضرب مثلاً من الشجر الأخضر الذي جعل الله للناس منه ناراً و قوداً، و يقول:

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَتَتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ

ص: ١٧٧

١ - ٢) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٣٩٥).

و يقف الإنسان حائراً:لماذا ضرب الله مثلاً بالشجر الأخضر، و ما هي صلته بواقع النشور؟ قالوا:إنَّ العرب كانوا يستخدمون نوعين من النباتات كالزناند لإنشاء النار كما نستخدم نحن الكبريت، و سميا بـ(صرخ) و (عفار) و كانوا رطبين، إلَّا أنَّ احتكاكهما كان يولد النار، فضرب الله بهما مثلاً على قدرته أو على ابتعاث النار الخفية كما ينبعث الجسد الميت حيَا يوم النشور.

وقال البعض:إنَّ البحث العلمي أكَّدَ أنَّ كلَّ أنواع الوقود من أشعه الشمس، و حتى اتقاد الخشب إنَّما هو بتخزِّن هذه الأشعه فيه، و إلَّا فإنَّ عناصره الأخرى كالماء و التراب لا نار فيها.

ذلك أنَّ كلَّ عملية تركيب كيماويه بحاجه إلى امتصاص الطاقه أو بتها، و عملية امتصاص الأشجار لثاني اكسيد الكربون بحاجه -حسب هذا القانون- إلى الطاقه، و هكذا فهي تستفيد من الطاقه الشمسيه، و تستمر الأشجار في احتزان الطاقه بصورة منتظمه.

و هذه العملية لا- تقوم بها الأخشاب اليابسه بل الشجر الأخضر، و لذلك رَكَّزَ الحديث حوله، بالرغم من أنَّ الناس يعرفون أنَّ الخشب اليابس أسرع اشتعالاً إلَّا أنه لا يحرِّن الطاقه. [\(١\)](#)

ولكن يبقى السؤال:لماذا ضرب الله بهذا مثلاً؟!الجواب:

أولاً:إنَّ ذلك يهدينا إلى قدره الله الذي ضغط النار في الماء. أو ليس الشجر الأخضر ينضح بالماء؟ فأبصر برب يحزن الوقود في الماء!

ص: ١٧٨

١- [\(٣\)](#) بتصرُّف من تفسير نموذج (١٨) / ص (٤٦٤).

ثانيًا: إنَّ السُّنْنَ الْإِلَهِيَّةَ الْخَفِيَّةَ أَكْثَرَ مِنَ الظَّاهِرَهُ لِلْإِنْسَانِ مِنْهَا، وَمَا أُوتِينَا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَإِنَّا نُسْتَبِعُ أَشْيَاءَ لَا نَعْرِفُ الْأَنْظَمَهُ، فَلَوْ قِيلَ لِأَحَدٍ مِنْ أَجْدَادِنَا: سِيَّاتِي يَوْمَ يَطْبِرُ جَهَازَ بَعْشَرَاتِ الْأَطْنَانِ مِنَ الْحَدِيدِ فِي الْفَضَاءِ، بِسَرْعَهِ فَائِقَهُ لِمَا صَدَقَ، لَاَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفَ قَوْانِينَ فِيزيائِيَّهٖ يَعْرِفُهَا الإِنْسَانُ الْيَوْمَ، وَقَدِيمًا

قال الإمام على عليه السلام :

«الناس أعداء ما جهلو» [\(١\)](#) و كذلك البشر ينكر البعث لأنَّه لا يُعرف ما أودع الله في ضمير الوجود من أنظمته، كما لم يكن يعرف الإنسان [\[كيف يجعل الله من الشجر الأخضر ناراً\]](#)، فلعل ذرات البدن التي تنفصل عنه بعد الموت تبقى ذات صلة خاصة به إلى أن يبعث الله من في القبور، أو تطبع عليها سمات تشير إلى مصدرها.

ثالثاً: إنَّ ذَرَّاتَ الْحَرَارَهُ التَّى تَنْفَصُلُ عَنِ الشَّمْسِ وَتَخْرُنُ فِي الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ تَبْعُثُ مِرَّهُ أُخْرَى إِلَيْهَا، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يَعْدِمَ مِنْهَا شَيْءٌ كَمَا يَحْسُبُ الْجَاهِلُ، كَذَلِكَ ذَرَّاتُ الْجَسْمِ.

رابعاً: لَعْلَّ فِي الآيَهِ إِشَارَهُ لطِيفَهُ إِلَى قَانُونِ الْهَيَّ فِي الْوُجُودِ أَنَّ فِيهِ الْغَيْبَ وَالشَّهُودَ، فَهُنَّاكَ الشَّجَرُ الْأَخْضَرُ تَحْسِبُهُ لِجَهِ مَاءَ، فَإِذَا فِيهِ كَتَلَهُ وَقُودُ مُخْتَرَنَهُ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا شَهُودُ الْآخِرَهُ، بَيْنَمَا الْآخِرَهُ غَيْبُ الدُّنْيَا، فَأَنْتَ تَرَى جَسَدَ الْمَيَّتِ الْمُسَىءِ بَيْنَمَا هُوَ فِي النَّارِ كَمَا الزَّنَادُ احْتَوَى عَلَى نَارِ مُخْتَرَنَهُ، كَمَا أَنَّ آكَلَ مَالَ الْيَتَمِ يَحْسُبُ أَنَّهُ يَتَّنَاهُ طَعَامًا شَهِيًّا، وَلَكِنَّهُ -فِي الْوَاقِعِ- إِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا، وَالَّذِي يَكْذِبُ لَا يُعْرِفُ أَنَّ نَتَنَا خَبِيَّا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ يَلْعَنُهُ بِالْمَلَائِكَهُ، وَهَكُذا.

ص: ١٧٩

٤-١) نَهْجُ الْبَلَاغَهُ / خ (١٧٢) / ص (٥٠١).

يأتي رجل الى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقد جاء بعزم كافر فيقول: أنتم تقولون أنه معذب فأين النار التي يعذب بها الآن؟! فيأتي إليه الإمام بن زناد فيقدرها فيقول: أين كانت النار في هذا الزناد؟ [٨١] [البعث و النشور حقيقه فطريه]. أو ليست نفوس البشر تنزع الى الخلود؟ و هذه الجهود الهائلة التي يبذلها البشر من أجل الخلود، دليل عمق الإحساس بالخلود، و ما أكره الموت في نظر الإنسان إلا ايمانه بأنه جاء ليقى، و فقط أولياء الله الذين يظلون أنهم ملاقوا ربهم لا يهابون الموت، و لو أحصيت أهداف الناس من مساعدتهم المختلفه لكان لهدف استمرار البقاء حصه الأسد فيها، يقول الله تعالى لبيان هذه الحقيقة: «وَتَتَخِذُونَ مَصَاعِبَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» [\(١\)](#) و حيث علم البشر أنه لا محالة ميت، فتش عن بقاء اعتباري أن فقد القدرة على البقاء الحقيقي، فإذا به يسعى لامتداد عبر أبنائه أو آثاره أو حتى تحنيط جسده الميت و بناء المقابر الضخمة عند رفاته.

و حين أراد إبليس إغواء أبينا آدم و زوجه حواء و إخراجهما من الجنة، قال لهم: «هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلِكٍ لَا يَبْلِي» [\(٢\)](#) هكذا تراه يثير فيهما حب الخلود، و يربطهما بالمعصيه، و كذلك يصنع بأبناء آدم، فإنه من أعظم أسباب الذنوب حب الخلود.

و من هنا

إإن الإمام على عليه السلام حين يسأله أحد هم: ما هو الحق الشبيه بالباطل؟! يقول: الموت، لأنّ تنزعه الخلود لا تدعه يذعن للموت هذا الذي لا ينجو

ص: ١٨٠

١- (٥) الشعراe / (١٢٩).

٢- (٦) طه / (١٢٠).

منه حى أبداً، وقد قال ربنا سبحانه: «كُلَّ نَفْسٍ ذَايَقَهُ الْمَوْتُ .» إنَّ هذا الإحساس الفطري العميق بالخلود لا يتحقق في الدنيا، فهو إذا يتحقق بالبقاء في الآخرة، فما الموت إلا قنطرة، وما الدنيا إلا مزرعة، وإنَّ الآخرة لھي الحیوان.

ولكن تبقى العقبة الرئيسية أمام البشر جھله بقدره الله و احتجابه بما يراه عما لا يراه، بالشهود عن الغيب.

لذلك نرى آيات القرآن تذكّرنا بآيات قدره الله، فهذه السموات التي لا تحصى أقمارها و شموسها، و هذه الأفلак التي لا تحدّ اتساعاً، و لا تنحرف عن مسیرها قيد شعره، طوعاً لربها و تسليماً، و هذه الأرض التي لا تنقضى عجائبها، و هذه الأحياء المتنوّعة التي تتجلّى في كلّ واحد منها عظائم قدره ربنا العجبار. أو ليست جميعاً دليلاً قدره الله؟! أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ^{عَزَّ وَجَلَّ} الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ^{بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} بلـ! إِنَّهُ القادر، و كيف يخلق إن كان عاجزاً سبحانه؟! بلـ! إِنَّهُ القادر، و دليل ذلك تنوعُ الخلق، فمن البعوضه المتناهيه في الصغر، إلى الفيل الذي يشبه البعوضه و لكن بحجم أكبر، إلى الحوت الذي قد تكون عين واحده منه أثقل من فيل ثم يجوب البحار بسرعه هائله، إلى عجائب البحار و رواسي الجبال و نباتات السهول، حتى أَنْكَ لو قضيت عمرك في معرفه آيات الله في أصغر نبتة: كيف تستقى الأرض و تمتص أملالها، و كيف تمثل من الشمس ضوءها، و كيف تحافظ على نفسها ضد الآفات و العواصف، و كيف تتحقق هدفها في هذا

الكون الأَرْبَ...؟نعم. لو فعلت ذلك و عشرات الباقين لما انقضت عجائب تلك النبته الصغيرة، و هكذا الحيوان الصغير كالنمله، فإذا زرت مكتبه كبيره فلعلك تجد عشرات الكتب في نبته متواضعه! و ربما فوجئت بأنّ النمله التي تسحقها برجلك قد حظيت باحترام العلماء فألفوا فيها عشرات الألوف من الكتب و الدراسات حتى الآن.

هذا التنوّع الكبير الذي لا يحصى أفراده دليل خلّاقيه الرب، و أنه لا يعجزه شيء في السموات والأرض، و أنه علیم كيف يصنع ما يصنع؟ و هو الخالق العلیم و لعل التعبير بـ«مثلهم» هنا للدلالة على أنّ القدرة تتصل بجنسهم عموماً، و ليس بأشخاصهم فقط، فالذى يستطيع على مثل الشيء يستطيع عليه، دون العكس، و لسنا بحاجة إلى بعض التكاليفات البعيدة التي ذهب إليها المفسرون لزعمهم أنّ «مثلهم» تدل على عوده الناس ليست بأبدانهم بل بأرواحهم فقط.

[٨٢] من أصغر خلية إلى أعظم مجرة، كل مخلوق يؤدى دوراً و يحقق هدفاً، بينما يستوى الإنسان على عرش السلطة، فقد أوتي ما يسخر به ما في الأرض جميماً، و توفر فرصه العيش الرغد لهذا الملك المكرّم. أو لم يقل ربنا سبحانه:

«وَسَيَخْرُجُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَمِنْ أَرْضِكُمْ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» و عند ما نتفكر في وجود الإنسان نرى كلّ شيء فيه يتحقق هدفاً، من أعظم جارحه كالمحن و القلب إلى أصغر نسيج.

تعالوا إذا نفّرْ: أليس لوجود الإنسان في الأرض بذاته هدف؟ و هل خلقه الله عبثاً؟ فأين إذا حكمه الله، التي تتجلّى في كلّ شيء؟! و أين عدالته التي نرى

آياتها في السموات والأرض؟! كلاما... إنما خلق الإنسان لهدف أيضا، وهو أن يتكامل إلى الله، و

قد جاء في الحديث القدسي المعروف :

«خلقت الأشياء لأجلك، و خلقتك لأجلِي » و قال ربنا سبحانه:

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ».

« وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَا يَعِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَسْخِّنَ لَهُوَا لَا تَخَذِّنَاهُ مِنْ لِيْدُنَا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بِلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ».

و حين تفكّر أولو الألباب في خلق السموات والأرض عرفوا أنّ الخلق ليس باطلا فقالوا: « ربنا ما خلقت هذا باطلًا سُبْحانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ».

ولكن هناك من يعرف هذه الحكمة و لكنه ينكر المعاد أيضا، كالفلسفه المتأثرين بآراء اليونانيين القدماء. لماذا؟ لأنهم جهلوا كيف خلق الله الخلق، فقال بعضهم: الخلق صادر عن الله - سبحانه و تعالى - كما يتدفق الماء من العين.

فكيف يعود الماء إلى العين تارة أخرى؟! و قال آخرون: بل يعود، و لكن لا - ليعدّب أو يجازى على أفعاله، بل ليتحقق بالمصدر، كما تعود المياه إلى البحر بعد تطوفها كبيرا! وقد أنكر هؤلاء البعض بالصوره التي جاءت بها كتب الله لجهلهم بكيفيه

الخلق، يقول ربنا و هو يوضح قدرته في أمر الخلق:

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيُكُونُ فَلِيسَ فِيْضاً أَوْ صَدْوراً، وَ لِيْسَ دُورَةً وَ جُودِيْهِ كَمَا تَقُولُ الْدَّهْرِيَّهُ وَ الْذِينَ تَأْثِيرُوا بِهِم مِنَ الْفَلَاسِفَهُ، إِنَّمَا هُوَ فَعْلٌ مَحْدُوثٌ لِرَبِّ الْقَدْرَهُ، فَحِيثُ أَرَادَ خَلْقَ الْمُشَيْئَهُ بِعَظِيمٍ قَدْرَتِهِ فَخَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِالْمُشَيْئَهُ، حَسْبَ حَدِيثٍ مَأْثُورٍ.

وَ التَّعْبِيرُ بِـ«يَقُولُ» لِبِيَانِ حَدُوثِ الْإِرَادَهِ، وَ إِلَّا فَرَبُّنَا غَنِيٌّ عَنِ احْدَاثٍ تَحُولُ لِفَعْلِ الْأَشْيَاءِ وَ هَكُذا

جاءَ فِي كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ (كَنْ) فَيَكُونُ، لَا - بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَ لَا - بِنَدَاءٍ يَسْمَعُ، وَ إِنَّمَا كَلَامَهُ سَبْحَانَهُ فَعَلَ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَ مَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَ لَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيَا» [\(١\)](#) إِنَّ الْكَلَمَاتَ تَقْفَى دُونَ تِبْيَانِ الْغَيْبِ الإِلَهِيِّ عَاجِزَهُ كَلِيلٌ، وَ إِنَّمَا تَقْرَبُ إِلَيْنَا قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ - حَقَّاتِ الْغَيْبِ بِمَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْهَا فِي عَالَمِ الشَّهُودِ، فَإِنَّا - مِثْلًا - حِينَ نَرِيدُ شَيْئًا نَأْمِرُ بِهِ وَ الْأَمْرُ عَادُهُ يَكُونُ بِالْتَّعْبِيرِ عَنْهُ قَوْلًا، لَذِلِكَ نَجْدُ الْقُرْآنَ يَعْبُرُ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ بِالْكَلْمَهِ أَوْ بِالْقَوْلِ.

وَ قَدْ وَهَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْقَدْرَهُ لِأَهْلِ الْجَنَّهِ، فَقَالَ فِي آيَهٍ مَضْتَ: «وَ لَهُمْ مَا يَدْعُونَ» وَ قَالَ فِي قَصَهِ سَلِيمَانَ: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ».

هَكُذا بِمَجْرِدِ أَنْ يَشْتَهِي أَهْلُ الْجَنَّهِ شَيْئًا يَجْدُونَهُ عِنْدَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، كَذِلِكَ بِمَجْرِدِ

ص: ١٨٤

٧- (١) نَهْجُ الْبَلَاغَهُ / خ (١٨٦) / ص (٢٧٤).

إراده خليفه سليمان عرش بلقيس وجده عنده.

[٨٣] وَ فِي خَتَمِ السُّورَةِ وَ بَعْدَ أَنْ يَصُفَ الْقُرْآنَ رَبُّنَا بِمَا يَنْبُغِي مِنَ الْقَدْرِهِ وَ الْعِلْمِ يَقِدِّسُهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ أَوْ عَجْزٍ أَوْ فَقْرٍ فَيَقُولُ:

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أَوْلًا تَرَى آثارَ الْفَقْرِ وَ الْحاجَةِ وَ الْضَّعْفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟ إِنَّ ذَلِكَ شَاهِدٌ مَمْلُوكٌ لِمَالِكٍ
غَنِّيٌّ مَقْتَدِرٌ قَوِيٌّ، هَكُذا يَنْطَقُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَنَّ رَبَّنَا سَبَّحَنَهُ الْقَدُّوسُ الْمَبَارَكُ الْمَتَعَالُ.

وَ إِذَا عَرَفْنَا قَدْسِيهِ الرَّبَّ وَ قَدْرَتَهُ وَ حِكْمَتَهُ آمَّنَا بِالنَّشُورِ، وَ كُلَّمَا ازْدَادَ الْمَرءُ مَعْرِفَهُ بِرَبِّهِ ازْدَادَ إِيمَانًا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ص: ١٨٥

سورة الصافات

اشاره

ص: ١٨٧

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سوره الصافات فى كل يوم جمعه لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بلية في الحياة الدنيا، مرزوقاً في الدنيا في أوسع ما يكون من الرزق، ولم يصبه الله في ماله و ولده و لا بدنـه بسوء من شيطان رجيم، ولا جبار عنيـد، وإن مات في يومه أو ليلته بعثـه الله شهـيداً وأمـاته شهـيداً وأدخلـه الجـنة مع الشـهداء في درجه من الجـنة» تفسير نور الثقلين/ ج ٤ / ص ٣٩٩.

تهدينـا سوره الصافات بـآياتها الساميـه الى ذات الأفـكار و الحقـائق التـى كانت الآيـات السابـقه فى سوره(يس) تـؤكـد علـيـها بإضافـات أخـرى، و أسلـوب أدـبـي نفسـى جـديـد.

تبـداـ آياتها بـذـكر الملـائـكه التـى تصـطـف انتـظـارا لأـمـر اللهـ، و بـذـلك سمـيت بـسـورـه «الصـافـات» كـما يـحدـثـنا الـدـرـسـ الـأـخـيرـ منـهـاـ عنـ الجنـ وـ المـلـائـكهـ، وـ شـبـهـاتـ الـجـاهـلـيـينـ حـولـ عـلـاقـهـمـ بـرـبـهـمـ، فـقـدـ زـعـمـواـ بـأنـ لـهـمـ عـلـاقـهـ نـسـيـيـهـ بـالـلـهـ، وـ ذـهـبـ بـعـضـهـمـ بـعـيـدـاـ إـذـ قـالـوـاـ بـأـنـ الجـنـ نـتـيـجـهـ مـبـاـشـرـهـ لـعـلـاقـهـ زـوـجيـهـ بـيـنـ الـمـلـائـكهـ وـ رـبـهـمــ تـعـالـىـ عـمـاـ يـشـرـكـونــ.

بيـنـماـ تـحـدـثـناـ الـدـرـوسـ الـوـسـطـيـ عنـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـهـمـ السـلـامـ وـ الـعـلـاقـهـ بـيـنـ السـيـاقـيـنـ أنـ الـقـرـآنـ حـينـماـ يـبـيـنـ خـطـأـ الـجـاهـلـيـينـ الفـظـيـعـ فـيـ تـصـوـرـهـمـ حـولـ عـلـاقـهـ الـمـلـائـكهـ وـ الجنـ بـالـلـهـ كـانـ لـاـ بـدـ مـنـ الإـشـارـهـ لـنـفـسـ الـخـطـأـ الـذـىـ وـقـعـ فـيـهـ الـآـخـرـوـنـ عـنـدـ مـاـ تـصـوـرـوـاـ بـأـنـ هـنـاكـ

علاقة مشابهه بين الله و الرسـل، انطلاقاً من تقييمـهم للمعجز الذى طالما تكرر على يـد الأنـبياء من دون الآخـرين، فـاتـخذـوا ذلك دليـلاًـ على انـهم أـبنـاء اللهـ، و لـهـذاـ نـجـدـ الآـيـاتـ تـطـيلـ الحـدـيـثـ حولـ هـذـاـ المـوـضـوعـ مـؤـكـدـهـ بـأنـ نـبـوـهـ هـؤـلـاءـ لمـ تـكـنـ بـأـسـبـابـ ذاتـيهـ تـكـوـينـيـهـ فـيـهـمـ، اـنـماـ أـعـطاـهـمـ الرـبـ هـذـهـ المـنـزـلـهـ الرـفـيـعـهـ لـمـاـ وـجـدـهـ فـيـهـمـ منـ عـقـمـ الإـيمـانـ، وـ صـدـقـ الـعـمـلـ، وـ شـجـاعـهـ الإـقـدـامـ، وـ الإـحـسـانـ إـلـىـ النـاسـ، وـ لـعـلـ الـحـدـيـثـ عـنـهـمـ عـلـيـهـمـ السـلـامـ فـيـ هـذـهـ السـوـرـهـ المـبـارـكـهـ يـتـصـلـ بـهـذـاـ الجـانـبـ منـ حـيـاتـهـمـ، نـفـياـ لـلـبـدـعـ الـجـاهـلـيـهـ.

منـ هـنـاـ نـسـطـطـيـعـ القـولـ بـأـنـ الخـطـ العـامـ لـسـوـرـهـ الصـافـاتـ هوـ بـيـانـ العـلـاقـهـ السـلـيمـهـ بـيـنـ اللهـ عـزـ وـ جـلـ وـ سـائـرـ خـلقـهـ، التـىـ تـتـجـسـدـ منـ جـهـتـهـ فـيـ الإـنـشـاءـ، وـ الـخـلـقـ، وـ الـإـبـدـاعـ، وـ الـرـزـقـ، وـ...ـوـ...ـ، اـمـاـ ماـ دـوـنـ هـذـهـ الـعـلـاقـهـ، فـإـنـ هـنـاكـ مـعـراجـاـ وـاحـدـاـ يـتـقـرـبـ مـنـ خـالـلـهـ الـخـلـقـ لـرـبـهـمـ، وـ هـوـ الـإـيمـانـ وـ الـعـمـلـ الصـالـحـ.

وـ حـيـنـ نـتـدـبـرـ فـيـ جـمـلـ بـصـائـرـ السـوـرـهـ تـتـجـلـيـ لـنـاـ المـسـؤـولـيـهـ بـأـظـهـرـ صـورـهـاـ، وـ التـىـ تـصـعـقـنـاـ عـنـدـ قـولـ الـربـ: «وـ قـفـوـهـمـ إـنـهـمـ مـسـؤـلـونـ»ـ.

وـ مـحـورـ الـمـسـؤـولـيـهـ هـوـ الذـيـ يـوـصـلـ مـحاـوـرـ السـوـرـهـ بـبعـضـهـاـ، وـ أـبـرـزـهـاـ ثـلـاثـهـ مـحاـوـرـ:

الأـولـ: نـفـىـ الـأـنـدـادـ الـذـينـ يـتـخـذـهـمـ الـجـاهـلـونـ آـلـهـ لـعـلـهـ لـعـلـهـ يـنـصـرـونـ. اـنـ غـايـتـهـمـ مـنـ عـبـادـهـ الـآـلـهـ التـنـصـلـ مـنـ جـزـاءـ أـفـعـالـهـمـ، وـ لـكـنـ هـيـهـاتـ! اـنـ الـمـلـائـكـهـ صـافـونـ لـرـبـهـمـ صـفـاـ، وـ الشـيـاطـيـنـ مـحـجـوبـوـنـ عـنـ السـمـاءـ، وـ تـتـرـصـدـهـمـ الشـهـبـ، وـ الـمـسـتـكـبـرـوـنـ مـحـضـرـوـنـ لـحـسـابـ عـسـيـرـ.

الـثـانـيـ: الـأـنـبـيـاءـ وـ الـأـوـلـيـاءـ عـبـادـ اللهـ الـمـكـرـمـوـنـ، فـلـاـ يـشـفـعـوـنـ إـلـاـ لـمـنـ اـرـتـضـىـ، وـ لـاـ يـمـكـنـ التـعـوـيـلـ عـلـيـهـمـ لـمـواجهـهـ سـنـنـ الـربـ، كـيفـ وـ إـنـماـ بـلـغـواـ درـجـاتـهـمـ هـذـهـ بـأـنـهـمـ

عباد الله المخلصون.

الثالث: نسف قواعد التبرير التي يعتمد عليها المجرمون في اقتراف المآثم، حيث يزعمون أنهم كانوا مجبورين.

و تتصل الصور التي ينقلها القرآن إلينا من يوم المسؤولية والجزاء بهذا المحور.

و النسق القرآني يجعل المحور الأول والأخير متدرجين، ثم يذكّر بالمحور الثاني الذي يأتي كشاهد مبين لهما، ذلك أن القرآن يضرب للحقائق الأمثل، و من أروع أمثلته حياة الأنبياء، الذين أمرنا بأن نسلّم عليهم بكره و عشياً، ليتّخذهم المؤمنون قدواه و مناراً.

ص: ١٩٣

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١ إلى ١٨]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالصَّافَاتِ صَفَا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرَا (٢) فَالنَّاياتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنُهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّبْرِ بِزِينَةِ الْكَوَافِرِ (٦) وَحَفِظَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمَاعِلِيِّ وَيُعْذَّبُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُخُورًا وَلَهُمْ عِذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ حَطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَبْعَثَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَقْتَهُمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقُنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٌ (١١) بَلْ عَجِيزٌ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكْرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْبِيهُنَّ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتَّمْ وَكَنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)

اللغه

١[والصفات صفا]: كل شيء بين السماء والأرض لم يضم قطريه فهو صاف، ومنه الطير صفات إذا نشرت أجنبتها، وقيل جمع صافه وهي الملائكة التي تصف أقدامها للصلاده والإطاعه أو أجنبتها حال الصعود والهبوط. وصفا تأكيد له.

٢[فالزاجرات]: الزجر الصرف عن الشيء، وهنا يقصد بها الملائكة التي تزجر الكفار حين قبض أرواحهم أو تزجر من أمر الله.

[مارد]:المارد الخارج إلى الفساد العظيم،و هو من وصف الشياطين و هم المرده،و أصله الانجراد،و منه الأمرد الذى لا شعر له،فالمارد المنجرد من الخير.

[دحورا]:الدحور الدفع بالعنف يقال دحر يدحر دحرا و دحورا.

[واصب]:الدائم الثابت.

[الخطفه]:الخطف هو سلب الشيء خلسة بسرعه.

[لازب]:اللازم بمعنى واحد،أى طين يلصق باليد و هو الطين الصافى.

[داخرون]:صاغرون أذلاء،من دخر بمعنى صغر و ذلّ.

ص:١٩٥

هدى من الآيات:

ينصبّ الحديث في هذا الدرس حول الملائكة و يوم البعث، و يربط الموضوعين بعضهما أنّ الإنسان قد يكفر بالجزاء رأساً حين لا يؤمن بيوم الجزاء، و قد يكفر به بصورة غير مباشرة، و ذلك حين يزعم أنّ الملائكة يشفعون له عند الله لأنّهم أبناءه سبحانه.

و ما دام السياق يكرس روح المسؤولية فلا بد من معالجه هذين الموقفين معاً، لأنّهما يشتراطان في الم爐ي للنهائي، و هي التنازل عن المسؤولية.

فالشرك بالله من خلائل الاعتقاد بربوبيه الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفه الأخرى، له مبرر نفسي هو محاولة التملص من المسؤولية. إنّ من الصعب عليه على الناس تحملها، مع علمهم بها، فلكي يتخلصوا -بزعمهم- من حديه أوامر الله، و يتهرّبوا من الالتزام بالدين، تراهم يبحثون عن مبرر نفسي لأنفسهم مما يدفعهم للتصرّف بأنّ الملائكة أو الجن أو الصالحين كعيسى عليه السلام سوف يدفعون سخط رب

و عذابه عنهم بالشفاعة أو الفداء.

و يوم القيامه هو يوم تتجلى فيه المسؤوليه بشكل واضح و أكيد، و تأليه هؤلاء للملائكة و الجن و الأنبياء، يأتي لحل إشكاليه ذلك اليوم، ولكن هيئات، لهذا أكد ربنا في نهاية هذا الدرس مسؤوليه الإنسان الحتميه بقوله: «**قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ**».

بيانات من الآيات:

[٣] يصوّر لنا السياق في مطلع هذه السورة الكريمه مشهداً من الغيب حيث تصطف الملائكة في السموات العلى، بما لا يعلم عددها إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ، انتظاراً للتلقى الوحي من ربها، ثم تنزل به إلى حيث يأمرها زاجره ما يعترضها من العقبات، تننزل به و تتلوه على النبي، ومن هنا يمكننا القول بأنّ تنزيل الوحي ليس مختصّاً بجبرئيل إنّما يوجد معه ملائكة آخرون يؤدون نفس الدور، وفي القرآن نجد تعبير رسول الله، يعني تاره الملائكة التي تهبط بالوحى و يعني تاره أخرى الملائكة الذين يتوفون الأنفس، بينما يقول الله تعالى: «**قُلْ يَتَوَفَّكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِلَّ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**» (١) يعني بذلك عزرايل، وبجمع الآيات إلى بعضها نستوحي بأنّ ملك الموت الأعظم زعيم لزعيم الروح، أمّا بقيه الملائكة فهو أعونه على ذلك، كما أنّ جبرئيل الملك الأعظم الذي ينزل بالوحى على الأنبياء والرسل -زعيم لطائفه من الملائكة الذين يؤدون نفس مهمته.

□ و الصّافاتِ صَفَّا يقسم الله بالملائكة التي تصطف انتظاراً لأمره و وحيه، ثم تهبط لإنفاذ أمر

ص: ١٩٧

. (١) السجدة/(١١).

الرب، زاجر العقبات في طريقها، كالطبقات الموجودة بين الأرض والسماء، و الشياطين التي تحاول استراق السمع، أو حجب الله عن أنبيائه و رسليه.

فَالْأَجْرَاتِ رَجْرًا كَمَا أَنَّ مِنْ صَفَاتِهَا تَلَوُهُ الْوَحْى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَ التَّلَوُهُ مِنَ التَّالِي أَى التَّابِعِ مَا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّ وَحْىَ اللَّهِ لَهُمْ لَا يَنْزَلُ مِنْهُ وَاحِدَهُ، إِنَّمَا يَنْتَزَلُ مَغْرِقًا، وَ ذَلِكَ مَا تَسْتَدِعِيهِ الْحُكْمُهُ فِي التَّغْيِيرِ.

فَالثَّالِثَاتِ ذِكْرًا [٤] فَالْمَلَائِكَهُ إِذْنَ لِيْسُوا آلَهَهُ مِنْ دُونَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ لِأَمْرِهِ، وَ حَمْلَهُ وَحْيَهُ إِلَى الْخُلُقِ، فَلَا تَصْحُ عِبَادَتُهُمْ، وَ إِنَّمَا عَرَفْنَا اللَّهَ بِجَانِبِ مَدْرَأَ الْمَلَائِكَهُ وَ هُوَ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ، لَأَنَّ إِشْرَاكَ طَائِفَهُ مِنَ النَّاسِ بِالْمَلَائِكَهُ نَابِعٌ مِنْ جَهْلِهِمْ لِحَقِيقَهُ هَذَا الْخُلُقِ، لِهَذَا نَجَدُ الْقُرْآنَ بَعْدَ هَذَا التَّعْرِيفِ الْمُخْتَصِّ وَ الْبَلِيجِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، يَنْطَلِقُ لِتَأكِيدِ حَقِيقَهُ التَّوْحِيدِ قَائِلاً:

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوْاحِدٌ وَ يَلَاحِظُ وَرُودَ ثَلَاثَهُ تَأكِيدَاتٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، هِيَ الْقُسْمُ وَ هُوَ أَعْظَمُهُمَا وَ إِنَّ التَّوْكِيدِيَّهُ وَ الْلَّامُ فِي عِبَارَهُ لَوَاحِدٌ، الْوَاقِعُهُ فِي جَوابِ الْقُسْمِ.

[٥] وَ لَكِي لَا يَشْبَعَ الْإِنْسَانُ مِيَوْلَهُ الْفَطَرِيَّهُ نَحْوَ الْعَبُودِيَّهُ لِلرَّبِّ بِاعْتِقَادَاتِ باطِلَهُ تَجَاهَ الْكَوْنِ وَ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ يَبِينُ اللَّهُ بِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْكَوْنِ هُوَ مَخْلُوقٌ مُفَقَّرٌ إِلَيْهِ فِي وَجُودِهِ، وَ هَذَا الْبَيَانُ يَعْطِي الْبَشَرَ شَعُورًا بِالْأَنْسَاجِ مَعَ الطَّبِيعَهُ مِنْ حَوْلِهِ وَ هُوَ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ لَوْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَسَارِقِ وَلِعَلِ الْحَقَائِقِ الْعُلْمِيَّةِ الْقَائِلَهُ بِأَنَّ لِكُلِّ نَجْمٍ وَكُوكَبٍ مَدَاراً خَاصًا بِهِ، فَمَشَرِّقَهُ وَمَغْرِبَهُ يَخْتَلِفُ فِيهِ عَنِ الْغَيْرِ، تَكْشِفُ عَنِ الْجَانِبِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي جَاءَتْ كَلْمَهُ الْمَسَارِقِ فِيهَا جَمِيعًا.

وَهُنَاكَ احْتِمَالٌ آخَرٌ لِمَعْنَى الْكَلْمَهِ هُوَ: إِنَّ رَحْلَهُ الشَّمْسِ مِنْ عَامٍ لِعَامٍ (أَوْ بِالْأَخْرَى حِرْكَهُ الْأَرْضِ السَّنْوِيَّهُ حَوْلَ الشَّمْسِ) تَسْتَدِعُ وَجْهَ مَشَارِقِهِ لَهَا بَعْدَ أَيَّامِ السَّنَهِ.

وَلِعَلِ تَخْصِيصِ الْمَسَارِقِ دُونَ الْمَغَارِبِ بِالذِّكْرِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبِيلِ أَنَّ عَبَادَ الشَّمْسِ يَسْحُرُهُمْ شَرْوَقَهَا فَيَعْبُدُونَهَا فِيهَا، وَلِذَلِكَ اسْتَدِعَى التَّأكِيدُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ الْمَسَارِقِ.

[٦] أَمَّا عَنِ الْكَوَاكِبِ الَّتِي يَتَخَذُهَا قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ مُعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِمَّا لَمَّا يَرَوْنَ مِنْ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ ظَهُورَهَا وَغَيَابَهَا يَؤْثِرُ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ، أَوْ لِأَنْبَارِهِمْ بِرُوعَتِهِا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُوضِّحُ دُورَهَا فِي السَّمَاوَاتِ فَيَقُولُ:

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاوَاتِ الدُّلْيَا الْقَرِيبَهُ مِنَ الْأَرْضِ...

بِزِينَتِهِ الْكَوَاكِبِ هَذِهِ الْكَوَاكِبُ قَدْ تَكُونُ مُوجَودَهُ فِي السَّمَاوَاتِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ زَيْنَهُ لَهَا، بِسَبِيلِ انْعدَامِ الْأَوْكَسْجِينِ وَالْهَوَاءِ مِنْ فَضَائِلِهَا، مِمَّا يَمْنَعُ بَقَاءَ الصَّوْءِ أَوْ انْعَكَاسِهِ.

[٧] و بالإضافة إلى هذا الجمال يشير السياق إلى القوه و المتناه في خلق السماء، حيث جعل فيها الرصد و الحرس، يمنعون نفوذ الشياطين إلى الملاءة الأعلى.

و حفظاً من كُلٌّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ [٨] و تهدم هذه الآية الكريمه العقيده الباطله، التي تقول بمعرفه الجن لجميع الأقدار التي جرت في الماضي، و ما تجرى الآن، و ما ستقع مستقبلاً لأنهم يتصلون بالغيب و يطلعون عليه، و ينفي القرآن ذلك نفياً مباشراً بقوله:

لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى لَا يُسْتَطِعُونَ التَّجَسِّسُ إِلَيْهِمْ أَوْ اسْتِرَاقُ السَّمْعِ مِنَ اللَّهِ، وَ هُوَ يُوحِي لِلْمَلَائِكَةِ بِمَا يَقْدِرُهُ وَ يَقْضِيهِ، لِتَبَشِّرَ تَنْفِيذَهَا بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى.

و يُقْدِفُونَ مِنْ كُلٌّ جَانِبٍ يَقْدِفُهُمْ حِرْسُ السَّمَاءِ بِأَسْلَحْتِهِمْ لَوْ حَاوَلُوا النَّفْوذَ وَ اخْتِرَاقَ الْحَجْبِ، فَهُمْ فِي يَقْظَهِ دَائِمٍ.

[٩] و يدحرون الشياطين.

دُحُورًا عند تسليتهم لاستراق السمع، كما يكتب عليهم ذنباً يجمع إلى جرائمهم الأخرى، فينالون بذلك العذاب الشديد في النار بعد الحساب.

وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

ص: ٢٠٠

قال الإمام الباقر عليه السلام :

«عذاب واصب أى دائم موجع، قد وصل إلى قلوبهم »^(١) [١٠] والشياطين يسعون جهدهم للحصول على بعض المعلومات من السماء من أجل إضلال أهل الأرض بها، بعد تضمينها الأفكار الباطلة، و ما عند الكهنة و المنجمين من الأخبار الصائبة هو من هذا النوع، فهم يجلبون ثقة الناس بهم، من خلال الجزئيات الصحيحة حتى يثقون بكل ما يصدر عنهم من الباطل.

إلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتَبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ وَ فِي الْآيَهِ وَ آيَاتٍ أُخْرَى مُشَابِهٍ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَمْكِنُ مِنَ الْحَصُولِ عَلَى بَعْضِ الْأَخْبَارِ، مِنْ خَلَالِ مَغَامِرَاتِهَا الْمُسْتَمِرَه.

كما نستوحي من الآية و آيات أخرى أيضاً في القرآن أنَّ حديثاً يدور لدى الملائكة على عما يجري في الدنيا، متى ينزل المطر، متى تحدث الزلزال، و... و لاـ ريب أنَّ للظواهر الواقعه مستقبلاً إرهاصاتها و دلالاتها، و لعل الحاسه السادسه، و النظر المغناطيسي، و الانتقال التلقائي، و التبيؤات الصحيحة، و الأحلام، و حتى بعض أبعاد السحر و الكهانه و العرافه و... و... تدل على وجود مبشرات و منذرات قبل وقوع الحوادث.

أمَّا الذين يزعمون بأنَّهم يتبعون الجن و الشياطين فإنَّهم خاطئون، لأنَّ الجن أساساً لا يملكون من علم الغيب شيئاً، حيث يمنعهم حرس السماء من ذلك.

[١١] و بعد هذه المقدمه البليغه التي حطمت أسطوره الشرك بالجن، و التصور

ص: ٢٠١

١-٤) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٤٠٠).

بأنها آله من دون الله، يخلص السياق إلى تساؤل من شأنه أن يهْزِّ نفوس الكفار والمشركين وعقائدهم من الأعماق، ويبعثهم على التسليم للرسالة وعقائدها الصائبة لو أرادوا ذلك.

يقول تعالى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَيْهَا الرَّسُولُ وَأَسْأَلْهُمْ وَالاستفتاء هو استطلاع الرأي...

أَهُمْ يَعْنِي الْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكُونَ ...

أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَا هُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ وَلِتَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أُوْجَهٌ:

الأول: أن المعنى بالتساؤل هم الملائكة، ولا يملك الإنسان إجابته سوى الاعتراف بتفوقها الذاتي عليه من حيث القوه، فهى أقوى حتى من الجن، التي يتصورها الإنسان لضعفه أنها آله، فهى من جمه القىاس أولى بادعاء الالوهيه والتمرد على الله، لكننا نجدها خاضعه له مسلمه لأمره، فلما ذا إذن هذه التزعع نحو الربوبيه فى بعض بنى البشر أو التكبر، وهم ضعفاء في الخلقه حيث عنصرهم الطين اللازم؟! الثاني: إن المقصود بالخلقه الشديده هم الجن، وما داموا أضعف من مقاومه قدره الله و عذابه فلما ذا يشرك البعض بهم، وهذا الأمر يستوجب العذاب الأليم

الذى لا تتحمله أبدانهم الطينيه الضعيفه؟! الثالث: إن الآيه تشير الى سائر خلق الله فى الكون، كالسموات والأرض والكواكب حيث تتجلّى آثار قدره الله، التي دفع التشكيك فيها بالإنسان الى الكفر بالبعث، فإذا ما تفَكَّر الإنسان في خلقها وثق بقدره ربه، وبالتالي آمن بيوم البعث، وهذا أظهر الوجه فيما يبدو له.

[١٢] و مشكله الإنسان تجاه الحقائق الكبيره أنه لا- يستوعبها إلا- إذا اتصف بسعه الأفق و التعقل، و كلما كان العقل كبيرا كان صاحبه أقدر على اكتساب المعرفه، و عقل الحقائق،

و الإمام على عليه السلام يقول :

«يا كميل ابن زياد: إن القلوب أوعيه فخيرها أو عاها» (١) و العاقل حينما يصغى للحقائق أو يشاهدها يتتعجب منها و لكنه يصدقها، فلا يكذبها لو قلت له بأن الدلفين يستخدم الآن في عمليات التجسس أو أن العلم الحديث اخترع جهازا فاق به رأس البعضه. أمّا الجاهل فهو لا يكذب الحقائق و حسب، بل و يستهزئ ب أصحابها، و يسخر منه، و قد يوصمه بالجهل و الجنون، و في الوقت الذي يدل موقف الإعجاب على نمو العقل، و سعه الصدر، و استيعاب الحقيقة، فإن موقف السخرية دليل على ضيق الأفق، و جمود الفكر، و القرآن يصف الرسول بالإعجاب، بينما يصف الكفار و المشركين بالسخرية.

بَلْ عَجِّبُتْ وَ يَسِّرُخُونَ [١٣] و من شواهد تحجر قلوبهم، و جمود عقولهم، أَتَهُمْ لَا ينتفعون بالذكر، و قد يتعلّمدون التغافل عن الحقيقة.

ص: ٢٠٣

١- ٣) نهج البلاغه/ ح(١٤٧)/ ص(٤٩٥).

وَإِذَا ذُكْرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَالْتَذْكِيرُ هُوَ إِثْارَهُ مَعْلُومَاتُ الْإِنْسَانِ فِي ذَاكِرَتِهِ مَمَّا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّ عَقْلَ الْإِنْسَانِ يَحْتَوِي عَلَى حَقَائِقٍ كَثِيرَهُ
لَوْ اسْتِشَارَهُ صَاحِبَهُ.

[١٤] وَهُؤُلَاءِ لَيْسُ فَقْطَ لَا-يَعْوِدُونَ إِلَى ذَاكِرَتِهِمْ إِذَا اسْتَشَرُوهُمْ، إِنَّمَا يَرْفَضُونَ الْأَنْصِياعَ لِلْحَقِّ مَعَ ظَهُورِ الْآيَاتِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ جَرَأَهُ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُمْ يَسْتَشِيرُونَ النَّاسَ لِلْسُّخْرِيَّةِ عَلَى الْحَقِّ.

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَدْ تَكُونُ فِي الْآيَاتِ إِشَارَةٌ إِلَى ثَلَاثَ مَراحلٍ يَمْرُّ بِهَا هُؤُلَاءِ فِي رَفْضِهِمْ لِلْحَقِّ:

الأُولَى: السُّخْرِيَّةُ بِالْحَقِّ لِمَجْدِ رُؤْيَاةِهِ، وَالثَّانِيَةُ: قَسْوَهُ الْقَلْبُ، وَهِيَ نَتْيَاجُهُ لِلْسُّخْرِيَّةِ حِيثُ تَرَاكُمُ عَلَيْهِ الْحَجَبُ، فَلَا يَعُودُ صَاحِبَهُ قَادِرًا عَلَى التَّفَاعُلِ مَعَ التَّذَكُّرِ، وَمَطَابِقَهُ الْحَقِّ الْخَارِجِيُّ مَعَ الْفَطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْعُقْلِ، وَالثَّالِثَةُ: مُحَارِبَةُ الْحَقِّ وَمُحاوَلَةُ صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ.

[١٥] وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْرُرُ هُؤُلَاءِ كُفُّرَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ، وَيُضْلِلُونَ النَّاسَ عَنْهَا يَلْجَاؤُونَ إِلَى إِثْارَهُ الشَّبَهَاتِ حَوْلَ الْحَقَائِقِ، الشَّبَهَةُ الْأُولَى حَاوَلَوْا مِنْ خَالِلَهَا تَشْكِيكَ النَّاسِ فِي أَصْلِ الرَّسَالَةِ.

وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَاخْتَارُوا تَشْبِيهَهَا بِالسِّحْرِ، لَأَنَّهُ أَقْرَبُ الْأَمْرِ وَأَشْبَهُهَا لِلْحَقِّ ظَاهِرِيَّا، وَمِنْ قَصَّهُ النَّبِيُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَضَعَّلُ لَنَا أَنَّ حِبَالَ السِّحْرِ خَيْلَتْ لِلنَّاسِ أَنَّهَا تَسْعَى، إِلَّا أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ السِّحْرِ وَالْحَقِّ أَنَّ السِّحْرَ لَا وَاقِعٌ لَهُ، بَيْنَمَا الْحَقُّ وَاقِعٌ
قَائِمًا.

[١٦] وَ الشَّبَهُهُ الثَّانِيَهُ قَالُوا: كَيْفَ يَبْعَثُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ تَرَابًا وَ أَعْضَاءً مَمْزَقَهُ؟! لَا هُنْ يَرِيدُونَ حَيَاةً لَا مَسْؤُلِيهِ فِيهَا، وَ هَذَا الاعتقاد يلتقي مع عبادتهم للجن و سائر الشركاء الذين يعبدونهم ليرفعوا عنهم المسؤولية بالشفاعة.

أَإِذَا مِنَّا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [١٧] ثم يضيفون استهزاء و سخرية:

أَوْ أَبَوْنَا الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ تَلَّا شَوَّا فِي التَّرَابِ؟! [١٨] فيجيبهم اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ (ص) إِذْ يَتَرَفَّعُ عَنْ مَخَاطِبَتِهِمْ تَحْقِيرًا لَهُمْ وَ إِصْغَارًا، وَ هَكُذا لَا نَجْدُ فِي الْقُرْآنِ وَ لَا أَيْهَهُ وَاحِدَهُ، تَشْتَمِلُ عَلَى خُطَابٍ مُباشِرٍ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ وَ الْكُفَّارِ عَلَى صَعِيدِ الدِّينِ:

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ أَيْ سَاجِدِينَ مُسْتَسِلِمِينَ لِلْإِرَادَهِ الإِلَهِيَّهِ، حِيثُ تَنْتَهِيُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ حَرِيَّهُ الْإِنْسَانُ تَبَاعَاعَ لَهَا، وَ لَا يَبْقَىُ هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَ الْحِسَابُ، حِيثُ تَتَجَلَّ الْمَسْؤُلِيَّهُ التَّى لَا مُحِيطٌ مِنْهَا تَجْلِيَّا تَامًا.

اشاره

فَإِنَّمَا هُوَ رَجْرَهُ وَاحِدَهُ فَإِذَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٩) وَ قَالُوا إِلَيْهِ وَيْئَنَا هَذَا يَوْمُ الْدِينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)
 أَخْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ
 (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِيهِ رُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَشِئِلُمُونَ (٢٦) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا
 عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِيَنَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا
 لَدَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاهُمْ إِذَا كَنَّا غَاوِيَنَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ
 كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسِّيَّ تَكْبِرُونَ (٣٥) وَ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَأْكُلُوا آلَهَتِنَا لِشَاءِرِ مَجْنُونِ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَقَ
 الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَدَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَ مَا تُجْزَوُنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)

هدى من الآيات:

يحدثنا السياق في هذه المجموعة من الآيات عن جانب من اليوم الآخر، حيث الصيحة العظيمة فإذا بالظالمين قيام ينظرون و يتظرون عذاب الله. و هناك تجلّ المسؤولية، التي طالما تهربوا منها في الدنيا، فتسقط تبريراتهم التي زعموا بأنهم قادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

و التي من بينها إلقاء المسؤولية و اللوم على الآخرين، إذ يدعى البعض بأنه كان مكرها و مجبرا من قبل السلطات أو القوى الاجتماعية.

و من أبرز أدلة المسؤولية في الدنيا وجود الجرائم، فالذى يركب سفينه ثم تغرق يكون مسؤولاً بحسبه معينه عن عرقها، مهما بزر الأمر بغضله ربانها مثلا، و هكذا لو كنا في مجتمع يحكمه الظلم ثم سكتنا عنه فشملنا الذل و البلاء، فإن ذلك دليل مسؤوليتنا عن الوضع، حتى لو برأنا بثقافه الجبر أو فلسفة الانتظار.

و لكي يعمق القرآن شعورنا بالمسؤولية، و لاـ يدع التبريرات تحجبنا عن هذا الأمر الخطير، و الأساسية في حياة البشر، يصور لنا مشاهد من يوم القيمة، و يشير فيها جانباً من التبريرات، التي يتسبّب بها الظالمون آنذاك، مع ردها ردّاً قاطعاً، و كلّ ذلك في صوره حوار بينهم و بين الله و الملائكة، و إنما يرينا السياق هذه المشاهد من الآخرة لكي تتعكس على حياتنا الدنيوية في صوره إحساس نفسي و عمليّ عميق بالمسؤولية.

بيانات من الآيات:

[١٩] فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْتَظِرُونَ الزَّجْرَةَ تَعْبِيرٌ آخِرٌ عَنِ النَّفْخَةِ، وَهِيَ صَوْتٌ يُصْدِرُهُ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ فِيمِيتِ النَّاسِ أَوْ يَعْثِمُهُمْ لِلْحَيَاةِ، كَيْفَمَا أَرَادَ تَعَالَى، وَقَدْ يَفْهَمُهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَاعَثِ الْحَيَاةِ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْعُظَامِ الْمَيِّتِهِ بِحَاجَهِ إِلَى تَفَاعُلَاتٍ سَرِيعَهُ جَدًا، وَهَذَا مَا تُوفِّرُهُ الزَّجْرَةُ، الَّتِي تَبْعَثُ النَّاسَ أَحْيَاءً وَفِي كَامِلٍ وَعِيهِمْ لِلحسابِ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا يَخْلُقُ جَاهَلاً ثُمَّ يَتَدَرَّجُ فِي الْمَعْرِفَةِ لِيَصُلُّ إِلَى حَدٍّ مِنَ الْكَمالِ، فَإِنَّهُ يَوْمُ الْبَعْثِ وَبَعْدَ الزَّجْرَةِ يَنْهَضُ بِقُوَّهُ كَامِلَهُ، وَوَعِيَّ تَامٍ.

[٢٠] وَأُولُو نَظَرٍ يَلْقِيُهَا الظَّالِمُونَ إِلَى مَا حَوْلَهُمْ، تَكْفِيهِمْ عِلْمًا بِمَصْرِيرِهِمْ، حِيثُ الْوَيْلُ وَالثُّبُورُ، وَقَدْ كَانُوا مَحْجُوبِينَ عَنِ هَذِهِ الْحَقِيقَهِ فِي الدُّنْيَا، بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِالرَّسَالَهِ الْإِلَهِيِّ.

وَمِنْ طَبِيعَهِ الْبَشَرُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ بِوَقْوعِهِ فِي الْخَطَا وَالْهَلْكَهِ إِلَّا قَلِيلًا وَفِي الْلَّهُظَاتِ الَّتِي يَيَّأْسُ وَيَفْقَدُ فِيهَا أَدْنَى أَمْلَى بِإِمْكَانِيهِ التَّبَرِيرِ.

فَالظَّالِمُونَ إِذْنَ يَحَاوِلُونَ أَنْ لَا يَعْتَرِفُوا بِخَطَّهُمْ أَوْ ضَعْفِهِمْ، وَهَلْكَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا،

و لكتّهم يومئذ لا يملكون سوى الاعتراف، و نبذ التبريرات التي تسبّبوا بها في الدنيا للفرار من المسؤولية.

و قاتلوا يام ويلنا هندا يوم الدين و الدين هو مجموع الفروض و الواجبات التي فرضها الله على الناس، كإقامه الصلاه و العدل و... و بالتالي فإن الدين هو المسؤوليه، و قد تهرب هؤلاء منها و لم يتتحملوها، لكنّهم وجدوها يوم البعث هي الحاكمه، فعلموا بأنّهم هالكون و خاسرون، و قد يكون معنى الدين هنا خصوص الجزاـء.

[٢١] أو يؤكـد لهم المنادي من قبل اللهـ و هو أحد الملائـكهـ هذه الحقيقة، و أنـ هذا اليوم ليس للجزاء و حـسبـ، إنـما هو يوم الجزاء العادل، الذي يفصل فيه بين أصحاب الجنه و أصحاب النار.

هـذا يوم الفـضلـ الذي كـتـمـ بـهـ تـكـذـبـونـ وـ فـيـ الآـيـهـ إـشـارـهـ صـرـيـحـهـ بـأـنـ التـكـذـيبـ هوـ الذـىـ دـفـعـ بـهـؤـلـاءـ إـلـىـ عـدـمـ تـحـمـلـ المسـؤـولـيهـ، بلـ إلىـ الـظـلـمـ وـ الـجـورـ، فـمـنـ الطـبـيـعـيـ أـنـ الإـنـسـانـ الذـىـ يـشـعـرـ بـأـنـهـ لـاـ يـجـازـىـ عـلـىـ أـعـمـالـهـ السـيـئـهـ سـوـفـ يـتـمـادـىـ فـيـهـ، وـ مـنـ هـذـاـ الـمـنـطـلـقـ يـكـونـ الـإـيمـانـ بـالـآـخـرـهـ حـجـرـ الزـاوـيـهـ فـىـ تـواـزـنـ فـكـرـ وـ سـلـوكـ الإـنـسـانـ.

[٢٢-٢٣] ثم يأمر الله بجمع العاصين إلى بعضهم، و إدخالهم النار، و هم ثلاثة أنواع:

١ـ الظـالـمـونـ، وـ هـمـ الـذـينـ يـظـلـمـونـ أـنـفـسـهـمـ وـ يـظـلـمـونـ الـآـخـرـينـ.

٢ـ الـآـلـهـ المـزـيفـهـ التـىـ يـعـبـدـهـ الـظـالـمـونـ مـنـ دـوـنـ اللهـ، كـالـأـصـنـامـ الجـامـدـهـ،

و الأخرى المتحرّك، أمثال الطغاة، وأصحاب المال، و علماء السوء.

٣- الأزواج، وقد قال بعض المفسرين: إن المقصود بالكلمة ظاهرها وهي الزوجة، وهذا يعني أن الزوجة لا يمكنها أن تبرر عدم تحمل المسؤولية بأن زوجها لا يقبل أو لا يسمح لها بذلك، وإنما سوف تلقى العذاب وتدخل معه إلى النار.

و ثمّه تفسير آخر للكلمة وهو: إن المقصود بالأزواج هم الأشباء والنظائر، ويعني ذلك أن كل جماعه تتجانس مع جماعه أخرى في عملها فإنها تحشر معها، كالخمارين والنمامين فإنهم يحشرون مع أمثالهم.

و يبدو أن الأزواج هم النظائر المكمّله لبعضها، ويقال لمثنى الحذاء والنعل زوج لأنهما يتكمّلان ويؤلّفان شيئاً واحداً، و من هنا فإن كلامه الأزواج تشمل أولئك الذين يسكتون عن الظلم ويرضون بأفعالهم، لأن الظلم زائداً السكوت عنه والرضى به يتكمّلان ويلدان واقع الظلم والتخلّف والإرهاب، وإذا صبح هذا التفسير فإن القرآن يقسم الناس إلى ثلاث فئات:

الأولى: أئمه الظلم والجور و ما يرمز لهم من الأصنام الجامدة.

الثانية: أتباع أئمه الظلم، وأشياعهم الذين ينفذون الظلم مباشره، كالجند وأجهزة الاستخبارات والاعلام و...و...

الثالثة: الساكتين عن الطواغيت وأعوانهم من سائر الناس، و هؤلاء جميعاً يجمعون ويساقون إلى النار بأمر الله إذ يقول يوم القيمة:

﴿أَحْسِنُوا إِلَيْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

و نستلهم من هذه الآية- كما من آيات عديده أخرى- أن أعظم ما يسأل عنه الناس يوم القيامه الولايه، فهم مسئولون عن القياده التي كانوا يتبعونها، و الآلهه التي كانوا يعبدونها من دون الله، كالطاغوت السياسي و الثقافي و الاقتصادي، و بالتالي النظام الاجتماعي الذي كانوا يخضعون له.

فَاهِدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَ لَعْنَا نَفْهُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَاهِدُوهُمْ» أَنَّ الَّذِينَ تَقَدَّمُ ذَكْرَهُمْ يَحْشُرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ عَمِيَانًا عَمِيَّا، تجسیدا للعمى المعنوي الذي اختاروه لأنفسهم في الدنيا، و في ذلك قوله تعالى: «وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَيِّلًا» ^(١) فهم بحاجه إذن الى من يدلهم على صراط النار، و يهدیهم الى حيث يستقر بهم المصير.

[٢٤] و لكن هل ينتهي كل شيء؟ كلا... إنما يوقف هؤلاء للحساب، و الحساب أبرز تجلیات العداله الإلهیه و المسؤولیه البشريه، فمن جانب يدخل العصاة الجحیم و هم قانون بعدالله، و أن هذا المصیر جاء نتيجة لعملهم لا نتيجة لظلم، و من جانب آخر يصلون الى اليقین بالمسؤولیه التي أنکروها في الدنيا.

و قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ عن أفكارهم، و أقوالهم، و أعمالهم، و قبل كل ذلك عن إمامهم و خطتهم الدينی و السياسي العام.

[٢٥] و أول الأسئله التي توجه إليهم:

ص: ٢١٢

١ - (٧٢) الإسراء / .

مَا لَكُمْ لَا تَنْاصِي رُونَ فَمَنْ عَادَهُ إِنْسَانٌ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ يَقْدِمُ عَلَى الظُّلْمِ وَعُمُومَ الْخَطَايَا اعْتِمَادًا عَلَى الْآخَرِينَ، فَالشَّرْطَى الَّذِى يَعْتَقِلُ الْمُجَاهِدِينَ يَعْتَمِدُ عَلَى مَسْؤُلِ فَرْقَتِهِ، وَهَذَا الْآخَرُ بِدُورِهِ يَعْتَمِدُ عَلَى مَدِيرِ الشُّرْطَةِ، وَهَكُذا دُوَالِيكُ، وَيَشْكُلُ الْجَمِيعُ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ جَهَازٌ مَا يُسَمَّى بِالْأَمْنِ أَوِ الْحَزْبِ الْحَاكِمِ الَّذِى يَعْتَمِدُ أَفْرَادَهُ فِي الظُّلْمِ عَلَى بَعْضِهِمْ.

وَهُؤُلَاءِ تَقْطُعُ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَالرَّوَابِطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا تَقْدَمَتْ بِذَلِكَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهَذِهِ الْفَكْرَةُ لَيْسَ تَنْفَعُنَا عَلَى صَعِيدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَحَسْبٍ حَيْثُ نَطَّلَعُ عَلَى مَشْهُدِهِ مِنْهُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا -وَانْطَلَاقًا مِنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ- أَنْ لَا نَظَلْمَ أَحَدًا اعْتِمَادًا عَلَى أَحَدٍ.

[٢٦] إِنَّ مَنْ نَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ فِي ظُلْمِنَا لَنْ يَنْفَعُونَا بَشَيْءٍ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ لَنْ يَنْفَعُوا أَنفُسَهُمْ، إِذَا سِيَسْتَلِمُونَ أَمْاَمَ الْإِرَادَةِ الْرَّبَانِيَّةِ، الَّتِي طَالَمَا تَمَرَّدُوا عَلَيْهَا بِجَهَلِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى حَاكِمَيِّهِ الرَّبِّ الْمُبَاشِرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَمَنْ لَا يَسْتَلِمُ لِإِرَادَةِ اللَّهِ بِاختِيَارِهِ فَإِنَّهُ يَخْضُعُ لَهَا بِالرَّغْمِ مِنْهُ.

[٢٧] وَلَأَنَّ الظُّلْمَهُ وَأَعْوَانَهُمْ اعْتَادُوا عَلَى حِيَاةِ التَّبَرِيرِ، وَلَعَلَّهُمْ أَنْقَذُهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ حِيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ التَّشْبِيثَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا، طَمَعًا فِي التَّنَصُّلِ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ، وَمِنْ ثُمَّ الْهَرْبِ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْعِدَالَهِ الإِلَهِيَّهِ، وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟ وَالْقُرْآنُ يَصُوِّرُ تَجْلِيَّنَا لِلتَّلَاقِ، وَمَحاوِلَهُ التَّبَرِيرِ، مِنْ خَلَالِ عَرْضِهِ الرَّائِعِ لِحَوَارٍ يَدُورُ

بين المستضعفين و المستكبرين، التابعين و المتابعين.

و أَقْبَلَ بِعُصْمَهُمْ و هم التابعون...

عَلَى بَعْضٍ و هم المتبعون و أئمه الظلم -حسبما يبدو-...

يَسْأَلُونَ من أجل معرفه المسؤول عن الظلم، و بالتالى عن المصير الساء الذى صار إليه الجميع...

[٢٨] أما المستضعفون فقد خاطبوا المستكبرين:

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَا عَنِ الْيَمِينِ هنا يحاول التابعون رفع المسؤوليه عن كاهلهم بعذرین:

الأول: قالوا إننا لم نكن نبحث عن الكفر والظلم، ولا نسعى إليهما إنما أنتم الذين حملتم الوزر علينا، فكنتم تأتونا ولم نكن نأتيكم.

الثاني: ثم ادعى هؤلاء بقولهم «عن اليمين» إنهم كانوا مجبرين على اتباع الظلم، و لعل اليمين تشير إلى القوه لا الى الجهة اليمنى التي تخالف الشمال، وقد استخدم القرآن هذه الكلمه تعبيرا عن القوه، قال تعالى: «وَلَوْ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخْذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» (١) يعني القوه، وإنما استخدمت اليمين للتعبير

ص: ٢١٤

.(٤٤-٤٥) الأحقاف / (٤٤-٤٥).

عن القوه لأنّ قوه الإنسان تتجلى عاده فى يمينه.

[٣٠-٢٩] وأمام هذا الموقف من المستضعفين ضد المستكبرين يدافع الآخرون عن أنفسهم، وفى دفاعهم بيان للواقع كما هو، كما كان فى اتهام أولئك إشاره لأسلوب الطغاه فى تضليل الناس.

فأئمه الكفر و الظلم يرفعون التهمه عن أنفسهم بأمرین ينطويان على الإشاره لقابلية الانحراف عند الإنسان:

الأول: قالوا بـلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ و حينما لا يكون الإنسان مؤمنا بعقيده ما، و لا متزما بمبدأ ما، إنما يعيش خور العزيمه و ضعف الإراده و الفراغ الثقافى و القيادى فى ذاته، يكون عرضه للانحراف، أولاً- لأن الطغاه يستخدمون شتى ألوان الضغط عليه حتى يخضعوه لأهوائهم، يرغّبونه و يمتنونه ثم يهدّدونه و يتوعّدوه ثم يضلّونه و يغوضونه، فكيف يصمد- من دون الإيمان بالله و الثقه بنصره- أمام كل هذا الضغط؟ ثانياً: يستحيل على البشر بطبيعته أن يعيش الفراغ، فهو إن لم يعتقد بالإسلام مثلاً و يصرف ماله و طاقاته من أجله، فإنه سوف يعتقد بمبدأ آخر و سيصرف طاقاته فى سبيله،

و فى الحديث قال الإمام الباقر عليه السلام :

«ما من عبد يدخل بنفقها فيما يرضى الله إلا ابتلى بأن ينفق أضعافها فيما أساء الله» (١) أما المؤمن فهو يتحدى الإعتقادات الباطله بإيمانه، و يقاوم الأفكار التبريريه و الثقافه السليمه بثقافته الرساليه، و يرفض الانتماء لحزب الشيطان و قياده

ص: ٢١٥

١- ٣) بح/ج (٧٨)/ص (١٧٣).

الطاغوت بانتمائه لحزب الله و القياده الرساليه، فيجد قوه ماديه-الى جانب قوته المعنويه-لما جاهه ضغوط المستكبرين.

الثانى: نفى المستكبرون أن تكون لهم سلطه لا تقهرون على المستضعفين من أتباعهم.

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إِنَّ مَا يَكْمِلُ مسیره الطغاه هو قابليه الاستغلال الموجوده عند الناس ، فالطاغوت هو عامل خارجي للظلم والانحراف، أمّا العامل الأساسي فيكمن في الواقع السالب السائد في المجتمع كالخوف، والجهل، والتفرق، والظلم الاجتماعي، أمّا الله فإنه لم يفرض سيطره أحد من الناس بصورة تكينيه أبداً.

الثالث: المجتمع الذي يظلم بعضه بعضاً، فكل قويه حقوق ضعيفه، ويستغل الغنى الفقير، وي BETS تجاره المستهلكين فيه، يكون تربه مناسبه لننمو الأنظمه الجائزه فيه، لأن المجتمع الذي يقوم أساساً على الظلم لا يسلم فيه أحد منه، بل سوف يتضاعف الظلم فيه حتى يبلغ قمته المتمثله في النظام السياسي فيولى أعنتي الظلمه أمره، ويكون مصداقاً للآيه الكريمهه: «وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا».

إنَّ النَّظَامُ السِّياسِيُّ هُوَ الْجَانِبُ الْبَارِزُ مِنَ الْعَمَلِهِ بَيْنَمَا جَانِبُهَا الْآخَرُ هُوَ الْفَكْرُ وَالسُّلُوكُ، وَالْعَادِيَاتُ وَالْأَعْرَافُ الاجتماعيه.

وَالطَّاغُوتُ يَشْعُرُ بِدُورِهِ -أَنَّهُ قَائِمٌ بِسُلْبِيَّهِ مَجَمِعَهُ، وَلَهُذَا يَقُومُ بِتَعميقِهَا وَنَشْرِهَا.

بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِيْنَ وَ تَفَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةُ تَفْسِيرًا عَمِيقًا لِحُكْمِهِ الْمُعْرُوفِ «كَمَا تَكُونُونَ يُولَى عَلَيْكُمْ»، وَ رَبِّا لِذَلِكَ

حَدَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وصيَّتِهِ الْمُعْرُوفَةِ قَائِلاً:

«لَا تَتَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهَايَةَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُولَى عَلَيْكُمْ شَرَارُكُمْ»^(١) [٣١] وَ هَنَالِكَ لَا يَجِدُ الظَّالِمُونَ بَدَّا مِنَ الاعْتَرَافِ بِاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ، وَ هَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَسْؤُلِيَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ: «وَ قِفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» فَالْتَّبْرِيرُ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّمَا يُورِدُهُ النَّارُ.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لِذَلِكُوْنَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلْمَهُ رِبِّنَا عَلَى الْمُسْتَكْبِرِينَ بِالْغَوَایَهِ وَ الضَّلَالِهِ، وَ الْعَذَابُ بِالنَّارِ، وَ لَا يَمْكُنُ لِمَنْ يَتَحَدَّى رِسَالَاتَ رَبِّهِ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى الْحَقِّ، لِأَنَّ الْمَصْدَرَ الْوَحِيدَ لِنُورِ الْهُدَى يَهُوَ فَضْلُ اللَّهِ، وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَالِهِ مِنْ نُورٍ.

[٣٢] ثُمَّ بَيْنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ أَنَّهُمْ بِدُورِهِمْ كَانُوا غَاوِيْنَ، وَ أَنَّ اتَّبَاعَ الْمُسْتَضْعِفِينَ لَهُمْ كَانَ يُؤْدِي بِهِمْ إِلَى الْغَوَایَهِ. وَ هَكُذا يَتَحَمَّلُ الْمُسْتَضْعِفُونَ كَامِلَ الْمَسْؤُلِيَّةَ عَنْ ضَلَالِهِمْ لَا يَأْتُهُمْ اتَّبَاعُ رِجَالًا ضَالِّينَ. وَ هَلْ يَنْتَظِرُ لِمَنْ اتَّبَعَ ضَالًا أَنْ يَهْتَدِي السَّبِيلُ؟ فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِيْنَ إِنَّ أَبْسَطَ أَحْكَامَ الْعُقْلِ وَ أَوْضَحُهَا هُوَ ضَرُورَهُ اتَّبَاعُ الْهُدَى الْمَهْدِيَّينَ، وَ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْلِمُونَ أَوْ يَتَّبِعُونَ الضَّالِّينَ يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ رَبِّهِمْ بِهَذَا الْحُكْمِ الَّذِي هَدَاهُمُ إِلَيْهِ الْعُقْلُ بِوضُوحٍ شَدِيدٍ.

ص: ٢١٧

١- (٤) نَهْجُ الْبَلَاغَهُ / وصيَّهُ (٤٧) / ص (٤٢٢).

[٣٣] ورداً على تبريرات هؤلاء وأولئك يؤكّد القرآن بأنّ الظلم المشترك بين المستكبرين بجورهم، والمجتمع بسكته وسلبيته، سوف يؤذى إلى المصير الواحد، والجزاء الجامع، وهذا بالضبط معنى المسؤولية.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ وَ لِعْلَّ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تُشَيرُ إِلَى فَكْرِهِ هَامَهُ، مِنْ شَأْنِهَا - لَوْ فَهِمُهَا الْإِنْسَانُ، وَ تَعْقِقُ فِيهَا، وَ عَمِلَ بِهَا - أَنْ تَرَكَّ نَفْسَهُ وَ تُرِيَّهَا عَلَى الإِيمَانِ، وَ هِيَ أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ فَرَدٍ نَفْسَهُ الْمَسْؤُلِيَّةَ وَ يَتَهَمَّهَا باسْتِمرَارِهِ، أَنَّى كَانَ دُورُ الْآخَرِينِ، وَ هَذِهِ مِنْ صَفَاتِ الْمُتَقِينَ الَّذِينَ :

وصفهم إمامهم على عليه السلام بقوله :

«وَ لَقَدْ خَالَطُهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلُ، وَ لَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لَأَنفُسِهِمْ مَتَهُمُونَ، وَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَشْفَقُونَ، إِذَا زَكَّى أَحَدُهُمْ خَافَ مَا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا مِنِي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَ اجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظْنُونَ، وَ اغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ»^(١) وَ نَعْرُفُ دُورَ هَذِهِ النَّظَرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِ تَجَاهَ نَفْسِهِ إِذَا عَرَفْنَا طَبِيعَةَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ التَّبَرِيرَ وَ الْأَعْذَارَ وَ تَسْعَى لِلْفَرَارِ مِنْ ثَقْلِ الْمَسْؤُلِيَّةِ، وَ بِكُلِّمَهُ: لَا بُدَّ أَنْ نَعْرُفَ بِأَنَّ ذَهَابَ الظَّالِمِينَ إِلَى النَّارِ، وَ تَحْمِلُهُمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، لَا يَعْنِي بِرَاءَتُنَا، بَلْ قَدْ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى الْعَاقِبَةِ الْوَاحِدَةِ لَهُمْ وَ لَنَا، إِنْ كَانَا سَاكِنِيِّنَا عَنْهُمْ، رَاضِيُّنَا عَنْ فَعَالِهِمْ.

[٣٤] وَ حَتَّى لَا يَتَصَوَّرَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ هَذَا الْحَدِيثُ يَنْصُرُ فِي جَمَاعَتِهِ كَانَتْ فِي

ص ٢١٨:

.١-٥) نهج البلاغه/خ(١٩٣)/ص(٣٠٤).

التاريخ الغابر، بالذات و أن الإشاره إليهم كانت بالضمير الغائب «إِنَّهُمْ» يلحق القرآن حديثه عنهم بتأكيد مستقل على أنَّ هذا المصير يشمل كلَّ مجرم، فعاقبه المجرم الذى يخالف سنن الله، و يتبع هوى النفس، و يعبد ذاته، و يلحق الأذى بغيره، العذاب الأليم.

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [٣٥] من هم هؤلاء المجرمون؟ و ما هي صفاتهم؟ و كيف تتقى مصيرهم الأليم؟ يناسب السياق في بيان ذلك تمهيداً لبيان من يخالفهم و هم المتقوون، لتکتمل الصوره لمن أراد النجاه، و يحق القول على الجاحدين.

و أعظم ميزات المتقين التوحيد، كما أنَّ الشرك بالله أخطر ذنب المجرمين، الذين يرفضون التسليم للإله الواحد، و يتخذون الأنداد من دون الله. إنَّ رفض السلطات الفاسده، و الأنظامه المنحرفة، و التقليد الأعمى لرجال ضاللين، الشرط الأول لرسالات الله.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ فهم ليسوا على الخطأ و حسب، إنما و يتتصورون أنفسهم على الحق، و لو جاءهم من يبيّن خطأهم رضوه، و أخذتهم العزّة بالإثم، و هذه من العقد النفسيه الخطيره التي ينبغي للإنسان اجتنابها، ذلك أنَّ المقياس في الإيمان بالله هو التسليم للحق في كلَّ الأحوال متى تبيّن، و لو خالف العرف الاجتماعي أو اعتقادات الفرد و سيرته السابقة. و لا شك أنَّ اعتراف الإنسان الفرد أو الأمة بخطئه و الذى قد يستتبع التغيير الجذرى في الحياة أمر صعب جداً، و لكنه يأخذ به الى العاقبة الحسنة

فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، وَ مِنْ أَمْثَلِهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ عَلَى صَعِيدِ الْأَمْمَ قَوْمَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرَيْةٌ آمَنَتْ فَنَفَّعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَسَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ». (١)

وَ مِنْ أَمْثَلِهَا عَلَى صَعِيدِ الْأَشْخَاصِ وَ التِّي تَبَيَّنَ صَعْوَبَهُ الْأَمْرُ نَذَكِرُ هَذِهِ الْقَصَّةَ الْمُؤْثِرَةَ مِنَ التَّارِيخِ،

فَفِي بَحَارِ الْأَنْوَارِ:

عَنْ عَلَى بْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: «كَانَ لِي صَدِيقٌ مِنْ كِتَابِ بْنِ أَمِيَّةِ، فَقَالَ لِي:

اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ سَلَّمَ وَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ:

جَعَلْتُ فَدَاكَ إِنِّي كُنْتُ فِي دِيوَانِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَأَصْبَتْ مِنْ دِنِيَا هُمْ مَالًا كَثِيرًا، وَ أَغْمَضْتُ فِي مَطَالِبِهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: لَوْ لَا أَنْ بَنِي أَمِيَّةَ وَجَدْنَا مِنْ يَكْتُبُ لَهُمْ، وَ يَجْبِي لَهُمُ الْفَقِيرَ، وَ يَقْاتِلُ عَنْهُمْ، وَ يَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ، لَمَا سَلَبْنَا حَقَّنَا، وَ لَوْ تَرَكْنَاهُمُ النَّاسَ وَ مَا فِيهِمْ أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدْنَا شَيْئًا إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَقَالَ الْفَتَى: جَعَلْتُ فَدَاكَ فَهَلْ لَيْ مِنْ مَخْرُجٍ مِنْهُ؟ قَالَ: إِنْ قَلْتُ لَكَ تَفْعَلُ؟ قَالَ: أَفْعُلُ، قَالَ: أَخْرُجْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَسَبْتَ فِي دُوَوَيْنِهِمْ، فَمَنْ عَرَفْتَ مِنْهُمْ رَدَدْتُ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَ مَنْ لَمْ تَعْرَفْ تَصَدَّقْتُ بِهِ، وَ أَنَا أَضْمَنْ لَكَ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَأَطْرَقَ الْفَتَى طَوِيلًا فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتَ جَعَلْتُ فَدَاكَ، قَالَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ، فَرَجَعَ الْفَتَى مَعْنَاهُ إِلَى الْكُوفَةِ، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ، حَتَّى ثَيَابَهُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَدْنِهِ، قَالَ: فَقَسَمْنَا لَهُ قَسْمَهُ، وَ اشْتَرَيْنَا لَهُ ثِيَابًا، وَ بَعْثَنَا لَهُ بِنَفْقَهِ». (٢).

[٣٦] وَ لَأَنَّ الْعَمَلَ بِمَضَامِينِ التَّوْحِيدِ صَعْبٌ هَكَذَا، نَجَدَ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ يُسْتَكْبِرُونَ وَ لَا يَسْتَمِعُونَ لِلْمَوْعِظَةِ، وَ تَأْخِذُهُمُ الْعَزَّةُ بِالْإِثْمِ، بَلْ يَتَهَمُونَ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ بِأَرْخَصِ التَّهْمَمِ، كَمَا قَالُوا لِلْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ (وَ نَفَوْا بِذَلِكَ مِنْهُمُ الْحُكْمَهُ

ص: ٢٢٠]

١ - (٩٨) / يُونُس.

٢ - (٣٧٥) / ص (٧٥) / ج (٧٥) / بح (٧).

و الاهتداء) ثم قالوا أنهم مجانين، كما أنهم اتهموا الرسل بحب الرئاسه، و أن دعوتهم الى الله ليست سوى وسيلة للتأمر عليهم.

و يَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارُكُوا آلَهَتَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ و هكذا يجب ان يعرف الرساليون صعوبه الإصلاح الحقيقي المتمثل في التوحيد، و يتفهموا العقبات التي تعرض لهم في الوصول اليه، حتى لا يصيغ لهم الإحباط أو اليأس حينما يصطدمون بالرفض في بادئ الأمر، فالأنظمه الطاغوتيه و حتى بعض الناس سوف لا يكتفون برفض دعوتهم، بل سوف يثرون الشبهات حول أشخاصهم.

[٣٧] و يجب على الرساليين أن يقيموا مسیرتهم على مقیاس الحق، و هو القرآن و سنه الرسول و أهل بيته-صلوات الله عليهم-، ليزدادوا ثقه برسالتهم، و ليعرفوا أخطاءهم حتى لا يعتبروا موقف الناس و الأنظمه مقیاسا لمعرفه الحق، لأن الناس بجهلهم و سلبيتهم النفسيه، و الأنظمه بعدها، سوف يثرون زوابعا من الشتايم و الدعايات المغرضه ضدهم.

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ الْحَقُّ يَدُلُّ بِذَاتِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَ عَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا.

و فرق واضح بين الحق الذي يدعو اليه النبي و الشعر الذي لا يدعو الى شيء، و ليس سوى إشاره الخيال، و تردید الأفكار الشائعة، و تمجيد العادات الجاهليه.

و لأن مقیاس الجاهلين لم يكن الحق إنما التراث و الواقع القديم لم يجدوا التقاء و لا انطباقا بين ما عندهم و بين الرساله الالهيه.

وَصَيْدَقَ الْمُرْسَلِينَ وَعَادَهُ يَدْعُى أَصْحَابَ الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ يَنْتَمُونَ إِلَى الرِّسَالَاتِ الْأُولَى، وَإِنَّمَا يَنْتَمُونَ إِلَى أَهْوَائِهِمْ، وَالْقُرْآنُ يَرْدِهِمْ بِأَنَّ النَّبِيَّ يَصْدِقُ الْمُرْسِلِينَ، فَرِسْالَتُهُ لَيْسَتْ سُوَى تَجْدِيدِ لِتْلُكَ الرِّسَالَاتِ، وَلَوْ صَدَقُوا فِي اِنْتِمَائِهِمْ إِلَيْهَا لَآمْنَوْا بِهَذِهِ أَيْضًا.

وَبِالْتَّدْبِيرِ فِي الْآيَتَيْنِ (٣٥-٣٦) يُمْكِنُنَا القُولُ بِأَنَّ هُنَاكَ سَبَبَيْنِ رَئِيسَيْنِ وَرَاءَ كُفْرِ هُؤُلَاءِ بِالرِّسَالَةِ، هُمَا الْاسْتِكْبَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْمَقَايِيسُ الْخَاطِئَةُ لِمَعْرِفَتِهِ.

[٣٨] وَفِي نَهَايَةِ الدِّرْسِ يُؤَكِّدُ اللَّهُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ (الْمُجْرِمِينَ) أَنَّهُمْ سُوفَ يَذُوقُونَ الْعَذَابَ.

إِنَّكُمْ لَمَذَاقُوا الْعِذَابَ الْأَمَّلِيمْ وَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ يُحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ فِي تَامَ وَعِيهِمْ وَإِحْسَاسِهِمُ الْمَادِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، مِنْ أَجْلِ تَذُوقِ الْعَذَابِ بِأَعْقَمِ مَا يُمْكِنُ لِلنَّاسِ.

[٣٩] وَإِلَى جَانِبِ هَذَا التَّأْكِيدِ عَلَى الْعَذَابِ، نَجِدُ تَأْكِيدًا آخَرَ عَلَى الْعَدْالَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ بِقَدْرِ أَعْمَالِ الْبَشَرِ بَلْ هُوَ ذَاتُ أَعْمَالِهِمْ.

وَمَا تُجْزِيُونَ إِلَّا مَا كُنْתُمْ تَعْمَلُونَ وَالآيَةُ تُعَقِّدُ وَتُؤَكِّدُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مَسْؤُلِيَّتَهُ التَّامَهُ عَنْ كُلِّ مَا يَصْدِرُ عَنْهُ، مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَسُلُوكٍ.

قال الرسول(ص) :

لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا الْمَلَائِكَةَ يَبْنُونَ لَبَنَهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَهُ مِنْ فَضَّهُ، وَرَبِّمَا أَمْسِكُوهُ، فَقَلَّتْ لَهُمْ مَا لَكُمْ رَبِّمَا بَنَيْتُمْ وَرَبِّمَا

أمسكتم؟ فقالوا: حتى تجيئنا النفقه، فقلت: و ما نفتككم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا: «سبحان الله، و الحمد لله، و لا اله الا الله، و الله اكبر». فإذا قال بنينا، و إذا أمسك أمسكنا [\(١\)](#) و الذي يشعر بهذه الحقيقة -أن مستقبله رهين عمله- سوف يسعى جهده لتصحيحه و إتقانه و بنائه وفق ما يريد الله سبحانه.

ص: ٢٢٣

١-٨) بح/ج (٩٣) ص (١٦٩).

اشاره

إِلَّا إِبْلَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَ هُنْ مُمْكِرُوْنَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُورٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) يَيْضَاءُ لَعْدَهِ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْأَطْرَافِ عَيْنٌ (٤٨) كَانُوهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَّأَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي فَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُمْصِدِقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِنَّا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عَظَامًا أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هُنْ أَنْتُمْ مُطَلَّعُونَ (٥٤) فَسَاطَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَالَّهِ إِنْ كِدْنَتْ لَتُرَدِّينَ (٥٦) وَ لَوْلَا نِعْمَهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَّا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمَعْذَلَتِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلَيَعْمَلَ الْعَالَمُونَ (٦١) أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الْزَقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعُهَا كَانَهُ رُؤُسُ الْسَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَتَّلَوْنَ مِنْهَا الْبَطْوَنَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَيْنَهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَفْوَأُهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهَرَّعُونَ (٧٠)

اللغه

[٤٥] معين الماء الجارى النابع من العين.

[٤٧] ينزفون:أى يسکرون فليس في خمر الجنـه سـکر،من نزف إذا ذهب عقلـه،أو بمعنى يطردون من نزف بمعنى طرد فالشرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا.

[٥٣] لمـديـنـون:أى مجـزـيونـ بـأعـمالـنـا،ـمـنـ دـانـهـ بـمـعـنىـ حـاسـبـهـ وـ جـازـاهـ.

[٦٢] شجره الزقوم]: هي شجره صغيره الورق مزه تكون بتهامه، شبهت بها الشجره التي تنبت في النار لتكون ثمرتها قوتا لأهل النار.

[٦٧] لشوبا]: الشوب هو خلط الشيء بما ليس منه و هو شرّ منه، و المعنى شرابا مشوبا ليس بصف.

[٧٠] يهرعون]: أى يسرعون فى تقليدهم.

ص: ٢٢٥

هدى من الآيات:

بعد تكريس المسؤولية المتجليه فى الجزاء يوم القيمة، وقطع الأعذار الواهية التي يتثبت بها المستضعفون، يبيّن القرآن حال عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا ولاههم لقيادتهم الشرعية، وأخلصهم الله من شوائب الشرك و آثار الضغوط التي تنقسم الى نوعين:**الأول: ضغط المجتمع المتجلى في قرین السوء، الثاني: الضغط التاريخي المتمثل في الآباء.**

لهؤلاء عباد الله المخلصين رزق معلوم (غير منقطع) وهو جزاء أعمالهم المعلومة عند ربهم فواكه (كرزق مادي) و هم مكرمون (كرزق معنوي) و هم في جنات النعيم يجلسون على سرر متقابلين (يتجازبون أطراف الحديث لفراغ بالهم و مشغولون بالتالي بذلك المؤانسة) يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذه للشاربين لا فيها هلاك و مرض، و الى جنبهم الحور كأنهم بيض مكونون (تتلاًّ بشرتهن إشراقا).

و تكتمل النعم عندهم حين يطّلعون على قرناء السوء الذين حاولوا عبّا إغواءهم، و بعد أن يبيّن السياق هلاك أولئك من كفرهم بالجنة، ينقل خطاب المخلصين لهم بأنه لو لا نعمه الله لكانوا من المهلّكين، ثم يسدل الستار على هذا المشهد بعد أن يقرّر وهم أَ فما نحن بمعذبين؟ و يذكرنا القرآن بـ ذلـك هو الفوز العظيم الذي لمثله فليعمل العاملون.

و يكشف عن مشهد آخر حيث شجرة الزقوم، التي هي حسب الظاهر ذنوب أهل النار تصبح طعاما لهم هناك و هي فتنـه (في الدنيا) للظالمين و هي تنبت في أصل الجحيم، و لكن فروعها في بيـوتـهم، اما طلـعـها فـكـأنـه رؤوس الشياطين (الذين خدعـوـهم بها في الدنيا). انـهـ يـأـكـلـونـ مـنـهـاـ حـتـىـ يـمـلـأـوـاـ بـطـوـنـهـمـ (ـكـمـاـ أـكـلـواـ المـالـ الحـرـامـ)، ثـمـ يـشـرـبـونـ عـلـيـهـاـ مـاءـ حـمـيـماـ يـقـطـعـ أـمـعـاءـهـمـ (ـكـمـاـ شـرـبـواـ الشـرـابـ الـحرـامـ فـيـ الدـنـيـاـ)، ثـمـ يـعـودـونـ جـمـيـعاـ إـلـىـ الـجـحـيمـ (ـكـلـ ذـلـكـ) لأنـهـ اـتـبـعـواـ آـبـاءـهـمـ وـ هـرـعـواـ إـلـىـ آـثـارـهـمـ يـقـلـدـوـنـهـمـ فـيـهـاـ عـلـىـ غـيرـ هـدـىـ.

بيانات من الآيات:

[٤٠] بعد حديثه عن مصير المجرمين، يذكرنا القرآن بمشهد مشرق من الآخرة حيث عباد الله المخلصون، في جنة ملؤوها النعيم و الرحمة و التي لا - تعطى عبّا إنما بـثـمـنـ، وـ أـوـلـ وـ أـهـمـ ثـمـنـ يـشـترـىـ بـهـ العـبـدـ الـجـنـهـ هوـ الإـخـلـاصـ، وـ إـذـاـ كـانـ الـعـلـمـ بـذـاتـهـ صـعـبـ، فـالـإـخـلـاصـ فـيـهـ أـصـعـبـ، لأنـهـ يـعـنـيـ الـانـقـطـاعـ نـفـسـيـاـ وـ اـجـتـمـاعـيـاـ وـ اـقـتـصـادـيـاـ وـ سـيـاسـيـاـ وـ...ـوـ...ـعـمـاـ سـوـيـ اللـهـ، حـفـاظـاـ عـلـىـ حـقـيقـهـ التـوـحـيدـ.

فقد يصلى الإنسان لأن الصلاة تدر عليه الربح، و ترفعه درجه في الناس، و تعطيه قوه في الجسم و ما أشبه، فهو يصلى نتيجة لتفاعل عده عوامل دفعته بهذا الاتجاه، فإذا انعدمت هذه العوامل، أو وجدت أخرى تعاكس مسيرة الصلاة كما

لو وجد نفسه في بلد اجنبي لا يصلي أهلها، أو صعبت عليه الصلاه لنعاس شديد أو برد أو حر فانه يتركها و ربما يحاربها، لأن الذى يصلى لارضاء الناس، سوف يشرب الخمر حين يكون فيه رضا الناس، و من هذا المنطلق صار الاخلاص أهم من العمل و كميته.

قال الامام على عليه السلام :

«تصفيه العمل خير من العمل »[\(١\)](#)

و قال عليه السلام :

«تصفيه العمل أشد من العمل، و تخلص النية عن الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد »[\(٢\)](#) و الإخلاص هو ان تعمل في كل الظروف و بنية صافيه بعيدا عن التأثر بالعوامل المضاده للعمل، و هذا ما لا يدركه أحد الا حينما تكون شخصيته (ثقافه و سلوكها) مصاغه بالقيم الرساليه الصحيحه، و ليس بالظروف و الضغوط أو ردود الفعل و المصلحه.

و ربما لذلك قال القرآن «المخلصين» بفتح اللام، و ليس المخلصين بكسرها، و القرآن لم يستخدم الصيغه الثانيه أبدا، و المخلص هو الذى أخلصه الله و صفى نفسه و حياته من الشوائب و المؤثرات، حتى أصبحت أعماله كلها لوجه الله وحده لا شريك له، و لعل الآيه الكريمه: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »[\(٣\)](#) تهدينا الى ذات

ص: ٢٢٨

١ - ١) بح ج / (٧١) ص (٩٠).

٢ - ٢) بح ج / (٧٧) ص (٢٨٨).

٣ - ٣) المائدہ / (٢٧).

المفهوم.

و الشيء الذى يبني عليه الإسلام أساس الإخلاص هو الاستمرار فيه، و الا فأن الإنسان كل إنسان قد يعيش لحظه يخلص فيها لله عمله و دعاءه، فالعمل الواحد لا يقبل منفردا، انما يضم الى عموم مسيرة الإنسان، و الذى لا شك فيه ان الواحد لا ينعت بخلق ما الا إذا صار عاده له و سلوكا.

فالذى يصوم شهر رمضان المبارك، و فى الأثناء، او بعده و قبله يغتاب الناس و يأكل المال الحرام، او يترك جانبا من الدين كالجهاد لا يكون متقيا، فصومه لا يقبل و لا يكون مخلصا من هذه صفتة، لأن تأثره بد الواقع الغيبى يشير الى أن شخصيته لم تزل مزيجا من الایمان و الكفر، في بينما ينطلق صومه من قاعده الایمان فى نفسه، تنطلق الغيبة من دوافع الكفر.

وانما يدخل الله الجنه الذين أخلصوا ايمانهم و عملهم بالمعنى المتقدم بغير حساب، و من سواهم يدخلهم بعد الحساب و التطهير، و على هذا جاء في الاخبار:

ان من المؤمنين من يلبث في النار مئات، و بعضهم عشرات السنين، كل بنسبه انحرافه، و رواسب الكفر التي يجب ان تطهر قبل الدخول في الجنه.

و في الرواية قيل للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام : مررنا برجل في السوق و هو ينادي:انا من شيعه محمد و آل محمد الخلق، و هو ينادي على ثياب بييعها:من يزيد؟ فقال موسى عليه السلام :

«ما جهل و لا ضاع امرء عرف قدر نفسه، أ تدررون ما مثل هذا؟ هذا شخص قال:انا مثل سلمان و أبي ذر و المقداد و عمار، و هو مع ذلك يياخس الناس في

بيعه، و يدلس عيوب المبيع على مشتريه و يشتري الشيء بشمن فيزاييد الغريب يطلبه فيوجب له، ثم إذا غاب المشتري قال لا أريده الا بكذا، بدون ما كان طلبه منه، أ يكون هذا كمسلمان و أبي ذر و المقداد و عمارة حاشا لله ان يكون هذا كهم »(١) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [٤١] و القرآن يحدثنا عن جانب من الرزق، الذي يصير اليه المخلصون لا حصر ابدا اشاره، و الا ففى الجن ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على بال بشر.

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ و المعلوم هو الشيء المعروف المحدد بالمعرفة، و يبدو ان رزق المخلصين يكون معلوما بالجنه فلا ينقطع حينا و يتصل حينا، و يكون معلوما لأنه جزء أفعالهم و هي معلومه عند ربهم، و قالوا ان معنى ذلك ان رزق المخلصين يأتيهم كاملا كما يريدون و يتصورون بعلمهم، و هذه الارادة و الميل تنتقل بإراده الله الى اذهان الخدم، فيتونهم بما يريدون قبل ان يطلبوه،

قال رسول الله(ص) : «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ»:

«يعلم الخدام فـيأتون به أولياء الله، قبل ان يـسألوهم إـيـاه »(٢) [٤٢] و يـفـصـل القرآن في ذكر الرزق، تشـويـقا لـنا لـلـإـخـلاـص، و للمخلصين على الاستقامه.

ص: ٢٣٠

١ - (٤) بح ج // (٦٨) ص (١٥٧).

٢ - (٥) نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٠٣).

فواكه يشعرون بها حاجاتهم الكمالية، أما حاجاتهم الضرورية فقد قال البعض إن أجسامهم خلقت للبقاء فلا تحتاج إلى طعام حاجه ضروريه، و يتحمل ان يكون توفر الفواكه لديهم يغنيهم عن الطعام الضروري، أو ليس أكل الجنه دائمًا و ظلها؟ و تنضم الى هذه اللذات أعظم نعمه يشعر بها المؤمنون المخلصون، و هي الكرامه من عند الله،فهم يأكلون الفواكه و شعورهم عميق برضي الله عنهم.

و هم مكرمون و لعلنا نستوحى من كلمه مكرمون ان المخلصين يفدون الى الجنه على رزق معلوم و محدد، لكن الله يكرمه كل حين ليزدادوا فضلا من عنده.

وفي الحديث :

«إنهم لا يشتهون شيئاً في الجنّة إلا أكرموا به» [\(١\)](#) [٤٣] في جنات التّعيم و الجنّة هي البساتين الكثيرة الزرع و الشجر، بحيث تلتقي فيها الأغصان والأوراق فتختفي أرضاها، تحت ظلال الأوراق و الكلمة تفيد التنوع، لأن الجنّة لا تطلق على النوع الواحد من الزرع. أما كلمة التعيم فهي مبالغة في النعم للكثره و الجوده.

[٤٤] و لأن المؤنس من الحاجات النفسية للبشر، فقد جعل الله المؤمنين يأنسون ببعضهم في الجنّة فإذا بهم كما يصفهم القرآن:

ص: ٢٣١

٦- (٦) المصدر.

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلَيْنَ [٤٥] وَ فِي الْأَثْنَاءِ حِيثُ يَدُورُ الْكَلَامُ بَيْنَ عَبَادَ اللَّهِ.

يُطَافُ عَنَّهُمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ وَ هُوَ الدُّشْرَابُ، خَمْرًا كَانَ أَوْ مَاءً أَوْ غَيْرَهُمَا، كَمَا أَنَّ الْمَعِينَ الَّذِي لَا يَنْسَبُ، فَتَارَهُ يَكُونُ الشَّيْءُ لَذِيَّا لَكُنَّهُ يَنْتَهِي بِسُرْعَهُ، وَ تَارَهُ يَكُونُ لَذِيَّا وَ لَا يَنْتَهِي.

[٤٦] وَ يَجْتَمِعُ إِلَى لَذِهِ الْشَّرَابِ جَمَالَهُ وَ جَمَالَ كَأسِهِ تَأْكِيدًا لِهَا، فَالْكَأسُ مِنَ الْفَضْحِ الْلَامِعِ.

بَيْضَاءُ لَذِهِ لِلشَّارِبِينَ وَ قَدْ يَكُونُ الْبَيَاضُ وَ صَفَّا لِلْمَعِينِ،

فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُ بَيَاضًا مِنَ الْلَّبَنِ» [٤٧] (١) وَ هَذَا الْشَّرَابُ خَالٌ مِنَ الْعِيُوبِ فَلَا يَمْلِئُهُ الْمُؤْمِنُونَ أَوْ يَرْفَضُونَهُ.

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ هُوَ السُّكَرُ أَوِ الْأَرْهَاقُ الَّذِي يَلْحِقُ بِالشَّارِبِ فَيُغَتَّالُ عَقْلَهُ وَ قَوَاهُ، أَوِ الْمَرْضُ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى الْمَوْتِ، وَ مِنْهُ الْأَعْتِيَالُ وَ هُوَ الْقَتْلُ سَرًا، هَذَا مِنْ جَانِبِهِ، وَ مِنْ جَانِبِ آخَرَ لَا يَبْعَدُ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ بِنَصْوِيهِ، أَوْ بِإِرَادَهِ أُخْرَى تَفَرَّضُ عَلَيْهِمْ.

ص: ٢٣٢

١ - (٤٤٣) / ص (٨-٧) / ج (٨-٧) / المجمع

وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْتَفُونَ وَ يقال نزف الماء إذا أبعد وأزيح عن العين.

[٤٨] وَ من نعيم المخلصين الأزواج المطهره فى القصور.

وَ عِنْدُهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ وَ للقصر ثلاثة تفاسير:

الاول: ان القاصرات هن النساء اللاتى ينحصر نظرهن الى ازواجهن، وبالتالي تحد شهوتهن فى ازواجهن، فانظارهن قاصره عن غيرهم.

الثانى: القاصره الطرف هي قليله الشعر فى حاجبيها، و هذه من جمال المرأة.

الثالث: و قال المفسرون قاصرات الطرف اللواتى ارسلن نظرهن الى الأرض تواعضا و حياء، و هذه من الصفات الحسنة في المرأة.

اما العين فهى جمع عيناء، و العيناء واسعه العين شديده و كبيرة السوداد فيها، و ناصعه البياض، و هذه هي الاخرى من الصفات الجمالية الحسنة في المرأة. و لعله لذلك كان شعراء العرب قد يما، يشبهون فى غزلهم عيون النساء بعيون البقر الوحشى (المها)، التي تشتمل على نسبة من هذه الصفات.

[٤٩] كَانُهُنَّ يَيْضُ مَكْنُونٌ وَ المكنون هو المحفوظ، فهن محفوظات لم يمسهن أحد قبلهم، و من صفات البيض عند ما يجمع الى بعضه، انه ينصح بالبياض، حتى ليكاد يضىء، و في ذلك اشاره لجمال بشرتهن.

و الملاحظ ان الآيات الكريمه تعرضت بالذكر لمجموعه غرائز فى الإنسان بينها غريزه الاكل و الشرب و الجنس،التي يجد الإنسان حوافر و دوافع داخلية و خارجيه على اشباعها،و ربما اشباعها بالحرام،و ذلك تطبيعاً لنا فيها عند الله،حتى نترفع عن الاكل الحرام المشوب بالذلة بذكر رزق الجنه و كرامته،و عن الشرب الحرام بالرغبه فى شرابها،و عن اللّذه المحرمه بذكر حورها الحسان.

جاء في بيان دعائم اليمان على لسان الإمام علي عليه السلام ما يدل على ذلك إذ قال :

«فمن اشتق الى الجنه سلا عن الشهوات » [٥٠] و يعرج القرآن من الجانب الآخر ليطلعنا على حال المكذبين بالرسالات،ال العاصين للله،ليشجعوا ذلك الرجاء على الطاعة،و ليمنعنا هذا الخوف عن المعصيه،و يدخل السياق الى هذا الموضوع،من خلال عرضه لجانب من حديث المخلصين الذين جلسوا على سررهم يستريحون لبعضهم البعض،بالحديث عن النعيم الحاضر وعن الحياة السابقة.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ وَالْإِقْبَالُ هُنَا دَلَالٌ عَلَى الاشتياق لبعضهم،و للحديث الذى يدور بينهم.

[٥١] قَالَ فَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِيبٌ يَعْنِي الرَّفِيقَ.

[٥٢-٥٣] و لم يكن صالحًا،بل كان يدعو إلى النار،و ليس شرطاً أن الصديق الذي يعنيه القرآن بهذه الآيات هو الذي يصرح بكفره و ضلاله فيدعوه لنبذ الدين و اقتراف المعصيه،بل يشمل المعنى كل قرين توحى رفقة و سلوكاته أو

أقواله الى الكفر.

يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِنَّا وَ كُنَّا نَرَابًا وَ عِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ اى مسئولون و مجازون، و هذا الاعتقاد هو الذى يسوق البشر للظلم والانحراف، لأنّه لا يعتقد بمسؤوليه تجاه أقواله و أعماله.

[٥٤] و من كمال النعم و تمام السرور معرفه الإنسان بأنه قد نجى من شر عظيم و مهلكه لم ينج منها الآخرون، فما أعظم لذه من تحطمته به السفينه فى عرض البحر و ابتلعت أمواجه الهادره كل من فيها سواه حيث تعلق بخشيه و قاوم الأمواج، و استبسلى فى السباحه حتى نجاه الله فى اللحظه الاخيره. انه سوف يزداد إحساسا بالراحه كلما تذكر الحادثه، و يكاد يتغير فرحا عند ما يتصور الأمواج التي كانت تتلاحق على خشبته، و كان ينادى أصحابه إليها فرحا عند ما يتصور الأمواج التي كانت تتلاحق على خشبته، و كان ينادى أصحابه إليها فلم يستجيبوا له، و شهد مهلكهم بغيتهم. أليس كذلك؟ هكذا يتم الله نعمته على المؤمن و هو يتذكر قرناء السوء الذين قاوموا تضليلهم و ضغوطهم فذهبوا إلى النار، و نجى منها. و ها هو يراهم يتقلبون فيها يائسين و هو فى الجنه من المكرمين.

قال لرفاقه المخلصين.

هَلْ أَنْتُمْ مُطَلِّعُونَ اى هل أنتم تتتكلفون الاستطلاع حتى نعرف مصيره؟ [٥٥] و لكنه لفريط شوقة أخذ يبحث عنه شخصيا دون انتظارهم.

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ يعني وسطها، حيث يترك العذاب والحرق وتحوطه النار من كل جانب كما كان في الدنيا محاطاً بالذنوب والمعصية، ولعل التطلع هناك هو تكفل الذهب إلى ناحيه والا فأهل الجنة لا يسمعون حسيس النار.

[٥٦] و هناك يكتشف المؤمن مدى خطوره الصديق السيء.

قالَ تَالِلَهِ إِنْ كِدْتَ لَتُؤْدِينَ وَالتَّرْدِي هُوَ السُّقُوطُ مِنْ شَاهِقٍ، وَفِي هَذَا اشَارَهُ إِلَى أَنَّ الْمُخَاطِبَ فِي وَادِ سُحْيَقٍ مِنَ النَّارِ.

[٥٧] وَلَوْ لَا نِعْمَهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ فِي الْعَذَابِ، وَتَمَثِّلُ النِّعَمَ الْإِلَهِيَّهُ هَذِهِ فِي الأَسْبَابِ الَّتِي تُؤْدِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى النِّجَاهِ مِنَ الْأَنْهَافِ، وَمِنْ ثُمَّ مِنْ عَوَاقِبِهِ، كَالْعُقْلِ وَالرِّسَالَةِ وَالْمُرْشِدِينَ لِلْحَقِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ هِيَ نِعْمَةُ الْهُدَىِّيَّةِ.

[٥٨-٥٩] و يشير القرآن على لسان المؤمنين إلى أخطر فكره يحاول المنحرفون من خلالها إضلال الناس، و التأثير على المؤمنين، و هي فكره الكفر بالأخره حيث الجزاء الأولي.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ عَلَى الْأَخْطَاءِ وَ الذُّنُوبِ؟! [٦٠] و لعل الله هو الذي يلقى في قلوب أوليائه من أهل الجنة، ان يشرفوا على

النار للاطلاع على أهلها،لكى يشعروا عميقاً بلذه الهدایه و الطاعه و النعيم،ذلك ان من طبيعة الإنسان إحساسه بالحقائق عن طريق معرفه نفائصها،لهذا نجد المؤمن و قد اطلع على قرین السوء في العذاب،بينما يتعمق وعيه بعظمته نعم الله عليه يقول:

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ نَعَمْ أَنْ طَرِيقَ الْحَقِّ مَلِئٌ بِالْعَقَبَاتِ وَالْمَصَاصِبِ، وَلَكِنَّ الْأَفْضَلَ مَا دَامَ يَنْتَهِي إِلَى الْجَنَّةِ وَرَضِيَ اللَّهُ.

[٦١] و كخلاصه لكل ما تقدم من ذكر الجنة و النار،يؤكد القرآن بان الهدف الصحيح،الذى يجب على الإنسان العمل له،هو الوصول الى الجنة،لأنها الهدف الأعظم الذى إذا حققه الفرد فقد فاز،و الا فهو لم يحقق شيئا.

قال الامام على عليه السلام :

«ما خير بخير بعده النار، و ما شر بشر بعده الجنـه، و كل نعيم دون الجنـه فهو محـقـور، و كل بلاء دون النار عـافـيه» [\(١\)](#) و يقول تعالى:

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ وَ قَدْ نَسْتَوْحِي مِنَ التَّدْبِيرِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَوْجَهُ فِي حَيَاتِهِ نُوعِينَ مِنَ الضَّغْفُوتِ:

الأول:الضغط القادم من المجتمع المعاصر،و الذى يتجلـى بصوره واضـحـه فى

ص: ٢٣٧

١-٨) نهج الحكمه/[\(٣٨٧\)](#).

قرین السوء، فمثلاً إذا عاش المؤمن في مجتمع يستخف بالصلوة فلا بد أن يتعرض لضغط هذا المجتمع باتجاه ترك الصلاة ذلك ان للمجتمع اى مجتمع - قوه هائله باتجاه التجانس معه، وفرض قيمة الخاصه على افراده بالتربيه والتثقيف أو بالترغيب والترهيب، ولكن ما هو رأس الحربه في ضغط المجتمع على الفرد؟ انه الصديق إذ يكون حلقة الوصل بينه وبين سائر أبناء المجتمع.

و هكذا ينبغي ان يصمد الإنسان امام ضغوط اصدقائه و قرئاته و لو كان على حساب صداقتهم، فهذا

أمير المؤمنين عليه السلام يقول :

«ما ترك الحق لى من صديق» [٦٢][الثاني: الضغط القادم من الأجيال السابقة، و يتجلى هذا الضغط بصورة مركزه فى الأب، ذلك ان الإنسان لا يرى الأجيال السابقة و لا التاريخ الماضى، ولكن ذلك يصله عبر أبيه.

و يبدو ان القرآن حتى الآية السابقة حدثنا عن الضغط الاول،اما بقية الآيات من هذا الدرس فهي اشاره الى الضغط الآخر، يقول تعالى:

﴿أَذْلِكَ حَيْرٌ نُزِّلَ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلَصِينَ﴾

أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ الَّتِي هِيَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ؟! و كأنَّ القرآن بهذا التساؤل الذي جاء بعد عرض العاقبتين، يختارنا بين الجن

و النار، بأثاره تفكيرنا نحو الاجابه على هذا التساؤل، اما عن معنى شجره الرزقون ففيه تفسيران:

الاول: ان قريشا لما سمعت هذه الآيه، قالت: ما نعرف هذه الشجره، فقال أبو جهل لجاريته: يا جاريه! زقمنا. فأتنه الجاريه بتمر و زبد، فقال لأصحابه ترقصوا بهذا الذي يخوفكم به محمد، فيزعم ان النار تنبت الشجر، و النار تحرق الشجر فأنزل الله سبحانه: «إِنَّا جَعَلْنَا هَذِهِ فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ». [\(١\)](#)

الثاني: و هو الأقرب، ان الإنسان يأكل فى الدنيا من هذه الشجره، و لكنه لا يشعر انه يأكل منها، الا فى الآخره حيث يكشف الله عن بصره، و يرى الحقائق بواقعها، فالكذب، و أكل اموال الناس، و شرب الخمر،... كل ذلك ورق فى شجره الرزقون التي يطعم منها أهل النار.

و فى سوره الواقعه التى تعالج جانبا من موضوع هذه السوره اشاره واضحه لهذا المعنى إذ يقول تعالى: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لَا كُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقْوَمٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْطُّوْنَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ » [\(٢\)](#) ثم يؤكىد هذا المعنى فى آخر سوره إذ يقول عز و جل مخاطبا المكذبين بالقرآن و الضالين: «وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ». [\(٣\)](#)

[٦٣] و لا- ريب ان الكذب و أكل اموال الناس و سائر الشهوات التي يواجهها الإنسان، تجعله على مفترق الطريق، بين الحق و الباطل، و الجنه و النار، و بالتالي فهو مبتلى و ممتحن امامها، و لا شك أيضا ان هذه الأمور بشعه كبساعه شجره الرزقون

ص: ٢٣٩

١- (٩) المجمع / ج (٨-٧) / ص (٤٤٦).

٢- (١٠) الواقعه / (٥١-٥٥).

٣- (١١) الواقعه / (٨٢).

التي هي التجلى الحقيقى لهذه المعاصى، ولكن الإنسان يتجاهل ذلك، أو يغفل عنه فينجرف مع شهواته، ليزرع بذنبه أشجار الزقوم ف تكون طعامه في الآخرة.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ اما المؤمن فهو لا يفتتن بها، انما يرتفع بإيمانه عن حضيض المعصيه ليزرع لنفسه بعمل الصالحات الجنان الواسعه.

[٦٤] و بعد الاشاره الى شجره الزقوم و طبيعتها الفاتنه في الدنيا، يصورها لنا القرآن بواقعها في الآخره، حيث الجزاء المتजانس و عمل الإنسان.

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ

و قد روی :

«ان الله تعالى يجوعهم -يعنى أهل النار- حتى ينسوا عذاب النار من شده الجوع، فيصرخون الى مالك، فيحملهم الى تلك الشجرة وفيهم ابو جهل، فأكلون منها فتغلب بطونهم كغلب الحميم » (١) و في روايه انها شجره عظيمه لأهل النار عامه، و لها في كل منزله من الجحيم غصن يأكل منه الذين يعذبون فيها.

[٦٥] طَلَعَهَا كَانَهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ وَ الطَّلَعُ حَمْلُ النَّخْلَةِ فِي بَدَائِتِهِ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْلَّيْفِ وَ الْخَضْرِ، وَ هُوَ يَشْبَهُ غَمَدَ

ص: ٢٤٠

الخجر فى أوله و أقربه السيوف قبل ان يتشقق عن شماريخ البسر و الرطب، و ربما سمى طلعا لطلوعه بما يشبه طلوع الهلال، أو لأنه أول ما يطلع من الشمر.

[٦٦] و لأن أصحاب النار يشعرون بضراوه الجوع و لا يجدون ما يأكلون، فإنهم يأكلون طلع الزقوم و ثمرها.

فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْلَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ كَمَا مَلَأُوا بَطْوَنَهُمْ بِالْحَرَامِ فِي الدُّنْيَا.

[٦٧] و بعد الاكل من الزقوم يحسون بأشد العطش، فيطلبون الماء فيشربون السوائل الحاره ليطفئوا حراره النيران التي أكلوها، و إذا بها تزيدهم عذابا إلى عذابهم.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ

وفي الروايه :

فيستسقون فيسوقون شربه من الماء الحار الذى بلغ نهايته فى الحراره فإذا قربوها من وجوههم شوت وجوههم، فذلك قوله: «يُشُوى الْوُجُوهُ» فإذا وصل الى بطونهم صهر ما في بطونهم [\(٦٨\)](#) [إِنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ الْمَاءَ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ سُوفَ يَخْرُجُهُمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ وَالْاحْتِرَاقِ وَلَكُنَّهُ يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى ذَاتِ الْعَذَابِ.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ

ص: ٢٤١

و لعل هذه الحاله من النهم الى الزقوم و الحميم فى النار تجسيد لنهمهم فى الدنيا بأكل اموال الحرام، و مداومه الشراب الحرام، أعود بالله منها.

[٦٩-٧٠] و في النهايه يصرّح السياق بالضغط التاريخي، الذى يتسبب في إضلال الكثير من الناس.

إِنَّهُمْ أَفْوَى أَبْيَاءٌ هُمْ ضَالٌّينَ و كان يفترض فيهم ان لا يتبعوهم بل يبحثوا عن الحق، و توجّهنا الآية الى ضرورة المسيره الوعيه في حياه الإنسان، حيث ينبغي له ان ينظر و يفكّر فيها، فيلتزم الحق عن وعي لا-عن وراثه و عاده، ثم ما يدرى الفرد أو المجتمع ان مسیرته خاطئه و الله يقول: «فَلَيَتَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»، اي غذائه الجسمى و الروحي ليتأكد من سلامته، و لكن هؤلاء لم يتبعوا أنفسهم في البحث عن الحق، انما اتبعوا الاباء و تأثروا بهم.

فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهَرْعَوْنَ و لم يقل القرآن يهرون (بالفتح)، لأن حركه الإنسان باتجاه التقليد ليست حركة اراديه بتصوره كامله، انما هي مجموع دوافع ذاتيه، و ضغوط خارجيه من الآخرين، و الآية تبين الضغط الذي يمارسه الاباء على أبنائهم لكي يتبعوهم.

فعلى الإنسان اذن ان يقطع السبب المباشر، فهو إذا لم يتتأثر بذروه الضغط التاريخي المتمثله في الاباء فلن يتتأثر بالجيل السابق، و إذا لم يتتأثر بذروه الضغط الاجتماعي المتمثل في الإقران فلن يتتأثر بالمجتمع المعاصر، و الترفع عن هذه الضغوط، هو الذي يسمو بالإنسان الى الخلوص التوحيدى.

اشاره

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْمَأْوَلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَمَّا فِي هُنَادِيَنَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْتَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِيَّتَهُ هُمُ الْأَبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَعْزِزُ الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَيِّلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبِدُونَ (٨٥) أَإِنَّكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظَرَةً فِي النَّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَيِّقِيمُ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُذَدِّرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى الْأَهْمَهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطَقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبِدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا إِنَّا بُنِيَّا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرْدُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ تَعْبِيَدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِيَنِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرَنَا هُوَ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعْهُ الْأَسْفَلِينَ (١٠٢) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِيَنِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَعْزِزُ الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)

اللغه

[يَرْفُون]: يسرعون في المشي، فإن زفّ بمعنى الإسراع في المشي لـ نيل مطلوب أو الانتقام من عدوٍ و ما أشبه.

هـدـى مـن الـآـيـات:

حينما يبيّن لنا القرآن حقيقه أو حكما، لا يلبث ان يضرب لذلك امثاله عديده ليس للإِضاح و حسب، انما ليان الابعاد و الحدود أيضا، ذلك لأن النفس البشرية قادره على تحويل الألفاظ و تفريغها عن معانيها الحقيقية، و تحويلها الى ألفاظ قشرية غير مؤثره، بل وقد تعطى معانى غريبة عن المعنى الحقيقي.

فلكلى لا يأتي بعض المفسرين القشريين، أو بعض من تسـوـل لهم أنفسهم تبرير الأفعال و الانحرافات للناس، و يفسروا القرآن على أهوائهم و آرائهم، لم يترك ربنا كلامه في القرآن الحكيم الاـ و أوضـحـها بالامثلـهـ التـارـيـخـيـهـ التـىـ لـاـ يـمـكـنـ نـكـرـانـهـ، أو تـبـدـيلـهـ و تـأـوـيلـهـ الـىـ غـيرـ مـضـامـينـهـ.

و إـذـ ذـكـرـنـاـ اللـهـ فـىـ الدـرـوـسـ الـماـضـيـهـ بـعـبـادـهـ الـمـخـلـصـيـنـ،ـ الـذـيـنـ يـدـخـلـونـ الـجـنـهـ بـغـيرـ حـسـابـ،ـ كـنـاـ بـحـاجـهـ إـلـىـ الـامـثـلـهـ التـارـيـخـيـهـ التـىـ مـنـ شـأنـهـ اـحـاطـتـنـاـ بـصـفـاتـهـمـ وـ خـطـهـمـ

و الطريق الى هذه القمة السامقة، فربما زعمنا اننا من المخلصين، أو منينا أنفسنا بذلك، و لكنَ القرآن يقطع طريق التمني، حينما يضرب لنا أمثله من حياه أنبياء عظام كنوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب- عليهم السلام-، و يبين لنا مواقفهم الربانية في تحدي الجب و الطاغوت، ليقول لنا: بان من لا يتحدى الجب الداخلى، فيصرع هو نفسه، لا يستطيع ان يتحدى الطواغيت و يصرعهم.

و لأنَ هذه السوره تعالج فى جانب منها مرض الاستكبار، الذى يتعالى المبتلى به على الحق كذبا و زورا، و توضح كيف انه سينتهي بالإنسان الى جهنم انها توضح فى مقابل الاستكبار- صفة الإحسان، بينما تعنى الاولى المبالغه فى حب الذات و التمحور حولها، تعنى الآخرى التنازل عنها و عما يملك الإنسان من الطاقات و القدرات فى سبيل الحق و الناس. ان الإحسان هو خروج الفرد عن ذاته، و دخوله فى رحاب المجتمع، و كما يدخل الاستكبار الإنسان النار، و يجعله لعنة الأجيال، فان الإحسان يدخل صاحبه الجنة، و يخلد ذكره الحسن و مدحه على ألسن الناس فى كل أفق و زمان.

و القرآن فى هذا الدرس، يؤكّد بان المحسن ليس يجازى من قبل الله، فى الدنيا و الآخره و حسب، و انما يمشى ثاؤه كالطير بين الناس، و قد أكد ربّنا هذه الحقيقة فى أكثر من آيتين بالنسبة لنبيه إبراهيم عليه السلام ، مما يدل على اهميه دور الإحسان فى رساله الأنبياء و نبوتهم عليه السلام .

بيانات من الآيات:

[٧١] بعد ان يبين القرآن فى الآيتين الأخيرتين من الدرس السابق دور الضغط من قبل الآباء فى حياه الأجيال، يبين لنا هنا ان هذه مشكله البشر منذ القديم.

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ بذات العامل، و هو الاتباع الخاطئ للآباء.

[٧٢] و لكن الله بعث لهم الأنبياء و المرسلين، يحذرهم من عاقبه الصلال بالإنذار، لعلهم يهتدون للحق.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ [٧٣] لكنهم كذبوا النذر، و حربوا الأنبياء، فدمروا الله، و أبقى آثارهم و أخبارهم ليكونوا عبره لمن بعدهم.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَهُ الْمُنْذَرِينَ و هذه مسئوليته الإنسان فى قبال التاريخ، ان يستفيد منه لحياته و مستقبله، و حين يدعوه الله نبيه للنظر فيه، فلأنّ وعي التاريخ يعطى الرسالين ثقه بأنفسهم و خطّهم، و بصيره في التحرك.

و بالتدبر في هذه الآيات و الآية التي تليها يمكننا القول بأن القرآن يختصر الدورات الحضارية في هذا المقطع.

[٧٤] إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَهْبِطُ الْجِنَّةَ لِلْمُخْلَصِينَ وَ حَسْبٍ، بل و ينصرهم في الدنيا و ينجيهم من الهمم.

إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الَّذِينَ يَنْجَوْنَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ وَ النَّقَمَاتِ، هُمُ الْمُخْلَصُونَ وَ حَسْبٍ، حتى جاء في الأحاديث أن الصواعق لا تصيب المؤمنين

الذاكرين، و معنى ذلك اننا لو قسمنا الناس الى ثلاثة: الكفار، والملائكة، و آخرين بينهم، فان الملائكة وحدتهم الناجون، اما الكفار فيخلدون في النار، و الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا يعذبون كل حسب عمله.

[٧٥] و كمثال على نجاة الملائكة يذكرنا الله بنبيه نوح عليه السلام ، و الذين آمنوا معه، فقد دعا نوح ربّه على قومه فأرسل عليهم الطوفان، فما نجى منه غير نوح و من آمن معه و ركب السفينة، ممن أدخلهم القرآن مع أهله في مقابل إخراجه كنعان منهم، ليهدينا إلى أن النسب الحقيقي بين الإنسان و الآخرين هو تجانس القيم و العمل في الحياة بينه وبينهم، اما الاعتبارات الأخرى فهي غير سليمة.

قال ابو عبد الله عليه السلام : إن الله قال لـنوح: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لأنّه كان مخالفًا له و جعل من اتبّعه من أهله [\(١\)](#) و يبدأ القرآن بذكر نوح عليه السلام لأنّه كما يسميه المؤرخون الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام .

و لَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ فَلَنَعِمُ الْمُجِيئُونَ و لكن ماذا أراد نوح عليه السلام من ربه عز وجل حين ناداه؟ قال بعض المفسّرين إنّه أراد هلاك قومه حينما عصوه، واستدلوا بقوله تعالى عن لسانه عليه السلام : «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا» [\(٢\)](#). و قال آخرون إنّه أراد من الله ان ينقذه من الكفار بعد سنين من الدعوه والأذى الذي يلحقه بسيّده.

و ربما تفسر الآية بأنه عليه السلام أراد من ربه الهدایة و تشریفه بالرسالة لإنقاذ الناس، فربما كان الانبياء عليهم السلام يعرفون بأنهم سوف يبعثون، ولكن لا يتناهى ذلك مع

ص: ٢٤٨

١ - ١) بح/ج [\(١١\)](#) ص [\(٣٠٥\)](#).

٢ - ٢) نوح [\(٢٦\)](#).

عدم معرفتهم متى سيكون بعثهم، ولهذا نجدهم في البدء يتعجبون أو يخافون، فلم يكن النداء الذي أبّعث من جانب الطور الأيمن أمراً عادياً بالنسبة لموسى عليه السلام ، و كذلك نبينا الأكرم(ص)، حينما نزل عليه جبرائيل بالرسالة لأول مره، ذهب إلى البيت و تدثر.

و حينما يدعوا الأنبياء ربهم بالهدايه و البعثه، يستجيب لهم و قد هيأوا أنفسهم لتحمل مسؤوليات هذا العمل العظيم، و الله سبحانه اعطى نوح عليه السلام أكثر مما كان يتوقعه و ربما هذا معنى قوله «فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُونَ» .

[٧٦] و بعد ان استجاب الله لنوح بالرساله و أيده على قومه المنكرين بالطوفان الذي علا الأرض حتى غمر الجبال العالية، أنجى نوحاً و الذين آمنوا معه.

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَوْبِ الْعَظِيمِ [٧٧] و ربما أسمى الله الغرق بالكرب العظيم، لأنه من أفعض صور الموت للإنسان فكيف و هو مقدمه لعذاب النار الخالد؟، و تركيز القرآن على أهل نوح عليه السلام عند التعرض لقصصه، لأن الله حفظ بهم النوع الشري عن الانقراض، و أهمل من ذلك جعل فيهم النبوه، و الكتاب و هما الحبل الممتد بين الناس و ربهم.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِيَنَ

قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها :

«الحق و النبوه و الكتاب و الإيمان في عقبه، و ليس كل من في الأرض من بنى آدم من ولد نوح، قال الله في كتابه: إِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ وَمَنْ مَعْهُ إِلَّا قَلِيلٌ» و قال أيضاً:

«ذُرْيَةٌ مَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» (١) (٢). ومضى نوح وبقى ذكره الطيب تتوالى الأجيال بالسلام عليه.

[٧٩-٧٨] وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْمَاخِرِينَ * سَيِّلَامُ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ وَ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنَ أَنْ تَجْعَلْ صِيغَهُ الْكَلْمَهُ: وَ تَرَكَنَا عَلَيْهِ سَيِّلَامًا. إِلَّا أَنَّ الصِّيغَهُ طَوَّرَتْ لِتَكُونْ كَلْمَهُ السَّلَامِ تَامَهُ حَتَّى يَجْرِي عَلَى لِسَانِ كُلِّ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ سَلَامٌ خَاصٌّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٨٠] الْقَدْ اسْتِجَابَ الرَّبُّ لِنُوحٍ لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَ هَذَا الْجَزَاءُ سَنَهُ إِلَهِيهِ ذَلِكَ أَنْ مَنْ يَحْسِنُ لِلنَّاسِ يَذْكُرُهُ النَّاسُ بِالْمَدْحُ وَ الْخَيْرِ، فَكَيْفَ وَ قَدْ أَخْذَ اللَّهُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ أَنْ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ بِذَلِكَ؟ وَ الْمَلَاحِظُ أَنَّ اللَّهَ وَ بَعْدَ ذِكْرِ هَبَاتِهِ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَلاً لِلْعَبْدِ الْمُخْلَصِ وَ هِيَ، اسْتِجَابَهُ دُعَائِهِ، وَ نِجَاتِهِ وَ أَهْلِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، وَ جَعَلَ الْبَشَرِيَّهُ مِنْ وَلَدِهِ وَ النَّبِيِّهِ فِيهِمْ، وَ اخْلَادَهُ بِالذِّكْرِ الْحَسَنِ عَلَى أَلْسِنِ النَّاسِ، ذَكَرْنَا بِصَفَهِ الْإِحْسَانِ فِيهِ، وَ ذَلِكَ لِيَطَّلَعُنَا عَلَى التَّفْسِيرِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِحْلَاصِ بِأَنَّهُ الْمُنْتَلَقَاتُ التَّوْحِيدِيَّهُ الْخَالِصَهُ، الَّتِي تَتَحَولُ إِلَى سَعْيٍ وَ عَمَلٍ يَتَجَاوزُ الْقِيَامَ بِالْوَاجِبِ إِلَى الزِّيَادَهِ وَ الْإِحْسَانِ.

[٨١] وَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ أَعْظَمُ دَافِعٍ لِلإِنْسَانِ نَحْوَ الإِحْسَانِ، وَ هَكُذا نَعْتَ رَبِّنَا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الإِحْسَانِ بِالْإِيمَانِ لِأَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ وَ فَضْلِيهِ فَقَالَ:

ص: ٢٥٠

١ - (١) الإِسْرَاءُ / (١٧).

٢ - (٢) بَحْرُ / ج (١١) / ص (٣١٠).

إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَخْوِفُونَ مِنَ الْبَذْلِ وَالْإِنْفَاقِ لِلآخِرِينَ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَنْفَقُهُ سُوفَ يَعُودُ عَلَيْهِ أَضْعافًا مِضَاعِفًا وَيُزَدَّادُ إِحْسَانُنَا كُلَّمَا تَعْمَقَ إِيمَانُهُ بِنَاءً مُسْتَقْبَلِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَهِينًا عَمَلِهِ وَتَضْحِيَاتِهِ.

ان السبيل الى الإحسان،الذى هو الطريق الى المكاسب الجسيمه،كالتي ظفر بها نوح عليه السلام ،هو الايمان بالله عز و جل و بجزائه الأوفي .

[٨٢] ثُمَّ اَنَّ الْمُنْجِيَ الْحَقِيقِيَّ لِنُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ لَمْ تَكُنْ السَّفِينَةُ الَّتِي صَنَعُوهَا، فَلَوْ اَنَّ الْكَافِرِينَ رَكَبُوا سُفْنًا أَكْبَرَ وَأَفْضَلَ مِنْهَا، لَمْ تَكُنْ لَتَنقِذُهُمْ مِنَ الغَرَقِ فِي مَوْجِ كَالْجِبَالِ، وَمَاءَ مِنْهُمْ كَالاَنْهَرِ مِنَ السَّمَاءِ، اَنَّمَا نَجَوْا بِاِيمَانِهِمُ الَّذِي تَمَيَّزُوا بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَانَّمَا اَمْرَ رَبِّنَا وَالْمُؤْمِنِينَ بِصَنْعِ الْفَلَكِ، اثباتاً لِمَسْؤُلِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ وَتَأْكِيدًا لِهَا، وَالْآخِرَةِ قَادِرٌ عَلَى إِنْقاذِهِمْ بِكَلْمَهِ مِنْ عَنْدِهِ.

ثُمَّ اَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ وَهُمُ الْكُفَّارُ.

[٨٣] ثُمَّ يَأْتِي لَنَا الْقُرْآنُ بِمَثَلٍ مِنَ الْآخِرِينَ، الَّذِينَ تَرَكُ فِيهِمْ سَلَامًا عَلَى نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمُ الَّذِينَ جَسَدُوا امْتِداً اَمْتِداً لِرَسُولِهِ فِي الْبَشَرِيَّةِ عَبْرِ التَّارِيخِ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِ، وَالصَّالِحِينَ.

وَإِنَّمَا مِنْ شِيَعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ وَالشِّيَعَةَ هُمُ الَّذِينَ يَتَبعُونَ شَخْصًا أَوْ خَطَّامًا، فَيُقَالُ لَهُمْ شَيْعَةُ فَلانٍ.

و قال المفسرون: إن الضمير في شيعته يعود إلى نوح عليه السلام، فيكون المعنى أن من سار على دربه كان إبراهيم عليه السلام.

و قال آخرون: إنه يعود إلى النبي محمد - صلى الله عليه و آله - و الواقع أن التشيع للحق و متابعة رسول الله واحد، فسواء نسب إلى نوح عليه السلام أو إلى محمد (ص) أو إلى أوصيائه الطاهرين فإنه نهج واحد و صراط مستقيم.

[٨٤] و القرآن يبيّن المعنى الحقيقي للتشيع، الذي هو رفض الجبّت الداخلي بالتوحيد الخالص، و رفض الطاغوت الخارجي بمقاومة الانحراف الاجتماعي و السياسي و الثقافي و ... و في الواقع القائم و الذي هو صوره ظاهرية للجبّت الداخلي، ثم التسلیم لله و التضحية و الاستقامه في سبيله.

بلى. إن إبراهيم عليه السلام من شيعه نوح عليه السلام، ولكن كيف وصل إلى هذا المقام الرفيع؟ يجيبنا القرآن على ذلك بـ:

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَيِّلِيمٍ وَ هُوَ الَّذِي سَلَمَ مِنْ كُلِّ الْأَمْرَاضِ، كَالْحَسْدِ وَ الْحَقْدِ وَ الْجُبْنِ وَ الْخُوفِ، وَ الَّتِي يَسْمِيهَا الْقُرْآنُ بِالْأَغْلَالِ، إِذْ يَحْدِثُنَا عَنِ اهْدَافِ بَعْثَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٌ (ص). فيقول:

«وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» (١١) و هذه الأمراض والأغلال إنما تتفرع من شجرة الشرك بالله، وإنما سماها القرآن بالأغلال والأصر تارة و بالمرض تارة أخرى، لأن الأغلال والأصر كما المرض كلها تقع في الإنسان و ت Kelvin عقله و طاقاته الخيرة.

ص: ٢٥٢

(١-١) الأعراف / (١٥٧).

قال على بن إبراهيم «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»:

«القلب السليم من الشك» [\(١\)](#)

وقال :

«القلب السليم الذي يلقى الله و ليس فيه أحد سواه» [\(٢\)](#) و هذا التفسير يتناسب مع سياق الآيات الذي يحدثنا عن العباد المخلصين.

[٨٥] و لن يصبح القلب ابراهيميا خالصا من الشرك، الا إذا تعالي على العوامل الأساسية التي تؤثر سليما عليه، بل و قاومه، إذ لا بد للإخلاص من حقيقه خارجي، و هي محاربه الشرك، و هكذا كان إبراهيم عليه السلام، حيث حارب الانحراف الاجتماعي المتمثل في الخط الشركي لأبيه و قومه، و الانحراف السياسي الذي جسده الطاغيه نمرود.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ وَ لَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ اسْتِفْسَارِيَا، أَنَّمَا كَانَ يُسْتَنَكِرُ الْانْحِرَافُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْقَائِمُ، وَ هَذَا مَا يَجُبُ عَلَى الْإِنْسَانِ تَجَاهُ أَبِيهِ وَ مَجَمِعِهِ، فَلَيْسَ مِنَ السَّلِيمِ أَنْ يُسْتَقْبِلَ مِنْهُمَا كُلُّ شَيْءٍ، وَ يَفْقَدُ اسْتِقْلَالَهُ امَامَهُمَا، أَنَّمَا يَتَقْبِلُ الْجَيْدُ وَ يَعْتَرِضُ عَلَى مَا هُوَ سَلْبِيٌّ بِالاسْلُوبِ الْمُنَاسِبِ.

و النبى إبراهيم عليه السلام مثل للتأثير الرافض للخطأ الاجتماعي، و لخطأ الآباء، و الله

ص: ٢٥٣

١ - (٤) نور الثقلين / ج (٤٠٦) ص.

٢ - (٢) المصدر.

يأتى به حجه على الذين أسرروا بهما فحكى عنهم القرآن: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (١)،^{فإبراهيم}
عليه السلام -على خلاف هؤلاء- تحمل مسؤوليته، واعمل عقله ولم يقدس الأشخاص ولا التراث على حساب القيم.

[٨٦] أو اهتدى عليه السلام الى زيف الشركاء، وضلال الثقافة التي انتهت بالمجتمع الى هذه النهاية الموجله في الانحراف.

أَإِفْكًاٰ آلِهَةَ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ وَالْأَفْكَرُ هُوَ الْكَذَبُ الْمُبَالَغُ فِيهِ.

قال المفسرون انما قدم كلمه «أ إفكا» و هي مفعول مطلق، للعنایه الخاصه بها و لبيان ان كل تبريراتهم لعباده الآلهه خاطئه فليسوا هم الا كاذبين.

و هذا يمثل قمه التحدى، من إبراهيم عليه السلام لذلك الضلال المنتشر بين قومه.

[٨٧] ثم سأله قومه بعد بيان خطأ الشرك، وهو يبيّن لهم الإله الحق:

فَمَا ظَنْنُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَهَكُذا تَكُونُ حِرَكَةُ الرَّسَالِيْنَ قَائِمَهُ عَلَىٰ هَدَمِ الْفَكَرِ وَالْوَاقِعِ الْبَاطِلِ، وَبَنَاءِ الْفَكَرِ وَالْوَاقِعِ الْحَقِ بِدَلِيلِهِما.

و يبدو ان إبراهيم عليه السلام وجههم -بهذه الكلمه- الى المنهج السليم للتخلص من ضغوط الشرك، والتوجه الى الله. فمن تصور آيات الله و تذكر أسماءه و صفاته.

ص: ٢٥٤

علم بأنه لا يرضي لعباده الكفر والشرك، وأنه يعاقب عليه أشد العقاب، وانه ينتصر للذين يقاومون المشركين.

و كذلك نظن ان كلمات المفسرين هنا فى أبعاد الظن قد تكون جمیعا من أبعاد الآیه بالرغم من ان كل واحد منهم ذهب الى بعد منها و ظنه المراد الوحید منها.

[٨٨-٨٩] و لان نبی اللہ إبراهیم علیه السلام جوبه بالرّد، و الأذى خطط لعمل واقعی یبلغ من خالله الرساله بشکل أعمق أثرا، و ما دام یعرف بان الأصنام باطل فما یضره ان یبادر هو بنفسه لتحقیصها، و لو لم یکن المجتمع قد اقتنع بذلك.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَيَقِيمُ وَ كَانَ قَدْ اخْتَارَ يَوْمَ عِيدِهِمْ فَرْصَهُ سَانَحَهُ لِلْقِيَامِ بِمَهْمَتِهِ، وَ خَادَعَهُمْ إِذَا أَظْهَرَ لَهُمْ مَعْرِفَتَهِ
بِالنُّجُومِ وَ ذَلِكَ اتِّبَاعًا لِمَنْهَجِ التَّقَاهُ وَ الْعَمَلِ السَّرِّيِّ وَ تَغْطِيهِ عَلَى مَا سِيقَوْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَ قَدْ اسْتَفَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ثُورَتِهِ مِنْ
الْعَادِ الاجْتِمَاعِيِّ الْقَاضِيِّ بِالاعْتِقَادِ بِالنُّجُومِ، حِيثُ كَانَ قَوْمُهُ يَشَاءُونَ أَوْ يَتَفَاءَلُونَ مِنْ خَلَالِ نَظَرِهِمْ إِلَيْهَا. وَ قَدْ نَهَى الإِسْلَامُ عَنِ
الاعْتِقَادِ بِمَا يَقُولُهُ الْمَنْجُومُونَ إِلَّا مَا كَانَ يَسْتَنِدُ عَلَى دَلِيلٍ مُنْطَقِيٍّ وَ غَایِهِ مُعْقُولٌ.

قال الامام على عليه السلام :

«اَيُّهَا النَّاسُ اِيَاكُمْ وَ تَعْلَمُ النُّجُومَ اَلَا مَا يَهْتَدِيَ بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُوا إِلَى الْكَهْنَةِ، وَ الْمَنْجُومِ كَالْسَّاحِرِ، وَ
السَّاحِرِ كَالْكَافِرِ، وَ الْكَافِرِ إِلَى النَّارِ» [\(١\)](#) وَ يَبْلُوُ اَنْ عِلْمَ النُّجُومِ بِذَاتِهِ غَيْرِ مَحْرُمٍ اَلَا - اَنْ جَعْلُ خَرَافَاتِ الْمَنْجُومِينَ فِي مَقَامِ رِسَالَاتِ
اللَّهِ وَ الْعَمَلُ بِالنُّجُومِ مِنْ دُونِهَا هُوَ الْمَحْرُمُ،

فقد جاء في الحديث عن عبد

ص: ٢٥٥

١-١) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٤٠٨).

الملك بن أعين قال :قلت لابي عبد الله:انى قد ابتليت بهذا العلم،فأريد الحاجه فاذا نظرت الى الطالع ورأيت طالع الشر جلست و لم اذهب فيها،و إذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجه؟ فقال لي:تقضي؟ قلت:نعم،قال:أحرق كتبك [\(١\)](#)

و جاء حديث آخر مأثور عنه عليه السلام انه قال :بعد ان سئل عن النجوم:

«هو علم قلت منافعه،و كثرت مضاره،لأنه لا يدفع به المقدور،و لا يتقوى به المحذور،ان خبر المنجم بالباء لم ينجز التحرز من القضاء » [\(٢\)](#)

و قال الامام الصادق عليه السلام :

«ما كان إبراهيم سقيما و ما كذب،انما عنى سقيما فى دينه مرتابا » [\(٣\)](#) و حينما نقرأ الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآية الكريمة،نجدها تؤكد على رفع الشبهة القائله بأن التقى حرام لأنها تضطر العاملين للكذب،بل أنها من دين الله و يستدل الأنماط على ذلك بالقرآن الحكيم.

يقول أبو بصير:قال الامام ابو عبد الله عليه السلام :التقىه من دين الله،فقلت له:

من دين الله؟قال:اي و الله من دين الله،و لقد قال يوسف:«أَتَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» و الله ما كانوا سرقوا شيئا،و لقد قال إبراهيم:«إِنِّي سَقِيمٌ» و الله ما

ص: ٢٥٦

١-٢) المصدر/ص (٤٠٧).

٣-٢) المصدر

٤-٣) المصدر/ص (٤٠٦).

كان سقيما (١) و لعل نظر إبراهيم عليه السلام الى النجوم في ذلك المجتمع الزراعي الذي اعتقد بأنّها ذات تأثير حاسم في حياته كان للإيحاء إليهم بأنه يؤمن بها كما يؤمنون، فيبعد عن نفسه شبهه الكيد بأصنامهم فلا يأخذوه إلى عيدهم و يغسلوا خطته.

و ربما قال سقيما توريه إذ انه من دون تحطيم الأصنام كان سقيما، أو ليست الأصنام كانت تعبد من دون الله جهارا، فكيف لا يكون مريض القلب مهموم الفؤاد، دائم الكابه و هو لما يقض على الأصنام.

و لعل هذا هو مراد الامام الصادق عليه السلام انه كان سقيما في دينه، إذ لا ريب ان إبراهيم عليه السلام كان مخلصا طاهرا حينفا و هو الذي قال عنه الرب: «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

[٩٠] و بالفعل نجحنبي الله في مهمته، حيث اطمئن القوم إلى كلامه و ذهبوا جميعا إلى عيدهم.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ و في هذا التعبير افصاح عن مدى الاطمئنان من قبل القوم، حيث وصفهم القرآن بالآدبار، ولو لم يكونوا كذلك لكانوا يتلفتون إلى ورائهم فلا يصح وصفهم به. و الحركة الناجحة هي التي يتمكن افرادها من التغطيه على تحركهم بحيث يسلبون النباشه و الحذر من العدو ليواجهوه بالضربه القاضيه، و في نفس الوقت لا

ص: ٢٥٧

يتكون أثراً يدل على خطتهم.

[٩١-٩٢] وقد عمد إبراهيم عليه السلام بعد أن اختار الوقت المناسب، والأسلوب الناجح، لتوجيهه ضربته للواقع الفاسد، فتسلى إلى موطن الأصنام سراً و هدمها.

فَرَاغَ إِلَىٰ آنَهُتِهِمْ فَقَالَ أَلَا - تَأْكُلُونَ * مَّا لَكُمْ لَا تَتْطِقُونَ اَنَ الَّذِي لَا تَتَوَفَّرُ فِيهِ ارَادَهُ الْاَكْلُ وَ النُّطُقُ كَيْفَ يَكُونُ بِمَسْتَوِيِ الرَّبُوبِيهِ
التي تستدعي القدرة على الخلق؟! وفي مطلع الآية نجد كلامه «راغ» التي عبر بها الله عن وثوب إبراهيم عليه السلام على الأصنام، وهي من البلاغة بمكان رفيع، إذ تفيد معنيين، هما المكر والشدة، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام . و راغ مستأسدا في الله يحطم رموز الباطل، وما يتضح من نصوص التاريخ ان آزر-أبو إبراهيم بالتربيه- كان سادنا للأصنام و بيده مفاتيح بيتها، فلما ذهب مع القوم للعيد سلم المفاتيح بيده إبراهيم فكانت كل الظروف مواتيه لتنفيذ خطته، ومن نافله القول انه يتبيين من تاريخ البابليين بأن القوى الحاكمه للجماهير في زمنهم هما طائفتان، طائفه السدنـه و الكـهـنه التي تمثل القوه الدينـيه، و طائفـه السلاطـينـ التي تمثل القوه السياسيـه، و كانتـا تتعاونـان على استغلالـ الناسـ و استعبـادـهمـ، و لعلـ الأصنـامـ كانتـ لـديـهمـ مجردـ وسـيلـهـ للـسيـطـرهـ علىـ المـحـروـمينـ.

[٩٣] فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا بِالْيَمِينِ وَ قَدْ أَرَادَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنْ تَحْطِيمِهِمْ أَنْ يَوْجِهَ ضَرْبَهُ لِلْقَوْتَيْنِ، وَ لِلثَّقَافَةِ الْمُتَخَلَّفَةِ الَّتِي تَحْكُمُ
المجتمع و تسهل لهمـ السيـطـرهـ عليهـ، و لـعلـ التـعبـيرـ بـاليـمينـ للـدـلـالـهـ عـلـىـ شـدـهـ الضـربـ بلاـ تـرـددـ أوـ خـشـيهـ.

[٩٤] أو هذا بلا شك يعتبر تحدياً عنيفاً للجميع، جعل إبراهيم عليه السلام يقف أمه لوحده بما يختص به من اعتقاد و ثقافة و سلوك، في مقابل مئات الآلاف من الناس، ولا غرابه فإن رساله الله و التوكل عليه تحملان الفرد الواحد على التحدي و لو لأمه بأجمعها دون أن يضعف أو يستوحش، لأن اراده المؤمن أقوى من الجبل، لأن الجبل تحطمه الفئوس بينما لا تناول من اراده المؤمن شيئاً. و ما دام المؤمن على الحق يجب أن لا يخشى الباطل و لو اتبعه الناس جميعاً.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ لِأَنَّهُ الْوَحِيدُ الَّذِي بَقِيَ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَانْ بِيَدِهِ كَانَتْ مَفَاتِيحُ بَيْتِ الْأَصْنَامِ.

والزف تعبر عن مشيه معينه، تشبه بدايه مشيه النعامه، و لعلها توحى بضرب الأرجل على الأرض، مع سرعه و اهتمام.

[٩٥-٩٦] و لكنه بقى رابط الجأش، و عازماً على المواجهه.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ وَالخالق هو المعبود الحقيقي الذي يجب على الإنسان التسليم و الانقياد له.

في البدء أخلص إبراهيم عليه السلام نفسه فأخلصه الله من تأثير الأجيال السابقة المتمثله في عمه آزر، ثم أخلصه من الخوف و التسليم للطاغوت بل للمجتمع، فهو عليه السلام بدأ من الصفر حيث لا ناصر له إلا ربّه، فضرب مثلاً على الإخلاص، بانطلاقه في حركته من الإيمان بالله، و العمل بوجهه، بعيداً عن أيه دافع آخر.

[٩٧] و لأن إبراهيم عليه السلام تحدى الانحراف بهذا المستوى، و الأسلوب الخطير، عزموا على قتله بأبشع صوره ممكنته في نظرهم، لكن لا يفكرون الآخرون في السير على

نهجه، و هذا هو دين الطغاه الى اليوم.

قالُوا ابْنُوا لَهُ بُيَّانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ وَ كَانَ نَمِرُودُ وَ سَائِرُ الْقُوَى الَّتِي تَهَدَّدُهَا حَرْكَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى إِشْعَالِ نَارٍ عَظِيمَةٍ ثُمَّ يَلْقَوْنَهُ فِيهَا بِالْمَنْجَنِيقِ، عِلْمًا بِأَنَّ نَارًا أَقْلَ منَ الْمُتَى اشْعَلُوهَا بِكَثِيرٍ، كَانَتْ كَافِيَةً لِتَحْوِيلِهِ فِي الظَّرُوفِ الْعَادِيَةِ -إِلَى رَمَادٍ، وَ لِكُنْهِمْ أَرَادُوا أَنْ يُورْطُوا جَمِيعَ النَّاسِ فِي مَوَاجِهِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَمِيعِهِمُ الْحَطَبِ لَهَا.

وَ نَحْنُ نَجْدُ حَالَهُ التَّعْبِيَّهُ الْعَامِهُ الَّتِي يَعْلَمُنَا الطَّغَاهُ عِنْدَ مَا تَوَاجِهُ سُلْطَاتُهُمُ أَخْطَارًا حَقِيقِيَّهُ، وَ يَعْمَلُونَ الْمُسْتَحِيلَ لَا شَرِيكَ لِلنَّاسِ فِيهَا بِغَيْرِهِ أَمْرِينَ:

أولاً: الْهَاءُ النَّاسِ عَنْ حَقِيقَتِهِ مَا يَجْرِي.

ثانيًا: تُورِيطُ النَّاسِ فِي الْجَرِيمَهِ حَتَّى لَا يَمْلِئُوا نَاحِيَهُ الْمُصْلِحِينَ.

فَفَرَعُوْنَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْاجْتِمَاعِ فِي يَوْمِ الرِّينَهِ لِيَشْهُدُوا غَلَبَهُ السُّحْرَهُ فِي ظَنِّهِ، وَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ جَلَسُوا عَلَى حَافَتِيهِ يَشْهُدُونَ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

[٩٨] وَ لَكَنَّ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، وَ إِرَادَتِهِ غَالِبَهُ يَنْصُرُ بِهَا عَبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ أَحْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُمْ، وَ افْشَلَ مُخْطَطَاتِهِمْ.

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلُنَاهُمُ الْأَئِمَّهُ فَلَيْلَيْنَ لَقَدْ كَانُوا يَهْدِفُونَ مِنْ وَرَاءِ الْقَضَاءِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنْ تَمَّ لَهُمُ السُّلْطَهُ وَ السُّلْطَهُ، بِإِثْبَاتِ قُوَّتِهِمُ الْقَمُعيَّهُ وَ صَحَهُ افْكَارِهِمْ، وَ لَكَنَّ اللَّهَ أَوْصَلَهُمُ إِلَى نَقْيَصِ تَطْلُعَاتِهِمْ.

وَ كُلَّمَا كَانَ كَيْدُ الْكُفَّارِ وَ الطَّغَاهُ أَشَدَّ، كُلَّمَا كَانُوا أَعْمَقَ فَشَلاً وَ خَرِيَا.

[٩٩] أما إبراهيم عليه السلام فقد مضى فى طريق الجهاد قدما حيث هاجر فى سبيل الله، و لعله كان قادرا على البقاء فى تلك المدينة لأنّه تحدى طواعيتها و انتصر عليهم، لكنه لم ير أن يعاشر الكفار، بل أراد ان يبني مجتمع الايمان بعيدا عن البيئة المنحرفة.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهُدِينَ يعنى مهاجر فى سبيل الله، و من الطبيعي ان من يهاجر مجاهدا سوف يهديه ربه الى الحق و الخير، و ربما تفسير هذه الآية الكريمه: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَهُمْ نَصْرٌ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [١٠٠] و كان هم إبراهيم و تطلعه الآخر ان يلتحق به فى الدرب آخرون يؤمنون به و يحملون رسالته فقال:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ و قد حدد لنا نبى الله بهذه الكلمه، نوعيه الطموح الذى ينبغي للإنسان ان يتطلع اليه، و هو يبحث عن أولاد أو عن أنصار و اتباع للرساله، و ذلك بأن يبحث عن النوع لا عن الكم و حسب.

[١٠١] و مما لا شك فيه ان للدعاء أثرا حاسما في النتائج التي يصل إليها الإنسان، فالذى يخلص نيته و يحسن عمله و يدعو الله سوف يعطيه ما تقرّبه عينه، و هكذا فعل ربنا مع نبيه عليه السلام .

فَبَشَّرَنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ

ص: ٢٦١

١- (٦٩) العنكبوت .

اى عالم عاقل حكيم لا تهزم النوايب.

[١٠٢] و هنا أراد الله ان ييلو خليله إبراهيم، و مدى تسليمه له.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعْهُ السَّعْيَ وَ الْبَلوغَ بِمَعْنَى الْوَصْولِ لِلْسَّعْيِ أَوِ التَّمْكِنِ مِنْهُ.

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى وَ وَضَعْ وَلَدَهُ امَامُ الْقَرَارِ الْحَاسِمُ وَ الصَّعْبُ، وَ كَانَ بِأَمْكَانِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - كسائر الناس الذين يتلفون على احكام الله للتهرب من مسئوليتها- ان يتهرب هو أيضا، بحجه ان الأمر كان مجرد حلم رآه في المنام، و لكنه يعلم ان الرؤيا لون من ألوان الوحي عند الأنبياء، و يجب عليه العمل وفقه.

و الذى لا- ريب فيه ان إسماعيل عليه السلام كان أعز ما يملكه إبراهيم عليه السلام فى حياته بعد الايمان بالله، فأراد ربنا ان يمتحن مستوى تضحيته فى سبيله، فوجده مسلما و هكذا كان ولده عليهما السلام.

قَالَ يَا أَبَتِ افْعُلْ مَا تُؤْمِرُ سَيَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ وَ يَتَضَعَّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَتَجَازَوْنَ الْإِمْتَحَانَاتَ الْأَلْهَى بِالْأَعْجَازِ إِنَّمَا يَتَذَوَّقُونَ مَرَاثِهَا وَ صَعْوَبَاتِهَا، فَهَذَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْرَحُ عَنْ حَاجَتِهِ لِمَشِيهِ اللَّهِ حَتَّى يَتَجَازَ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ، وَالى الصَّبْرِ حَتَّى يَقاومَ صَعْوَبَاتِ الْإِمْتَحَانِ.

[١٠٣] فَلَمَّا أَسْلَمَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَصَدَقَ الْأَبُ الرَّؤْيَا، وَ اسْتَجَابَ الْابْنُ إِلَى وَالَّدِهِ.

وَ تَلَهُ لِلْجَبِينِ يَعْنِي أَضْجَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ،

و في الخبر «فَلَمَا عَزَمَ -إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ -عَلَى الذِّبْحِ قَالَ الْغَلامُ: يَا أُبْتَ أَخْمَرَ وَجْهِي (أَيْ اسْتَرْهُ)، وَ شَدَ وَثَاقِي» [\(١\)](#) و كان هدف إسماعيل عليه السلام من ذلك ان يمضى أبوه في تنفيذ امر الله، فلا تشنيه عاطفه الابوه لولاح له وجهه.

[١٠٤-١٠٥] و في تلك اللحظه جاءه النداء الإلهي:

وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَ مَدْفَتَ الرُّؤْيَا وَ تَجاوزَتِ الْامْتِحَانَ فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ فِي صَالِحَةٍ فَهُوَ لَمْ يَخْسِرْ دُنْيَاهُ، إِذْ فَدَى اللَّهُ وَلَدَهُ بِالْكَبِشِ، وَ عَمَّرَ آخِرَتَهُ حِيثُ أَطَاعَ اللَّهَ، وَ هُوَ عَزَّ وَ جَلَ يُؤْكِدُ بِأَنَّ هَذِهِ عَاقِبَةُ كُلِّ الْمُحْسِنِينَ الْمُطَيِّعِينَ لِأَوْامِرِهِ سَبَّحَانَهُ.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْ قِيَودِ الدُّنْيَا وَ الْهُوَى، وَ الْعَالَقَاتِ السُّلْبِيَّةِ وَ يَتَوَجَّهُونَ بِكُلِّهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَ جَلَ.

و في تفسير هذه الآيه قال الامام الصادق عليه السلام :

«ما بَدَأَ اللَّهُ بِدَاءَ كَمَا بَدَأَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ إِذْ أَمَرَ أَبَاهُ بِذَبْحِهِ ثُمَّ فَدَاهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ» [\(٢\)](#)

ص: ٢٦٣

١-١) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٤٢٣).

٢-٢) المصدر /ص (٤٢٠).

اشاره

إِنَّ هَذَا لَهُرَ أَبْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٦) وَ فَدَيْنَاهُ بِذِيْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَرَنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَ بَارِكَنَا عَلَيْهِ وَ عَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرَيْتِهِمْ مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (١١٤) وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَ نَصَّيْرَنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَ تَرَكَنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِيمَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ لَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْحَالِقِينَ (١٢٥) أَللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ أَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُحْضِرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ (١٢٨) وَ تَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَ إِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَارِبِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٣٦) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُضْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

اللغه

[الغابرين]:الباقين الذين أهلکوا، و الغابر الباقي قليلا بعد ما مضى، و منه الغبار لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا.

٢٦٥: ص

هدى من الآيات:

في هذه المجموعه من الآيات يذكرنا الله عز و جل بالمعنى الحقيقى للإـخـلاـص، و هو ان يكون الإنسان بعيدا عن العوامل و الضغوط المضاده للحق، ويضرب لنا على هذه الفكره أمثله فى حيـاه الأنـبيـاء، كـإـبرـاهـيم و ولـده إـسـمـاعـيل، و كـاسـحـاق، و مـوسـى و هـارـون(عليـهم السـلام) و هـكـذا من حـيـاه الأنـبيـاء الآـخـرـين، من بـنـى إـسـرـائـيل الـذـين اـنـتـخـبـهـم الله بعد ان عـرـضـهـم لا صـعـبـ الـامـتـحـانـات و الـفـتنـ، فـوـجـدـهـم صـالـحـين صـادـقـين مـخلـصـين.

و بالرغم من ان كل نـبـى تـعـرـض لـفـتـتـه خـاصـه، الاـ. أـنـهـم يـشـتـرـكـونـ فـى بلـاهـ عامـ وـاجـهـوهـ جـمـيـعاـ بـصـلـابـهـ الـاـيمـانـ وـ الـمـعـرـفـهـ بـالـلـهـ، وـ تـحدـىـ الأـوـضـاعـ الـاجـتمـاعـيـهـ وـ السـيـاسـيـهـ الـمنـحرـفـهـ فـىـ مجـتمـعـاتـهـمـ، فـضـغـطـ الـاجـتمـاعـ عـلـىـ الإـنـسـانـ وـ شـعـورـهـ الدـاخـلـىـ الـذـىـ يـسـوقـهـ نـحوـ التـكـلـيفـ معـ الـآـخـرـينـ، منـ أـهـمـ وـ أـخـطـرـ الضـغـوطـ الـتـىـ يـوـاجـهـهـاـ فـىـ الـحـيـاهـ، وـ هـذـاـ مـاـ جـعـلـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ يـدـعـونـ لـعـبـادـهـ الـمـجـتمـعـ، أوـ ماـ يـسـمـىـ بـالـحـثـمـيـهـ

الاجتماعي، و حتى الذين يقولون بالتحميء الظبيه، أو الاقتصاديه، أو ما أشبه فإنهم ليسوا بعيدين عن القول بهذه التحميء، و الفارق ان هؤلاء يركزون في نظرياتهم على جانب منها، بينما يؤكّد علماء الاجتماع أمثال (دوريكام) على كافه أبعادها، و نحن لا نسميها تحميء، بمقدار ما نسميها عصرًا و ضغطا من قبل المجتمع على الإنسان.

فالمجتمع في بعض الأحيان يعصرك، و يضغط عليك باتجاه يتناقض مع طاعه الله، و الاهداف التي تتطلع إليها، و اجبك تحديه بالإيمان و التوكل، و ان تعرف بأن عنوان نبوه الأنبياء و المرسلين، و أبرز أعمالهم هو تحديهم الواقع الاجتماعي الفاسد، و أن نجاحهم في هذا التحدى هو سبب ارتقائهم، و لهذا أيضًا نجد القرآن الحكيم يؤكّد على هذه الحقيقة في كثير من سوره و آياته.

بيانات من الآيات:

[١٠٦] [النبي إبراهيم عليه السلام جاء لكي ينسف عاده جاهليه كانت شائعه ذلك اليوم و هي ذبح الأبناء امام الأصنام تقربا لها، و ما كانت هذه العاده مقتصره على فلسطين وحدها، ففي مصر أيضا كانوا يتذلون ملكه الجمال من بين بناتهم ليلقوا بها مع بدايه الربع في النهر الذي كانوا يقدسونه لتذهب ضحيه عقيده جاهليه.

تقول: بـان إله البحار يريد ان يتزوج، فلا بد ان نختار له أجمل بناتها لـكي تهدأ المياه و لا يحدث فيضانا يخرب بيوتنا و يهلك مزارعنا.

و هذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر، لأنها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في نقطه مركزية واحده هي التضحية بالأبناء من أجل الاهداف التافهة.

ان الله أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ثم عوضه بالذبح العظيم ليقضي على هذه

العاده الجاهليه، و يبدلها بسننه الهيه حسنة، جرت لدى البشرية إلى هذا اليوم، و هى ذبح الانعام فى منى عند الحج و فى غيرها، و حينما بدا لله ان يغدو نبيه بالكبش جعل الحادث يمر بوقائع اعجازيه عجيبة، فقد كانت السكين تلتوى كلما أدنها إبراهيم من رقبه ولده (عليهم السلام) و كانت تفت الصخره لو ضربها، و لكنها تعجز عن التأثير في جلد رقبه اسماعيل الرقيق بحدها. و لهذه القصه عبرتان أساسitan:

الاولى: ان على الإنسان التضحية بابنه و بأفضل علاقاته من أجل الدين و فى سبيل الله. و الثانية: ان يرفض من جهه اخرى التضحية بأولاده من أجل الآلهه المزيفه، حجرا كانت او بشرا كطواحيت اليوم، الذين يريدون بلوغ مآربهم و شهواتهم الرخيصة على جسر من دماء شباب الامه و أفلاد اكبادها.

ان مقاومه إبراهيم عليه السلام للانحراف الاجتماعي كان أمرا صعبا، و صار أعظم صعوبه حينما جعل الله الطريقه لمقاومته هو ذبح أعز الناس عليه و هو ابنه عليه السلام ، وقد وصف الله هذا الامتحان بقوله:

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَ انْمَا سُمِيَّ مِبْنًا لِأَنَّهُ يُكَشِّفُ مَسْتَوِيَ الْإِيمَانِ، وَ يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ.

[١٠٧] و بالفعل كشف لنا هذا الامتحان مدى إخلاص النبي إبراهيم و تسليمه لله. هو و ولد الذى فداهما رب بذبح من عنده تنزل به جبريل الأمين.

وَ فَدَّيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَ بِهَذَا الذِّبْحِ سَنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَنَّهُ سَارَ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْيَوْمِ، فَهُمْ يَذْبَحُونَ

الهـى بـىـنـى و فـى كـافـه أـنـحـاء الـعـالـم اـقـتـدـاء بـه، و لـعـلـه لـذـلـك سـمـى عـظـيـما، و قـالـوا انـذـبـعـعـظـيـمـهـو السـبـطـ الشـهـيدـ الـامـامـ الحـسـينـ بنـعـلـى عـلـىـ السـلـامـ الذـى ذـبـعـ عـلـىـ النـهـرـ عـطـشـانـاـ بـكـرـبـلاـءـ فـداءـ لـدـيـنـ اللهـ، و مـقاـومـهـ لـلـعـادـاتـ الـجـاهـلـىـ الـأـمـوـيـهـ.

[١٠٨-١٠٩] و كـرامـهـ لـإـبرـاهـيمـ الـخـليلـ فـىـ الدـنـيـاـ قـبـلـ الـآـخـرـهـ، جـعـلـ اللهـ لـهـ ذـكـرـاـ حـسـنـاـ عـنـدـ الـبـشـرـيـهـ باـخـلـافـ مـذاـهـبـهاـ وـ عـقـائـدـهاـ، وـ لـخـصـ رـبـنـاـ هـذـهـ الـكـرـامـهـ فـىـ كـلمـهـ وـاحـدـهـ هـىـ: السـلـامـ عـلـىـ إـبرـاهـيمـ.

وـ تـرـكـنـاـ عـلـيـهـ فـىـ الـآـخـرـينـ * سـلـامـ عـلـىـ إـبرـاهـيمـ وـ مـاـ تـجـدـرـ الـاشـارـهـ إـلـيـهـ انـالـاستـحـبـابـ الـشـرـعـىـ فـىـ السـلـامـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ وـ الـصـالـحـينـ يـقـتـضـىـ تـقـدـيمـ الـصـلـاـهـ عـلـىـ مـحـمـدـ وـ آـلـهـ (صلـواتـ اللهـ عـلـيـهـمـ) ثـمـ يـذـكـرـ الـطـرـفـ الـمـرـادـ ذـكـرـهـ. فـيـقـولـ الـذـىـ يـرـيدـ الـصـلـاـهـ عـلـىـ عـيـسـىـ: عـلـىـ نـبـيـنـاـ وـ آـلـهـ وـ عـلـيـهـ أـفـضـلـ الـصـلـاـهـ السـلـامـ، إـلـاـ نـبـيـ اللـهـ إـبـراهـيمـ فـاـنـ الـمـسـتـحـبـ ذـكـرـهـ أـوـلـاـ ثـمـ الشـاءـ عـلـىـ نـبـيـنـاـ وـ آـلـهـ، فـتـكـونـ جـمـلـهـ الـقـوـلـ: (علـىـ إـبـراهـيمـ وـ عـلـىـ نـبـيـنـاـ وـ آـلـهـ الـصـلـاـهـ وـ السـلـامـ).

[١١٠] وـ لـكـنـ هـذـاـ الـجـزـاءـ الـذـىـ يـحـصـلـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ لـيـسـ بـسـنـهـ خـاصـهـ بـهـمـ، اـنـمـاـ ضـمـنـ الـعـدـالـهـ الـاـلـهـيـهـ التـىـ تـشـمـلـ الـبـشـرـيـهـ كـلـهـاـ، فـلـانـ إـبـراهـيمـ كـانـ مـحـسـنـاـ اـسـتـحـقـ هـذـهـ الـكـرـامـهـ.

كـذـلـكـ نـجـزـىـ الـمـحـسـنـينـ وـ نـسـتوـحـىـ منـ هـذـهـ الـآـيـهـ فـكـرـتـينـ:

الـأـولـىـ: انـ الـجـزـاءـ الـحـسـنـ لـيـسـ قـصـرـاـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ وـ حـدـهـمـ، اـنـمـاـ يـلـقـاهـ كـلـ مـحـسـنـ فـىـ كـلـ زـمـانـ وـ مـكـانـ، وـ انـ الـكـرـامـهـ الـحـقـيقـيـهـ لـيـنـالـهـاـ الـإـنـسـانـ إـلـاـ بـالـكـفـاءـهـ وـ السـعـىـ (وـ الـإـحـسـانـ) وـ انـ جـهـودـ الـمـؤـمـنـ لـنـ تـضـيـعـ، فـرـبـنـاـ يـحـفـظـ لـكـلـ عـملـهـ وـ يـجـازـيـهـ عـلـيـهـ انـ

في حياته أو بعد الوفاة، و ما هذا الجزاء الدنيوي الا دليل على الجزاء الأعظم في الآخرة.

الثانية: إن الإحسان إلى الناس يجازيه الرب بالولايته عليهم، فحق الناس بالناس أحبهم لهم وأكثرهم إحسانا إليهم.

[١١١] و ربنا عز و جل يجازى من كان محسنا على إحسانه و بقدرها، حتى ولو لم يكن مؤمنا، لأن الإحسان بذاته محمود عنده، وقد قال سبحانه: (هَلْ جَزَءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِلَّا إِحْسَانُ) فكيف إذا كان المحسن مؤمنا؟ بالطبع سوف يجازى أكثر في الدنيا والآخرة، لأن إحسانه للناس ليس من أجل سمعه طيبه أو جزاء مادى عاجل، بل يزيد في رصيده الآخرى، فهذا إبراهيم عليه السلام وقد سن الأضحية لله فتاتم ثوابه بقدر ما افتدى به الآخرون، إذن فالمؤمن يحصل على الجزاء بمقتضى سنتين، سنه الإحسان، و سنه اليمان، لهذا يؤكّد الله على إحسان نبيه إبراهيم عليه السلام ثم يعود للتأكيد على ايمانه فيقول:

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي جَزَاءِ مِنْهُ مُضَاعِفٌ اذن.

[١١٢] يزعم البعض أن الذى يخالف المجتمع الجاهلى، سوف يعزل ويتجاوزه التيار ثم يكون أبتر ولا يبقى له اثر، ولكن العكس تماماً نجده فى تاريخ الأنبياء.

فبالرغم من مخالفتهم جموع الكافرين فإن الله سبحانه أهلك أعداءهم، وبارك في ذريتهم، ونشر ثنائهم على كل لسان وفي كل زمان.

فهذا إبراهيم عليه السلام يحنف عن قومه لوحده حتى يكون لوحده امه قانتا لله، ولكن انظر إلى العاقبه فأين أولئك الذين خالفوه؟ أما هو فهذا امتداده المبارك في ذريته

و تابعه.

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ فَصَلَاحُ الْوَالِدِينَ يَنْعَكِسُ عَلَى الْأَجِيَالِ الَّتِي تَنْسَلُ مِنْهُمَا، عَبْرَ طَائِفَةٍ مِنَ السَّنَنِ الْأَلْهَيِّهِ كَالْوَرَاثَةِ، وَالتَّرْبِيَّةِ، وَتَأْيِيدَاتِ رَبَانِيهِ.

[١١٣] ثُمَّ بَارَكَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَلِإِسْحَاقَ.

وَبَارَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ فَالْعَرَبُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ أُولَادُ إِسْمَاعِيلَ، وَبْنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ وَلَدِهِ اسْحَاقُ، فَهُوَ لَيْسُ أَبَّ الْأَنْبِيَاءِ وَحَسْبٍ انْهَا هُوَ أَبُّ لِشَعْبَيْنِ عَظِيمَيْنِ أَيْضًا، ثُمَّ يُؤَكِّدُ ذِكْرُهُ الْبَرَكَةُ الَّتِي أَسْبَغَهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدِهِ اسْحَاقَ، أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِبْرَراً لِمَنْ أَرَادَ مِنْ وَلَدَهُمَا أَنْ يَضْفِفَ عَلَى نَفْسِهِ صَبْغَهُ الْقَدَاسَةِ، فَيُدْعَى الْأَفْضَلِيَّةُ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ يَنْسُلُ مِنْهُمَا، لَانَّ قِيمَةَ الْإِنْسَانِ الْحَقِيقِيَّةُ تَنْبَعُثُ مِنْ عَمَلِهِ هُوَ لَا مِنْ حَسْبِهِ وَنَسْبِهِ.

وَمِنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ لَأَنَّهُ أَحْسَنُ وَلَيْسَ لَأَنَّهُ يَنْتَمِي لِلْمُحْسِنِينَ، كَمَا يُوجَدُ مِنْ بَيْنِهِمُ الظَّالِمُونَ.

وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [١١٤-١١٥] وَيُضَرِّبُ لَنَا الْقُرْآنُ مَثَلاً مِنْ وَاقْعِ الْمُحْسِنِينَ مِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ الْمَبَارَكَةِ، فَيَقُولُ:

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ بِالنُّبُوَّةِ وَ هُمَا مِنْ ذُرِّيَّةِ اسْحَاقِ.

وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَ إِذَا كَانَ الْغُرْقَ صُورَهُ مِنَ الْكَرْبِ لِأَنَّهُ مِنْ غَضْبِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ ظُلْمٌ لِفَرْعَوْنَ وَ جُنُودِهِ صُورَهُ أُخْرَى لَا تَقْلِيلٌ لِفَظَاعَهُ عَنْهَا.

وَ نَصَرْنَاهُمْ [١٦] إِضَافَةٌ إِلَى النِّجَاهِ مِنَ الْكَرْبِ عَلَى فَرْعَوْنَ وَ جُنُودِهِ.

فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ بِلِيٍّ. قَدْ يَتَسَلَّطُ الطُّغَاءُ عَلَى الْبَلَادِ، وَ يَفْشِلُ الْمُؤْمِنُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَحَاوِلَاتِ لِلْإِطْهَارِ بِهِمْ، وَ يَقْدِمُونَ التَّضْحِيَاتِ، وَ لَكِنَّ الْعَاقِبَةَ تَكُونُ لَهُمْ، وَ إِذَا كَانَتْ لِلْبَاطِلِ جُولَهُ فَإِنَّهُ لِلْحَقِّ دُولَهُ. وَ مَهْمَا تَكُونَ الظَّرْفُ مَعَكُسَهُ، وَ الظَّاهِرُ يُوحِي بِغَلَبِهِ الْبَاطِلِ إِلَّا أَنَّ الْحَقَّ وَ أَهْلَهُ هُمُ الْمَنْصُورُونَ.

[١٧] وَ لَكِي يَحْفَظُ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ عَلَى مَكَتَبَاتِ النَّصْرِ، وَ يَدِيرُونَ شَؤُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا التُّورَاهُ مِنْهُجًا لِلْحَيَاةِ.

وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَ مِنْ صَفَاتِ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّهَا وَاضْحَى، كَالْقُرْآنُ الَّذِي يَصْفِهُ اللَّهُ بِقُولِهِ:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ (١) وَ هَذِهِ الْفَكْرَةُ تَنْسِفُ أَسَاسَ الْمُعْقَدِينَ

ص: ٢٧٢

١١ - (١) القمر / ١٧

الذين اتخذوا منهج التكليف لآيات الله، بتفسيرها تفسيرات معقدة، أو من خلال الأشعار الجاهلية وأحاديث وأسباب التزول الضعيفه في سندتها غالباً، بل إن البعض منهم حاول تفسير القرآن من خلال الأفكار الدخبله، حتى قال قائل منهم لا بد لمن أراد تفسير القرآن ان يقرأ الفكر الماركسي أولاً.

[١١٨] هنا نعمتان متدرجتان تتواлиان على المؤمنين إحداهما توفير فرصه الهدایه بانزل الوحي، الثانيه هدایه الله لهم بعد تقبيلهم للوحي و الترامهم بشرائعه.

و إذا كانت النعمة العame تعم الناس جميعاً إذ ان ربنا يبعث إلى كل قريه نذيراً فان النعمة الثانيه تخص المؤمنين فقط، ولذلك خص ربنا موسى و هارون بالهدایه قائلاً:

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [١١٩-١٢٠] و يوصل الله سياق الحديث عن موسى و هارون بالسياق العام للسورة، الذي يحدثنا عن جزاء عباد الله المخلصين و المحسنين، و ذلك من خلال الاشاره إلى جزائهم عليهما السلام.

وَتَرَكَنَ عَلَيْهِمَا فِي الْمَآخِرِينَ * سَيِّلَامُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَلَا يَمْكُنْ لَأَحَدٍ أَنْ يُنْكِرْ دُورَ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَحْلِيدِ ذِكْرِ هُؤُلَاءِ
الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ عَلَىٰ وَفَاتِهِمْ آلَافَ السَّنِينِ، فَلَوْلَا ذَكْرُهُمُ الَّذِي تضمنَتْهُ رِسَالَاتُ اللَّهِ، هَلْ كَانَ أَحَدٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَعْرِفُ هَذِهِ
التفاصيل عن حياتهم؟ وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ أَنَّا لَا نَعْرِفُ عَنْ حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ لَمْ تُتَعَرَّضْ لِذَكْرِهِمُ الرِّسَالَاتُ شَيْئًا مَعَ انْ
عدهم (١٢٤٠٠)نبياً و رسولاً و يؤكـد القرآن في سوره هود ذلك بعد ان يذكر قصه نبـي الله نوح و يقول:

تِلْمُكَ مِنْ أَبْيَاءِ الْغَيْبِ نُوَجِّهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ لَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (١) ان احداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكره البشر و كل جيل يأتي ينسى جزء منها حتى تنتهي تماما، بالذات و ان البشرية و لفتره ليست بالبعيد لم تكن قد وصلت الى التقدم العلمي الذى يمكنها من المحافظه على كل ذلك، بالإضافة الى أن كثيرا من الأقوام كانوا يتعرضون للانقراض والهلاك الجماعى فيما يحيط بهم، و علم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن أقوام لم تكن البشرية تعرف عنهم شيئا، ولكن الله يخلد ذكرى الأنبياء العظام بفضلهم و يترك السلام عليهم يتواتى ليل نهار، و نعود للآيه لنتسائل ماذا ترك ربنا على موسى و هارون؟ أولاً: إن الله حافظ على رسالتهم فى الحياة، إذ أبقى مشعل الهدایه الذى تحمله الجهاد به و الدعوه اليه، يتلقفه الصالحون من ورثتهم على طول التاريخ دون ان يسقط يوما.

ثانياً: جعل ذكرهما الحسن يطبق الخاففين و لا يزال الى الأبد.

[١٢١-١٢٢] و لأن الله ذكر هذه القصص توضيحا و تأكيدا للحقيقة المحوريه فى هذه السوره عاد ليؤكددها، و تلك الحقيقه هي ان العاقبه للمحسنين.

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَلَا بدَ ان نلاحظ بان هذه الآيه تأتى بعد ذكر مجموعه حقائق من حياه كلنبي فمن حياه نوح عليه السلام ذكر النجاه، و من حياه إبراهيم ذكر الذريه الصالحة، و من حياه موسى ذكر النصر و الهدایه، و اشركهم فى الذكر الحسن الذى لخصه فى السلام

ص: ٢٧٤

عليهم، ومعنى ذلك ان جزء المحسنين لا ينحصر في الذكر الحسن، بل يشمل كل هذه الأمور و ما سبأته ذكره في القصص الأخرى. وقد يكون تلخيص القرآن لحياة هؤلاء ليس من باب الحصر إنما أراد أن يشير لنا في هذه السورة إشارات مختصرة، أما التفاصيل فيمكننا التعرف عليها من خلال مراجعتنا للسور الأخرى.

[١٢٣] وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ وَيَبْدُوا أَنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قِيلَ إِنَّهُ عَاشَ فِي مِنْطَقَةِ بَلْبَكَ بِلَبَنَانَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَّ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَهْلَهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانُوا يَعْبُدُونَ إِلَهًا لَهُمْ يُسَمِّي بِعَلَّا. يقول صاحب المنجد: (بعل: اسم أطلق على عده آله ساميّة أشهرها معبد فينيق، هو إله الخصب والتناسل) وبعلبك محافظه البقاع يدل اسمها الحالى على اسمها الفينيقى:

بعل البقاع [١٢٤] و يلخص القرآن رساله الياس فى ثلاثة أمور هي:

الاول: الدعوه الى تقوى الله عز وجل.

إِذْ قَالَ رَبُّهُمْ أَلَا تَتَّقُونَ وَهَذِهِ دُعَوَهُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ لِأَقْوَامِهِمْ، لَأَنَّ مَشْكُلَهُ الْإِنْسَانُ الْحَقِيقِيُّهُ هُوَ ابْتِعَادُهُ عَنِ رَبِّهِ وَ ضَعْفُ إِيمَانِهِ بِهِ، وَ لَا سُبْلٌ لِلْبَشَرِيَّهُ إِلَى مَعَالِجَهُ انْحِرافَاهَا وَ مَشَاكِلَهَا إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَ التَّقْوَىِ.

[١٢٥] الثاني: ولكل يتصل الإنسان بربه و يكون متقيا، يجب ان يتغلب على مشكله الشرك لهذا نجد الياس فى الوقت الذى يدعى قومه لتقوى الله يأمرهم بنبذ

ص: ٢٧٥

الآلله المزيفه.

أَتَدْعُونَ بِغَلَّاً وَ تَذَرُّونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَ الْخَلْقُ هُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ مِنْ لَا شَيْءٍ، انما يعنى الصناعه و التغيير التي يستطيع الإنسان على شيء منها، ولكن الله أفضـلـ الخالقـينـ، فهو الأولـ بالعبـادـ و يـبـدوـ انـ ذـكـرـ صـفـهـ أـحـسـنـ الخـالـقـينـ هـنـا لـانـ الـقـوـمـ كـانـواـ يـنـسـبـونـ النـسـلـ لـإـلـاهـهـمـ بـعـلـ، فـأـمـرـهـمـ النـبـيـ اليـاسـ بـتـقوـىـ اللـهـ مـنـ ذـلـكـ وـ رـفـضـ هـذـهـ الـخـرـافـاتـ التـىـ تـقـفـ دـوـنـ تـقـدـمـهـمـ وـ تـكـامـلـهـمـ.

[١٢٦] ثالثاً: محاربه الاتـبعـ الخـاطـئـ لـلـآـبـاءـ... وـ يـبـدوـ انـ التـقـالـيدـ كـانـتـ عـمـيقـهـ الجـذـورـ فـىـ مجـتمـعـ اليـاسـ عـلـيـهـ السـلـامـ وـ السـبـبـ أـنـ اللـهـ إـذـ لـخـصـ دـعـوـتـهـ أـشـارـ إـلـىـ الـآـبـاءـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ نـوـعـ الـمعـانـاهـ التـىـ كـانـ يـعـيـشـهاـ.

الله رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أراد من ذلك بيان دور الآباء في الضغط على الأبناء ليشرـكـواـ بـالـلـهـ أوـ يـكـفـرـواـ بـهـ، وـ هـلـ يـغـيـرـ الواقعـ وـ الـحـقـيقـهـ كـفـرـ النـاسـ؟ كـلاـ... فـالـلـهـ هوـ رـبـ الـآـبـاءـ وـ انـ كـفـرـواـ أوـ أـشـرـكـواـ بـهـ وـ يـجـبـ عـلـىـ الـأـبـنـاءـ انـ يـتـجـاـزوـواـ خـطـأـهـمـ، وـ يـتـرـكـواـ هـذـهـ الـأـنـدـادـ وـ يـتـوـجـهـوـاـ إـلـىـ رـبـهـمـ الـحـقـ.

[١٢٧] ثم يعرض لنا السياق النـتيـجهـ التـىـ صـارـ إـلـيـهـ قـوـمـ اليـاسـ عـلـيـهـ السـلـامـ، فقد كـذـبـواـ رـسـولـهـمـ وـ أـصـرـواـ عـلـىـ انـحـرـافـهـمـ.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ امام العـدـالـهـ الـالـهـيـهـ لـيـنـالـواـ جـزـاءـهـمـ الـمـتـمـثـلـ فـىـ عـذـابـ اللـهـ.

[١٢٨] و تستثنى الآيات من العذاب القوم المخلصين، و هم الذين تم حضوراً في الطاعه.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أَمَّا الَّذِينَ يَلْحِقُ بِأَيْمَانِهِمْ بَعْضُ الشَّكِّ، وَ بِأَعْمَالِهِمْ بَعْضُ السُّلُوكِيَّاتِ الْمُنْحَرِفَةِ فَإِنَّهُمْ يَحْضُرُونَ لِلحسابِ وَ
الجزاء كلاً بنسبه شكه و انحرافه.

[١٣١-١٣٢-١٢٩] كان ذلك جزاء المكذبين، اما الرسول الذي صدق برسالته، و بلغها لهم، و تحمل من أجلها العناء و
التضحيات، فان جزاءه على الله الكرامه.

وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلَيْسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُخْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَ قَدْ تَجَسَّدَ إِحْسَانُ الْيَاسِ
فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي حَمَلَهَا لِقَوْمِهِ، وَ إِذَا كَانُوا قَدْ قَابَلُوهُ بِالرَّدِّ وَ التَّكْذِيبِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ لَدِيهِ عَمَلَ مُحَسِّنٍ أَبْدَا، وَ تَأْكِيدُ الْقُرْآنُ عَلَى
صَفَهِ الْإِيمَانِ فِي النَّمَاذِجِ الَّتِي يَضْرِبُهَا مِنْ حِيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ دُونَ صَفَهِ النَّبِيِّ وَ الرِّسَالَةِ، حَتَّى لَا يَتَصَوَّرَ مُتَصَوِّرٌ أَنَّهُ إِذَا صَارَ مُحَسِّنًا فَقَدْ لَا
يَجْنِي ثُمَرَهُ لِإِحْسَانِهِ بِاعتباره ليس بنبي، فالعبدية والإيمان صفتان ممكنتان لكل شخص إذا أراد و سعى.

[١٣٣] و يسوق لنا القرآن مثلاً آخر على نجاه المخلصين من حياة النبي لوطن عليه السلام و هو من أهل بابل بعثه الله في غير قومه.

وَ إِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ وَ قَدْ جَاءَ لِيُعَالِجَ الْوَضْعَ الْفَاسِدَ الَّذِي يَعِيشُهُ قَوْمُهُ، وَ الَّذِي مِنْ أَبْرَزَ مَظَاهِرَهِ

الفساد الخلقي، و ذلك برساله ربه، لكنهم رفضوه و رفضوا رسالته فكان مصيرهم كسائر الأقوام الذين يكذبون الأنبياء ان دمراه الله.

[١٣٥-١٣٦] و مع ان حياء لوط عليه السلام تستعمل على الكثير من الدروس و العبر، إلا ان القرآن في هذه السورة يدعونا للتفكير في لحظة نجاته و من آمن معه من أهله، و دمار الآخرين الذين كذبوا به. لأن هذا الجانب يلتقي مع السياق العام لهذه الآيات.

إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجِّيْرَوْزَا فِي الْغَابِرِينَ وَ قَدْ قِيلَ انْهَا زَوْجَتَهُ، وَ قَصْهَ هَلَاكَهَا هِيَ: اَنَّ اللَّهَ اَمْرَ لَوْطًا وَ مَنْ مَعَهُ حِينَما يَخْرُجُونَ مِنَ الْقَرْىِ الْمُؤْتَفَكَهُ اَنْ لَا يَلْتَفِتُوا وَرَاءَهُمْ، لَأَنَّ ذَلِكَ يَعْبُرُ عَنِ الشَّفْقَهِ عَلَى الْمَهْلَكِينَ، وَ التَّشْبِثُ بِالْمَالِ وَ حُبُّ الْوَطَنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَالْتَّفَتُتْ زَوْجَتَهُ وَ أَهْلَكَتْ مَعَهُمْ.

ثُمَّ دَمَرَنَا الْآخَرِينَ بَانَ قَلْبَ جَبَرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ عَالِيَّهَا سَافِلَهَا وَ اهْلَكَهُمْ جَمِيعًا.

[١٣٧-١٣٨] و إذا كان هؤلاء الأقوام قد انقرضوا بأجسامهم و حضاراتهم فقد بقيت منهم العبرة و السعيد من اتعظ بتجارب غيره.

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُضْبِحِينَ * وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَكَانَ هَذَا الْمَرْوُرُ عَلَى بَقَايَا الْآتَارِ، أَوْ مِنْ خَلَالِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ،

فقد قال

ص: ٢٧٨

ابو الريبع الشامي :سألت أبا عبد الله (الى قوله) فقلت: فقوله عز و جل و إنكم تتمرون عليهم مُضِّبِّحين قال:

«تمرون عليهم في القرآن إذا قرأتم القرآن، فقرأ ما قص اللهم عليكم من خبرهم »^(١) و مشكله الناس الذين يكررون تجارب الآخرين الخاطئه فيصي لهم ما أصابهم، ليس قوله التجارب و العبر، انما قوله الاعتبار، فالآثار و القصص التاريخيه كفيه باستثاره عقل الإنسان و إعطائه البصيره في الحياة، و لكنه يعطل عقله عن التفكير فيها، و في بعض النصوص التاريخيه ان العرب كانوا يمرون بقوافلهم أثناء تجارتهم الى الشام على قرى لوط إلا إنهم لم يستفيدوا من هذه الموعظه التي لا تحتاج إلا الى القليل من التفكير ليقرأها الإنسان.

و هذه التذكرة من القرآن الحكيم بضروره الاعتبار من التاريخ، تؤكدها الآيات عند ذكرها لقصص الماضين، و ذلك لكي يعلم من يقرأ القرآن، بأن هذه القصص ليست للتسلية و جمع المعلومات إنما هي للهدايه و الموعظه و الاعتبار.

ص ٢٧٩

١- (٤) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٣٢.

اشاره

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَسْحُونِ (١٤٠) فَسَاكَمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَّقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيِّبِينَ (١٤٣) لَلَّبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ (١٤٤) فَتَبَذَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَيِّقِيمٌ (١٤٥) وَأَبْنَتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ أَلْفَيْ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَنَعَهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) فَاسْتَفْتَهُمْ أَرْبَكَ النَّبَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُنَّ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْيَ طَفَى النَّبَاتِ عَلَى الْبَيْنَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأَنُوا يُكَتَّابُكُمْ إِنْ كُتُّتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسِيَّاً وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

اللغه

[١٤٥] [بالعراء]: المكان الحالى الذى لا نبت فيه ولا شجر.

[١٤٦] [يقطين]: شجر القرع، وقيل كل شجر لا ساق له.

هدى من الآيات:

بعث الله نبيه يونس بن متى الى مدینه نينوى بالموصل، فبلغ الرساله و ارشدهم للحق بعد ان بين لهم انحرافهم، ولكنهم لم يستمعوا الى دعوته، فما صابرهم كثيرا و دعا عليهم فغضب الله عز و جل عليه، لكن حساب الخطأ على الأنبياء يكون بمستوى المسؤولية التي يتحملها النبي. فالرب يعتبر تركهم الأولى معصيه كما اسمى تناول آدم من الشجره عصيانا، بل في قصه أحد الأنبياء الذي حاربه قومه فاختفى في جذع شجره، ولما دلّهم الشيطان عليه قطعوا جدعها بالمنشار، فأصابه من حدتها فقال «آه»، فأوحى الله إليه إن عدت لها مره اخرى محوت اسمك من ديوان الأنبياء. ولا ريب ان لحظه الوقوع في الخطأ لرفع الله عنهم العصمه ليتصرفوا بطبيعتهم البشريه المجرده، و لعله لحكمه معينه هي إظهار بشريتهم عليه السلام .

وهكذا غضب الله على نبيه يونس بسبب تركه للأولى، و سرعه الدعاء على قومه، الأمر الذي جعله مستحقا عند الله الاعتقال، فسجنه في بطن الحوت في

ظلمات ثلاثة، في قصه خلاصتها إنّه وصل الى البحر هاربا من قومه، و ركب سفينه مليئه بالمسافرين، و في عرض البحر حيث طغى ماؤه و هاج موجه، و تخوف الجميع من غرقها، فقال ربان السفينه: ان عباداً آبقاً موجوداً في سفينتنا، و كانت عادتهم الاقتراع في مثل هذه الظروف و من يظهر اسمه في القرعه هو الذي يلقى في البحر ليخف وزن السفينه، و كانت القرعه و لثلاث مرات تتجه الى يونس بن متى فرموه في عرض البحر، فتلقيه الحوت الذي ابتلعه و بقى في بطنه.

□
ولم ينقذ يونس عليه السلام من هذا المأزق الا بتضرعه لله و اعترافه بخطئه «سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (١)، إذ أمر الله الحوت ان يقذفه على الساحل و خرج من بطنه و قد اهترأ جلده، فأنبت الله له شجره اليقطين ذات الأوراق الكبيرة، فشوفى و خرج ليمارس مسئوليه التبليغ من جديد.

و تهدينا هذه القصه كما القصص الماضيه، الى الحقيقه التي سبق و ان ذكر بها السياق القرآني، و هي ان العباد المخلصين بشر و ليسوا أولادا لله سبحانه، و لا آلهه، و ذلك خلافا لما يصفهم به المشركون، كما إنهم لم يوصفوا بتلك الصفات المثلثة الا بما سعوا و أحسنوا، و قد اعترضتهم - كما يحصل ذلك لاي إنسان آخر - الصعاب و المشاكل، و لو كانوا كما يصفهم المشركون لتجاوزوها، و الحال إنهم لو لا رحمه الله لكانوا من الهالكين.

بلى ان ربنا سبحانه ترك عليهم سلاما دائمـا على كل لسان لما امتلكوا من صفات جعلتهم أئمه و قاده.

و لعل هذا التأكيد على السلام عليهم لكي يتذروا قاده، و لكي يعرف الناس حدود إكرامهم للأئبياء فلا يغلوا فيهم حتى مقام الربوبيه، و لا ينزلونهم الى مستوى

ص: ٢٨٣

١ - (٨٧) الأنبياء / (٨٧).

العلماء و المفكرين، وأخيراً لكي يفسر القرآن سبب إكرام الناس للأنبياء فلا يحرفه الضالون عن سبيل التوحيد.

بيانات من الآيات:

[٤٠-١٣٩] وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمُسْحُونِ وَالْآبَقُ هُوَ الْهَارِبُ، وَالْمَشْحُونُ الْمُمْتَلِئُ.

[٤١] وَلَمَّا أَبْرَحَتِ السَّفِينَةُ وَخَافَ أَهْلُهَا مِنَ الغَرقِ اقْتَرَبُوا إِنْ يَقْتَرَعُوا، لِيَلْقَوْا وَاحِدًا مِنْ رَكْبَهَا فِي الْبَحْرِ تَخْفِيفًا لَوْزَنِهَا.

فَسَاهَمَ النَّبِيُّ يُونُسُ بَعْدَ أَنْ وَافَقُوهُمْ.

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ وَالْمَدْحُضُ هُوَ الَّذِي لَا حَظٌ لَهُ، وَقَدْ خَسِرَ الْقَرْعَةَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ.

[٤٢] فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أَلْقَى فِي الْبَحْرِ.

فَالْتَّقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ وَالْمَلِيمُ الَّذِي يَأْتِي مِنَ التَّصْرِيفَاتِ مَا يَسْتَحِقُ عَلَيْهِ اللَّوْمُ.

[٤٤-١٤٣] وَلَكِنَّ يُونُسَ أَدْرَكَ خَطَأهُ وَاعْتَرَفَ بِهِ، وَاهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ التَّوْبَةِ وَرَضِيَ اللَّهُ وَهُوَ الْاسْتَغْفَارُ وَالْتَّسْبِيحُ - وَهَكُذا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ حِينَما نَقْعُ فِي

المعصيه-و بهذا تجاوز النبى عليه السلام محتته ليختلف للبشريه درسا فى معالجه الخطأ. و لو لا أنه أصلح خطأه لاحاط به.

فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبَثُّونَ وَ ذَلِكَ بَانٍ يَكُونُ قَبْرَهُ فِي بَطْنِهِ.

[١٤٥] وَ لَكِنَ اللَّهُ أَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ.

فَبَتَذَنَّاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ أَى مريض و السقم شده المرض،اما العراء فهى الصحراء.

[١٤٦] وَ أَنْبَتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ لَأَنَّهُ رَبِّنَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى الظِّلِّ كَعَلَاجٍ إِلَى سَقْمِهِ،

قال الامام على عليه السلام :

«وَ أَمْرَ اللَّهِ الْحَوْتَ أَنْ يَلْفِظَهُ فَلَفِظَهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَ قَدْ ذَهَبَ جَلْدُهُ وَ لَحْمُهُ، وَ أَنْبَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَ هِيَ الدَّبَا، فَأَظْلَلَتْهُ مِنَ الشَّمْسِ، ثُمَّ أَمْرَ الشَّجَرَةَ فَتَنَحَّتْ عَنْهُ وَ وَقَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ فَجَزَعَ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا يُونُسَ لَمْ لَمْ تَرْحِمْ مَائِهِ الْفَأَوِيَّنِيْدُوْنَ وَ أَنْتَ تَجْزَعُ مِنْ تَأْلِمِ سَاعِهِ؟ فَقَالَ: يَا رَبِّنِيْدُوكَ، عَفُوكَ، فَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَدْنَهُ، وَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَ آمَنُوا بِهِ» [\(١\)](#) وَ يَبْدُو أَنَّ الشَّجَرَةَ لَمْ تَكُنْ تَظْلِلَهُ وَ حَسْبٌ، وَ إِنَّمَا كَانَ يَتَداوِي بِهَا عَنْ مَرْضِهِ، لَأَنَّ ثَمَرَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ -وَ هُوَ الْقَرْعُ- بَارِدٌ طَبَعَهُ كَمَا يَقُولُونَ يَنْفَعُ الْجَسْمَ الْمُلْتَهِبَ.

ص: ٢٨٥

١- (٤) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٤٣٦).

[١٤٧] و هكذا نهض يونس من مرضه ليمارس عمله الجهادى من جديد يوحى من الله عز و جل، الذى بعثه ليعيد التجربة مع قومه.

وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَ لَمْ يَحْدُدِ الْقُرْآنُ عَدْدَ هُؤُلَاءِ بِالْبَضْطِ، لَأَنَّ الْمَجْمُوعَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْمُتَوَاجِدَةَ فِي مَنْطَقَةٍ مَا، تَزِيدُ وَ تَنَقَصُ لِعِوَادِلَاتِ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ بَيْنِهَا الْوَلَادَةُ وَ الْمَوْتُ، وَ مِنْ بَيْنِهَا الْهِجْرَةُ مِنَ الْمَجَمِعِ وَ إِلَيْهِ.

[١٤٨] و حينما عاد يونس الى قومه هذه المرة نجح في تغييرهم.

فَآمَنُوا وَ صَارُوا مِثْلًا لِلَّامَةِ الَّتِي اسْتَفَادَتْ مِنْ تِجَربَتِهَا السَّلَبِيَّةِ فِي ارْتِقَائِهَا وَ تَقْدِيمِهَا، فَقَدْ حَدَّدَ قَوْمُ يُونُسَ وَ هُمْ يَرَوُنُ الْعَذَابَ عَلَى الْأَبْوَابِ الْمَسْؤُولِ عَنْ هَذَا الْوَاقِعِ، فَلَمْ يَبْرُرُوا لِأَنفُسِهِمْ وَ لَمْ يَعْانِدُوهُ، اِنَّمَا تَحْمِلُوا الْمَسْؤُلِيَّةَ وَ تَوَاضَعُوا لِلْحَقِّ فَرَفَعُوكُمُ اللَّهُ وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَ وَ الْبَرَكَةَ. وَ لَيْسَ بِالْمُرُورِهِ أَنْ يَكُونَ الْعَذَابُ غَمَامًا وَ لَا خَسْفًا مِنْ غَضْبِ اللَّهِ، فَقَدْ يَكُونُ هُوَ التَّمْزِيقُ وَ الْفَقْرُ وَ التَّخْلُفُ وَ الْمَشَاكِلُ الْنَّفْسِيَّةُ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةُ، وَ كُلُّهَا مُوجُودَهُ الْآنَ فِي وَاقْعِ الْإِيمَانِ الْاسْلَامِيِّ، وَ وَاجِبَهَا أَنْ تَغْيِيرَ وَاقْعُهَا لِيَغْيِرَ اللَّهُ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ التَّخْلُفِ إِلَى التَّحْضُورِ وَ الْازْدَهَارِ. وَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، فَهَذِهِ أَمْهَى يُونُسَ يَحْكِيُ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ آمَنَتْ قَائِلاً:

فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَيْ حِينٍ فَلَمْ تُبْقِ هَذِهِ الْمَتْعَهُ وَ الْبَرَكَهُ طَويَّلًا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْفَظُوكُمْ عَلَى عَامِلَهَا الْأَسَاسِيِّ وَ هُوَ الْإِيمَانُ فَهُمْ ظَلَوا فِي مَعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ وَجْدَ الْإِيمَانِ بِيَنْهُمْ.

[١٤٩] و بعد ان يختم ربنا قصص الأنبياء التي أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بأنهم آله، و ذلك من خلال الآية الكريمة: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، التي تمثل عملا مشتركا بين القصص كلها، ينفي من الجانب الآخر مجموعه من التصورات التي اختلفها المشركون حول الملائكة و الجن، و أهمها زعمهم بأنها نسب لله عز وجل كوسيلة لتاليتها. و نجد في السياق امرا من الله الى رسوله باستفتاء المشركين في ذلك.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ وَ الْاسْتْفَتَاءُ هُوَ أَخْذُ الْفَتِيَا وَ الرَّأْيِ .

[١٥٠] او لو سألهم الرسول لقالوا بلى، و لكن على اي دليل يستند قولهم، هل شاهدوا خلق الملائكة؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً و هم شاهدون الذي يرى شيئاً بعينه يمكنه ان يدعى صدق ما رآه، و يكون ادعاوه منطقيا، بينما لم يشهد هؤلاء خلق الملائكة حتى يعرفوا ماهيتها، و هذه الآية تنسف فكره الجاهليه من الأساس حول الملائكة، حيث تهدينا الى إنها مجرد ظن لا دليل عليه.

[١٥١-١٥٢] و مع ان ظاهر الآيتين الماضتين حول الملائكة، انهما تعالجان فكره أنوثه الملائكة، الا ان هدف القرآن من الحديث هو نسف الاعتقاد بألوهيتها، ذلك ان بعضها من المشركين تصوروها تولدت من الله فهى آله أيضا، و إنما دخل السياق لهذا الموضوع من زاوية الحديث عن طبيعة الملائكة و ماهيتها، ليبين لنا بان تصورات الجاهليين خاطئة ليس فى تحديد دور الملائكة و حسب و إنما يجهلون حتى ماهيتها، و كل ما هنا لك من أفكار لديهم حولها فانها مجرد ظنون لا دليل منطقى

عليها.

أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ان الاعتقاد بولادة الله الذى نشأ أصلاً من أجل الهروب من ثقل المسؤولية، ولکى يشبع الإنسان غروره و كبره و تطلعه الى مقام الربوبيه-ان هذا الاعتقاد- برره ادعیاء الحكمه و الفلسفه فوضعوا له نظريات الحلول و الاتحاد، و وحده الوجود، و منها حاولوا تبريرها فهى مجرد إفك داخلى فى نفوسهم، و كذب فظيع على ألسنتهم.

ان المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع فى هذا الادعاء القبح الفاعلى الى جانب القبح الفعلى.

[١٥٣] و يتساءل القرآن من جديد:

أَصْطَفَى الْبُنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [١٥٤] ان استصدار هذا الحكم على الله سبحانه، لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقية.
ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [١٥٥-١٥٦-١٥٧] و الإنسان حينما يريد الحكم على قضيه ما إما ان يرجع الى ضميره، او الى حجه اخرى كالعقل و العلم، و هؤلاء لا يراجعون ضميرهم بالذكر و لا يرجعون الى حجه قاطعاً اخرى.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ إذا بلغ الإنسان حدـاـ و بالاعتماد على البراهين و الشواهد القاطعة- ان اعتقد

حتى و لو بهذه الفكرة الباطلة فى واقعها.فانه معدور عند الله،و لكنه تعالى أبى ان يجعل الحق باطلا لا ريب فيه،و لا الباطل حقا لا ريب فيه،و ذلك بما زرع فى الإنسان من ضمير،و بما وهبه من عقل،و أنزل عليه من كتب،و بعث له من رسول،و جعلها جميعا فرقانا له فى الحياة فى كل أمورها و قضاياها.

فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِذَا كَانَتْ مِزَاعِمُكُمْ هَذِهِ تَعْتَدُ عَلَى دَلِيلٍ فَأَيْنَ هُوَ الدَّلِيلُ؟ [١٥٨] وَ فِي نَهَايَةِ الْدُّرْسِ يَعْرِجُ الْقُرْآنُ عَلَى فَكْرِهِ بَاطِلَهُ أُخْرَى لِيُنْسَفَهَا نَسْفًا وَ هِيَ تَأْلِيهُ الْجَنِّ.

وَ جَعَلُوا يَتَّبِعُهُ وَ يَتَّبِعُ الْجِنَّهُ سَبَبًا فَعَبَدُوا السَّحْرَهُ وَ الْكَهْنَهُ الَّتِي تَدْعُى الاتصالُ بِهَا،أَوْ تَنْصُلُ بِهَا فَعْلًا.

وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ وَ لَوْ كَانَتِ الْجَنِّ آلَهَ كَمَا يَتَصَوَّرُ الْمُشْرِكُونَ،لَمَّا أَحْضَرُوا لِلْعَذَابِ كُسَائِرَ الْعَصَاهِ مِنَ الْخَلَقِ وَ ذَلِكَ يَدْلِي بِوَضُوحٍ عَلَى إِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ وَ لَيْسُوا بِآلِهٖ.وَ ذَكَرَ اللَّهُ لِحْضُورِ الْجَنِّ لِلْعَذَابِ يَضْرِبُ أَفْكَارَ الْمُشْرِكِينَ فِي الصَّمِيمِ،ذَلِكَ أَنَّ لِلشَّرِّ كَبُصُورَهُ عَامِهُ جَذْرٌ مُشْتَركٌ،هُوَ مُحَاوِلَهُ التَّخْلُصُ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّهُ،عَبْرِ الاعْتِقادِ بِأَشْيَاءٍ وَ قُوَّىًّا أَنَّهَا تَخْلُصُ الْإِنْسَانَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ،وَ إِذَا كَانَ الْجَنُّهُ لَا تَخْلُصُ نَفْسَهَا فَكَيْفَ تَنْقَذُ الْبَشَرَ.

[١٥٩] وَ تَعَالَى اللَّهُ وَ تَنْزَهُ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَهِ.

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِّفُونَ [١٦٠] وَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْسَفُ الْقُرْآنَ فَكُرْهَ تَأْلِيهِ الْجِنِّ، يَنْسَفُ مِنْ جَانِبِ الاعْتِقَادِ السَّائِدِ لِدِي الْبَعْضِ مِنْ أَنَّ الْجِنَّ يَدْهَبُونَ إِلَى النَّارِ جَمِيعًا، وَ ذَلِكَ حِينَما يَسْتَثْنَى مِنَ الْحَضُورِ فِي الْعَذَابِ الْمُؤْمَنِينَ الْمُخْلَصِينَ مِنْهُمْ.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ كَمَا تَضْمِنُ الْآيَةِ تَأْكِيدُ فِي كَلْمَتَهَا الْأُولَى عَلَى عَبُودِيَّةِ الْجِنِّ لَا أَلْوَهِيَّتُهُمْ.

اشاره

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنَيْ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَ إِلَّهٍ مَقْعُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ
الصَّاغُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُحْلِصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَيُوفِ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَيَقَتْ كَلِمَاتِنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ
إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينَ (١٧٤) وَأَبْصِرُهُمْ فَسُوفَ يُبَصِّرُونَ (١٧٥) أَفَبَعْدِ ابْنَائِنَا يَسِّيَّعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا
نَزَّلَ سَاحِتِهِمْ فَسَاءَ صَبَّاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينَ (١٧٨) وَأَبْصِرُهُمْ فَسُوفَ يُبَصِّرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

الله

١٦٢-[بفاتين]:الفاتن الداعى إلى الضلال،أى لا تتمكنون من إضلال الناس على خلاف الله سبحانه.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير يلخص ربنا عبر هذه السورة، و من أظهرها أن عباد الله المخلصين هم الذين أخلصهم ربهم، و أخلصوا أنفسهم له، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.

في الآيات الأولى من هذا الدرس ينفي القرآن الحكيم التعلق الشركي بالملائكة عبر التأكيد على عبوديتهم لله، و تسليمهم لأوامره التي ينتظرونها، تتنزل من عنده إليهم، ثم ينسف فكره الجبر مكتذبا الذين يدعون بأنهم مضطرون للشرك بالشياطين، إذ لا جبر في الدنيا على الإنسان، إنما هو الذي يختار طريقه، و أفكاره، و اعتقاداته بكامل حريته، و هذه الحرية هي التي تحمله المسؤولية الكاملة تجاه تصرفاته، و الأوامر التي يوحيها الله لرسله بأن لا يبالغوا في تبليغهم الرسالة للكفار و المشركين تلقى مع فكره الاختيار، فالكافر و المشركون هم المسؤولون عن اختيارهم، و ليس من واجب المبلغ للرسالة أن يفرض عليهم اختياراً معيناً.

و تنتهي السوره بما صار ختاما لأحاديث الصالحين و هى الآيات الثلاث الاخيره و التى مطلعها تنزيه الله سبحانه، ثم الثناء على رسله، و أخيرا تخصيصه بالحمد.

بيانات من الآيات:

[١٦٢-١٦١] إن أفكار الشرك بألوانه المختلفة خاطئه، و الإنسان غير مجبور على الاعتقاد بها، و لكنه لكي يرفع عن نفسه المسؤوليه يزعم بأنها مفروضه عليه، و لا خيار له إلا قبولها بسبب الضغط أو الإغراء، و القرآن ينقض فكره الجبر هذه، فيقول:

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنَينَ وَ كَلْمَه «عَلَيْهِ» فِيمَا يَبْدُو تَدْلِيْلَ عَلَى الْجَبَرِ، فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ: إِنَّكُمْ لَا تَجْبَرُونَ أَحَدًا عَلَى اتِّبَاعِكُمْ فِيمَا تَعْبُدُونَ لَا بِالْإِغْرَاءِ وَ لَا بِالْضَّغْطِ، لِأَنَّ كَلْمَه الْفَتْنَةِ تَسْعَ لِمَعْنَى الْبَلَاءِ، وَ الْضَّغْطِ، وَ الْإِكْرَاهِ، كَمَا تَعْنِي الْإِغْرَاءِ وَ التَّرَيْنِ، وَ عَوْمَمَا إِنَّ الْفَتْنَةَ هُنَا بِمَعْنَى الْجَبَرِ.

و إذا نظرنا في أحوال الذين يعبدون الآلهه من دون الله -من اتباع السلاطين، والأحزاب، و عبده الأثرياء، و الوجهاء، و ادعية الدين -لرأيناهم يبررون جميعا شركهم بأنهم مجبورون، و أنه لا سبيل لمقاومة الطاغوت، و لا الهروب من شبكات الأحزاب، و لا مقاومته تجويغ المترفين، و تضليل الوجهاء، و ادعية الدين.

كلا...ربنا الذي خلق خلقه أعطى لخلقه الحرية و القدرة على الرفض، و لكن الشيطان يسؤال العبوديه، و يزيئها له.

[١٦٣] فالآلهه المزعومون ليسوا بقادرين على جبر الناس مهما حاولوا، بلـ.

انهم يضغطون عليهم، ولكن يبقى القرار الحاسم بيد الإنسان، وإنما يستجيب لهم من تتوارد فيه مقومات الشرك و الكفر.

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ لِجَهَنَّمِ وَ ذَلِكَ دَلِيلٌ حَرِيهُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَ إِنَّهُ غَيْرُ مُضطَرٍ لِلَاخْرَافِ، وَ إِنَّ عَلَيْهِ الْجَزَاءَ شَخْصِيًّا، لِأَنَّ الَّذِي يَتَجَادِبُ مَعَ فَتْنَتِهِ الْمُشْرِكِينَ يَصْلِي النَّارَ بِنَفْسِهِ وَ لَا يَغْنُونَ عَنْهُ شَيْئًا، وَ هَذَا أَعْظَمُ شَاهِدٍ عَلَى مَسْؤُلِيَّةِ الْإِنْسَانِ، كَمَا هُوَ أَفْضَلُ عَلَاجٌ لِدَاءِ التَّسْوِيفِ وَ التَّبَرِيرِ، فَلَوْ عِلْمَ الْمُبَرِّرُونَ، وَ أَوْلُو الْاعْذَارِ الْوَاهِيِّينَ أَنَّهُمْ يَذَاقُونَ الْعَذَابَ فَعَلًا— بِرَغْمِ تَبَرِيرِهِمْ وَ أَعْذَارِهِمْ، فَإِنْ ذَلِكَ يَقْتَضِي ارْتِدَاعَهُمْ.

[١٦٤-١٦٥] و يعرج السياق مره أخرى لينقل لنا رد الملائكة (عليهم السلام) على أباطيل المشركين حولهم في آيات ثلاث:

وَ مَا مِنْ أَلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَ الْمَقَامُ هُنَا قَدْ يَعْنِي الْمَنْزَلَةُ، فَالْمَلَائِكَةُ يَتَفَاضِلُونَ فِيهَا، وَ أَعْظَمُهُمُ الرُّوحُ، وَ قَدْ يَعْنِي الدُّورُ، فَلَكُلِّ مَلَكٍ دُورٌ يُخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِينَ، إِذْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُخْتَصٌ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ وَ كُلُّهُ بِالسَّحَابِ وَ الْمَطَرِ وَ... وَ مَقَامُ الْمَلَائِكَةِ وَ دُورُهُمْ مُعْلَمٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَ كُوْنُهُمْ الْمُوَكَّلُونَ بِشَؤُونِ الْحَيَاةِ وَ إِدَارَتِهَا لَا يَرْفَعُهُمْ إِلَى مَقَامِ الْرَّبُوبِيَّةِ أَبَدًا، كَمَا لَا يَقْفِزُونَ إِلَى دُورٍ آخَرٍ لِلْقِيَامِ مُثَلًا بِالشَّفَاعَةِ لِهُنَّا، وَ قَضَاءِ حَاجَةِ ذَاكَ الْأَبَدِ بِأَمْرِ اللَّهِ.

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ كَالْجَنْدِ. يَنْتَظِرُ الْجَمِيعُ أَوْامِرَ رَبِّهِ لِيَنْفَذُوهَا، وَ لَا يَحِدُّونَ عَنْهَا قِيدًا نَمْلَهُ، وَ لَعْلَهُ

أهم ما يصطف له الملائكة هو عباده الله، وذروتها التسبيح والتزية.

وَإِنَّمَا لَتَحْنُّ الْمُسَيْبِحُونَ يَتَزَهَّنُونَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْسَابُ وَمَقَامُ الرَّبُوبِيَّةِ، عَنِ الْوَهْنِ وَالْجَهَلِ، وَعَنِ الشَّرِكَاءِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهُمْ بِهِمْ أَنْجَلُونَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْهُمْ.

[١٦٩-١٦٨] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَهَرَّبُ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ بِبَعْضِ التَّمَنِيَّاتِ، وَتَعْلِيقِ قِيَامِهِ بِالْوَاجِبِ بِبَعْضِ الشُّرُوطِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لِمَاذَا لَا تَصْلُوا؟ قَالُوا: سَوْفَ نَفْعَلُ ذَلِكَ إِذَا ذَهَبْنَا إِلَى الْحَجَّ، أَوْ إِذَا كَبَرْنَا.. وَبَعْضُهُمْ يَلْقَى بِالْمَسْؤُلِيَّةِ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَيَقُولُ لَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُوفِّقْنِي فَإِنِّي لَمْ أَهْدِ إِلَى الصَّالِحِ، وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَسَوْفَ نَكُونُ أَهْدِي مِنْ غَيْرِنَا.

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ قَوْلًا مَجْرِدًا، لَا يَتَجَاوزُ لَقْلَقَهُ اللِّسَانِ.

لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ نَهْتَدِي بِهِ، وَنَسِيرُ فِي الْحَيَاةِ عَلَى ضَوْئِهِ.

لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ لَكُنْ هُلْ يُمْكِنُ لِلنَّاسِ أَنْ يَدْرِكَ هَذِهِ الْمُتَزَلَّهِ الرَّفِيعَ بِمَجْرِدِ التَّمَنِيَّاتِ؟ كَلَّا...

إِذْ لَا بَدَّ لِبَلوغِهَا مِنَ السُّعْيِ، لَأَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَحْوِلُ الْآمَالَ إِلَى وَاقِعٍ.

[١٧٠] وَلَأَنْ هُؤُلَاءِ يَعِيشُونَ مَجْرِدَ التَّمَنِيَّاتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِتَبْرِيرِ انْحرافَاتِهِمْ فَقَدْ جَاءَهُمُ الْقُرْآنُ، وَكَانَ يَفْتَرَضُ فِيهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ لِيَصُلُوا إِلَى سَمَاءِ الْإِحْلَاصِ.

فَكَفَرُوا بِهِ وَتَبَيَّنَتْ حَقِيقَتَهُمْ بِأَنَّ كَلَامَهُمْ مِجْرَدُ أَمْنِيَاتٍ غَيْرَ جَادَهُ، وَهَذِهِ طَبِيعَتِهِ كُلُّ الَّذِينَ يَسُوْفُونَ التَّوْبَةَ، وَيَعْلَقُونَ إِصْلَاحَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى شُرُوطٍ غَيْرَ مَتَّحِقَّهُ، وَيَعِيشُونَ فِي حَلْمٍ الْمُسْتَقْبِلِ دَائِمًا، وَهَذَا التَّسْوِيفُ يَرْدِيهِمْ إِلَى الْهَاوِيَهُ.

فَسَيِّدُونَ يَعْلَمُونَ فَهُمْ يَقُولُونَ: سَوْفَ نَعْمَلُ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْقُرْآنُ: بَلْ سَوْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِضَاعَهُ فَرْصَهُ الْعُمْرِ الْوَحِيدِ لَمْ تَكُنْ فِي مَصْلَحَتِكُمْ أَبْدًا.

وَفِي طَيَّاتِ هَذَا التَّعْبِيرِ تَهْدِيْدٌ مُبِطَّنٌ بِالْعَذَابِ، وَقَدْ يَكُونُ عَدَمُ التَّصْرِيحِ بِنَوْعِيهِ وَكَيْفِيَتِهِ أَبْلَغُ وَأَرْهَبُ فِي النُّفُوسِ، حِيثُ تَتَفَاجَأُ بِالْلَوَانِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ تَتَوَقَّعْهَا أَوْ تَحْسَبْ لَهَا حَسَابًا.

[١٧١-١٧٢] أَنْ تَشْبَثُ فَئَامُ مِنَ النَّاسِ بِمُخْتَلِفِ التَّبَرِيرَاتِ كَالْأَفْكَارِ الْجَبَرِيَّهُ، وَالانتِظَارُ السَّاذِجُ لِلْفَرَارِ مِنْ مَسْؤُلِيَّهِ الْإِيمَانِ بِالرَّسَالَهِ يَجِبُ أَنْ لَا- يَوْهَنَ الرَّسَالِيْنَ أَوْ يَسْلِبُهُمُ الثَّقَهُ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ، لِأَنَّهُ سَبَحَانَهُ أَرَادَ الْاِنْتَصَارَ لِمَبَادِئِهِ وَلِمَنْ يُؤْمِنُ وَيُلْتَزِمُ بِهَا، وَلَوْ كَانَ ظَاهِرُ الْحَيَاهُ هُوَ تَسْلِطُ الطَّغَاهُ الْمُنْحَرِفِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَمَا سَيْطِرُهُمْ إِلَّا مُحَدُودٌ.

وَلَقَدْ سَيَبَقَتْ كَلِمَتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِيْنَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ فَلِيُسْ كَلَامُ اللَّهِ عَنْ نَصْرِهِمْ شَيْئًا جَدِيدًا، اِنَّمَا هُوَ قَدِيمٌ سَبَقَتْ بِوَاقِعَتِهِ أَحَدَاتُ التَّارِيْخِ، فَمَا مِنْ رَسَالَهِ إِلَّا وَأَظْهَرَهَا اللَّهُ، نَعَمْ. قَدْ يَقْدِمُ أَصْحَابُهَا شَيْئًا مِنْ

التضحيات، أو يطول بهم الانتظار برهه من الزمن. لكن العاقبه تكون في صالحهم و صالح خطّهم في الحياة، و يلاحظ توالى التأكيدات اللّفظية على ذلك في هذه الآيه و في التي تليها أيضا.

[١٧٣] و هذا النصر لا- يختص بالأنبياء شخصيا، إنما ينتصر كل من يمثل جبهه الحق، و يحمل مشعل الرساله الإلهيه على امتداد التاريخ و في كل أفق.

و إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ و جند الله هم المؤمنون.

[١٧٤] و لكن متى ينصر الله عباده المؤمنين؟ ينصرهم حينما ينفصلون و يتميزون عن الكفار و المنافقين. ماديا و معنويا، لهذا جاء الأمر الإلهي للرسول بذلك.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ و الحين هنا يعني الوقت الذي يأتي فيه الأمر للرسول و المؤمنين بالهجوم عليهم و قتالهم، في ظل رعايه الله و نصره.

[١٧٥] و في الأثناء التي ينفصل المؤمنون المجاهدون عن الكافرين و المنافقين بالهجره-مثلا- ينبغي لهم أن يراقبوهم، و يكونوا شهودا على الواقع، و كل حركة تنشد التغيير لا بد لها من مراقبه الواقع، و دراسه العدو.

وَ أَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُنْصِرُونَ أَنَّهُمْ بِدُورِهِمْ -سوف يرون العذاب و يلاقونه من عند الله أو بأيدي

المؤمنين.

و في الآية معنى التأكيد على العاقبة لرسل الله و جنده، فكأنها أمم أعين الجميع يبصرها الصالحون فيفرحون بها، و يبصرها الكفار فيزدادون بها غيضا و حنقا.

[١٧٦] و عذاب الله لا- يأتي للإنسان حسب تمنياته، حتى يحتاج الكافرون على كذب الرسالة بأنهم تحدوا الله، فلم يرد عليهم، كلا.. إنما يرسل ربنا العذاب حسب حكمته سبحانه.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ وَمَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، إِنَّهُ الدَّمَارُ الشَّامِلُ، وَالْهَزِيمَةُ الْمَاحِقَةُ، وَالنَّارُ الْمُحِيطُ، وَالْهُوَانُ الْأَلِيمُ.

[١٧٧] إن هذا التحدى الثامن من قبل الكافرين لرب العزة إنما هو بسبب جهلهم بقدرته، و طبيعة العذاب الذي ينزله على الملحدين.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمُ الْغَضْبُ الْإِلَهِيُّ مُنْجَسِدًا فِي الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ، يَعْقِبُهُ عَذَابُ الْخَلْدِ فِي الْآخِرَةِ.

فَسَاءَ صِبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَغَضِبَ اللَّهُ أَكْثَرُ مَا يَنْزَلُ فِي الصِّبَاحِ، وَالْكُفَّارُ فِي كَامِلِ قُوَّتِهِمْ وَيَقْظَتِهِمْ، وَذَلِكَ لِيُشْعِرُوهُ بِحُقْرَتِهِمْ، وَلِيُذْوِقُوهُمُ الْعَذَابَ بِأَقْصَى مَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ، ذَلِكَ زِيَادَهُ فِي السُّوءِ لَهُمْ، لَأَنَّهُمْ لَيْسُ لَمْ يَسْتَجِيُوا لِلنَّذَرِ وَكَذَبُوهُا فَحُسْبُ، انْمَا بَارَزُوا اللَّهَ تَحْدِيَا وَمُحَارِبَهُ، وَالْقُرْآنُ يَكْرُرُ الإِشَارَهُ إِلَى الصِّبَاحِ كَزْمَنَ لِلْعَذَابِ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّ

مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ^(١) [١٧٨] ويرجع السياق مره ثانية للتأكيد للرسول على ضروره تركه للكفار و هجرهم، وانتظار الفرج الإلهي.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينَ ائِي حِينَ يَحِينَ موعد الانتقام الإلهي منهم، بتحطيم كبرياتهم، ونصر رسوله عليهم.

[١٧٩] ويبين السياق أن عاقبه النصر لرسوله، و الهزيمه للكفار واقعه لا ريب فيها حتى لكانها امام بصر الجميع.

وَأَبْصِرُ فَسَوْفَ يُبَصِّرُونَ حينما تلو القرآن نجد آيات كثيرة منه تؤكد على الرسول بأن لا يقتل نفسه بتحميلها بالغ الهم من أجل الذين يرفضون الرساله، وأن مسئوليته تنتهي بتبلغ رسالته، وهذا الأمر يهم المؤمنين الذين يسيرون في خط الرسول(ص) أيضا، فواجبهم هو أن يكيفوا أنفسهم و سلوكهم في الحياة حسب تعليمات ربهم أثناء الدعوه إليه، فإن آمن الناس التحقوا بهم، وإن كفروا بهم و شأنهم، وليس مطلوباً أن يبالغوا أكثر من اللزوم في هدايتهم، لأن ذلك قد يصرفهم عن بعض الواجبات، و يؤخر مسيرتهم باعتبارهم سوف يصرفون جهوداً مكررة بالأولى لهم أن يبذلوها في أعمال و خطط أخرى تقدم العمل خطوه إلى الإمام.

[١٨٠] وختاماً لهذه السورة التي عالج سياقها موضوع الشرك، وبعض الأفكار

ص: ٢٩٩

١ - (٨١) هود/ (٨١).

الخاطئه،و التصورات التي اعتقاد بها المشركون نجد تزييها لله عز و جل بأكرم الألفاظ و أجلها عنده تعالى و هي لفظه «سبحان».

ان دعوه القرآن للمؤمنين بأن لا- يبالغوا في وعظ المشركين لا- تعنى أن يرضوا بهم و بما يدعون و يعملون،انما يجب عليهم التسبيح تزييها لله و ذلك لكي لا- يتأثروا بشرکهم،لأن من طبيعة البشر تأثره بأفكار الآخرين و لو جزئيا،فإذا لم يكونوا قادرين على ان يتخدوا موقفا عمليا أو قوليا فليسبحوا ربهم في قلوبهم تسبيحا كثيرا.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِحُّ فُونَ النَّاسُ عَلَى اخْتِلَافِ أَدِيَانِهِمْ وَ مَذَاهِبِهِمُ الْفَكْرِيَّه يَصِفُ كُلَّ جَمَاعَهُ مِنْهُمْ رَبَّهُ بِوَصْفٍ لَا يَلِيقُ
و مقام الربويه،ولكن عباد الله المخلصين هم الذين يصفونه بما يليق به عبر التسبيح.

و قد اختلف المفسرون و الفقهاء في تحديد أفضل كلمات الذكر، فمنهم من قال: انه «الحمد لله» و قال آخرون: انه «لا اله الا الله» و
جماعه ثالثه قالوا:

«الله أكبر» هو أعظمها، و الذى -يبدو لي- ان كلمه «سبحان الله» هي أعظمها و أتقنها وزنا عند الله، لأن طبيعة الإنسان طبيعة مرتکره
في الجهل بمعناه الشامل، و بالتالي في الابتعاد عن الله، و هذا ما يدعوه إلى تصور الخالق حسب طبيعته، فإذا به يصوّر
محدودا، عاجزا، جاهلا، مركبا -مثلاً- انطلاقا من نظرته إلى نفسه و الأشياء من حوله، ثم إن روعه جمال الطبيعة، و تزيين الشهوات
التي تدعو النفس إليها، و سيطره الجبارين و المترفين كل ذلك قد يبعد المؤمن عن ربها، و يجعله يشرك به شركا خفيا، مما يجعله
يحتاج إلى تكرار التسبيح.

قال الإمام الصادق - عليه السلام - :

«ان الله تبارك و تعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت، وباللفظ غير منطق، وبالشخص غير مجتهد، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ، منفي عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهّم، مستتر غير مستور، فجعله كلمه تame على أربعه أجزاء معا، ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء لفaque الخلق إليها، و حجب واحدا منها و هو الاسم المكون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت، فالظاهر هو (الله، و تبارك، و سبحان) لكل اسم من هذه أربعه أركان فذلك اثنتي عشر

(١) رکنا

و سئل الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام -ما تفسير سبحان الله؟ قال:

«هو تعظيم جلال الله عز وجل، وتنزيهه عما قال فيه كل مشرك، فإذا قال العبد صلى عليه كل ملك» (٢) [١٨١]، كما للمؤمن علاقة بالله شعارها التسبيح، ومحتوها العبودية والطاعة، فإن له برسله علاقة أيضاً ولكن شعارها السلام، وواقعها الحب والاقتداء ضمن المسيره الواحده.

٣٠١:

١ - ١ ج/ج (٤) / ص (١٦٦).

٢-٢) المصادر/ج (٩٣)/ص (١٧٧).

وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَ وجود علاقه السلام بينك وبين المرسلين دليل على المسيره الواحده، و التوافق في الحياة، و قبل أن يسلم الإنسان على الرسل يجب أن ينطف قلبه ليرتفع إيمانه إلى هذا المقام العظيم، و الذى لا يظهر نفسه و عقله و سلوكه، و بالتالي يسير على خطى الأنبياء، فإنهم بريئون منه، لأنـه حينـذ يحاربـ فـكرـهـ المنـحرـفـ، و قـيـادـتـهـ بـطـاعـتـهـ لـلـطـاغـوتـ، و خـطـهـمـ بالـاتـنـاءـ إـلـىـ الخطـوطـ المـضـادـهـ لـرسـالـاتـ اللهـ.

[١٨٢] و إذا كانت انتلاقه الإنسان بالتسبيح الحقيقى لله، و مسيرته و حركته مستوحاه من رسالات الأنبياء، و التأسى بهم، فان العاقبه ستكون حسنـهـ، تدفعـ الإنسانـ نحوـ الشـكـرـ وـ الـحـمدـ عـلـىـ ماـ سـيـلـقـاهـ منـ هـدـىـ وـ بـرـكـهـ وـ جـنـانـ نـتـيـجـهـ ذـلـكـ، ذـلـكـ أـنـ نـهـاـيـهـ المـسـيرـهـ فـىـ سـبـيلـ اللهـ هـىـ الطـمـائـنـىـهـ وـ الرـضـىـ، وـ قـدـ أـشـارـ لـهـ تـعـالـىـ إـذـ قـالـ: وـ لـسـوـفـ يـعـطـيـكـ رـبـكـ فـتـرـضـىـ [١] وـ قـالـ أـيـضاـ: يـاـ أـيـثـرـهـ النـفـسـ الـمـطـمـئـنـهـ (وـ لـاـ تـطـمـئـنـ النـفـسـ إـلـاـ بـذـكـرـ اللهـ) إـرـجـعـىـ إـلـىـ رـبـكـ رـاضـيـهـ مـرـضـيـهـ [٢] وـ عـمـومـاـ فـانـ الـمـؤـمـنـ بـطـيـعـتـهـ الرـسـالـيـهـ يـكـونـ رـاضـيـاـ بـقـدـرـ اللهـ وـ قـضـائـهـ، اـيـمانـاـ مـنـهـ بـأـنـ مـاـ يـخـتـارـ لـهـ بـحـكـمـتـهـ أـصـلـحـ مـاـ يـتـطـلـعـ إـلـيـهـ، فـهـوـ يـحـمـدـهـ فـىـ الشـدـهـ وـ الرـخـاءـ.

وـ الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ وـ فـىـ هـذـهـ الآـيـهـ إـشـارـهـ إـلـىـ أـسـاسـ عـلـاقـهـ الإـنـسـانـ بـالـآـخـرـيـنـ مـنـ الـبـشـرـ، فـهـىـ لـاـ تـشـبـهـ عـلـاقـتـهـ مـعـ اللهـ وـ لـاـ مـعـ

وـ قـدـ وـرـدـتـ الرـوـاـيـاتـ مـؤـكـدـهـ عـلـىـ اـسـتـحـبـابـ قـرـاءـهـ هـذـهـ الـآـيـاتـ الـثـلـاثـ فـىـ نـهـاـيـهـ

ص: ٣٠٢

١ - (١) الضـحـىـ / (٥ـ).

٢ - (٢) الفـجـرـ / (٢٧ـ-٢٨ـ).

كل مجلس يجلسه العبد أو يتتحدث فيه.

عن الأصبغ بن نباته، عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله(ص) انه قال :

«من أراد أن يكتال بالمكial الأؤفى من الأجر يوم القيامه، فليكن آخر كلامه فى مجلسه: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » [\(١\)](#)

ص: ٣٠٣

١- (١) نور الثقلين / ج / ٤٤١ ص (٤٤).

ص صوره

اشاره

ص: ٣٠٥

فضل السوره:

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال :

من قرأ سوره «ص» في ليله الجمعة اعطى من خير الدنيا و الآخره ما لم يعط أحد من الناس إلا نبي مرسلا أو ملك مقرب، و ادخله الله الجنة و كل من أحب من أهل بيته، حتى خادمه الذي يخدمه، وإن لم يكن له في حده عياله ولا في حد من يشفع فيه تفسير نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤١

ص: ٣٠٧

الشرك بالله إطار لكلِّ الصلالات والجرائم، وكافَّه الذنوب والخطاء، وتكاد سور القرآن جميماً تعالج هذا الداء الذي هو جذر كلِّ داء، إلَّا أن عوامل الشرك عديدة، والمعالجات القرآنية مختلفة بحسبها.

وأننا نستلهم من خلال التدبر في دروس هذه السورة الكريمة (سورة ص) أنها تعالج الحاله الشركية التي تخلقها السلطة، والثروه، والشهره في نفس الإنسان فإذا به تأخذه العرَّة بالإثم، وينطلق في سبيل الشفاق عن الحق، وعباده آلهه القوه والغنى.

في افتتاحيه هذه السورة نقرأ: أن الذين تفرقوا في عزه وشقاق، وسرعان ما ينذرهم رب بمصير الذين أهلكهم من قبل، ويذكرنا بمحور ضلالتهم، حيث إنهم تعجبوا من حذف الآلهه، والأمر بعباده إله واحد، كما أنهم استهانوا بالرسول

انطلاقاً من مقاييسهم المادية.

و يعالج القرآن هذه الحاله ببيان حقاره ما يملكون(من قوه و من غنى)إذا قيس بملك السموات والأرض،و بخزائن رحمه الرب العزيز.

أما خاتمه السوره فتذكّرنا بقصّه إبليس الذي رفض السجود لأبينا آدم عليه السلام اعتزاً بعنصره الناري،و كيف أن هذه العرّة الآثمه كانت وراء هلاكه و هلاك تابعيه إلى يوم القيامه،حيث يحشرون في نار جهنّم حشرا.

و بين تلك الفاتحة و هذه الخاتمه يسرد السياق نمطين من القصص:

الأول:قصص المكذّبين الهالكين يشير إليها مجرد اشاره، بينما يفصل القول في النمط الثاني الذي وهب الله لهم الرب ملكاً واسعاً، و ثروه عريضه، و لكنهم لم يغتروا و لم يشاققو الله بها كداود و سليمان، ثم إبراهيم و اسحق و يعقوب، و يبيّن انهم فازوا بنعيم الدنيا و حسن ثواب الآخره، بالإضافة إلى الذكر الحسن عبر التاريخ، و في مقابل هؤلاء يذكّرنا السياق بمصير المكذّبين الذين اقحموا في نار جهنّم ليتخاصموا مع بعضهم، و بالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين.

و من خلال قصص الأنبياء و تقديرهم، و بيان الحكومات العادلة التي أقاموها في الأرض، و بالذات قوله-عز و جل- لـداود عليه السلام : ﴿يَا دَاؤْدٌ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ .

و من خلال بيان هلاك إبليس بسبب رفضه السجود للأدم على السلام ، و بيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكرين نستطيع-من خلال كل ذلك-أن نعرف أن مراد السوره بيان زيف السلطات القائمه على أساس القوه و الثروه، و سائر القيم الماديّه الأخرى، و ضروره إقامه حكومه العدل الإلهيّه القائمه على أساس أمر

الله و خلافته، وأنّ أساس الولايات الباطلة العزّه و الشقاق، بينما أساس الولايات الربانیه الحق.

ص: ٣١١

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١١ إلى ١٥]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الْذِكْرِ (١) بَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّهِ وَ شِقَاقِ (٢) كَمْ أَهْلَكَتَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَزْنِ فَنَادُوا وَ لَا تَ حِينَ مَنَاصِ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ (٤) أَجْعَلَ الْأَلْهَمَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٥) وَ إِنْطَلَقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَيَمْعُنَا بِهَذَا فِي الْمِلَلِ الْآخِرِهِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اِخْتِلَاقٌ (٧) أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الَّذِكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بِإِلْ هُمْ فِي شَكٍ مِنْ ذَكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عِذَابًا (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ حَزَائِنُ رَحْمَهِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمْ فَلَيَرَتُقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدُ مَنْ هُنَالِكَ مَهْزُومُ مِنَ الْأَخْزَابِ (١١) كَذَبَتْ قَبَلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَ ثَمُودٌ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَهُ أَوْلَئِكَ الْأَخْزَابُ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابٌ (١٤) وَ مَا يَنْظُرُ هُولَاءِ إِلَّا صَيْحَهُ وَاحِدَهُ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)

اللغة

(٢) [شقاق] مخالفه، مشتق من شق كأنه في شق و طرف و الخصم في شق و طرف آخر.

٣ ولات حين مناص: أصل لات لا، وإنما زيدت عليه التاء، بمعنى ليس، ومناص من النوص و هو التآخر، يقال ناص ينوص إذا تأخر، و المعنى ليس وقت ندائهم واستغاثتهم وقت التأخر العذاب و النجاه منه.

٧[اختلاف]: الكذب والافتراء الذى لا أساس له، فهو يخلقه و يصنعه بغير دليل.

١٣[أصحاب الأئكة]: و هم قوم شعيب، وقد كانت إلى جنهم أياكه، و هي الشجر المزدحم إلى بعضه والملتف على بعضه.

٣١٣: ص

هدى من الآيات:

من أهم العوامل التي تدعو الناس إلى الكفر بالرساله، ومحاربتها وبالتألي الانحراف عن الخط المستقيم، هو تقديس الواقع القائم أو ما يسمى بالتقليد، حيث يعتقد المجتمع بأن ما لم يكن لا ينبع أن يكون، فالواقع يجب أن يبقى، ويقوى هذا العامل أمران؛ الأول أنه واقع قائم بينما الرساله فكره جديده لما تتحول إلى واقع، والثانى أن بعضًا من أفراد المجتمع وخاصة الوجهاء وأصحاب المصالح، يدافعون عن الواقع القائم و يحاربون الرساله، لأنهم يخشون على مصالحهم من أي تبدل أو تحول.

و قد يكون عامل البقاء على الحال الراهن، نابعاً من اعتراض الإنسان المبالغ بواقعه والتتمثل في الإصرار والعناد الأعمى على المحافظة عليه، وهو ما يعبر عنه السياق القرآني مره بكلمه عزّه، ومره أخرى بما قاله الكفار لبعضهم إذ تأمروا على العناد والصبر على الباطل.

و لعلاج هذه الحاله ينبغي بيان الضعف للإنسان، و أن الذى يملكه الآن لا يعد شيئاً إذا قورن بما يغنمها لو تقبل الرساله و أصلح أوضاعه، و بالتالى دعوته إلى التغير نحو حياء أفضل. و هذا من أهم أساليب الأنبياء في التغيير، قال نوح عليه السلام و هو يشير الى أساليبه في الدعوه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا* يُؤْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِهْدَرًا* وَ يُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَنَّ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ حَذَّابٍ وَ يَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا (١)، و في موقع آخر من القرآن نجد تجل صريح لهذا الأمر أيضاً. يقول تعالى مشجعاً الناس على الإيمان برسالته: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَ لِكُنْ كَذَّبُوا فَأَخْمَدْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢)

بيانات من الآيات:

[١] ص حرف يفيد الابتداء به التنبيه، و هو يشير إلى القرآن الكريم، و من أبعاده أنه رمز بين الله و أوليائه فهم يختصمون بفهمه، و عن الصادق عليه السلام أنه من أسماء الله تعالى (٣)، و في خبر آخر(ص) اسم نهر ينبع من ركن العرش.

قال الإمام الكاظم عليه السلام: «إن أول صلاه صلاها رسول الله (ص) إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك و تعالى قدام عرشه جل جلاله، و ذلك أنه لما أسرى به و صار عند عرشه تبارك و تعالى قال: يا محمد ادن من صاد فاغسل مساجدك و طهرها و صل لربك، فدلي رسول الله (ص) إلى حيث أمره الله تبارك و تعالى فتوضى و أسبغ وضوءه». قلت (يعنى الرواى): جعلت فداك و ما صاد الذى أمر أن يغسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش، يقال له ماء الحيوان و هو ما قال

ص: ٣١٥

(١) نوح (١٠-١٢)

(٢) الأعراف ٩٦

(٣) رواه ابن عباس نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٢

الله عز و جل: ص و القُرْآنِ ذِي الذَّكْرِ^(١) ثم يقسم ربنا بالقرآن العظيم، مشيراً إلى أهم ما تشتمل عليه آياته الكريمه و هو الذكر.

و القُرْآنِ ذِي الذَّكْرِ وقد سمي الله كتبه فيه بالذكر عشرات مرات، و هنا يسميه «ذى الذكر» فما هو معنى الذكر؟ لقد خلق الله الإنسان مستقيما بفطرته، التي أودعها الإيمان بكلياته الكبرى، بالله و اليوم الآخر، و بضرورة الصدق و الوفاء و الامانة و... و لكن عوامل مختلفة من بينها ضغط الشهوات و المجتمع تدعوه إلى الانحراف. و يأتي القرآن ليذكره بما ينساه أو يغفل عنه بسبب تلك العوامل ليعود إلى رشده المتمثل في (الطريق المستقيم) الذي هو الحال الطبيعية للإنسان، على خلاف الانحراف الذي يجسد الشذوذ في الحياة. فالقرآن يستثير العقل من خلال التفكير، و فتّير البعض الآية بالذكر الطيب و السمعة الحسنة. و يبدو أن التفسير الأول أقرب.

[٢] و مع عظمته القرآن و قدرته الهائلة في التغيير و التأثير على الإنسان، لكن الكفار لا يتأثرون به، لأن التذكرة وحدها لا تنفع إذا كان جهاز استقبالها و هو العقل قد احتجب بالأهواء و الغباء الذي هو من أهم الحجب التي تمنع البشر من الانتفاع بالتذكرة، و تدعوه إلى الإصرار على الانحراف.

ص: ٣١٦

-١) المصدر.

بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّهِ وَشِقَاقٍ أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فَعَلَى الْحَقِّ، مِنْ هَنَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمَقْسُمَ بِهِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرًا وَالْقُرْآنُ ذَكَرَهُ «إِنَّكَ تَحْمِلُ لِلنَّاسِ ذِكْرًا»، وَيُدَلِّلُ عَلَى هَذَا الْحَذْفِ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي مِثْلِهِ مِنْ سُورَةِ يَسٌ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١) وَإِنَّمَا صَارَ الْحَذْفُ هُنَا لِدَلَالِهِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى الْمَحْذُوفِ الْمَقْسُمِ بِهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَبَيَّنُ الْعَالِمَ فِي رَفْضِ الْكَافِرِينَ لِلتَّذْكِرَهِ إِلَّا وَهُوَ الْعَزَّهُ وَالشِّقَاقُ، وَالْعَزَّهُ هُوَ تَصْوِيرُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ أَنَّهُ وَصَلَّى مِنَ الْقُوَّهِ وَالْمَنْعِهِ مَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الْحَقِّ، أَوْ إِلَى رَبِّهِ، فَيَقُولُ يَصْرُ عَلَى انْجِراْفِهِ بِلِ وَيَعْتَرُ بِالْخَطْلِ. يَقُولُ رَبِّنَا فِي آيَهِ كَرِيمَهُ: وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقِ
اللَّهُ أَخْدَتْهُ الْعِزَّهُ بِالْإِلَيْمِ فَحَشِّيْهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ (٢)، وَرَفْضُ هُؤُلَاءِ لِلْحَقِّ لَيْسَ نَابِعًا مِنْ قُوَّهِ الْمَنْطَقَ لِأَنَّهُمْ يَرْفَضُونَهُ بِدُونِ أَيِّ
مَبْرُرٍ مَعْقُولٍ، وَلَكِنَّهُ نَابِعٌ مِنْ مَنْطَقَ الْقُوَّهِ الَّتِي يَخْضُعُ لَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَإِنَّمَا لَمْ يَسْتَجِبْ كَفَّارُ قَرِيشٍ لِلرَّسُولِ اعْتَرَازًا بِقُوَّتِهِمْ. بِلِ إِنَّ
مِنْ أَعْقَدِ مَشَاكِلِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِفُ بِخَطْلِهِ حِينَ يَتَبَيَّنُ لَهُ الْحَقُّ غُرُورًا وَخُشُبَيْهِ بِأَنَّ يَجْلِبَ لَهُ ذَلِكَ الْمَهَانَهُ فَتَرَاهُ يَعْتَرِ بِبَاطِلِهِ
الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ.

أَمَا الشِّقَاقُ فَهُوَ الشَّذْوُذُ فِيمَعَ أَنَّ الْكَوْنَ كُلُّهُ قَائِمٌ عَلَى الْخُضُوعِ لِلَّهِ وَهُنَّ إِلَيْهِ بَرِّيَّةٌ وَهُنَّ
بِدُورِهِ لِمُشَيْئِهِ الرَّبِّ. تَرَى الْكُفَّارُ وَمَنْ يُلْتَقَى مَعَهُمْ مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَالْعُصَمَاءِ يَشْقَوْنَ عَصَمَ الطَّاعَهِ وَلَا يَنْسَجِمُونَ مَعَ الْحَقِّ الَّذِي تَقُومُ
عَلَيْهِ الْحَيَاَهُ.

[٣] وَالْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ يَجِدُ أَنَّ لَا يَضُعُفُ وَلَا يَشْكُكُ فِي خَطْلِهِ حِينَما يَرَى

ص: ٣١٧

(١،٢) يَسٌ (١،٢)

(٢) الْبَقْرَهُ .٢٠٦

الـغـلـبـيـهـ منـشـقـهـ عنـهـ،ـلـانـ المـقـيـاـسـ هوـ الـحـقـ وـ لـيـسـ النـاسـ.ـوـ لـوـ أـنـهـ درـسـ الـحـيـاهـ لـاـطـمـاـنـ إـلـىـ خـطـهـ،ـلـأـنـهـ حـيـئـذـ سـيـجـدـ الكـونـ بـمـاـ فـيهـ منـ خـلـقـ وـ سـنـنـ يـسـيرـاـنـ مـعـهـ،ـوـ كـذـلـكـ لوـ قـرـأـ التـارـيـخـ لـاـهـتـدـيـ إـلـىـ نـفـسـ الـحـقـيـقـهـ،ـوـ حـتـىـ الـمـجـامـعـ التـىـ يـعـاـصـرـهاـ سـوـفـ تـخـضـعـ لـلـهـ شـاءـتـ أـمـ أـبـتـ،ـوـ إـذـاـ لـمـ تـخـترـ ذـلـكـ عـنـ وـعـىـ وـ اـرـادـهـ حـرـهـ،ـفـسـوـفـ تـجـبـرـ عـلـيـهـ بـإـرـادـهـ اللـهـ وـ بـسـنـنـهـ التـىـ أـجـرـاـهـاـ عـلـىـ الـخـلـقـ أـجـمـعـينـ.

وـ لـكـىـ نـؤـمـنـ بـهـذـهـ الـحـقـيـقـهـ يـدـعـونـاـ رـبـنـاـ إـلـىـ النـظـرـ فـيـ التـارـيـخـ،ـفـهـوـ مـلـىـءـ بـالـشـوـاهـدـ الـدـامـغـهـ عـلـيـهـاـ،ـفـأـوـلـئـكـ الـذـيـنـ رـفـضـوـاـ رسـالـاتـ اللـهـ،ـوـ لـمـ يـخـضـعـوـلـهـاـ وـ لـرـسـلـهـ أـهـلـكـهـمـ وـ لـمـ تـغـنـ عـنـهـمـ قـوـتـهـمـ شـيـئـاـ.

كـمـ أـهـلـكـتـمـ مـنـ قـبـلـهـمـ مـنـ قـرـنـ الـقـرـنـ النـاسـ الـذـىـ يـعـيـشـونـ مـقـارـنـيـنـ مـعـ بـعـضـهـمـ زـمـانـاـ وـ مـكـانـاـ،ـوـ كـمـ أـدـاهـ اـسـتـفـهـاـمـ تـدـلـ هـنـاـ عـلـىـ الـكـثـرـهـ.ـوـ اللـهـ إـذـ اـدـخـلـ هـذـهـ الـادـاهـ فـيـ التـعـبـيرـ أـرـادـ أـنـ يـهـدـيـنـاـ إـلـىـ أـنـ هـذـهـ السـنـهـ لـمـ تـتـجـلـ مـرـهـ وـاحـدـهـ وـ حـسـبـ فـالـتـارـيـخـ كـلـهـ شـواـهـدـ عـلـيـهـاـ وـ كـانـتـ هـذـهـ السـنـهـ الـاـلـهـيـهـ جـديـرـهـ بـأـنـ تـعـظـ بـهـ الـأـمـمـ إـلـاـ أـنـهـاـ تـكـتـشـفـ خـطـأـهـاـ مـتـأـخـراـ حـينـ لـاـ تـنـفعـ التـوـبـهـ.

فـنـادـوـاـ وـ لـاتـ حـيـنـ مـنـاصـ قالـواـلـاتـ كـانـ فـيـ الأـصـلـ لـاـ(لنـفـيـ الـجـنـسـ أوـ الـمـشـبـهـ بـلـيـسـ)ـ ثـمـ أـضـبـفـتـ إـلـيـهـاـ التـاءـ لـتـأـكـيدـ النـفـيـ كـمـاـ تـضـافـ إـلـىـ ثـمـ وـ رـبـ لـذـاتـ الـغاـيـهـ.

وـ الـمـنـاـصـ الـمـنـجـاـ وـ الـغـوـثـ يـقـالـ نـاصـهـ يـنـوـصـهـ إـذـاـ أـغـاثـهـ.

هـكـذـاـ يـصـورـ الـقـرـآنـ وـضـعـهـمـ حـينـ يـنـادـونـ بـالـاسـتـغـاثـهـ وـ التـوـبـهـ وـ التـائـمـ وـ لـقـدـ أـطـلـقـ

القرآن لكي يذهب بنا الخيال إلى كل تلك المفردات لندائهم المياؤس.

و لكن ذهب وقت الفوت. أو ليست الفرصة قد فاتته إلى الأبد؟! و تلك عاقبته الاعتماد على القوه، و الاعتزاز بغير الحق، فهذه الأمم اعتمدت على منطق القوه في الحياة، و رفضت الخضوع إلى المنطق و الحق، و غفلت أن للحق قوه لا تحد هي قوه الله عز و جل، و قد أبى الله تشريعيا و تكوينيا أن ينتصر الباطل على الحق و أن تكون العاقبه إلا في صالح الرسالات و حملتها.

[٤] و للتلميل على عزه الكافرين و شقاوهم، و صدودهم عن الذكر و الموعظه، يحدثنا عن واقع المشركين و موقفهم من رساله الإسلام.

و عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ لَا نَهُمْ كَانُوا يَتَصَوَّرُونَ الرَّسُولَ يُخْلِفُ عَنِ النَّاسِ، فَكَفَرُوا بِهِ إِذَا لَمْ يَتَفَقَّ مَعَ مَقَايِيسِهِمُ التَّيْرِيدُ الرَّسُولُ قُوِيًّا وَ ذَا مَالٍ كَثِيرًا لَا أَنْ يَكُونُ مِنْ وَسْطِهِمُ الاجْتِمَاعِيُّ، وَ طبْقَتْهُمُ الْمَالِيَّةُ وَ هَذَا التَّصَوُّرُ نَاتِجٌ عَنِ اعْتِزاْزِهِمُ بِقَوْهِهِ وَ الْمَالِ لَا بِالْحَقِّ، فَهُمَا عِنْدَهُمُ القيمة الاساسية في الحياة. و لان منطقهم أضعف من أن ينال من قيم الرساله استشكلا على الرسول، ليس في أخلاقه فهو باعترافهم جميعا كان في الذروه، و لكن على وضعه المادى و الاجتماعى. و لم يكن هذا التبرير كافيا لرفضهم قيادته و زعامته فقد جاءهم بالحق و الآيات، و لا بد لهم من تبرير آخر ليتهربوا من المنطق الحق المتمثل في رسالته، فصاروا من العجب إلى الكفر.

و قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ وَ اخْتَارُوا كَلْمَهُ سَاحِرٌ لَأَنَّ السُّحُورَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ لِلْحَقِّ ظَاهِرًا، وَ إِنْ كَانَ وَاقِعًا

أبعدها، وكانت هذه التسمية للهروب من ضغط المعجزة.

و الواقع: إن ذات اتهام المشركين للرسالة بأنها سحر شاهد على صدقها، إذ انه دليل على أن الرسالة كانت ذات جاذبية تشبه في قوتها جاذبية السحر عندهم، كما أنها كانت خارقه ذات ايات عجزت قواهم البشرية عن الإتيان بمثلها، مما دعاهم للافتراء عليها بأنها سحر.

فإذا عرفنا مدى الفرق بين السحر والرسالة في أن الساحر لا يفلح، و أنه لا يبني حضاره، وأن كلامه لا يكون موافقاً للعقل والفتوره، بينما الرسول يعكس ذلك كله، عرفنا كيف كان اتهامه بالسحر دليلاً صدقه.

[٥] و يهدينا القرآن مره أخرى إلى شذوذ الكافرين (شقاقهم) و عزتهم، بالاشارة إلى اعترافاتهم على دعوه النبي التوحيدية، فمع أن الوحده حق يهتدى إليه الإنسان بفطرته و تتطلع إليه الأمم المتحضرة، لكنهم يرفضونها اعتراضاً باواقع التمزق القائم عندهم.

أَ جَعَلَ اللَّهُ إِلَهَهَا وَاحِدَةً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَ مِنَ الْآيَهِ نَسْتَوْحِي بِأَنَّ التَّوْحِيدَ لَيْسَ هَدَيَهُ لِلنَّاسِ لِلْحَقِّ وَ حَسْبٌ، بَلْ هُوَ الْعَالَجُ
الْحَقِيقِيُّ لِلْفَرَقَهِ، ذَلِكَ أَنْ مَنْشَا التَّفْرِقَهُ فِي أَيِّهِ أُمَّهُ هُوَ الشَّرِكُ الْكُلِّيُّ أَوِ الْجُزْئِيُّ فَهَذَا الْفَرِيقُ اِنْمَا يَنْشَقُ عَنِ الْبَقِيهِ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِفَكِرَهُ
وَ قِيادَهُ مَا فَالِرَايَاَتُ الْقَبْلِيَّهُ، وَ الْعَصَبِيَّاتُ الْعَشَائِرِيَّهُ، وَ الْحَدُودُ الْجَغْرَافِيَّهُ، وَ الْمَصَالِحُ الْقَومِيَّهُ، وَ الْاِخْتِلَافُ الْعَنْصَرِيُّ وَ الطَّائِفِيُّ، وَ مَا
أَشْبَهَ كُلَّ أُولَئِكَ عَوَامِلُ اِخْتِلَافِ النَّاسِ وَ شَقَاقِهِمْ، وَ إِذَا أَمَعَنْتُ النَّظَرَ رَأَيْتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُ يَنْتَهِي إِلَى تَقْدِيسِ شَيْءٍ مِنْ دُونِ
اللَّهِ، وَ اِنْمَا إِلَهُهُ رَمُوزُ تَلْكَ الْمَقْدَسَاتِ. أَرَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ يَقْدِسُونَ الْعِلْمَ الْوُطْنِيَّ يَعْبُدُونَ قَطْعَهُ قَمَاش

أم حدود الوطن؟ كذلك حين كان الجاهليون يعبدون الأصنام التي كانت ترمز إلى عصبياتهم العشائرية فانما كانوا يعبدون قيم العشيرة.

و هذا نستنتجه من التدبر في الآيتين (٢+٥) ففي الوقت الذي يذكر القرآن الشقاق في مجتمع الجاهليه في الآيه الثانية، يشير هنا إلى تعدد الآلهه فيه، و في نصوص التاريخ نجد أنه كان في الكعبه وحدها (٣٦٠) صنما لكل قبيله صنمتها المختص بها، و لكنه يجمع النبي الناس و يوحدهم طرح رسالته التوحيدية كبديل عن الأفكار الشركية، و كسر الأصنام لأنها كانت رمزا للتفرقه (الشقاق) و العزّه.

و لعل أحدنا يستنكر على الكفار و المشركيين رفضهم لتلك الرساله التوحيدية، و لكننا نجد اليوم و بعد (١٤) قرنا، أناساً يسخرون من يطرح في الساحه الاسلاميه - كسر الحدود المصطنعه التي أوجدها الاستعمار بيننا، و هي لا تعدو أن تكون بدائل عن الأصنام التي علقها الجاهليون في الكعبه و ليس رفض هكذا دعوه يأتي بسبب أن الرافضين لا يجدونها حقه، و انما لاعتراضهم بالواقع الفاسد، حيث تقوم دوله على كل قطعه أرض ويرتفع علم و يتسلط حاكم مغورو.

[٦] ولا شك أن أول من يسعى للإبقاء على الواقع القديم برموزه الصنميه هم أصحاب الوجهه الاجتماعيه، و الصداره السياسيه، و الثروات المسروقه لأنهم انما يستعبدون الناس، و يمتصون جهود المجتمع من خلال هذا الواقع الفاسد، فاي محاوله للتغيير تعنى تقويض مصالحهم و هكذا تراهم يهبون للدفاع عنه، و محاربه الفكر الجديد، بشتى الاساليب و من أبرزها اثاره العزّه بذلك الواقع.

و انطلقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ و هم المستكبرون في المجتمع، و الذين يقودون المعارضه و لا زالوا ضد الأنبياء

و الحركات التغييرية، و همهم الأكبر الإبقاء على التخلف فإذا بهم يدفعون عجلة بهذا الاتجاه.

أن امشوا و يوحون للناس بأن مسیرتهم تقدميه و صحیحه بالتضليل و التجھيل. و لكن لأن فطرة الإنسان تحالف الباطل، و لأن الباطل تقف ضده كل عناصر الوجود و سنته فان قبوله صعب نفسيا و عمليا على البشر، لهذا أكد الملا على ضرورة الصبر.

و اصْبِرُوا عَلَىٰ آثَارِكُمْ كما أن من أساليب الطغاء في جر الناس إلى معارضه المصلحين، أنهم يحاولون اقناعهم بأنهم يستهدفون مصالحهم و مقدساتهم، فإذا نهضت طلائع المجتمع للثورة، و قامت بعض الأعمال الجهادية قالوا للناس: «أن هذه الأعمال تستهدف السلطة و حدها إنما تستهدف أمن المواطن و استقراره أيضا، و بالتالي فمسئولي القضاء على المخربين (في زعمهم) هي مسئولية الجميع» و يؤكدون:

إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرِادُ و هناك تفسيرات عديدة لهذه الكلمة نذكرها تباعاً:

ألف: هو الذي يبدو أقربها أن الملا أرادوا من هذه الكلمة أن الاستمرار على عبادة الآلهة شيء مطلوب و حميد، اعتبروا بالباطل والإثم ذلك ان من سلبيات النفس البشرية أنه يصعب عليها فردا و أمه التراجع عن الخطأ حتى لو تبين له.

باء: أن الملا أرادوا بهذه الكلمة تشويه شخصيه الرسول(ص)، فكأنهم قالوا بأن هدفه من الرساله و الإنذار هو المنافع الشخصية التي يريدها لنفسه. و هذه من

طبعه الطغاء، أنهم يتهمون المصلحين بذلك.

جيم: أن هذا المقطع من الآية هو كلام الله سبحانه و هو رد على قول الكافرين في مقابل دعوه التوحيد «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ».

[٧] و يوصل السياق بيانه لأسباب الملاطفة في التضليل عن الحق.

مَا سَيِّمْنَا بِهِنَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخِرِهِ إِنَّ الشَّرِيعَةَ وَالْقَدِيسَيْهُ فِي نَظَرِهِمْ تَكُونُ لِلدعَوَهُ الَّتِي تَسْتَمِي إِلَى الْوَاقِعِ وَتَتَجَانِسُ مَعَهُ، لَا- التَّيْ تنطوي على الحق و العلم، و ما دامت الأجيال الغابرَه تنفي صحة هذا الفكر فهو خطأ إذن. و هذا ضرب من الرجعيَه لأن مجتمعا يعتمد هذه المقاييس لن يبدع و لن يتقدم خطوه إلى الإمام.

ثم حكموا على الرسالة الالهية بالباطل فقالوا:

إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَيْ جَدِيدَهُ الْحَدُوثُ مُتَقْطَعُهُ الْجَذُورُ عَنِ التَّارِيخِ، وَ دُعُوتَهُمْ هَذِهِ ضَدَ الدِّينِ خَطَأً مِنْ زَوَّيْتَيْنِ:

١- أنهم اعتمدوا في تقييمهم للرسالة على النظر الشيء لا المنطقية، فمن البديهي أن تكون النتيجة ضلالتهم! ٢- أنهم لم يبحثوا عن شرعية الرسالة و جذورها من خلال نظره شامله لتأريخ البشرية، ولو فعلوا ذلك لم يعتبروها احتلما، لأنها تلتقي مع (١٢٤٠٠) دعوه في التاريخ جاء بها الأنبياء و المرسلون منذ قبل، ولكنهم قيموها من واقع جيل واحد

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في نزول الآية قال:

أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا:

إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ آذَانَا وَ آذَى أَهْلَتَنَا فَادْعُهُ وَ مَرِهِ فَلَيَكُفَّ عَنْ أَهْلَتَنَا وَ نَكْفُ عَنْ أَهْلَتِنَا، قَالَ: فَبَعْثَتْ أَبُو طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَاهُ فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيَّ لَمْ يَرِفْ فِي الْبَيْتِ وَ لَا مُشْرِكًا، قَالَ: إِنَّ السَّلَامَ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ، ثُمَّ جَلَسَ فَخَبَرَهُ أَبُو طَالِبٍ بِمَا جَاءُوا لَهُ فَقَالَ: أَوْ هَلْ لَهُمْ فِي كَلْمَةٍ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ هَذَا يَسُودُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَ يَطْأَوْنَ أَعْنَاقَهُمْ؟ قَالَ: أَبُو جَهَلٍ: نَعَمْ وَ مَا هَذِهِ الْكَلْمَةُ؟ قَالَ: تَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم، و خرجوا هربا و هم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق، فأنزل الله في قولهم: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الدَّكْرِ إِلَى قَوْلِهِ إِلَّا اخْتِلَاقٌ^(١) [٨] ثم صرحو بما تنطوي عليه نفوسهم تجاه الحق، وقالوا لو أنزلت الرسالة علينا لآمنا بها فنحن أولى بالنبوة منه لأن عندنا المال و الرجال و الوجاهة، و نحن أصلح لقيادة المجتمع منه، و ليس من المعقول أن يتزل الذكر على هذا الفقير اليتيم و الضعيف، و أن نسلم لقيادته، و غاب عن ذهنهم أن الصفات المطلوبة في الرسول القائد ليست التي يتصورونها إنما القياده لصاحب العلم و التقوى و الأخلاق ثم أن الله هو الذي يعين الرسول لا الناس ولا الوجهاء.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْذِكْرُ مِنْ بَيْتِنَا وَ يَنْسِفُ اللَّهَ كُلَّ اعْذَارِهِمْ لِلْكُفُرِ بِالْحَقِّ مِنْ بَيْنِ الْأَسْبَابِ الْمُرْكَبِيَّهُ الدَّاعِيهِ إِلَيْهِ

ص: ٣٢٤

١- (١) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٢.

و هى:

الاول:أنهم لم يستفيدوا من ذكر الله،سواء الذى يتجلى فى كتابه،أو فى تاريخ القرون الماضيه،أو على لسان الآخرين.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي وَ الَّذِي يَشْكُّ فِي الْآخِرَه يَنْعَكِسُ شَكَّهُ عَلَى جَزِئِياتِ الإِيمَانِ وَ كُلِّيَّاتِهِ.

الثانى:عدم خوفهم من العذاب،لأنهم لم يتذوقوه،ولم يستفيدوا من تجربة الذين وقعوا فيه قبلهم.

بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابًا وَ يَسْتَفَادُونَ مِنْ (لَمَا) أَنْ عَذَابَهُمْ مُرْتَقٌ.

[١١-٩]والسبب الثالث:غرور المال و القوه اللذان أحاطا بهم،فصاروا ينظرون الى جميع الأمور من خلالهما،فإذا بهم لا يرون حاجه للرساله فى أنفسهم.ويحطم ربنا كبرياءهم هذا عن طريق مقارنه ما بحوزتهم بما عند الله من الملك و القوه.

أَمْ عِنْدَهُمْ حَزَائِنُ رَحْمَهِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَابِ كَلَّا... وَ مِنْ خَزَائِنِ اللَّهِ الرَّسُولَهُ الَّتِي يَتَرَلَّهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ.

ثم إن الذى عندهم مهدد بأن يلتبه الله بعزته،بل هو هبه من الله لهم وليس ملكا ذاتيا.ثم لندع مقاييسه ما يملكه هؤلاء بما عند الله،ولننظر ماذا يملكون من ظاهر الحياة الذى هو جزء ضئيل جدا من ملكه تعالى:

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا وَرَبُّنَا يَذْكُرُ هُؤُلَاءِ بِحَقِّهِ مَا يَمْلُكُونَ وَعَظَمَهُ مَا يَمْلُكُهُ اللَّهُ، لَأَنَّهُمْ -كَمَا تَقْدَمَتِ
الاِشَارَة- يَعْتَمِدُونَ عَلَى مِنْطَقَ الْقُوَّةِ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوضَعَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْغَالِبُ فِي قُوَّةِ الْمِنْطَقِ وَفِي مِنْطَقَ الْقُوَّةِ أَيْضًا.

إن هذا الإنسان الذي يتمالكه الغرور فيتحدى ربّه أضعف ما يكون عن تحمل أدنى تحدي فالسلطان المتكبر يقتله الله بجرثوم تعجز أحد الأجهزة عن اكتشافه، وقد يسلب منه كل ما يملك بين عشه وضحاها، وما يذكر في التاريخ أن الناس ثاروا على خليفه من الخلفاء العباسيين ففقئوا عينيه، وجردوه من ملابسه وصادروا كل ما تملكه من أموال المسلمين، حتى وقف يتسلّى على باب المسجد من الناس.

و ربنا من فوق عرشه يتحدى المتكبرين؛ يقول: أجمعوا قواكم المادية والبشرية والعلمية، وابحثوا عن كل سبب من أسباب القدر، فإن مصيركم لن يكون إلا ك المصير الأقوام السابقة، حيث كذبت الرسل وتحدى الحق فدمراها الله.

فَلَيَرْتَقُوا فِي الْأَسْيَابِ * بُجْنُدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَخْزَابِ فَمَهْمَا اعْتَمَدُوا عَلَى أَسْبَابِ الْقُوَّةِ (العدد والعده والخبره) فإن المؤسسات العسكرية تنهار بفعل الارادة الإلهية المباشرة أو المتجلية على أيدي المؤمنين. و جند مبدأ، و ما أداء للتقليل أراد بها الله تحقيـر قوتـهم، و هناـك إشارـه للـمكان البعـيد الـذـي قد يستـخدم لـتحـقيـر أـيـضاـ، فيـكونـ المعـنىـ كـقولـنـاـ أنـ هـنـاكـ جـنـداـ ماـ مـهـزـوـمـونـ منـ الـأـخـزـابـ، وـ فـيـ الـرـوـاـيـاتـ كـانـ الـمـقصـودـ فـيـ التـأـوـيـلـ مـنـ الـآـيـهـ هـمـ الـمـشـرـكـونـ فـيـ مـكـهـ وـ قـدـ تـحـزـبـواـ لـحـربـ الـإـسـلـامـ، فـبـشـرـ اللـهـ نـبـيـهـ بـهـزـيمـهـ وـ غـلـبـتـهـ عـلـيـهـمـ.

[١٢] و من أجل أن يستقيم الرسول في طريق الدعوه للحق، و يقاوم تحديات

الكافرين، يذكره بمعاناه الأنبياء مع الأقوام السابقة، وأن هؤلاء سوف يهزمون كما حدث لأولئك.

كَذَّبُتْ قَبْلَهُمْ فَنَكَذَّبُوهُمْ لِيُسْ جَدِيدًا، ثُمَّ يَذَّكَّرُ بِمُجْرِدِ الْإِشَارَةِ، مَجْمُوعُهُ مِنَ الْأَقْوَامِ:

فَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأُوتَادِ وَأَنَّمَا سُمِيَ فَرَعُونَ بِذِي الْأُوتَادِ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا غَضِبَ عَلَى أَحَدٍ وَتَدَ رِجْلَيْهِ وَيَدِيهِ وَرَأْسَهُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ فِي خَشْبَتَيْنِ مِنْ قَاطِعَتِيْنِ عَلَى شَكْلِ الصَّلِيبِ، أَوْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، وَقِيلَ أَنَّ سَبَبَ التَّسْمِيَّةِ كَثْرَهُ جُنُودُهُ وَجِيُوشُهُ السَّائِرَهُ فَكَانُوا إِذَا نَصَبُوا الْخِيَامَ فِي مَعْسَكَرَاتِهِمْ، وَأَشَاءَ اسْتِرَاحَتَهُمْ فِي الطَّرِيقِ صَارَتْ كَثِيرَهُ جَدَّا وَهَكَذَا أَوْتَادُهَا. (١)

[١٣] كُلُّ تَلَكَّ الْأَقْوَامَ كَذَّبُوا رَسُلَّهُمْ، وَأَيْضًا:

وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَهِ وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

أُولَئِكَ الْأَغْزَابُ فَأَيْنَ ذَهَبَ أُولَئِكَ سُوفَ يَذَّهَبُ هُؤُلَاءِ أَيْضًا.

[١٤] فَهُمْ أَحْزَابٌ يُخْتَلِفُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ فِي طَبِيعَهُ الْحَيَاةِ، وَالْمَكَانِ وَالْقُوَّهِ

ص: ٣٢٧

و الضعف و لكنهم يجمعهم أمران هما: التكذيب بالحق و الرسل، و العقاب الالهي الذى لحق بهم بسببه.

إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُولَ فَحَقٌّ عِقَابٌ و قد تكون هذه الآيات تمثيل للحقيقة التى طرحتها الآية(٣) عن هلاك القرون السابقة.

[١٥] أو الدمار الذى لحق بتلك الأقوام لم يكن أمرا طارئا، إنما ينسجم مع الحق الحاكم فى الحياة، و التمثل فى إراده الله و السنن التى وضعها فى الكون. و الحق هو الحق، و الحياة هي هي بأساسياتها، فلن يشذ عن هذه النتيجه كل من يمشى فى ركاب المكذبين و خطفهم فى أى زمان و مكان.

و مَا يَنْظُرُ هُؤُلَاءِ سواء كفار قريش أو طواغيت اليوم الذين يتحكمون فى مصائر الشعوب، و يحاربون الله و الإسلام ما يتضرر هؤلاء جميعا؛ إِلَّا صَيْخَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ و ليس بالضروره أن تكون الصيحه من جبرائيل أو أحد الملائكه الغلاظ عليهم السلام، بل قد تكون الصيحه رصاصه يطلقها المجاهدون على المستكبرين، و قد تكون ثوره شعبيه جذريه تأكل الأخضر و اليابس من كيانهم.

و فوائق بمعنى الرجوع، و منه فوائق الناقه إذا رجع لبنيها الى الضرع بين الحلبتين، و افاقه المريض من المرض إذا رجع الى صحته، و هؤلاء حينما ينزل بهم العذاب لا تقبل رجعتهم للحق. و هذه الكلمه نجد تفسيرها فى قوله تعالى فى الآيه الثالثه

«وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

إذن فاعتماد الإنسان على قوه المال و الجند و اعتزازه بهما فى مقابل الحق أمر خطير يجره الى الهلاك، بشذوذه عن الحق فى الحياة.

ص: ٣٢٩

اشاره

وَقَالُوا رَبّنَا عَجَلْ لَنَا قِطَنًا فَبَلَ يَوْمَ الْحِسَابِ (١٦) إِصْرِ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأُذْكُرْ عَبْدَنَا دَاؤَدَا أَلَّا يُدِ إِنَّهُ أَوَّبُ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِلَانَ
مَعَهُ يُسَبِّحْ بِالْعَشِيٍّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالْطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّبُ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَهُ وَفَصَلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَ
هِيلْ أَتَاكَ تَبَأْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاؤَدَ فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخْفَ خَصِيهِ مَاهِ بَغْيَ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فَاصْحَكْ يَئِنَّنَ بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَإِهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَنْجَى لَهُ تِسْعَ وَتِسْعُونَ نَعْجَهُ وَلَهُ نَعْجَهُ وَاحِدَهُ فَقَالَ
أَكْفُلْنِيهِمَا وَعَزَّزَنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالُ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعْاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُطَاطِ لَيَعْنِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلُ مَا هُنْ وَظَنَ دَاؤَدَ أَنَّمَا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَأِكَعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ
لَهُ عِنْدِنَا لَزْلُفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَمْ دَاؤَدِ إِذَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَهُ فِي الْأَرْضِ فَاصْحَكْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَسْتَعِي الْهُوَى فَيَضِّهِ لَكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضْلُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)

هدى من الآيات:

إن فتنه القوه فى الحياه فتنه كيده و خطيره، و من تخلص من غرورها فانه يتغلب على سائر الفتن بصورة أسهله، ذلك أن الإنسان يقتحم الصعاب و يركب الأهوال و المخاطر من أجل السلطة، فإذا تنازل عنها أو بلغها و لم يسخرها إلا في سبيل الخير، فإنه آنذاك ينتصر على أهوائه، و على الضغوط التي تحيط به.

و في الوقت الذي حدثنا هذه السورة عن صرعتهم هذه الفتنة، فراحوا يعتزون بقوتهم و يتحدون ربهم و يعتزون بالهتهم التي تمثل رموز سلطتهم، و يخالفون ولاية الله باسمها و هم الملائكة الكفار، يضرب لنا هذا الدرس القرآني مثلا حيا من واقع داود عليه السلام الذي تجاوز هذه الفتنة. بالرغم من أنه امتلك القوه الظاهريه في الأرض، كما سخرت له الطيور و الجبال و الحديد، إلا أنه لم يغتر بقوته بل صار يتقرب إلى الله اللحظه بعد اللحظه من خلال تسبيحه المستمر و آنذ جعله الله خليفه في الأرض

تشريعياً وواقعياً.

و نستوحى من إعطاء الله السلطة و ولاته الأمر لبيه داود عليه السلام بعد استقامته على الحق، أنه تعالى لا يعطي ولايته إلى كل سلطان، إنما للذين يمتلكون ناصيحة الملك و لا تمتلكهم.

بيانات من الآيات:

اشاره

[١٦] عاده ما يستعجل الكفار عذاب الله، و يتخدون الأنبياء قائلين: إذا كانت دعواتكم صادقة فاسأموا ربكم أن يصب علينا العذاب. و السياق القرآني في هذه السورة يترك الإجابة على تحدي الكافرين، و يوجهنا إلى دراسة التاريخ، لأنه تعالى أجرى الحياة وفق سنن حدها و اختارها بعلمه و حكمته، و لن يغير الله سننه كلما تحداها الجاهلون فهو يدير شؤون الخليفة حسب الحكمة لا حسب ردود الفعل تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً، بل قد يغير الله سنه ما في ظروف خاصة لأن ربنا لا يعجزه شيء و أمره فوق السنن والقوانين، و لكنه مع ذلك يتصرف بعلم و حكمه.

وَ قَالُوا رَبُّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ وَ القُطُّ الْحَظُّ وَ النَّصِيبُ فَهُؤُلَاءِ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَوْفِيهِمْ بِمَا يَسْتَحْقُونَ مِنَ الْعَذَابِ لَكِ يَكْتَشِفُوا أَنَّهُمْ فَعَلُوا عَلَى الْبَاطِلِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِهَذِهِ الدُّعَوَاتِ دَائِمًا وَ ذَلِكَ لِأَمْرِهِ:

الاول: أنه عز و جل رحيم بعباده، فلو قادهم الجهل يوماً إلى الكفر و التحدى لا يأخذهم بالعذاب، و ذلك أن الإنسان قد يجهل حينما ثم يكتشف خطأه و يعود إلى ربه.

الثاني: لأن ذلك يخالف حكمه الحياه، فالله خلقها للامتحان و ذلك يقتضي أن لا يكون العذاب مباشره بعد الذنب، ولو فعل الله ذلك لما عصاه أحد، ولكن الطاعه التي يريدها الله هي التي تكون بدافع المعرفه به، والخوف من مستقبل المعصيه، والتطلع الى نتائج الطاعه. يقول تعالى: وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١) و قال: وَلَوْ يُؤَاخِذَنَّ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مِمَّا تَرَكُ عَلَيْهِمَا مِنْ ذَبَابٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَيَّبٍ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٢)

قال الامام الصادق عليه السلام :

«لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، التفت فرأى رجلاً يزني، فدعاه عليه فمات، ثم رأى آخر فدعاه عليه فمات، ثم رأى ثالثه فدعاه عليهم فماتوا، فأوحى الله إليه يا إبراهيم إن دعوتك مستجابه فلا تدع على عبادي، فانى لو شئت لم أخلقهم، إنى خلقت خلقي على ثلاثة أصناف، صنف يعبدنى لا يشرك بي شيئاً فأتباه، و صنف يعبد غيرى فليس يفوتنى، و صنف يعبد غيرى فأخرج من صلبه من يعبدنى» (٣) الثالث:لكى تتم الحجه على الناس،فهم مع الفرشه التى يمنحها رب لهم فى الدنيا يسألونه الرجعه بعد الموت ليستأنفوا العمل قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونَ لَعَلَىٰ أَعْمَلٍ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ (٤) و قال بعض المفسرين: أنَّ معنى قط النصيب و انهم أرادوا نصيبيهم من الجنه

ص: ٣٣٤

١-١ (٩٩) يونس

٢-٢ (٦١) النحل

٣-٣ (٧٣٢) نور الثقلين ج ١ ص ٧٣٢

٤-٤ (٩٩، ١٠٠) المؤمنون.

(لا من العذاب) استهزاء و سخريه و انهم كذبوا بذلك بثالث الأصول الدينية (المعاد) بعد أن كذبوا بأولها (التوحيد) عند ما قالوا: «أَ جَعَلَ الْآلهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا»، و كذبوا بالثانية (النبوة) عند ما قالوا: «أَ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ يَنْبَنَا».

و سواء هذا أو ذاك، فإن الله لم يستجب لأهوائهم، بل ضرب مثلاً من واقع داود الذي عجل الله له جزاءه في الدنيا (و قطه) دون أن ينقص من أجره في الآخرة شيء.

[١٧] و هكذا ينبغي للرساليين أن لا يهتموا بكلام من هذا النوع، وإن كان ذلك صعباً بالذات إذا كان يمس ب المقدساتهم، لهذا يوصى الله نبيه بالصبر.

إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ثُمَّ يوجها السياق إلى مثل من التاريخ، وبالتحديد من حياة داود عليه السلام ينافق غرور هؤلاء الكافرين بالسلطة و الذي جرّهم لتحدي الله عزّ و جل.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوِدَ ذَا الْأَيْدِيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ وَ حِينَ يَذْكُرُ النَّبِيُّ أَخْوَتَهُ السَّابِقِيْنَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يَسْتَأْنِسُ بِهِمْ وَ بَصَبِرُهُمْ فِي الْضَّرَاءِ وَ السَّرَّاءِ، وَ بِتَعْالَيْهِمْ عَلَىٰ مَؤْثِرَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ حِينَ يَذْكُرُ النَّبِيُّ لَنَا صَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَ ذَكَرَهُمْ وَ اتَّهَمَ الْأَوَّابِيْنَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ حَتَّىٰ عِنْدَ مَا تَزَدَّحُمُ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ زَخَارِفُ الدُّنْيَا، فَانْهُ يَسْنُ أَمَامَنَا سَنَهُ سَالِكَهُ، وَ طَرِيقًا مَعْبُدًا عَلَيْنَا الْإِسْتِقَامَهُ عَلَيْهِ، وَ الصَّبَرُ عَلَىٰ كُلِّ أَذَىٰ فِيهِ.

دعنا إذا ذكر داود، فهو القوى ذو الأيدي، و اليدي: القوه، و داود يملك أسباب القوه و عواملها فهو قوى من جده عبر عنه القرآن بذى الأيدي، و اليدي كنایه عن القوه

و القدره، و هو من جهه أخرى مؤمن و علامه ايمانه التوبه و من الصعب على البشر أن يجمع بين هاتين الصفتين، لأن صاحب القوه عاده ما تستهويه زخارف الحياه و يركض وراءها، حتى و لو خالفت الحق.

و كما يحتاج المؤمن للقوه حتى ينفذ خططه في الحياه و يبلغ أهدافه و تطلعاته، فإنه يحتاج إلى الإيمان، و ذلك لكي يعود تائبا إلى ربّه بداع الإيمان كلما جرته القوه إلى ساحل الغرور و المعصيه.

[١٨-١٩] و تحدثنا الآيات عن جانب من القوه التي بلغها داود في حكمه، فقد أخضع له الحياه بشقيها الجامد و المتحرك، و هكذا تخضع الحياه الى كل من يتبع الحق، لأنه بالإضافة الى قوه الغيب التي تعينه حينذاك، يهتدى به الى الأسباب و القوانين التي يمكنه تسخيرها، فلقد سقطت الحجب بينه وبين حقائق الخليقه، فإذا بها تستجيب له.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشَّيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِصُورِهِ مُسْتَمِرٌ، وَ لَكُنْ لَا نَفْقَهَ تَسْبِيحَهُ كَمَا يَقُولُ تَعَالَى:
تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لِكُنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا
(١) و قد جعل الله الجبال تسبح عند ما يسبح داود عليه السلام و لعلنا نستوحى من الآيه أنه أعطى الطاقات الموجوده فيها، كالاحجار الكريمه و الوقود.

وَ الظَّفَيرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَابٌ يُعْنِي مجموعه له يستفيد منها كيما يشاء. و ربما كان الإنسان قد يتساءل عن سمع بهذه الآيات، أما و قد تقدمت البشرية في العلم، فهى تعتمد الآن الجبال فى

ص: ٣٣٦

كثير من الشؤون، كما أن هناك محاولات نجح الكثير منها للاستفادة من الطيور في مجالات الحياة المختلفة، و توجد الآن تجارب جادة للاستعانة بها في الشؤون الطبيعية والعسكرية، و من قصه سليمان التي مررت في سورة سباء يتبين أنه كان عليه السلام يبعثها للاستكشاف.

[٢٠] و بالإضافة إلى هذه القوى المادية والامكانات التي تدخل كعنصر فعال في سيطرة داود و سلطانه، كان الله يزيده قوه و تمكنا يوما بعد يوم، ولو كان ظالما لما زاده مرور الأيام إلا ضعفا و هنا.

و شدّدنا ملوكه بمختلف أسباب القوه هذا من الناحيه الماديه. أما من الناحيه التشريعيه و الاداريه فقد أعطى ما يقوى حكمه و سلطانه أيضا. قال تعالى:

و آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصَّلَ الْخِطَابَ وَ الْحَكْمَه تعنى أن يحيط الإنسان علما بالخلقه و بنفسه و يعرف: كيف يتصرف فيها تصرفا سليما. أما فصل الخطاب فهو الكلام الذي يفهم الطرف الآخر الحقيقه بما يقطع دابر الشك، و يزيل حجاب الجهل فداود عليه السلام إذا يصيب الحق بحكمه و يبينه أفضل البيان بخطابه، و هذان الأمران من أهم ما يلزم المدير المسؤول سواء في موقع خطير كالولايه، أو أقل من ذلك كالاسره و المؤسسه و التنظيم.

و النصوص الاسلاميه تؤكد على ضروره اختيار الأسلوب الأنسب كما تؤكد على المحتوى يقول تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و المؤ荑ه الحسنة [\(١\)](#)

ص: ٣٣٧

[٢١] و يعود بنا السياق ليضرب لنا مثلاً من حياد داود عليه السلام تتجسد فيه أوبته إلى الله عزّ و جلّ، و ذلك في قصه حدثت له. فينما كان قائماً يصلى في محرابه إذ اقتحم الجدار عليه شخصان، و لم يأتياه من الطريق الطبيعي و هو الباب.

وَهِلْ أَتَاكَ تَبَأْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ وَصِيغَهُ السُّؤَالْ هُنَا تَسْتَشِيرُ فِي الإِنْسَانِ حُبُّ الْإِطْلَاعِ وَتَشَدُّ مُسَامِعَهُ لِلسَّائِلِ حِيثُ يَسْتَفْهِمُهُ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُهُ لَا سِيمَا وَالْمَسْؤُلُ عَنْهَا قَصْهُ طَرِيفَهُ هِيَ التَّسْلُقُ عَلَى سُورِ الْمِحْرَابِ، بِهَدْفِ التَّقَاضِيِّ عِنْدِ صَاحِبِهِ فَهُلْ سَمِعْتُ أَعْجَبَ نَبَأَ مِنْهَا؟ [٢٢] وَتَتَصَلُّ فَصُولُ الْقَصْهِ بِعَضُّهَا فِي أَسْلُوبِ مَعْجَزٍ مِنَ التَّعْبِيرِ وَالْعَرْضِ، وَتَسْلُطُ الْآيَاتِ الْضَّوِئَةِ عَلَى النَّقَاطِ وَالْمَوَاقِفِ الْهَامِهِ مِنْهَا، وَالَّتِي تَنْجَسِمُ مَعَ اهْدَافِ وَقَوْعَهَا فِي هَذَا السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ، حِيثُ الْحَدِيثُ عَنِ السُّلْطَهِ وَعَنِ الْمَلْكِ الْأَوَّلِ.

بالطبع لما دخل هذان الخصميان على داود، وبهذه الطريقة أخذته الخشيه.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاؤِدَ فَفَرَعَ مِنْهُمْ لِمَا ذَرَعَ دَاؤِدُ مَعَهُ خَوْفَ النَّاسِ لَيْسَ مَنْاسِباً لِلْأَثْبَاءِ؟ رَبِّمَا أَرَادَ رَبُّنَا أَنْ يَذَكِّرَ هَذِهِ النَّقْطَهِ فِي مَقَابِلِ بِيَانِهِ لِسُعْهِ مَلَكِ دَاؤِدَ لِيَقُولَ لِلْبَشَرِ مِمَّا بَلَغْتُمُ مِنَ الْقَدْرِهِ فَأَنْتُمْ بِالْتَّالِي بَشَرٌ وَلَنْ تَصْبِحُوا آلَهُ وَالْبَشَرُ بِطَبِيعَتِهِ يَخَافُونَ وَيَجْهَلُونَ... فَلَمَّا ذَا يَغْتَرُ الإِنْسَانُ إِذْنَ، وَيَعْتَزُ بِمَا يَمْلِكُ؟ فَهَذَا دَاؤِدُ الْمَلَكُ الْمَسْخُرُ لِهِ الطَّيْورُ وَالْجَبَالُ، وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ عِنْدَ رَبِّهِ يَفْرَعُ حِينَ يَتَسُورُ عَلَيْهِ الْمِحْرَابُ رِجْلَانِ.

إن داود عليه السلام أوجس خيفه في نفسه و لعله ظهرت على ملامحه علائم الخوف والوجل.

قالوا لا تَحْفُّ و عرضاً على أمرهم قالوا:

خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ أَى جَارٍ وَ اعْتَدَى.

فَأَخْكُمْ بَيْتَنَا أَرَادَا مِنْهُ أَنْ يَقْضِي بَيْنَهُمَا، وَ لَكُنْهُمَا اشْتَرَطَا أَنْ يَكُونَ حَكْمَهُ:

بِالْحَقِّ وَ أَضَافُوا شَرْطًا آخَرَ فَقَالُوا:

وَ لَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْصِّرَاطِ فليست المهم أن يقضى الحاكم بالحق وحسب، إنما لا بد أن يكون وصوله إلى الحق بطريق سليم، لأن يعتمد على الأصول الشرعية لاستنتاج الحكم، حتى يهدى المتخاصمين للحق أولاً، و ليخرجوا من عنده راضين مقتنين بالقضاء ثانياً.

[٢٣] وبعد أن أكملوا عرض جمله شروطهم، بدأ صاحب النعجة الواحدة يعرض الموضوع على داود عليه السلام انتظاراً للحكم وفقها. قال:

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلَى نَعْجَةً وَاحِدَةً^(١) وَرِبَّا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَمَّهَا مَائَهُ، أَوْ لِأَنَّهَا أَنْشَى فَأَرَادَ أَنْ تَلِدَ لَهُ.

فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا أَضْمَهَا إِلَى نَعَاجِي وَأَتَحْمَلُ مَسْؤُلِيَّتَهَا، وَاسْتِمَالُ قَلْبِي بِحَدِيثِهِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الْمَدْحُ وَالْإِطْرَاءِ.

وَعَزَّزَنِي فِي الْخِطَابِ أَى غَلْبَنِي بِحَجَّجِهِ وَحِيلَهِ فَقَبِلتُ ذَلِكَ.

[٢٤] وَبَعْدَ أَنْ انْهَى الْمَدْعُى كَلَامَهُ بَادِرَ دَاؤُدُّ وَأَصْدَرَ الْحُكْمَ ضِدَّ الْطَّرْفِ الثَّانِي، مِنْ دُونِ الْاسْتِمَاعِ إِلَى دَافِعِهِ وَدُونِ أَنْ يَطْلَبَ بِالْبَيِّنَاتِ.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِنَتِكَ إِلَى نَعَاجِي وَمَضِي السِّيَاقِ يَسْتَوْحِي عَبْرَهُ جَانِيَّهُ لِلْقَصْهِ مَتَمَثِّلَهُ فِي خَطْرِ الشَّرَاكِهِ بَيْنَ الْأَطْرَافِ، وَأَنَّ الْضَّمَانَ الْوَحِيدَ لِتَجْنِبِ هَذَا الْخَطْرِ هُوَ الْإِيمَانُ.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُطَاطِإِ لَيَغِيَ بَغْضُهُمْ عَلَى بَغْضٍ وَيَسْتَشْتَى مِنْ قَاعِدَهُ الظُّلْمُ وَالْاعْتِدَاءُ الَّتِي هِيَ دِيَنُ أَكْثَرِيَّهُ الشَّرِكَاءِ:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَالَّذِي يَدْفَعُ أَوْلَئِكَ لِلْاعْتِدَاءِ هِيَ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَهْوَاتُهُمُ، الْمَتَمَثِّلَهُ فِي مَجْمُوعَهِ مِنْ

ص: ٣٤٠

١ - (١) وَالْنَعْجَهُ هِيَ أَنْشَى الْضَّأْنُ وَالنَوَاعِجُ مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضَاوَاتِ، وَقَدْ أَوْرَدَنَا الشَّطَرُ الثَّانِي مِنَ التَّعْرِيفِ لِاتِّصَالِهِ بِتَفْسِيرِ لَهُذِهِ الْآيَهِ يَتَبَناَهُ الْبَعْضُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

الصفات السلبية، كالحسد و الطمع، و حب الدنيا.و...و..أما المؤمنون فإنهم يتغلبون على كل ذلك بالإيمان الذى يحصنهم، وبالعمل الصالح الذى يثبت الإيمان و يعودهم على فعل الخير.و لكن القليل هم المؤمنون الذين يصرعون شهواتهم.

معنى الفتنة:

وبهذا الاستطراد أنهى داود عليه السلام القضية لصالح صاحب النعجه الواحدة، أما بقيه الآية فهو اضافه من عند الله عز و جل تتضمن نقدا لتصرفه عليه السلام و بيانا للخطأ الذى بدر منه و أخيرا موقفه من مو عظه الله له.

و ظَنَ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَاهُ مَاذَا كَانَتْ فِتْنَةُ اللَّهِ لِدَاوُدَ الَّتِي أَنْبَهَ إِلَيْهَا وَ تَصْوِرُهَا فُورًا، إِذَا نَجَّتْ فِي صُورَهُ نَزَاعٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَانَا فِي الْوَاقِعِ مُلْكِيْنِ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ خَلَالِ قَضِيَّتِهِمَا طَرِيقَهُ الْقَضَاءِ لِدَاوُدَ؟ فِي هَذِهِ الْآيَهِ قَوْلَانِ:

الاول:أن الذين تسورووا هم الملائكة و كان الهدف امتحان داود عليه السلام فهو لم يعرف بأنهم ملائكة،ثم إنهم لم يريدوا من سوالاتهم هذه أن يحكم لهم داود في الناج بالمعنى الظاهر و المتعارف لأنهم أساسا لا يمكنون نعاجا،ولم تحدث لهم قضيه من هذا النوع،انما أرادوا صرفه الى قضيه اجتماعيه و لكنه لم يتوجه الى مقصدهم في البدايه،ثم أدرك ذلك فتاب الى ربّه توبه نصوها.

و القضية الاجتماعية هي أنه كانت لديه(٩٩) امرأة بين حّرّه و أمه،فعشق

زوجه جميله لرجل من بنى إسرائيل يقال له (أوريما) فأراد أن يتزوجها لتم له مائه زوجه، فقدمه في أحد الحرب ليقتل و يتم له الأمر فقتل، و تزوجها داود. فأرادت الملائكة أن تبين له خطأه هذا.

في الروايه: فكتب داود عليه السلام الى صاحبه الذى بعثه أن ضع التابوت بينك و بين عدوك، و قدم أوريما بن حيان بين يدي التابوت فقدمه و قتل، فلما قتل أوريما دخل عليه المملكه و قعدا و لم يكن تزوج امرأه أوريما و كانت فى عدتها، و داود فى محاربته يوم عبادته، فدخل المملكه من سقف البيت و قعدا بين يديه، ففزع داود منها ف قال: «لا تخفْ خَصِيْه مَانِ بَغَىْ بَعْضُنَا عَلَىْ بَعْضٍ فَمَا حَكْمُنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطُ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْصِّرَاطِ» و لداود حينئذ تسعه و تسعون امرأه ما بين مهيره الى جاريه، فقال أحدهما لداود: «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعُ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لَيْ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنَاهَا وَ عَزَّزْنَى فِي الْخِطَابِ» أى ظلمنى و قهرنى فقال داود كما حكى الله عز وجل: «لَقَدْ ظَلَمْتَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى بَعَاجِهِ» الى قوله: «وَ خَرَّ رَأِكِعًا وَ أَنَابَ» قال: فضحك المستعدى عليه من الملائكة و قال:

حكم الرجل على نفسه؟ فقال داود: أتضحك و قد عصيت؟ لقد همت أن أهشم فاك قال: فعرجا و قال الملك المستعدى عليه: لو علم داود انه أحق أن يهشم فاه مني؟ ففهم داود الأمر و ذكر الخطيبه فبقى أربعين يوما ساجدا يبكي ليله و نهاره و لا يقوم إلا وقت الصلاه حتى انخرق جيشه و سال الدم من عينيه (١) و هكذا نجد الملوك يفتشون عن هذه الثقافه عند ادعية الدين لينشروها، و يبرءوا أنفسهم من الظلامات التي يرتكبونها.

و قد نقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير انه حضر في بعض المجالس، و حضر فيه بعض أكابر الملوك، و كان يريد أن يتعرض لتقرير ذلك القول الفاسد و القصه الخبيثه لسبب اقتضى ذلك، و يمضى الفخر الرازي في بيان فساد هذا الرأى و إسكات

ص: ٣٤٢

(١) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٩.

ذلك الملك.

و هذا القول مردود عليه في أكثر الروايات نظراً لمتنه الذي يمس بكرامه الأنبياء و تقواهم

فعن الشيخ الصدوق رحمه الله، بسانده إلى أبي عبد الله عليه السلام ، أنه قال لعلمه:

«إن رضا الناس لا يملك و أسلتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة (أوريما) فهوهاها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها» [\(١\)](#)

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :

«لا أؤتي برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريما إلا جلدته حدين، حدا للنبيه و حدا للإسلام» [\(٢\)](#) و نجد هذا الرأي مكتوباً في التوراه الموجودة في أيدي الناس، وهذا دليل على أنها محرفة، و إلاـ كيف تنسب إلى حاكم بل نبى من أنبياء الله هذه التهمة الرخيصة، وهو يؤتمن على رساله الله و عباده؟ و الأشكال في الأمر أن هذا الرأي تسرب إلى كثير من تفاسيرنا، و حينما نقتبس أفكارنا في تفسير القرآن من التوراه المحرفة، و ننسب للأنبياء هذا الظلم و الانحراف، بل هذا الشذوذ، عندها لا نرى ضيراً إذا حكمنا رجل كالمتوكل العباسى، أو معاویه ابن أبي سفيان و ولده يزيد، لأنه إذا كانت ثقافتنا مشوبه بهذه الأفكار الباطلة، فإنها سوف تدعونا لاتباع السلاطين و الملوك الظلمة على أنهم خلفاء لله

ص: ٣٤٣

١-١) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٦.

٢-٢) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٤٦ نقاً عن المجمع.

الثاني: الفتنة التي تعرض لها داود، هو مبادرته لاصدار الحكم من دون سؤال صاحب النعجة الواحدة عن البيه، و لا الاستماع الى رأى المدعي عليه، إذ لا يجوز للقاضى-من الناحية الشرعية و المنطقية-أن يصدر حكما فى قضيه ما قبل التحقيق فيها، و النظر فى سائر الحيثيات التى تتصل بها.

يقول الامام الرضا عليه السلام بعد أن ضرب يده على جبهته، و هو يرد على الرأى الأول و يبين الرأى الثانى: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» لقد نسبتم نبيا من أنبياء الله عليهم السلام الى التهاون بصلوته، حتى خرج فى أثر الطير، ثم بالفاحشه ثم بالقتل؟ فقال: يا ابن رسول الله فما كانت خططيته؟ و يحكى ان داود عليه السلام ائمه ظن انه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه، فبعث الله عز وجل اليه الملائكة فسورة المحارب فقال: «خَصِّيْمَانِ بَغْيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعُ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لَيْ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفِلْنِيهِمَا وَ عَزَّزْنِي فِي الْخِطَابِ» فعجل داود عليه السلام على المدعي عليه، فقال: «لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالٌ نَعْجَجِكَ إِلَى بِتَاجِهِ» و لم يسئل المدعي البيه على ذلك و لم يقبل على المدعي عليه، فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خططيه رسم الحكم لا ما ذهبتم اليه ألا تسمع الله عز وجل يقول: «يَا دَاؤْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيِهِ» فقال (أى الراوى):

يا ابن رسول الله فما قصته مع أوريا؟ قال الرضا عليه السلام: إن المرءه فى أيام داود عليه السلام كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتروجه بعده أبدا، فأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بأمرأه قتل بعلها داود عليه السلام، فتزوج بأمرأه أوريا لـما قتل و انقضت عدتها فذلك الذى شق على الناس من قبل أوريا (١)

فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنابَ إِنَّهُ لَمْ يَتَرَكْ فَرْصَهُ لِوَسَاوسِ الشَّيْطَانِ وَتَسوِيفَاتِهِ، إِنَّمَا بَادَرَ مِبَاشِرَهُ، إِلَى الْاسْتَغْفَارِ وَالْتَّوْبَهُ، وَأَيَّ بَابٌ لِلتَّوْبَهِ أَوْسَعُ مِنَ الصَّلَاهُ وَالدُّعَاءِ。أَللَّهُ يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ مَا يَعْبُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ^(١) وَقَالَ فِي الصَّلَاهِ: وَإِنَّمَا يَعْيَنُوا بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاهِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَهُ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ^(٢)[٢٥] وَحِينَما وَفَرَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ شُرُوطُ التَّوْبَهِ فِي نَفْسِهِ، مِنْ صَدَقَ النَّدَمِ، وَإِصلاحِ مَا فَسَدَ، وَالضَّراعَهُ إِلَى الرَّبِّ بِقَلْبٍ مُنْكَسِرٍ، اسْتِجَابَ اللَّهُ لَهُ.

فَغَفَرَنَا لَهُ ذَلِكَ التَّوْبَهُ تَزِيلُ خَطَأَ الْإِنْسَانِ، وَتَمْحُو آثَارَهُ الرَّجُعيَهُ، سَوَاءَ عَلَى مَسْتَوِيِ الْفَرْدِ أَوِ الْمَجَمِعِ، بَلْ وَتَقدِّمُهُ خَطُواتٍ إِلَى التَّوْبَهِ تَزِيدُ الْإِنْسَانَ حَصَانَهُ، وَتَقيِهِ خَطَرَ الْهَلاَكَ بِالذَّنْوَبِ وَالْأَخْطَاءِ. وَلَيْسَ أَضَرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ ذَنْبٍ يَعْتَزِزُ بِهِ، وَخَطَأٌ يَصْرِّ عَلَيْهِ مُسْتَكْبِراً.

وَأَهْمَمُ مَعْطَياتِ التَّوْبَهِ أَنَّهَا تَرْفَعُ الْإِنْسَانَ درَجَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِ، وَتُورِثُهُ الْمَنَازِلَ الرَّفِيعَهُ فِي الْجَنَّهِ.

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزَلْفَىٰ وَحُسْنَ مَيَّاٰبٍ وَهَذَا خَالِفٌ لِتَصْوِيرَاتِ الْإِنْسَانِ السُّلْبِيهِ مِنْ أَنَّ التَّوْبَهُ تَسْبِبُ لَهُ الذَّلَّهُ، وَأَنَّ العَزَّهُ بِالْإِثْمِ هِيَ الأَفْضَلُ، لِأَنَّهَا فِي نَظَرِهِ السَّبِيلُ لِلرَّفِعَهِ.

ص: ٣٤٥

١ - (٧٧) الفرقان

٢ - (٤٥) البقرة

و القرآن إنما يضرب لنا مثال الاعتراف بالخطأ و التوبه منه، من واقع النبي داود العالم الذي بلغ و ولده سليمان ذروه السلطه، لأن التوبه تصعب على الإنسان حينما يكون في موقع متقدم من المجتمع، كما لو كان والدا بالنسبة لاسته، أو كان عالماً أماماً تابعيه، و تصل الصعوبه ذروتها إذا كان حاكماً و عالماً في مستوى داود و لعل هذا من حكم تعرض الأنبياء لفتنه. و إن الله يكلهم إلى أنفسهم، و يرفع عنهم عصمتهم لحظات معدوده فيرتكبون الهفوات، ثم يتوبون إلى الله ليكونوا قدوات صالحه للبشرية في حقل التوبه - و هو أعظم حقل - كما هم قدوات فيسائر الحقول. و لا بد لنا و نحن نخوض الصراع أن نتذكر هؤلاء العظام كما أمرنا الله حتى لا يتكبر أحدنا على النقد والاستماع إلى آراء الناس في تصرفاته و بالتالي لكي لا يتعالى أحدنا على المجتمع باسم انه يمثل طليعته المتقدمة.

[٢٦] أهـ شروط الحاكم الذي يتصرف في دماء الناس وأموالهم، محوره حول الحق، و لكن كيف يعرف صدق الحاكم الذي يدعى انه يحكم بالحق؟ إنما عند ما يخالف هواه و يتراجع عن قرار اتخذه إذا عرف انه كان خاطئاً، و يعترف أمام الناس بذلك و يتوب إلى الله، و يصلح منهجه.

من هنا نجد السياق القرآني يذكرنا بان الرب استخلف عبده داود في الأرض بعد أن ابتلاه و عرف انه يخالف هواه و يتراجع عن الخطأ إذا عرفه.

يَا دَاؤْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ إِنَّ الْأَرْضَ مَا فِيهَا مِنْ بَشَرٍ وَ أَحْيَاءٍ وَ تَرَابٍ أَمَانَهُ اللَّهُ فِي عَنْقِكَ، وَ عَنْقَ كُلِّ حَاكِمٍ وَ لَا تَصَانُ هَذِهِ الْأَمَانَةَ إِلَّا بِتَحْكِيمِ الْحَقِّ، إِنَّمَا لَوْ تَحْكُمُ الْبَاطِلَ فَسُوفَ تَفْسِدُ الْأَرْضُ وَ مَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ وَ النَّاسُ قَالَ تَعَالَى يَصِفُ الَّذِي يَتَّبِعُ الْبَاطِلَ فِي حُكْمِهِ: وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لَا

يُحِبُّ الْفَسَادَ (١). وَلَهَا عَقْبُ الْقُرْآنِ مِنْ أَهْمَّ وظائفِ الْحَاكِمِ وَمَا يَتَصلُّ بِهِ مِنْ مَؤْسِسَاتِ تَشْرِيعِهِ وَقَضَائِيهِ وَتَنْفِيذِهِ قَائِلاً:

فَمَا حُكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ يَلْتَرَمُ الْحَاكِمُ بِالْحَقِّ يَجِدُ أَنْ يَتَجَاهِزُ أَهْوَاءَهُ وَشَهْوَاتِهِ، حَتَّى لَا تَنْعَكِسَ عَلَاقَاتُهُ الاجْتِمَاعِيَّةُ، وَلَا ضَغْوَطُ النَّاسِ وَأَغْرِيَاتُهُمُ عَلَى آرَائِهِ فِي الْحُكْمِ.

وَلَا - تَتَّبِعِ الْهَيْوَى فَيُضِّهَّ لِكَ عَيْنُ سَبِيلِ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ أَنْ نَعْرُفَ مَعْنَى مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَكْفِينَا نَظَرَهُ وَاحِدَهُ لِوَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ صَارُوا ضَحِيَّهُ لِأَهْوَاءِ الْحَاكِمِينَ فِي الْأُمَّةِ، أَوْ لَيْسُ أَبْعَدُوا إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ عَنِ الْحُكْمِ لِأَنَّهُ يَتَناقضُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ، وَلَأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ فِيهِ مِبْرَراً لِتَزْوِيْتِهِمْ وَتَصْرِفَتِهِمُ الْمُنْحَرِفَةُ؟ وَهَذَا هُوَ الْضَّلَالُ.

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَوْحِيَ الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ وَلَأَيْهِ الْفَقِيهُ

فَقَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«فَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنَنَا لِنَفْسِهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ مُطِيعًا لِأَمْرِ مُولَاهُ فَعَلَى الْعَوَامِ أَنْ يَقْلِدُوهُ» وَيُضِيفُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«فَإِنَّمَا مِنْ رَكْبِ الْقَبَائِحِ وَالْفَوَاحِشِ مَرَاكِبُ فَسَقِهِ فَقَهَاءِ الْعَامِهِ فَلَا تَقْبِلُوا مِنْهُمْ عَنْ شَيْئاً وَلَا كَرَامَهُ» إِلَى أَنْ يَقُولَ: «وَهُمْ أَضَرُّ عَلَى ضَعْفَاءِ شَيْعَتِنَا مِنْ جِيَشِ يَزِيدَ عَلَيْهِ اللَّعْنَهُ عَلَى الْحُسَنِيَّ بْنِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّهُمْ يَسْلِبُونَهُمْ

ص: ٣٤٧

الأرواح والأموال » (١) ثم يهدد ربنا أولئك الذين يبتعدون عن الحق و السبيل المستقيم بسبب أهوائهم فيقول:

إِنَّ الَّذِينَ يَضِهُ لَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ وَقَالَ يَوْمُ الْحِسَابِ وَلَمْ يَقُلِ الْقِيَامَةُ، لَأَنَّ الَّذِي يَنْسَى أَنَّهُ مَحَاسِبُ أَمَامِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَرْكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَعَلَى أَهْوَائِهِ بِالخُصُوصِ، يَفْقَدُ اتِّزَانَهُ وَضَوَابِطَهُ فِي الْحَيَاةِ فِي خَالِفِ الْحَقِّ وَيَتَبَعُ الْهَوَى مِنْ دُونِ حِسَابٍ.

أخطاء الأنبياء:

و كلمه أخيره: لماذا نجد في القرآن تشهيراً بالأنبياء وأخطائهم كقوله تعالى عن آدم عليه السلام وَعَصَى آدُمْ رَبَّهُ فَغَوَى (٢) أو عن النبي يونس عليه السلام : سُبِّيْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٣) و عن داود فَأَشْتَغَفَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَأِكِعاً وَأَنَابَ (٤) و عن النبي الأكرم (ص): لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مِنْ ذَبِيْكَ وَمَا تَأْخَرَ (٥) الجواب: هناك حكم كثيره، من أبرزها معرفة الناس أن الأنبياء ليسوا بالله فلا يرفعونهم إلى مقام الرب. هكذا

جاء في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله في

ص: ٣٤٨

.٨٨ ص ٢ ج بح (١)

١٢١ طه (٢ - ٢)

.٨٧ الأنبياء (٣ - ٣)

.٣٤ ص (٤ - ٤)

٢ الفتح (٥ - ٥)

الحديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه :

وأما هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بينه الله في كتابه، فان ذلك من أدل الدلائل على حكمه الله عز وجل الباهره وقدرته الظاهرة وعزته الظاهرة، لأنـه علم ان براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور أممهم وأن بعضهم من يتخذ بعضهم إليها كالذى كان من النصارى فى ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذى انفرد به عز وجل، ألم تسمع إلى قوله فى صفة عيسى حيث قال فيه وفي أممه: «**كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**» يعني أن من أكل الطعام كان له ثقل، وكل من كان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم.

اشاره

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطَلاً ذَلِكَ ظُلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ (٢٨) كَذَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لَيْدَبَرُوا آيَاتِهِ وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) وَهَبَنَا لِدَاؤَدْ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحَبِبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَثْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُودُهَا عَلَى فَطَفَقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَبْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَتَبَغِي لَأَحِيدِ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الْرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَضْصَادِ فَادِ (٣٨) هَذَا عَطَافُنَا فَامْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزَلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

اللغه

[الصفات]: جمع الصافه من الخيل، و هي التي تقوم على ثلاثة قوائم و ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر و هي من علامه الجوده.

[الجياد]: جمع جيد و هي الفرس الأصليه النجبيه، و نجابة الفرس بعرفانها صاحبها، و سرعه سيرها، و الاهتمام بخلاص راكبها من المشكله التي يقع فيها.

[٣٢] توارت بالحجاب [الشمس غابت و استترت تحت الأفق].

[٣٣] فطفق [شرع].

[مسحا]: قطعاً بالسيف، و قيل معناه مسحاً باليد و أن سليمان جعل يمسح أعراف الخيل و عراقيبها بيده.

[رخاء]: لينه بدون عنف.

ص: ٣٥١

هدي من الآيات:

عند ما طالب الكفار بتعجيل حسابهم و الإسراع فى إعطائهم نصيبيهم(من الثواب أو العقاب) قال ربنا لرسوله الكريم: إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَوْدَ وَ مِنْ خَلَالِ قَصْهِ دَاوِدْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرْنَا كَيْفَ عَجَلَ اللَّهُ لِهِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا مَمْتَثلاً فِي الْمُلْكِ وَ الذِّكْرِ الْحَسَنِ، مِمَّا هَدَانَا بِهِ إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ جَزَاءَهُ الْأَوْفَى (فِي الدُّنْيَا أَوِ الْعَقْبَى) وَ هَذِهِ السِّيَاقُ يَبْلُغُنَا إِلَى الْجَوَابِ الْفَصْلِ لِسُؤَالِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا النَّشُورَ وَ يَقُولُونَ: إِنَّ قَصْهَ دَاوِدَ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَحْوُرُ الْخَلِيقَةِ، فَدَاوِدَ بَلَغَ مَا بَلَغَ لِأَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ (وَ مِنْ الْحَقِّ جَزَاءُ الْمُحْسِنِ بِالْمُحْسِنِ) وَ لَيْسَ هَذَا سُوَى مُثْلِ كُلِّ تَقْدِيرَاتِ الرَّبِّ، وَ مِنْهُجُ تَدْبِيرِهِ لِلْخَلِيقَةِ (حِيثُ أَنَّهَا قَائِمَهُ جَمِيعاً عَلَىٰ قَاعِدَهُ الْحَقِّ) وَ هَذَا بِالْتَّالِي يَهْدِنَا إِلَى أَنَّ الْمُتَّقِينَ لَيْسُوا كَالْفُجَارِ لِأَنَّ تَساُوِيهِمَا يَتَنَافَى وَ الْحَقُّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السُّمُوَاتُ وَ الْأَرْضُ. وَ هَكُذا لَا بدَ مِنَ الْجَزَاءِ الْأَوْفَى فِي الْآخِرَةِ.

هذا من جانب و من جانب آخر يتنافى مبدأ الحق و خلافه الفجار في الأرض.

لأن هكذا خلافه لا تبلغ أهم أهداف الحياة و هو تطبيق الحق، و بهذه الآيات ينفي ربنا نفيا قاطعا كل الأكاذيب و الأفكار الباطلة التي حاول محرفو التوراه أو من اقتبس منهم الصاقها في نبيه داود عليه السلام حين اتهموه في تقواه و نزاهته. ثم يدعونا الله للتدبّر في القرآن مما نجد مثيلاً لهذا الأمر في سورة المائدah، لأننا حينما نعرض تصوراتنا و أفكارنا على كتاب الله، فسوف تتبين لنا أن خلافه الظالمين لا تنسجم و مجمل بصائره و هدام.

ثم يحدّثنا القرآن عن جانب من حياة سليمان بن داود عليهما السلام، و الذي تجاوز هو الآخر فتنه السلطنه، فلم تخرجه زينتها من خط الطاعة و الانابة، بل كان يزداد خصوصاً لربه تعالى، لأنّه يعتبر كل شيء نعمه الهيه تستوجب الشكر. و بذلك ضرب مثلاً للسلطان الصالح كما فعل والده من قبل.

بيان من الآيات:

[٢٧] في الآيات السابقة بين ربنا صفات الخليفة الذي يجعله في الأرض (حيث ذكرنا الآيات بعشرين صفة حسنة في خليفه داود) و من أبرزها حكمه بين الناس بالحق.

و مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا يَنْهُمَا بِأَطْلَأَ كَيْفَ يَتَخَذُ الْبَاطِلُ الرَّبُّ الَّذِي لَا يَجْعَلُ خَلِيفَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا الصَّالِحِينَ وَ الَّذِينَ يَمْتَحِنُهُمْ أَشَدُ الْامْتِحَانِ حَتَّى يَحْكُمُوا بِالْحَقِّ.

ان آيات الحكمه البالغه تتجلی في أصغر شيء خلقه الله، في النحله و النمله، في الشعر و الوبر، في الخليه الواحده، في الذره الواحده، في البروتون و الالكترون.

فكيف لا تتجلی الحكمه في مجمل خلق السموات و الأرض؟! أم كيف يخلقهما الله

باطلا بلا حكمه بلا هدف بلا تقدير؟! سبحان الله و تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ذلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَهُمْ قِيمُوا الْحَيَاةَ بِأَفْكَارِ الْكُفَّارِ الْمُسْبِقَةِ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ وَ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَصْلُوَا فِي نَفِيَّهِ إِلَى حَدِّ قَطْعِيِّ (الْعِلْمِ) لَا نَهُمْ أَيْنَمَا نَظَرُوا وَ إِلَى أَيْ شَيْءٍ مِّنْهَا وَجَدُوا فِيهِ آثَارَ الْقَدْرَةِ وَ الْحَكْمَةِ.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ لَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ لَنْ يَدْعُ الْكُفَّارَ سَدِّيًّا بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي تَجَاوِزَتْ كُلَّ حَدٍ مُّعْقُولٍ فِي مُخَالَفَةِ الْحَقِّ بَلْ لِهِمُ الْوَيْلُ وَ الشَّبُورُ.

[٢٨] وَ تَبَيَّنَ لَهُذِهِ الْحَقْيَقَةِ يَهْدِيَنَا الرَّبُّ إِلَى أَنْ سَنَهُ الْحَقُّ الْقَائِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَّخْلُوقٍ تَأْبِي تَسَاوِيَ الْمُتَقِينَ الَّذِينَ يَتَجَنَّبُونَ الْعَذَابَ، وَ أَسْبَابَهُ وَ عَوَامِلَهُ. وَ الْفَجَارُ الَّذِينَ لَا يَبَالُونَ أَيْ وَادٍ يَقْتَحِمُونَ، وَ أَيْ ضَلَالٍ يَتَهَوَّنُ فِيهَا، وَ أَيْ جُرْيَمٍ يَرْتَكِبُونَهَا.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ بِذَلِكَ كَسْبُوا الْحَسَنَاتِ.

كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ وَ يَبْدُوُانِ تَخْصِيصَ الْمُفْسِدِينَ بِالذِّكْرِ يَنْسِجمُ وَ قَصْهُ دَاوِدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُتَمَثِّلُ فِي شُرُوطِ خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ.

وَ انَّ الْخَلِيفَةَ الْشَّرِعيَّ لَيْسَ كُلَّ مَلْكٍ لِلْأُمُورِ بِالْقُوَّةِ، اِنَّمَا الَّذِي يَمْلِكُهَا بِالْحَقِّ.

و لهذا لا بد من التفريق بين حاكم و حاكم، خلافا لما ذكره البعض من أن الحكم الشرعي هو الذي حكم بالسيف، سواء كان مصلحا أم مفسدا، الواقع انهم أرادوا تبرير موافقهم من بعض أحداث التاريخ و رجاله، فهم يؤمنون بأن عليا عليه السلام و معاويه سواء بينما يرفض ذلك منطق القرآن.

هل الإمام على عليه السلام الذي يطوى نهاره صائمًا و ليه قائماً عابداً، و يتقاسم قوته مع الفقراء، بل و يؤثرهم على نفسه و عياله (مسكينا و يتينا و أسيرا) و يعدل في الرعية يستوي هو و الذي يغتصب حقوق الآخرين، و يسفك دماء الناس، و يتلاعب بمقدرات الأمة؟! كلاً..

إن سلطه سلاح ذو حدين، فهى إذا تسللها المؤمنون تصبح وسيلة للإصلاح و الاعمار، أما لو كان العكس فانها، تمسي معواه يهدم المنجزات و يحطم الطاقات.

وربنا في هذه الآية لم يقابل **الذين آمنوا** بجماعه معينه **كالْفُجَارِ** مثلا، إنما قابلهم **المفسدين** في الأرض، ليبين لنا بأن كل سلطه غير سلطه المؤمنين هي مفسدة في الأرض.

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ إن ذلك لا يصح و لا يكون ما دام الحق هو أساس الحياة و مقاييسها. إلا أن تتبدل هذه المعادلة، و هذا ليس إلا في ظن الكافرين.

[٢٩] و الحق يتجلی في السماء و الأرض و ما بينهما. و آيات القرآن هي التجلي الآخر للحق، و من تدبر في القرآن وجد انه الكتاب الناطق بما يجد في آيات الخليقه، فإذا ادى قلبا واعيا و تبصر انه كتاب أنزله خالق السماء و الأرض، لأنه ليس سوى صوره صافيه للخلائق.

كتاب أنزلناه إليك مباركاً و حدد الله لهذا الكتاب غايات سامية فقال:

١- لَيَدْبِرُوا آيَاتِهِ فَالْقُرْآنَ أَنْزَلَ لَكُمْ كُي يُعْطِي لِلإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الْبَصِيرَهُ وَ الرَّؤْيَهُ السَّلِيمَهُ فِي الْحَيَاهِ.

و هذا لا يمكن بالمطالعه السطحية، بل لا بد من تفكير عميق في الآيات.

٢- وَ الْهَدْفُ الْآخَرُ بَعْدَ ادْرَاكِ الْبَصِيرَهُ أَنْ تَعْكُسَ عَلَى حَيَاهِ الإِنْسَانِ فِي تَذَكُّرِهِ وَ يَصْحُحَ مِنْ خَلَالِهَا فِي التَّفْكِيرِ، وَ فِي الْعَمَلِ
منهجه.

وَ لَيَتَيَدَّكَرُ أُولُو الْأَلْبَابِ لَا نَ العَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَعْرُفُ قِيمَهُ الْقُرْآنَ، وَ أَهْمَيَتِهِ، وَ هُوَ الَّذِي يَتَعْرُفُ عَلَى بَصَائِرِهِ. وَ لَا شَكَ أَنَّ الَّذِي يَحْكُمُ عُقْلَهُ فِي الْحَيَاهِ هُوَ الَّذِي يَسْتَفِيدُ مِنَ الْقُرْآنَ، أَمَّا الْآخَرُ الَّذِي تَحْكُمُهُ شَهَوَاتِهِ فَلَنْ يَتَذَكَّرْ بِهِ أَبَداً.

و نتسائل: ما هي صلة هذه الآية بالسياق؟ و نجيب اولاً: بأن استنباط منهاج الخلافه الاسلاميه من القرآن صعب مستصعب لا يحتمله الا من امتحن الله قلبه بالایمان، و عرف انه لا يمكن ان يعترف بالقرآن بسلطه تجانب قيمه الحق، و منهاج التوحيد. او ليست السلطة السياسيه تعجّس قيم المجتمع. فكيف تستطيع سلطه فاسده تطبيق قيم القرآن الاصلاحيه؟! و هكذا أشار السياق إلى ضروره التدبر و التذكرة لتبصر هذه الحقيقة التي تراكم عليها حجب الشهوات و الضغوط.

ثانياً: بأن منهج القرآن في توعيه الإنسان باليوم الآخر منهج فريد، ولا يبلغ فهمه غير الذين يتذمرون في آيات الكتاب ويذكرون بها.

[٣٠] وينقلنا السياق إلى قصه سليمان عليه السلام بعد ان استوحى عبر قصه داود عليه السلام و تلتقي القصتان في أنهما مثل لتجاوز الإنسان فتنه السلطة والقوه.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فِيمَرَ سُلَيْمَانُ وَعَظِيمَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ لَيْسَ فِي اِنْتِمَائِهِ إِلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَدَاوُدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا فِي سُلْطَانِهِ اِنَّمَا فِي عَبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ لَمَّا امْتَدَّدَهُ فِي كِتَابِهِ فَبِهِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَجَازُ أَكْبَرَ فِنَاءَ الْحَيَاةِ، وَهِيَ فِتْنَةٌ لِسُلْطَانِهِ فَقَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مَا لَمْ يَمْلِكْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلَنْ يَمْلِكْهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَغْتَرْ بِزِينَةِ الدُّنْيَا، اِنَّمَا تَجَازَهَا وَتَوَجَّهَ لِلَّهِ، يَتَبَعَّدُ وَيَضْعُفُ نَفْسَهُ فِي مَوْقِعِ الْمَذْنَبِ ثُمَّ يَتَوَبُ وَهُوَ الْمَعْصُومُ مِنَ الذُّنُوبِ وَانَّمَا يَعْظِمُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَيْفَ يَتَكَبَّرُ هُؤُلَاءِ عَلَى رَبِّهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنَّ طَرِيقَ الْاِسْتِرَادَةِ هُوَ الْمُزِيدُ مِنَ التَّذَلُّلِ لَهُ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ؟! [٣١]

.

إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ وَهِيَ الْخَيُولُ الْمَرْوَضَةُ مِنْ أَجْوَدِهَا، وَكَانَتْ يَسْتَعْرَضُهَا سُلَيْمَانُ كَلِمَا أَرَادَ الْجَهَادَ.

[٣٢] وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ اسْتَعْرَضَهَا وَرِبِّاً لَكَثُرَتْهَا بَقِيَ مَعَهَا طَوِيلًا حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ (أَوْ كَادَتْ) وَفَاتَتْهُ فَضْيَلَةُ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَلَمْ يَكُنْ حِينَهَا وَهُوَ يَعْدُ الْعَدَهُ

للهجـاد مشغولاً بأمر من أمور الدنيا، و مع ذلك استغفر ربه و عـده تقـصيراً يـستوجـب التـوبـه.

فـقالَ إـنـي أـحـبـتْ حـبـ الـخـيـرِ عـنْ ذـكـرـ رـبـيـ حـتـىـ تـوارـثـ بـالـحـجـابـ وـ كـوـنـهـ سـلـطـانـاـ لـمـ يـمـنـعـهـ مـنـ الـاعـتـرـافـ بـالـخـطـإـ، وـ لـوـ كـانـ بـمـقـدـارـ تـرـكـ الـأـولـىـ بـسـبـبـ عـمـلـ خـيـرـ آـخـرـ يـحـبـهـ اللـهـ.

فالمعنى شغلـيـ الجـهـادـ عـنـ الصـلـاهـ، وـ الـاثـنـانـ وـ اـجـبـانـ، إـلـاـ أـنـ الصـلـاهـ أـفـضـلـ، وـ هـلـ يـجـاهـدـ المـؤـمـنـونـ إـلـاـ لـإـقـامـتـهـ؟ [٣٣] وـ لـمـاـ تـوـجـهـ سـلـيـمـانـ عـلـيـهـ السـلـامـ إـلـىـ فـوـاتـ الـوقـتـ، اـسـتـرـاحـ عـنـ الجـهـادـ فـقـضـىـ صـلـاتـهـ، ثـمـ عـادـ ثـانـيـهـ، فـقـالـ:

رـُدـوـهـاـ عـلـىـ جـيـادـ الـخـيلـ، لـكـيـ يـسـتـمـرـ فـيـ تـفـقـدـ الـجـيـشـ.

فـطـفـقـ مـئـيـحـاـ بـالـشـوـقـ وـ الـأـعـنـاقـ وـ كـانـ الـمـسـحـ عـلـىـ أـعـنـاقـ الـخـيلـ وـ سـيـقـانـهـ عـنـدـ أـهـلـ الـخـيـرـ طـرـيـقاـ لـمـعـرـفـهـ الـجـيـدـ مـنـهـ، وـ كـانـ سـلـيـمـانـ عـلـيـهـ السـلـامـ بـعـدـ إـجـرـاءـ هـذـهـ يـقـسـمـهـ عـلـىـ أـفـرـادـ جـيـشـهـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ اـهـتـمـامـهـ بـهـ.

قال ابن عباس سـأـلـتـ عـلـيـاـ عـلـيـهـ السـلـامـ عـنـ هـذـهـ الآـيـهـ، فـقـالـ: ماـ بـلـغـكـ فـيـهـاـ يـاـ ابنـ عـبـاسـ؟ قـلـتـ: سـمـعـتـ كـعـبـاـ يـقـولـ: اـشـتـغـلـ سـلـيـمـانـ بـعـرـضـ الـأـفـرـاسـ حـتـىـ فـاتـهـ

الصلاه، فقال ردوها على يعني الافراس و كانت أربعه عشر فامر بضرب سوقها:

و أعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه اربع عشر يوما، لأنه ظلم الخيل بقتلها.

قال عليه السلام :

«كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الافراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب (الى ان قال) وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرن بالظلم لأنهم معصومون مطهرون » [١][٣٤] ثم إن القرآن يحدثنا عن الفتنة التي تعرض لها سليمان عليه السلام فقد تمنى على الله ان يكون له ولد يرثه كما ورث هو داود عليه السلام لكن الله لم يستجب له إثماً أسقط على كرسيه جسداً ميتاً اجهضته امرأته.

وَ لَقَدْ فَتَّنَنَا سُلَيْمَانَ وَ أَقْتَلَنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا كَنَا يَهُ عن الابن الميت، وَ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَلَدٌ يَحْكُمَ بَعْدَهُ، فَتَأْثَرَ بَعْضُ الشَّيْءِ لِذَلِكَ، وَ لَكِنَّهُ فَكَرَ فِي نَفْسِهِ وَ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ.

ثُمَّ أَنَابَ [٣٥] وقد اعتبر موقفه هذا - وهو النبي - زللاً، وأن هذه فتنته عليه أن يتتجاوزها بالدعاء والاستعانة بالله، لأنه علم أن عدم تحقيق الله لامنياته يدل على أن ذلك ليس من المصلحة أبداً.

قَالَ رَبِّي أَغْفِرْ لِي أَنْ تَمَنَّيْتَ عَلَيْكَ مَا لَا يَتَفَقَّ مَعَ حِكْمَتِكَ لَأَنْ عِلْمِي قَاصِرٌ عَنْ ادْرَاكِ ذَلِكَ ذَلِكَ ثُمَّ

ص: ٣٥٩

١- (١) المجمع/ج(٨،٧)/ص(٤٧٥).

طلب من الله شيئا آخر غير من خلاله أمنيته، قال:

وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَتَبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَبَيَّنَ آدَابُ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ففي البداية يجب أن يعرف العبد بأن ما سيطلبه من الله ليس حقا له على الله استوجبه بعمله أو عبادته، إنما هو هبة يعطيها له رب من عنده تفضلا إن شاء أو يمنعها، وبالاضافة إلى تناسب هذا الأدب و مقام الربوبية، فإنه يعطى المؤمن مناعه ضد ردود الفعل المحتملة لو لم يستجب له.

ثم إن الطلب يجب أن يكون عظيما و كبيرا، و ينبغي للإنسان أن يطلب من ربه و هو القادر العزيز الكريم مطالب جسميه، فيخرج من نظرته البشرية المحدودة التي تفرض عليه آملا محدوده، و يدعوه الله انطلاقا من معرفته بصفاته و أسمائه الحسنى. فهذا سليمان عليه السلام يدعوه الله أن يهبه ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده.

ويستوحى من السياق أن سليمان عليه السلام طلب من الله بدليلا عن الأولاد الذين حرم منهم، بان يختصه برحمه الهيه خاصه لتمضي الأجيال تذكره، به أو ليس الإنسان يستمر بعقبه و بما اختص به. فسأل الله من الملك ما لم يعط أحدا ولا ينبغي لأحد، و فعل خصه الله بتخدير الجن و الريح و الطير له، كما تقرر الآيات التالية، و بالاسم الأعظم حسبما نقرأ في آيات أخرى (١) و لكن ليس الملك لذات الملك و للذه الحياة الدنيا، إنما أراد من خلال الملك و السلطان أن يقيم حكومة الله في الأرض، ليقضى على واقع الشرك السياسي

ص: ٣٦٠

(١) نجد تأييدا لهذه الفكرة في الحديث رقم (٥٦) من تفسير نور الثقلين ج (٤) ص (٤٥٩ - ٤٦٠).

والاجتماعي وغيرهما، وينصر المؤمنين ويهدى المستضعفين إلى الحق، وأى طموح أعظم من هذا الطموح؟! إن سليمان كان يعرف انه نبي ويسير على الحق، لهذا سأله الملك والقوه لتحقيق اهداف رسالته. و من يطلع على حياته يجدها جهادا من أجل إعلاء كلامه الله، ولعل الاشاره إلى الجياد في هذه السوره المباركه تهدينا إلى هذه الحقيقة. و في سوره النمل حيث انتهت القصه بإسلام بلقيس و قومها صوره من حياته المليئه بالجهاد.

الثالث من آداب الدعاء أن ينتهي بالثناء والحمد لله و ذلك بذكر أسمائه الحسنـى و فى مقدمتها اسم «الوهـاب» الذى ذكره أكثر الأنبياء فى دعواتهم، قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَإِذْ عُرْجَوْهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيِّجَزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) [٣٦] وقد استجاب الله لدعوه نبيه، بتـميز ملكه بما لا يتكرر مستقبلا.

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ فَهـى تجري كـيفما يـريـدـ، وـأـينـما يـريـدـ.

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال :

«خرج سليمان بن داود من بيت المقدس و معه ثلاثة الف كرسـى عن يمينه عليها الانـسـ، و ثلاثة الف كرسـى عن يسارـه عليها الجنـ، و أمر الطـير فأظلـتهمـ،

ص: ٣٦١

١ - (١٨٠) الأعراف / .

و امر الريح فحملتهم حتى ورد ايوان كسرى فى المداين، ثم رجع فبات بإصطخر، فاضطجع ثم غدا فانتهى إلى مدینه برکاوان، ثم أمر الرياح فحملتهم حتى كادت اقدامهم يصيّبها الماء، و سليمان على عمود منها، فقال بعضهم لبعض:

هلرأيت ملكاً قط أعظم من هذا أو سمعت به؟ فقالوا: ما رأينا ولا سمعنا بمثله، فناداهم ملك من السماء ثواب تسبيحه واحده في الله أعظم ممارأيت»^(١)[٣٧] و إلى جانب الريح أخضعت له الشياطين و كانت مهمتهم البناء و الاعمار و كانوا يستخرجون المعادن من البحر.

و الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَ غَوَّاصٍ و ليس بالضروره أن يكون المقصود من الغوص المعنى المتعارف فقط، و هو النزول إلى قعر البحر للصيد و استخراج الطاقات الكامنة فيه، بل تنسحب الكلمه كما كلمه البناء على المعنى المتقدم أيضا.

[٣٨] و كان سليمان يوزع المهام على الشياطين، فيعملون فيما يريد، و من يتمرد فانه يجازى بالسجن.

و آخرين مقرئين في الأصل فاد و ييدو من الآيه أن الشياطين كانوا يصفدون جماعات جماعات فيقرن بعضهم ببعض، و يتحمل أنهم كانوا يعتقدون كل فرد مع قرنائه في المعصيه و المخالفه.المهم أن سليمان بهذه السيطره و الهيمنه على الجن نسف الأفكار الجاهليه حول ألوهيتها.

ص: ٣٦٢

١- (٤) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٤٥٩).

[٣٩] وَ فِي نَهَايَةِ الْدُّرْسِ يُشِيرُ رَبّنَا إِلَى مَلَكِ سَلِيمَانَ فَيَقُولُ:

هَذَا عَطَافُنَا وَ يَفْوَضُهُ فِيهِ يَتَصَرَّفُ كَيْفَمَا بَدَأَهُ.

فَأَمْنِنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَيْ أَعْطَ لِلنَّاسِ مَا تَمْلَكُ أَوْ أَمْنِعُهُمْ، وَ لَا أَحَدٌ يَحْسَبُكَ وَ هَذَا أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّفْوِيقِ.

[٤٠] وَ يَخْتَمُ الدُّرْسُ بِحَقِيقَةِ هَامِهِ، هِيَ أَنَّ أَهْمَمَ مَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا، قَرْبَهُ مِنَ اللَّهِ وَ ثَوَابُهُ عِنْدَهُ.

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ وَ كَلْمَهُ أَخِيرٍ:

مِنْ أَبْعَادِ رِسَالَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَصْحِيحُ رُؤْيَةِ الْبَشَرِ تَجَاهَ الرُّسُلِ وَ رِسَالَاتِهِمْ، ذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُشِيرُ إِلَى مَصْدَرِ الْإِصْلَاحِ، وَ يَنْبُوِعُ الْفَضَائِلُ (الرُّسُلُ وَ رِسَالَاتِهِمْ) فَإِذَا بَهِ يَلْصُقُ التَّهْمَ بِالْأَنْبِيَاءِ لِأَسْقاطِ شَخْصِيَّاتِهِمْ فِي أَعْيْنِ النَّاسِ، وَ يَحْرُفُ قِيمَ الدِّينِ وَ قَدْ يَجْعَلُهَا بِتَأْوِيلِهَا سِبِيلًا لِلْضَّلَالِ.

وَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ يَبْعَثُ بَيْنَ الْحِينِ وَ الْآخِرِ رِسَالَهُ وَ رَسُولًا لِتَجْدِيدِ مَا دَرَسَ مِنْ مَعَالِمِ دِينِهِ الْحَقِّ لَكِي لَا تَزُولَ فِرَصُهُ الْهُدَىِيَّةُ لِلنَّاسِ.

وَ هَكُذا حَرَفَتْ أَهْوَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ التُّورَاهُ وَ الْإِنْجِيلُ، وَ أَوْلَتِ النُّصُوصَ حَوْلَ الْقِيمِ، وَ لَفَقَتِ التَّهْمَ حَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ انْزَلَ اللَّهُ كِتَابَهُ الْمَجِيدَ تِبْيَانًا

لكل شيء و تزييها لمقام الرسل عليهم السلام. و هكذا نجد في القرآن بياناً لقصص الأنبياء -خصوصاً تلك التي نقلت على غير وجهها- ثم تفسيراً حسناً لموارد الغموض من حياتهم عليهم السلام.

و مما يؤسف له: أن طائفه من المفسرين راحوا ينقلون الأحاديث الإسرائيلية و يخوضون في اعراض الأنبياء خوضاً و بالتالي ينقضون ما عقده القرآن، و يخالفون ما أراده، و يسيرون تماماً بعكس اتجاهه. بينما كان ينبغي أن يلتزموا بأدب القرآن في الحديث عن الرسل، الذي يتجلّى في سورة الصافات و ص بأحلى صورها.

اشاره

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكَضْ بِرْجِلِكَ هَذِهِ مُعْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرِابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَّا وَذِكْرِي لِأُولَى الْأَبْلَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَقُولَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصِهِ ذِكْرِي الْأَدَارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَفَينَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكَفْلِ وَكُلُّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ لِلْمُتَقِينَ لَحْسَنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٌ عَيْدَنٌ مُفَتَّحَهُ لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَكَبِّرُونَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَهِ كَثِيرٌ وَشَرِابٌ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ أَنْتَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)

اللغه

[٤٤] ضغثاً: ملء الكف من الشماريخ و الحشيش.

[ولا تحنث]: الحنث هو نقض العهد المؤكّد بالحلف.

٥٢ [أترب]: أقران على سن واحد ليس فيهن عجوز ولا هرمه، وقيل أمثال في الحسن ومقدار الشباب، وقيلأترب في أعمار أزواجهن.

ص: ٣٦٦

هدي من الآيات:

في موضع أخرى من القرآن تعرضت الآيات لقصه أیوب عليه السلام بمناسبه الحديث عن الصبر،(الجانب المعروف من حياته عليه السلام)،حتى لقد شاع المثل «صبر أیوب»،أما في هذه السوره فان القصه تأتى فى سياق الحديث عن العلاقة السليمه بالسلطه و الشروه و العافيه،هذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر،فلا يستبد به الغرور إذا رزق منها شيئا،و لا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

و ما تلقى فيه قصه سليمان و أیوب عليهما السلام،أنهما يهديانا الى تجسيد للنفس الربانيه التي لا تبطر بالنعمة و الملك كنفس سليمان،و لا تيأس إذا فقدت متع الدنيا كنفس أیوب عليهما السلام.و بالرغم من ان هذين المثلين من حياه شخصيتين الا أنهما - في الواقع - شخصيه واحده،حيث المؤمن هو الذى يتعالى على زينه الدنيا متطلعا الى رضوان ربه،فيشكرون حينما يظفر بها،و يصبر حينما تفوته.

لقد كان أَيُّوب ذا مال وَ أَهْل كثير وَ سمعه طيبة بين الناس، وَ هو يسخر كل ذلك من أجل عمل الصالحات، فاذا به يفقد ماله وَ أهله، وَ يصاب في جسده بمرض استقدرها الناس بسببه، وَ أبعده عن قريتهم خوفاً من العدو، فتركه كل من حوله، وَ لم تبق معه إلا زوجته الوفيه رحمة بنت يوسف بن يعقوب عليهم السلام، وَ التي ضربت مثلاً في الصبر مع زوجها وَ الوفاء له، إذ كانت تعمل في البيوت وَ تخدم الناس لتأتي له بالطعام وَ الشراب.

الآن عليه السلام بقى صابراً شاكراً لله على النعمه، وَ ما زاده الابلاء الا صبراً، وَ رجاء للفضل في الدنيا وَ الآخره. وَ هكذا يكون المتقون كما وصفهم سيدهم

على عليه السلام فقال:

«نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء»^(١) وَ لعل السبب في ثبات شخصيه المتقيين وَ استقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرساله الالهي الثابته لا من الظروف وَ العوامل الماديـه المتغيرـه.

أما زوجه أَيُّوب عليه السلام الوفيهـ وَ التي لم تكن بعصمـه الأنبياء مع مكانتـها وَ ايمانـهاـ فقد جاء لها إبليس متمثلاً في هـيـئـةـ البـشـرـ، وَ قال لها إنـي طـيـبـ مـاـهـرـ وَ أـسـتـطـيـعـ أـنـ أـدـاوـيـ زـوـجـكـ وَ لـكـ بـشـرـطـ وـاحـدـ، هوـ أـنـ يـقـولـ لـىـ بـعـدـ شـفـائـهـ أـنـيـ شـافـيـتـهـ، فـقـبـلـتـ حـبـاـ فـيـ زـوـجـهـ النـبـيـ، فـجـاءـتـ مـسـرـعـهـ وـ أـخـبـرـتـ أـيـوبـ بـالـأـمـرـ فـغـضـبـ عـلـيـهـاـ، وـ حـلـفـ يـمـيـناـ أـنـ يـضـرـبـهـ مـائـهـ جـلـدـهـ.

وَ هـكـذـاـ أـتـمـ أـيـوبـ اـمـتـحـانـهـ وـ دـعـاـ رـبـهـ فـاستـجـابـ لـهـ، وـ خـفـفـ عـنـ زـوـجـتـهـ حـينـ أـمـرـهـ بـأـنـ يـأـخـذـ ضـغـثـاـ وـ يـضـرـبـهـ بـهـ وـ أـعـادـ عـلـيـهـ أـهـلـهـ وـ مـالـهـ وـ مـكـانـتـهـ وـ أـبـقـىـ ذـكـرـهـ لـنـاـ.

ص: ٣٦٨

١- (١) نهج البلاغه/خطبه(١٩٣)/ص (٣٠٣).

بيانات من الآيات:

[٤١] يمكن للشيطان أن يمس الإنسان بالسوء في جانبي الحياة «المعنوي والمادي» ولكن ذلك لا يكون بالجبر والإكراه، لأن البشر حر و مختار، إنما يضغط عليه وقد يمسه من ذلك شيء من التعب والألم. وإذا تحدى الإنسان ذلك واستقام رغم المشقة فإنه ينتصر على إبليس لأنه كما وصفه القرآن: لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَُّونَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ^(١). وفي موضع آخر تنقل لنا الآيات تصريحاً عن الشيطان نفسه. تقول الآية: وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعِيدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَنِتُكُمْ فَإِنَّ شَيْجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَ لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِرٍ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِرٍ عَلَيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلٍ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٢). إن كون الإنسان من المؤمنين لا يعني أنه لا يتعرض إلى وساوس إبليس و ضغوطه، و حتى الأنبياء تعرضوا لضغوطه و محاولاته الدائمة للاغواء، إلا أنهم لم يستجيبوا له ولو الحق بهم الأذى و المشقة. و هكذا كانوا قد و لهم للبشرية.

قال بعض المفسرين (كالرازي في تفسيره الكبير): إن أنبياء الله أرفع من أن يمسهم الشيطان بالنسب و العذاب، فلا يصح إذن أن ندعى بأن الحال وصل بأيوب عليه السلام إلى حد استقدره الناس لمرضه. و الحقيقة أن هذا الأمر جائز في مجال الامتحان لأنهم عليهم السلام بعثوا قدوة للبشرية، و ليس صحيحاً أن نبعد النظر عن ذلك.

ص: ٣٦٩

١ - (١٠١-١٠٠) النحل.

٢ - (٢٢) إبراهيم.

الواقعيه عن حياتهم، فنأول الآيات في ذلك الى غير مضامينها. فتنفي تعرض يوسف للسجن، وموسى للاهانه، ونبينا للاذى، حتى

قال عن نفسه :

«ما أوذىنبي مثلما أوذيت» مع أن ذلك هو من صميم حياتهم وعنوانا عريضا في تاريخهم الرسالي، باعتبارهم أنبياء! ولو راجعنا آيات القرآن والأحاديث لوجدناها تؤكد على أن الأنبياء هم الاولى بالبلاء، بل أنهم لم يصلوا الى هذا المقام الرفيع إلا من خلاله. و

قد روی عن الرسول(ص) وقد سئل: أى الناس أشد بلاء؟ أنه قال:

«الأنبياء ثم الصالحون الأمثل ثم الأمثل من الناس» [نعم إن الشيطان لا](#)- يتسلط على عقول الصالحين وقلوبهم، أما الجوانب المادية من حياتهم فهو قادر على سلبهم إياها لو أراد الله امتحانهم فيها، كما ابتلى في ذلكنبيه أيوب عليه السلام .

قال الإمام الصادق عليه السلام :

«ان الله عز و جل يبتلى المؤمن بكل بيته، و يمته بكل ميته، و لا يبتليه بذهاب عقله، أما ترى أيوب كيف سلط إبليس على ماله و ولده و أهله، و على كل شيء منه و لم يسلط على عقله، ترك له ليوحد الله به» [و القرآن في هذه السورة يدعو النبي الأكرم\(ص\)](#)، و كل مؤمن يسير في خطه إلى

ص: ٣٧٠

١-١) بح ج / (١٢) / ص (٣٥٥).

٢-٢) المصدر / ص (٣٤١).

تذكرة الأصوات من تاريخ الرسل والرسالات، وأن تكون حاضرته في ذهنه أبداً ليستعين بذكرها على مواجهه مصاعب الحياة ومشاكلها من أجل الاستقامه في طريق ذات الشوكة.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ الَّذِي كَانَ فِي نَعِيمٍ مِّنَ الدُّنْيَا، ثُمَّ انتَقَلَ مِنْهُ إِلَى الْفَقْرِ وَ الْمَرْضِ، لَكُنَّهُ اسْتِقَامَ بِعِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَ لَمْ يَكُفِرْ، لَأَنَّهُ كَأَيِّدِيَّةٍ مُّخْلِصٍ يَنْظُرُ لِلْحَيَاةِ بِنُورِ اللَّهِ، فَهُوَ لَا يَضُرُّهُ إِنْ فَقَدَ كُلَّ نَعِيمِهَا وَ بَقِيَ لَهُ الْإِيمَانُ، كَمَا لَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا لَوْ جَمِعَتُ لَهُ لِذَاتِهَا وَ لَكُنَّهُ فَقَدْ جَذَوَهُ الْإِيمَانُ مِنْ قَلْبِهِ وَ عَمَلِهِ. وَ قَدْ تَجَلَّتْ عِبُودِيَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْغَنِّيِّ بِشَكْرِهِ، وَ فِي الْفَقْرِ بِصَبْرِهِ وَ اسْتِقَامَتِهِ.

إِذْ نَادَى رَبُّهُ أَنَّى مَسَنَّى الشَّيْطَانَ بِنُصْبٍ وَ عَيْذَابٍ أَى اذْكُرْ مِنْ حَيَاهُ أَيُّوبَ هَذَا الْمَوْقِفُ الْعَظِيمُ حِينَ دَعَا رَبَّهُ فِي الْضَّرَّاءِ، وَ هَذَا الْمَوْقِفُ عَظِيمٌ لَأَنَّهُ مِنَ الصَّعُوبَاتِ عَلَى الْإِنْسَانِ وَ هُوَ تَوَارَدَ عَلَيْهِ الضَّغْوَطُ وَ الْمَشَاكِلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ أَنْ يَخْلُصَ تَوْجِهُ إِلَى رَبِّهِ الْأَحَدِ، فَهُوَ حِينَما يَجِدُ مِنَ الْفَقْرِ وَ الْجُوعِ رِبِّاً يَعْتَقِدُ بِأَنَّ الْغَنِّيَّ أَوَ الْحَاكِمُ هُوَ الَّذِي يُنْقَذُهُ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَةِ، وَ حِينَما يَحْوِطُهُ الْمَرْضُ غَالِبًا مَا يَتَصَوَّرُ بِأَنَّ عَلاجَهُ عِنْدَ الطَّبِيبِ لَا بِسَبِيلٍ، وَ هَكُذا يَقُعُ فِي الشَّرِّكَ، لَكِنَّ أَيُّوبَ تَجاوزَ كُلَّ ذَلِكَ وَ حَفَظَ عَلَى اِيمَانِهِ وَ تَوْحِيدِهِ الْخَالِصِ.

[٤٢] وَ لَمْ يَكُنِ الْبَلَاءُ الَّذِي تَعْرَضَ لَهُ أَيُّوبَ بِسَبِيلٍ ذَنْبِ عَمَلِهِ، فَهُوَ مَعْصُومٌ مَظْهُرٌ عَنِ الْمَعْصِيَّةِ، وَ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ ابْتِلَائِهِ:

«الا رَحْمَهُ لِيَعْظِمَ لَهُ الثَّوابُ، وَ جَعَلَهُ عِبْرَةً لِلصَّابِرِينَ، وَ ذَكْرًا لِلْعَابِدِينَ فِي

كل بلاء نزل، ليأنسوا به بالصبر و رجاء الثواب»^(١) فلما أتم الله الابلاء و أظهر صدق نبيه و معدنه رفعه عنه، و عوضه عما فقده بما هو خير منه ليعرفنا ربنا بأن العاقبه للمتقين الصابرين.

أَرْكُضْ بِرِّ جَلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ

قال الإمام الرضا عليه السلام :

«فر كض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله تعالى عنه كل ما كان به من البلاء»^(٢)[٤٣] و بالإضافة إلى إشفاءه من الأمراض و العلل التي لحقت بجسمه، رد الله عليه ما فقد من الأهل سواء الأبناء أو الأقرباء.

وَ وَهَبَنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْمَهُمْ مَعَهُمْ أَى تضاعفوا فاذا كانوا عشرين صاروا أربعين، وقد حملت هذه الآية على عده تفاسير:

الاول:أن أهله ماتوا فأحياهم الله، وأضاف إليهم مثلهم.

الثانى:أن الله عوضه عمن مات من أهله بنين و بنات آخرين.

الثالث:أن أهله تفرقوا عنه لما أصابه من بلاء، فجمعهم الله له و عطف قلوبهم عليه.

ص: ٣٧٢

١- المصدرا/ص (٣٦٠).

٢- المصدرا/ص (٣٦٦).

و لكن الروايات أكثر ما تؤكد على الرأى الأول، و منها

قول الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية :

«فرد عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء، ورد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء، كلهم أحياهم الله تعالى له فعاشوا معه»
[\(١\)](#) و بعد هذا البيان يصف الله رفعه البلاء عن نبيه بأنه ذو فائدتين:

الاولى: تعود على أيوب ذاته، و قد أسمها رحمه فقال:

رَحْمَةً مِنَ الْأَيُوب، و قد تمثلت هذه الرحمة في شفائه من المرض ورد ما فقده عليه.

الثانية: تعود على عموم الرساليين و المتعقلين، و تمثل في العبر و الدروس التي خلفتها القصه.

و ذكرى [لأولى الألباب](#) و أهم درس يستفاد من هذه الآيات، هو أن لا ننجز أمام مشاكل الحياة و ضغوطها، فإذا ما بقى الإنسان قويا في نفسه، مقاوِما للآثار النفسيه و الروحيه للازمات و المشاكل، فإنه لن يتأثر بها. و حتى يتمكن من ذلك يجب أن تكون علاقته بالحياة و ما فيها قائمه على أساس أنها وسيلة، لا علاقة شيئاً باعتبارها هدفاً بذاتها، و انه إذا لم يصل إلى أهدافه و طموحاته من طريق ما، فسوف يحصل عليها

ص: ٣٧٣

١ - ١) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٤٦٦).

عن طريق آخر. فإذا خسر وسيلة أو فشل فيها فليبق على أهدافه وإرادته، لأنه بجهده وتحركه واستقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقده، أو فشل المرات الماضية في الوصول إليه وتحقيقه، هذا إذا نظر للهزائم والنكبات التي تمر عليه في الحياة نظره موضوعيه، فهي حينئذ ستر يده قوه و مناعه ضد الهزائم، وإصرار على تسخير الحياة بصورة أفضل، وعلى ضوء التجارب الماضية.

و هذا أیوب عليه السلام يزداد إصرارا على خطه في الحياة، كلما تفاقم بلاهه، دون أن يستجيب إلى وساوس الشيطان، التي كانت تستهدف أضعاف إرادته والنيل من إيمانه وقواه. ولنقرأ هذه الرواية التي

نقلها العلامه المجلسي في كتابه بحار الأنوار.

قال :

و قال الحسن: «مكث أیوب مطروحا على كناسه في مزبله لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرها يختلف فيه الدواب، و قال وهب: لم يكن بأیوب أكله إنما يخرج منه مثل شدي النساء ثم تتفقاً، قال الحسن: و لم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمه صبرت معه تصدق، و تأطيه بطعم و تحمد الله تعالى معه إذا حمد، و أیوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله و الثناء عليه و الصبر على ما ابتلاه، فصرخ عدو الله إبليس صرخه جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جرعا من صبر أیوب، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ما أحزنك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني على ماله و ولده، فلم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد بذلك إلا صبرا و ثناء على الله تعالى، ثم سلطت على جسده و تركته قره ملقاه على كناسه بني إسرائيل لا يقربه إلا أمرأته فقد افتضحت برئي فاستغشت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له: أين مكرك؟ أين علمك الذي أهلتك به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أمر أیوب فأشاروا علىّ، قالوا: نشير عليك، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة من أين آتيته؟ قال: من قبل امرأته، قالوا: فأئته من قبل امرأته فإنه لا

يستطيع أن يعصيها و ليس أحد يقربه غيرها، قال: أصبتهم، فانطلق حتى أتى امرأته و هي تصدق، فتمثل لها في صوره رجل فقال: أين بعلك يا أمه الله؟ قالت:

هو ذلك يحک قرونه و يتردّد الدواب في جسده، فلما سمعها طمع أن يكون كلامه جزء فوسوس إليها فذكرها ما كانت فيه من النعيم و المال، و ذكرها جمال أيوب و شبابه و ما هو فيه من الضر و أن ذلك لا ينقطع عنهم أبدا.

قال الحسن: فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتابه بسخله فقال:

ليذبح هذا لي أيوب ولا - يذكر عليه اسم الله عز و جل فإنه يبرئ، قال: فجاءت تصرخ: يا أيوب حتى متى يعذبك ربك؟ ألا يرحمك؟ أين المال؟ أين الماشية؟ أين الولد؟ أين الصديق؟ أين لونك الحسن قد تغير و صار مثل الرماد؟ أين جسمك الحسن الذي قد بلى و تردد فيه الدواب؟ اذبح هذه السخله واسترح، قال أيوب:

أتاك عدو الله فنفخ فيك و أجبته، ويلك أرأيت ما كنـا فيه من المال و الولد و الصـحة؟ من أعطـانيه؟ قالت: الله، قال: فـكم مـتناـناـ به؟ قـالت: ثـمانـين سـنةـ، قال: فـمـذـ كـمـ اـبـلـانـيـ اللـهـ تـعـالـيـ بـهـذـاـ الـبـلـاءـ؟ قـالتـ: مـذـ سـبـعـ سـنـينـ وـ أـشـهـرـ، قالـ: وـ يـلـكـ وـ اللـهـ مـاـ عـدـلـ وـ لـاـ أـنـصـفـ رـبـكـ، إـلـاـ صـبـرـتـ فـيـ الـبـلـاءـ الـذـىـ اـبـلـانـاـ اللـهـ بـهـ ثـمـانـينـ سـنـهـ كـمـ كـنـاـ فـيـ الرـخـاءـ ثـمـانـينـ سـنـهـ؟ وـ اللـهـ لـئـنـ شـفـانـىـ اللـهـ عـزـ وـ جـلـ لـأـجـلـدـنـكـ مـائـهـ جـلـدـهـ حـينـ أـمـرـتـنـىـ أـنـ أـذـبـحـ لـغـيرـ اللـهـ «[\(١\)](#)» وـ حـينـمـاـ حـلـفـ أـنـ يـضـرـبـ زـوـجـتـهـ الـوـقـيـهـ مـائـهـ جـلـدـهـ، أـمـرـهـ اللـهـ أـنـ يـجـمـعـ فـيـ يـدـهـ مـائـهـ شـمـراـخـ مـنـ عـدـوقـ النـخلـ، وـ يـضـرـبـهـ ضـرـبـ وـاحـدـهـ. لـيـرـفـعـ عـنـهـ حـرـجـ الـحـلـفـ بـالـلـهـ مـنـ جـهـهـ، وـ حـتـىـ لـاـ تـنـأـذـيـ زـوـجـتـهـ مـنـ جـهـهـ أـخـرـىـ.

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْنًاً فَاضْرِبْ بِهِ

ص ٣٧٥

١-١) بـحـ جـ (١٢) / صـ (٣٦٨).

يقول الامام الصادق عليه السلام :

«فأخذ عدقا مشتملا على مائه شمراخ فضربها به واحده فخرج من يمينه »^(١) و قد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآية الكريمه و أحاديث أخرى حدا شرعا قالوا فيه بأن الزانى إذا كان مريضا لا يتحمل بدنه الجلد، فإنه يضرب مائه جلدته بهذه الطريقة و يسقط عنه الحد المتعارف.

في الخبر أن رسول الله^(ص) أتى برجل أحبن قد استنسقى بطنه و بدت عروق فخذلية، و قد زنى بأمرأه مريضه، فأمر رسول الله^(ص) فأتى بعرجون فيه مائه شمراخ، فضربها به و ضربها ضربة و خلى سبيلهما ^(٢) و الحبن داء في البطن يعظم منه و يتورم.

و بعد أن أمر الله أويوب عليه السلام بضرب زوجته كما تقدم أداء للعهد الذي قطعه على نفسه أكد له ضرورة الوفاء بالالتزامات التي يتعهد بها المؤمن تجاه ربه فقال:

وَ لَا تَحْنُثْ أَى لَا - تميل إلى الباطل بترك الوفاء بالقسم و مخالفته، إذ ينبغي للإنسان المؤمن أن ي匪 بالتزاماته و عهوده التي يقطعها مع ربها على نفسه، فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل، يدعون الله أن يعينهم و يرفع عنهم ذلك، و ينذرون تقربا له أن لو رفعها سيفعلون كذا و كذا من الصالحات، ولكنهم بمجرد أن يصحوا أو تنتهي مشاكلهم يتناسون نذورهم و تعهاداتهم. ثم على الإنسان أن لا يتعهد بما لا يقدر عليه، حتى لا يلحقه الإثم بحنته. فهذا الإمام على عليه السلام يأتيه رجل نذر أن

ص: ٣٧٦

١-١) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٤٦٦).

٢-٢) المصدر /رقم (٧١).

يتصدق بوزن فيل خبزا في سبيل الله، فينهره الامام، ويتعهد الرجل أن لا يعود لها مره ثانية.

و بعد ذلك يمتدح ربنا نبيه أيوب عليه السلام مركزا على أمور في شخصيته:

الاول: صبره، حيث عرضه الله لالوان الابلاءات فاستقام و تحمل.

إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا الثانى: إخلاصه فى العباده و توبته، فلم يدعوه البلاء للكفر بالله، و لا الى عباده غيره من الشر كاء المزيفين.

نِعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ يَأْوِبُ إِلَى اللَّهِ وَ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ كُلَّمَا ازْدَادَ بِلَاؤَهُ.

جاء فى تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن فضال، عن عبد الله بن بحر، عن ابن مشكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله عن بليه أيوب التى ابتلى بها فى الدنيا لاي عله كانت؟ قال:

«لنعمه أنعم الله عز و جل عليه بها فى الدنيا وأدى شكرها، و كان فى ذلك الزمان لا يحجب إبليس عن دون العرش، فلما صعد و رأى شكر نعمه أيوب عليه السلام حسده إبليس، فقال: يا رب أن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمه الا لما أعطيته فى الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدى شكر نعمه أبدا، فقيل له: قد سلطتك على ماله و ولده، قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالا و لا ولدا الا أعطبه فازداد أيوب لله شكرها و حمدأ، قال: فسلطني على زرعه يا رب، قال: قد فعلت، فجاء مع شياطينه فنفح فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكرها و حمدأ، فقال: يا رب سلطني على

غميشه فسلطه على غنميه فأهلكها، فازداد أثيوبي لله شكرًا و حمدًا، فقال: يا رب سلطني على بدنك فسلطه على بدنك ما خلا عقله و عينيه، ففجع فيه إبليس فصار قره واحده من قرنه الى قدمه، فبقي في ذلك دهرا طويلا يحمد الله و يشكره حتى وقع في بدنك الدود، فكانت تخرج من بدنك فيردها فيقول لها ارجعى الى موضعك الذي خلقك الله منه، و تن حتى أخرجوه أهل القرية من القرية و القوه في المزبله خارج القرية، و كانت امرأته رحمة بنت يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات الله عليهم و عليهما، تصدق من الناس و تأتيه بما تجده.

قال: فلما طال عليه البلاء و رأى إبليس صبره أتى أصحابا لأثيوبي كانوا رهبانا في الجبال « إلى هنا و إبليس يلاحق أثيوبي عليه السلام ليخدعه بطريقه أو بأخرى. و لما عرف إبليس أنه لم يستطع التأثير في نفس أثيوبي بفقد ماله و أهله و صحته، حاول هذه المره التأثير عليه من خلال أصدقائه، و يبدو من خلال هذا الحديث أن أصدقاء السوء أكثر أثرا في الإنسان من سائر علاقاته الأخرى.

«و قال لهم: مروا بنا إلى هذا العبد المبتلى فسألوه عن بيته فركوا بغالا شهبا و جاؤوا، فلما دنوا منه نفرت بغالهم من ثمن ريحه، فنظر بعضهم إلى بعض » و قد تساءلوا عن بيته و ارتابوا في أسبابها، و هذه من طبيعة الإنسان أنه إذا رأى شخصا مبتلى اعتقد بأنه يستحق ذلك لما عمل من الذنوب، و لكن البلاء ليس بالضوره أن يكون لهذا السبب، بل قد يكون للزياده في أجر العبد و تمحيصه

ثم مشوا إليه و كان فيهم شاب حدث السن فقعدوا إليه فقالوا: يا أثيوبي لو أخبرتنا بذنبك لعل الله كان يهلكنا إذا سألناه، و ما نرى ابتلاك بهذا البلاء الذي لم يتل به أحد إلا من أمر كنت تستره؟ فقال أثيوبي عليه السلام: « و عزه ربى إنه ليعلم أنى ما أكلت طعاما الا و يتيم أو ضعيف يأكل معى، و ما عرض لى أمران كلاهما طاعه لله إلا أخذت

بأشدهما على بدني، فقال الشاب: سوءه لكم عيرتم نبى الله حتى أظهر من عباده ربه ما كان يسرها؟ فتألم أيوب عليه السلام لذلك، حيث رأى أقرب الناس إليه يشكون في عبادته. فقال أيوب عليه السلام: «يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجتي» يعني لو كنت أنا القاضي، لكنني أقول لهم بأنني لا أستحق هذا البلاء ولدى حجه على ذلك، ولكن لم أقل لأنني أنا العبد وأنت ربّ.

بعث الله إليه غمامه فقال: يا أيوب أدل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب ولم أزل، فقال: يا رب إنك لتعلم انه لم يعرض لي أمران قط كلاما لك طاعه الا -أخذت بأشهادهما على نفسي، ألم أحمدك؟ ألم أشكرك؟ ألم أسبحك؟ قال: فنودي من الغمامه بعشره آلاف لسان: يا أيوب من صيرك تعبد الله و الناس عنه غافلون؟ و تحمده و تسبحه و تكبره و الناس عنه غافلون؟ أتمن على الله بما لله فيه منه عليك؟ قال: فأخذ التراب فوضعه في فيه ثم قال: لك العتبى يا رب أنت فعلت ذلك بي، فأنزل الله عز و جل عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان و أطرا، و أنبت الله عليه روضه خضراء و رد عليه أهله و ماله و ولده و زرعه، و قعد معه الملك يحدثه و يوئشه، فأقبلت امرأته معها الكسره (و هي القطعه من الخبر اليابس) فلما انتهت الى الموضع إذا الموضع متغير و إذا رجلان جالسان، فبكـت و صاحت و قالت: يا أيوب ما دهاك؟ فناداهما أيوب فأقبلت فلما رأته و قد رد الله عليه بدنـه و نعمـه سجدـت للـه عـز و جـل شـكرـا، فرأـي ذـؤـابتـها مـقطـوعـه، و ذلك أنها سـأـلت قـوـماـ أن يـعـطـوهـا ما تـحـمـلـهـاـ إلىـ أيـوبـ عـلـيـهـ السـلـامـ منـ الطـعـامـ، وـ كـانـ حـسـنـ الذـوـائـبـ، فـقـالـواـ لـهـاـ: تـبـيـعـنـاـ ذـؤـابتـكـ هـذـهـ حتـىـ نـعـطـكـ؟

فقطعتها و دفعتها إليهم، وأخذت منهم طعاماً لأيوب، فلما رأها مقطوعه الشعر غضب و حلف عليها أن يضربها مأه، فأخبرته انه كان سببه كيت و كيت، فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عز و جل إليه «خُذْ بِيَدِكَّ ضِغْثَا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ» فأخذ عدقا مشتملا على مائه شمراخ فضربها ضربه واحده فخرج من يمينه (٤٥) [١] وبعد أن اختتم السياق قصه أيوب و صبره، واستقامته امام كل الضغوط، شفعها بالدعوه الى ذكر بعض الأنبياء و التفكير في تاريخهم لأخذ العبر و الدروس منه، إذ ينبغي للرسالين أن ينظروا في تاريخ قادتهم و إخوانهم الذين سبقوهم، و يلاحظوا معاناتهم و استقامتهم لله، فان ذلك يزيدهم ايمانا بخطهم الرسالي، و ثقه بأنفسهم و تحركهم و استقامه على الطريق.

وَ اذْكُرْ عِبَادَتَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَئِدِي وَ الْأَبْصَارِ ما يحتاجه الإنسان لبلوغ التكامل القوه و الرؤيه، فبقوته يتحقق ما يراه و يبدو أن ظاهر الآيه يدل على وجود الأيدي (القوه) عند الأنبياء و الأ بصار (الرؤيه) الا أن باطنها القوه في الإيمان، و البصيره في الدين، و هكذا

جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقي عليه السلام قال :

«أولوا القوه في العباده و البصر فيها» (٢) و الجدير باللاحظه أن ربنا اكتفى هنا بالدعوه الى تذكر هؤلاء العظاماء، دون أن يعرض لنا مشاهد من حياتهم تعتبر بها، و هكذا في موارد كثيره من القرآن، و ذلك لأسباب:

ص: ٣٨٠

١ - (١) المصدر / ص (٤٦٦).

٢ - (٢) المصدر / ص (٤٦٧).

الاول:أن مجرد تذكر الرسالى بأنه ينتمى الى خط فيه هؤلاء العظاماء الذين أسسوا تاريخ المجد للبشرية،هو أمر مفيد جدا،يعطى الايمان و الثقه و الاستقامه بالرغم من كل العوامل و الظروف المضاده،إذ لا يشعر و هو يعاني من الرفض و الحرب بشتى صورها بالضعف و الوحده،و هو يشعر بانتمائه الى هذا الخط،و الى هذا التاريخ العظيم.

الثانى:أن القرآن وحده واحده،و يكمل بعضه ببعضا،فيتمكن لقارئه أن يجد في سوره الصافات تفصيل ما أشارت اليه سوره(ص)،و هكذا بالنسبة لسائر السور مع بعضها،و علينا الا نكون من الذين اتخذوا القرآن عضين،فصارت نظرتهم اليه نظره تجزيئيه،بل نسعى لمعرفة آيات القرآن من خلال نظر شاملى إليها جميا.

[٤٦]ثم إن القرآن عرض أهم ما يستفاد من حياتهم،لكى يؤكدا بأن القصص التى يوردتها ليست للتسلية أو مجرد زيادة المعرفة بالتاريخ انما هي للتعلم و الموعظه. يقول تعالى عن إبراهيم و اسحق و يعقوب:

إِنَّمَا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصِهِ ذُكْرَى الدَّارِ حِينَما يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَسْمَعُ عَنْ حَيَاتِ الْعَظَمَاءِ، أَوْ مَا يَجْبُ أَنْ يَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ مَعْرِفَتُهُ هُوَ سُرُّ عَظَمَتِهِمْ، لَا - لَكِي يَعْرِفُ وَ حَسْبٌ بَلْ لَكِي يَأْخُذُ بِأَسْبَابِ الْعَظَمَهِ أَيْضًا، وَ سَبَبِ عَظَمَهُ هُؤُلَاءِ وَ رَفِعَهُ شَأْنَهُمْ، هُوَ الْإِيمَانُ الْخَالِصُ بِالْآخِرَهِ وَ تَذَكُّرِهِ، الَّذِي كَانَ يَزِيدُهُمْ بَعْدًا عَنِ الْمُعْصِيَهِ وَ قَرْبًا إِلَيْهِ الطَّاعَهِ. أَوْ لَيْسَ رَبُّنَا يَقُولُ فِي سُورَهِ الْمُمْتَنَهِ: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَهُ حَسَنَهُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الذِّينَ مَعَهُ ثُمَّ تَوَاصَلَ الْآيَاتُ إِلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَهُ حَسَنَهُ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوَ اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١).إن العوامل الأخرى لم تتدخل في صياغه

ص: ٣٨١

١-١ سوره الممتحنه الآيات (٣-٦).

شخصيه هؤلاء،انما بقى ذكر الآخره وحده حالصا هو الذى يؤثر فىهم،فحينما آمنوا بالله تعالى،و تحملوا مسئولياتهم الرساليه لم يتطلعوا الى مطامع دنيويه من خلالها،ولو تداخلت عوامل أخرى فى ذلك لم يرتفعوا الى هذه المترزله من الإخلاص.

[٤٧] وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَهَنِ الْأَخْيَارِ أى اصطفاهم الله و كانوا من أفضل العباد عنده وأخلصهم له،لان الإخلاص نفسه على درجات.

[٤٨] و يخلد القرآن أسماء طائفه أخرى من الأنبياء،و يدعونا لذكرهم.

و اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلُّ مِنَ الْأَخْيَارِ و قد يكون السبب فى ضم هؤلاء الثلاثة الى بعضهم،و أولئك إلى بعضهم فى الآيات المتقدمة،هو اختلاف منزله الفريقين عند الله،و أن الفريق الاول هم الأفضل و ذلك بدلالتين:

١-انتماء إبراهيم عليه السلام الى المجموعه الاولى و أفضليته ظاهره لأنه من أولى العزم.

٢-السياق القرآني الذى وصف أولئك بالمصطفين أولا و الأخيار ثانيا،بينما اقتصر فى مدح هؤلاء بكلمه «الأخيار».

[٤٩] و يؤكّد القرآن فى نهاية الدرس الذى تختتم به القصص الهدف منها،و أهميتها لمن أراد التقوى.

هذا ذِكْرٌ

ليشتمل على موعظه، يتفع بها المؤمنون حيث يتأنسون برسول الله. الأمر الذي يبلغ بهم الفوز وال فلاح.

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَهُسْنَ مَآبٍ وَالْمَآبُ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَسْتَقِرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ فَهُوَ يَعُودُ إِلَيْهِ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُ. وَهُنَّ الْمَآبُ بِمَعْنَى الْعَاقِبَةِ وَالنَّهَايَةِ. وَفِي الْآيَةِ تَطْمِينٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْأَمْرَ فِي صَاحِبِهِمْ مِمَّا كَانَ ظَاهِرَهُمْ مِعَاكِسًا.

[٥٠] وَبِيَنِ اللَّهِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ فَيَقُولُ:

جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَهِيَ أَفْضَلُ الْجَنَانِ وَفِيهَا الْخَلُودُ، وَمَآبُ الْمُتَّقِينَ إِلَى أَفْضَلِ جَنَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.

مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ حِينَما يَقْدِمُونَ عَلَيْهَا، وَالَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ هُوَ الْإِيمَانُ وَالدُّعَاءُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهِيَ مُفْتَحَةُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقْطًا لَا لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ.

[٥١] مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ وَهَذِهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَدِي الْاَطْمَئْنَانِ الَّذِي يَلَاقُونَهُ فِيهَا.

يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاعِلَتِهِ كَثِيرٌ وَشَرَابٌ جَزَاءُ لَهُمْ عَلَى اِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَتَعْوِيضاً عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَلِذَاتِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

[٥٢] و من أعظم ما يستلذ به المؤمنون في الجنـه هـم الحور العـين، و لعل تركيز القرآن على ذكر الحور في حديثه عن ثواب المؤمنـين، ينطلق من أن أصعب الفتن التي يتعرضون لها في الحياة الدنيا هي فتنـه الشـهـوه الجنسـيـه، و لـكـي يتـجاـوزـوا إـغـراءـها و ضـغـطـها يـذـكـرـهم الله بـعـاقـبـه ذـلـكـ، حيث الظـفـرـ بالـحـورـيـاتـ فيـ الجنـهـ.

وَ عِنْدُهُمْ قَاصِهٌ رَأَتُ الطَّرْفَ أَتْرَابٌ فَهُنَّ لَا يَنْظَرُنَّ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَ يَنْظَرُنَّ إِلَى الْأَرْضِ احْتِرَامًا لِأَزْوَاجِهِنَّ وَ تَوَاضِعًا. وَ هُنَّ أَتْرَابًا إِلَيْهِنَّ مِثْلًا سَوَاءٌ فِي السِّنِّ، أَوْ فِي كَوْنِهِنَّ أَبْكَارًا غَيْرَ مَطْمُوْثَاتٍ، وَ يَقُولُ فَلَانَهُ تَرْبَ لَفَلَانَهُ إِذَا أَرِيدَ التَّسَاوِيَ بَيْنَهُمَا فِي الْعُمَرِ، وَ هَكُذا يَتَسَاوِي عَنْدَ الْمُؤْمِنِ الْمِيلَ إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ دُونَ تَفْضِيلٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْآخَرِيَّ لِأَنَّهُنْ جَمِيعًا الْقَمَهُ فِي الْجَمَالِ وَ الرُّوعَهِ.

[٥٣] ثم أن الله يدعونـا للعمل و الاستقامـهـ فيـ سـيـلهـ وـ لـكـنـ بـطـرـيقـ غـيرـ مـباـشـرـ وـ ذـلـكـ حـينـماـ يـعـدـناـ بـالـجـزـاءـ المـتـقدـمـ الذـكـرـ.

هـذـاـ مـاـ تـُوعـيـدـونـ لـيـوـمـ الـحـسـابـ وـ لـاـنـ الـمـسـافـهـ بـيـنـ هـذـاـ الثـوـابـ وـ الـإـنـسـانـ تـتـمـثـلـ فـيـ الـإـيمـانـ وـ عـمـلـ الصـالـحـاتـ، فـاـنـ الـآـيـهـ تـشـتـملـ طـبـيـعـاـ عـلـىـ الدـعـوـهـ إـلـىـ ذـلـكـ. وـ قـدـ اـسـتـخـدـمـ الـقـرـآنـ كـلـمـهـ الـحـسـابـ تـأـكـيـداـ لـهـذـهـ الـحـقـيـقـهـ، وـ لـوـ كـانـ الـجـزـاءـ يـحـصـلـ بـلـاـ عـمـلـ فـلـمـاـ ذـاـ الـحـسـابـ إـذـنـ؟ـ!ـ [٥٤]ـ وـ يـتـمـيـزـ نـعـيمـ الـآـخـرـهـ عـنـ نـعـمـ الـدـنـيـاـ، ذـاتـيـاـ بـالـتـنـوـعـ وـ الـجـودـهـ، وـ زـمـنـيـاـ بـالـخـلـودـ، فـالـنـعـمـهـ تـزـدـادـ وـ تـتـجـدـدـ دـائـمـاـ.

إـنـ هـذـاـ لـرـزـقـنـاـ مـاـ لـهـ مـنـ نـفـادـ وـ مـاـ دـامـ اللهـ باـقـ فـاـنـ رـزـقـهـ لـلـمـؤـمـنـيـنـ لـاـ يـنـتـهـيـ.

اشاره

هذا و إن للطاغين لشرا ماب (٥٥) بجهنم يصلونها فيس المهد (٥٦) هذا فيلذوفوه حميم و غساق (٥٧) و آخر من شكله أزواج (٥٨) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالحوا النار (٥٩) قالوا بال أنتم لا مرحبا بكم أنتم قد متّمودة لنا فيس القرار (٦٠) قالوا ربانا من قدم لنا هذا فرذه عذابا ضغفا في النار (٦١) وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) أخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل إنما أنا نذير و ما من إله إلا الله الواحد القهار (٦٥) رب السموات والأرض و ما بينهما العزير الغفار (٦٦) قل هو نبا عظيم (٦٧) أنتم عنه معرضون (٦٨) ما كان لي من علم بالملائكة اذ يختصمون (٦٩) إن يوحى إلى إلا إنما أنا نذير مبين (٧٠)

الله

[غساق]: ما يقطر من جلود أهل النار و سمى غساقا لشده سواده فهو يشبه ظلمه الليل، قال تعالى: «إلى عسى الليل» إلى ظلمته.

هدى من الآيات:

الآيات القرآنية آيات مثاني متشابهات، و من معانى هذه الكلمة انها تجرى على أساس المقابلة، الجنـه و النارـ، و الصالـح و المفسـد، و الحـيـر و الشـرـ...و لا يـعـرـفـ الشـىـءـ بـأـبـعـادـهـ و حـدـودـهـ إـلـاـ بـمـقـارـنـتـهـ معـ أـصـدـادـهـ، فالـهـارـ يـعـرـفـ بـالـلـيلـ، وـ الـحـيـاهـ تـعـرـفـ بـالـمـوـتـ، وـ الـغـنـىـ بـالـفـقـرـ.

ولـكـىـ يـعـرـفـناـ رـبـنـاـ بـنـعـيمـ الـجـنـهـ يـحـدـثـنـاـ عـنـ عـذـابـ جـهـنـمـ الـتـىـ يـسـتـقـرـ فـيـهـ ذـوـىـ الـعـقـائـدـ وـ الـأـعـمـالـ الـمـنـاقـضـهـ لـأـصـحـابـ الـتـعـيمـ، وـ مـنـ خـلـالـ الـآـيـاتـ الـتـىـ وـرـدـتـ فـىـ كـلـ الـقـرـآنـ يـنـصـحـ اـنـ الـمـسـافـهـ بـيـنـ الـعـاقـبـيـنـ مـنـعـدـمـهـ تـامـاـ، فـلـيـسـ ثـمـ مـنـطـقـهـ أـخـرىـ بـيـنـهـمـاـ، لـهـذـاـ يـكـفـىـ الـإـنـسـانـ حـتـىـ يـدـخـلـ الـجـنـهـ أـنـ يـخـرـجـ نـفـسـهـ مـنـ النـارـ، وـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ: كـلـ نـفـسـ ذـائـقـهـ الـمـوـتـ وـ إـنـمـاـ تـوـفـونـ أـجـورـكـمـ يـوـمـ الـقـيـامـهـ فـمـنـ زـُـخـرـحـ عـنـ النـارـ وـ أـدـخـلـ الـجـنـهـ فـقـدـ فـازـ وـ مـاـ الـحـيـاهـ الدـلـيـلـ إـلـاـ مـتـاعـ الـغـرـورـ (١)

ص: ٣٨٧

(١) آل عمران / ١٨٥

و هنا في هذه السوره وبعد أن يبين القرآن الحكيم أمثله واقعيه من التاريخ عن الذين أخلصوا لله في معتقداتهم وأعمالهم، فصاروا بذلك قدوه و أئمه في الصالحات، فمنهم من صبر و تجاوز إغراء السلطة و المال كداود و سليمان (عليهما السلام) و منهم من صبر على البلاء حتى صار مضرب المثل كأيوب عليه السلام فنالوا الجنة على ذلك، بعد ذلك كله يضرب لنا مثلاً من واقع أصحاب النار الذين عصوا الله، و حاربوا المؤمنين، و طغوا في الأرض. و كما أن الأنبياء يشفعون لأتباعهم و يدخلونهم الجنة لا يدخل هؤلاء النار بمفردهم إنما يجرّون معهم كل من انتهى إليهم، و اتبع خطهم في الحياة، و هناك يتخاصم التابع والمتبوع تخاصماً عنيفاً، يلقى من خلاله كل طرف المسؤولية على الطرف الآخر، و كان ينبغي أن يحدث هذا الصراع في الدنيا، بان يتمرد الإنسان على أئمه الكفر، و يثور على الطغاة، أما و هو لم يفعل ذلك فلن ينفعه تخاصمه في يوم الحساب شيئاً و قد فوت على نفسه فرصه الاختيار السليم، و العمل الصالح في دار الابلاء.

ان السبب الذي يدعو أكثر الناس لأنباء الطغاة، و الانسجام مع الواقع المنحرف الذي يصنعونه في المجتمع ليس عدم معرفتهم بخطئه، إنما لا يعارضون ولا يثورون هرباً من صعوبات الصراع و مسئولياته، و إذا استطاعوا ذلك في الدنيا فإنهم يجدون مراره الصراع في نار جهنم، حيث الظروف القاسية، و العذاب الأليم المستمر.

إن ربنا يقسم في هذه الآيات بأن الصراع في النار حق - كما أكد ذلك في الدنيا في موقع آخر من القرآن، و التخاصم الذي يشب لظاهه هناك له دليل على ترك الإنسان الالتزام بمسؤوليات الصراع في هذه الحياة، و الذي لا يختار الحق بإرادته يخضع له على الرغم منه، و قد ترك هؤلاء مكافحة الظلم، فها هم يكافحونه هناك في النار.

[٥٥] كما رَكِّزت الآيات في أذهاننا مشهد الجنة و بالتالي جزاء المخلصين تذكرنا في المقابل بعاقبه الطغاه.

هـذا اسم اشاره يتضمن دعوه للذى يتلو القرآن بالنظر فى عاقبه المتقين،و التفكير فى جزائهم،و لكن ينبغي أن لا يغفل عما أعد للظالمين من العذاب،و ذلك من أجل أن يحفظ توازن نفسه و عقله بين الرجاء و الخوف.

و إِنَّ لِلْطَّاغِيْنَ لَشَرًّا مَّا بِّ و تقابل هذه الآية الآية [٤٩] التي وردت في الدرس الماضي،فلمتقين العاقبه الحسنة عند الله،و للطغاه عاقبه السوء و الشر،و ليس المقصود من الطاغيه هنا السلطان الجائر وحده،و ان كان هو التجسيد الأوضح و الأشمل للطغيان،انما جنوده و أجهزته أيضا،إذ لو لا هم لما قدر على الظلم و الفساد،بل لعلنا نعمم الحكم على سائر معانى الطغيان،فكم يطغى الإنسان في الحياة السياسيه فانه يطغى كذلك في الحياة الاجتماعيه،فيظلم جاره و أسرته و الناس،و يظهر من أحاديث مستفيضه في تفسير الآية ان المعنى بالطاغين هم سلاطين الجور، بينما المعنى بما يلى هم أتباعهم و من سار على دربهم.

[٥٦] و تفصيل الآيات في ذكر عاقبه الطغاه،زياده في التخويف لعل الإنسان يثوب عن الباطل،و يهتدى للحق رغبه في الثواب،و رهبه من العذاب.

جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا

قال بعض الفلاسفة القدماء-يتبعهم بعض الجهلة اليوم-إن أهل النار يتعدون على عذابها فلا يعودون يتأثرون به،و جسدوا هذه الفكرة المنحرفة في هيكل حيوان زعموا بأنه يلتهم النار،أما القرآن و هو الحق فانه يخالف هذه الخرافه مؤكدا بان المجرمين يتذوقون العذاب،و كلمه «يصلونها»تعنى انهم تمسمهم جهنّم مسا.

فَبِسْرَ الْمِهَادُ وَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَمْهِدُ وَ يَهْيَا لَهُمْ وَ كَأَنَّهُمْ مَهْدُوا لِأَنفُسِهِمْ فَرَاشَا مِنَ النَّارِ فِي جَهَنَّمَ،^{بَلِ} تَمْهِيدُ الْأَرْضِيَه لِسُلْطَانِهِمْ تجسد في ذلك اليوم في تمهيد جهنّم لهم.

[٥٧] هَذَا فَلَيْذُو قُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ وَ الْحَمِيمُ هُوَ الْحَرَارَه الشَّدِيدَه،اما الغساق فهو كما جاء في بعض كتب اللغة:

القيق التتن،و

في الروايه عن الامام أبي جعفر عليه السلام قال :

«الغساق واد في جهنم فيه ثلاثة و ثلاثون قصرا،في كل قصر ثلاثة و ثلاثون زاويه،في كل زاويه شجاع(الحيه العظيمه المخيفه) في كل شجاع ثلاثة و ثلاثون عقربا،في كل حمه عقرب(إبره العقرب) ثلاثة و ثلاثون قله من سم،لو أن عقربا منها نضحت سماها على أهل جهنم لوسعهم سماها» [١][٥٨] و آخر من شكله أزواج و لا يقتصر العذاب على هذين النوعين انما هو أنواع و أساليب مختلفه كثيره،

ص: ٣٩٠

١-١) نور الثقلين ج ٤ ص ٤٦٧.

و نستوحى من هذه الآية ان أنواع العذاب كثيره جدا، إلّا ان بعضها يتلازم مع بعض، كما يتلازم الحميم مع الغساق و يكمله.

[٥٩] و بعد أن يدخل الطغاه النار و ينتهي كل واحد إلى موقعه الذي يضيق به، يجدون آخرين من أشباههم و اتباعهم الذين انخدعوا بهم يدخلون معهم إلى جهنم و يقال لهم:

هـنـا فـوـج مـقـتـحـم مـعـكـم و اـحـتـمـل ان يـكـونـ المـرـادـ منـ الـآـخـرـ: الفـوـجـ الـآـخـرـ، وـ هـمـ أـزـوـاجـ وـ مـشـابـهـوـنـ لـلـفـوـجـ الـأـوـلـ، وـ يـكـونـ ذـلـكـ تمـهـيـداـ لـلـحـدـيـثـ التـالـىـ عـنـهـمـ، وـ هـذـاـ يـتـشـابـهـ وـ ماـ ذـكـرـنـاهـ فـىـ تـفـسـيـرـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: أـخـسـرـوـاـ الـذـيـنـ ظـلـمـوـاـ وـ أـزـوـاجـهـمـ وـ مـاـ كـانـوـاـ يـعـبـدـوـنـ (١) وـ الـاقـتـحـامـ هوـ الدـخـولـ فـىـ الشـىـءـ بـشـدـهـ كـالـمـسـمـارـ الـذـيـ لـاـ مـكـانـ لـهـ فـىـ الـحـائـطـ فـتـدـخـلـهـ الـمـطـرـقـهـ قـسـراـ، وـ لـأـنـ الـطـغـاهـ يـتـعـذـبـوـنـ مـنـ ضـيـقـ الـمـكـانـ، وـ

أنـ النـارـ تـضـيقـ عـلـيـهـمـ كـضـيقـ الزـرـ بالـرـيـحـ (٢) كـمـاـ جـاءـ فـىـ حـدـيـثـ الرـسـوـلـ(صـ) فـإـنـهـمـ يـنـادـوـنـ بـهـمـ، لـهـذـاـ وـ عـلـىـ خـلـافـ مـاـ يـقـولـهـ صـاحـبـ الـبـيـتـ لـضـيـفـهـ فـإـنـهـمـ يـقـولـونـ:

لـاـ مـرـحـبـاـ بـهـمـ أـىـ لـاـ مـكـانـ يـسـعـهـمـ، وـ لـاـ نـفـسـ تـقـبـلـ بـحـلـوـلـهـمـ، وـ الرـحـبـ هوـ الـمـكـانـ الـوـسـيـعـ، فـكـأـنـهـمـ أـرـادـوـاـ القـوـلـ: بـأـنـ الـمـكـانـ ضـيـقـ وـ يـضـيقـ أـكـثـرـ بـهـمـ، وـ عـلـلـوـاـ لـعـنـهـمـ وـ سـبـهـمـ لـهـمـ بـأـنـهـمـ أـهـلـ جـهـنـمـ، وـ هـلـ يـرـحـبـ بـمـنـ سـيـصـلـىـ نـارـاـ؟ـ!

ص: ٣٩١

١ - (١) الصـافـاتـ / ٢٢

٢ - (٢) نـورـ الثـقـلـيـنـ / جـ ٤ـ صـ ٤٦٧ـ وـ الزـرـ - كـمـاـ يـبـدوـ هوـ الـقـرـيـهـ

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ وَ هَذَا مَا يُؤْكِدُهُ رَبُّنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أَخْتَهَا .

[٦٠] وَ يَبْدُأُ حِينَذِ الصراعُ العنيفُ بَيْنَ الطرفَيْنِ، وَ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَى التَّخَاصِمِ وَ التَّقَاتِلِ، وَ فِي الْبَيْنِ يَلْقَى الْبَعْضُ الْمَسْؤُلِيَّةَ عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ.

قَالُوا اتَّبَاعُ وَ هُمْ يَرْدُونَ عَلَى كَلَامِ الطَّغَاهِ، حِيثُ تَحْوِلُ التَّحْيَيْهُ وَ أَعْرَافُ الْاسْتِقبَالِ إِلَى سَبَابِ بَيْنِهِمْ.

بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ لِأَنَّكُمْ السَّبَبُ وَ مِنْكُمُ الْأَذْيَ وَ الْعَذَابُ، وَ يَوْاصلُ التَّابِعُونَ شَجَارَهُمْ مَعَ الطَّغَاهِ وَ هُمْ يَحَاوِلُونَ تَبْرِيرَ مَوْقِفِهِمْ، وَ التَّهَبُّ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّهِ.

أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا إِذَا أَغْرَيْتُمُونَا بِاتِّبَاعِكُمْ، وَ ضَلَّلْتُمُونَا بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ حَتَّى صَرَنَا إِلَى هَذَا الْعَذَابِ.

فَيُئْسِنَ الْقَرْأُزُ أَيْ سَاءَ الْمَكَانِ الَّذِي نَسْتَقِرُ وَ نَثْبِتُ فِيهِ، وَ يَقَالُ: فَلَادِنْ قَرَرَ أَنْ يَفْعُلَ كَذَا إِذَا ثَبَتَ فَكْرُهُ عَلَى رَأْيِ مَعِينٍ فَهُوَ غَيْرُ مُتَرَدِّدٍ، بَلْ حَاسِمٌ وَ قَاطِعٌ فِي أَمْرِهِ.

وَ هَذِهِ الْكَلِمَهُ تَدْلِي عَلَى الْخَلُودِ فِي النَّارِ، وَ حِينَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ الْأَخِيرُ سِيَّئًا فَسَاءً

مصيرًا.

[٦١] و يطلب التابعون من الله أن يزيد العذاب على الطغاه، جزاء لهم على جرائمهم التي مارسوها بأنفسهم، و على المعاصي التي مارسها التابعون بضغوطهم و تضليلهم.

قالوا رَبُّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدْهُ عَذَاباً ضِحْنَةً عَفْنَةً فِي النَّارِ [٦٢] ثم يلتفتون إلى بعضهم و يتساءلون لماذا لا نجد فلانا و فلانا-يقصدون بعض المؤمنين-في النار؟! قالوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ و هناك تكشف لهم اخطاؤهم، ففي البدء اكتشفوا ان القياده التي اتبواها كانت منحرفة، و الآن تبين لهم أيضا ان مقاييسهم في الحياة و تقييمهم للآخرين هي الأخرى كانت خاطئه، و كان ينفعهم ذلك لو عرفوه في الدنيا و عملوا على إصلاح أنفسهم، و لكنهم رفضوا الرساله و اتبعوا الأهواء.

[٦٣] و يرد أهل النار عدم رؤيتهم لمن كانوا يتصورونهم أشرارا في النار إلى أحد سببين، فاما انهم صاروا إلى الجنه و هذا يعني ان مقاييسهم و بالتالي موقفهم تجاه أولئك كان خاطئا، او انهم موجودون معهم و لكنهم لا يرونهم.

أَتَأْخَذُنَاهُمْ سِخْرِيًّا فِي الدُّنْيَا وَ تَبَيَّنَ الآن سَلَامَهُ خَطْهُمْ.

أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ

فلا-نراهم؟ و لهذا المقطع تفسير آخر هو: انهم يعنون الله، بأنه ربما أدخلهم الجنة غفلة و اشتباها مع انهم من أهل النار، و تعالى ربنا أن يضل أو ينسى، بل هم المخطئون في تقديرهم للمؤمنين.

و يبقى السؤال: من هم أولئك الذين تعنيهم الآيات في واقعنا الراهن؟ انهم الطغاة بلا ريب، و هم حكام الجور المتسلطون قسرا على رقاب العباد، و الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، و يتتجاوزون حدود الله، و يذلون عباد الله، أما جنودهم و أزواجهم فهم الذين يتبعون نهجهم، أو يشاركونهم في ظلمهم.

أما الذين يدعونهم من الأشرار فهم التاثرون ضدتهم من عباد الله المخلصين، الذين رفضوا عباده غير الله، و اتخاذ الآلهة المزيفة أربابا من دون الله رب العالمين.

ان الطغاة و جنودهم من قوى القمع، و أبوات الضلال، يكيلون التهم ضد التائرين عليهم، و يعتبرونهم شرًا من اليهود و النصارى و المجوس، أرأيتم كيف يقبلون أيدي الأعداء و يطّبعون العلاقات معهم، و يفتحون الأبواب أمامهم، و في المقابل يزجّون بالمؤمنين في السجون الرهيبة.

ولكن هؤلاء الذين اعتبروهم أشارة في الدنيا يفتقدونهم في النار، و يعلمون أنهم هنالك في الجنة يحبرون.

و كان اتباع أهل بيته من هؤلاء، إذ رفضوا سلطات الجور و الضلال، و طاردوهم قوى الإرهاب، و أسلقوهم بأشع النهم، و لكن أئمه الهدى من آل الرسول (عليهم السلام) كانوا يسلونهم بأنهم سوف يحبرون في الجنة بينما

يطلبون في النار.

يقول (ميسر) وهو أحد التأثرين ضد سلطات الجور:

دخلت على أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) فقال: «كيف أصحابك؟» فقلت: جعلت فداك لنحن نحن عندهم أشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.

قال و كان متكتئاً فاستوى جالساً، ثم قال: «كيف؟» قلت و الله لنحن عندهم أشر من اليهود والنصارى والذين أشركوا، فقال: «أما والله لا يدخل النار منكم اثنان، لا والله ولا واحد انكم الذين قال الله عز وجل:

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرِي رِجَالًا كُنَّا نَعْيِدُهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَخْذِنَاهُمْ سِتْحَرِيَاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ قَالَ لَهُمْ طَلْبُوكُمْ وَاللهُ فِي النَّارِ - فِي النَّارِ - فَمَا وَجَدُوكُمْ مِنْكُمْ أَحَدًا »^(١) هكذا اليوم يتعرض المؤمنون الصادقون للضغوط ولكنهم سوف يحبرون في الجنة حين يتخاصم الطغاة وجنودهم وأتباعهم في النار.

[٦٤] بلـيـ. هذا الصراع في النار من واقع...

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ [٦٥] وـ انـما جاءـت رسـالـات الله لـتنـقـذ الإـنسـان من هـذا المصـير الأـسوـأـ.

ص: ٣٩٥

١- (٤٦٨) المصدر/ص

و التخاصم من خلال دعوتها له لنبذ الآلهه المزيفه، و اتباع التوحيد الخالص في الحياة، فنهته عن عباده الطغاه بطاعتهم، و عن عباده الأجيال السابقة باتباع سيرتها الخاطئه.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَ حَتَىٰ هَذَا الْمَنْذُرِ يَجِبُ أَنْ لَا يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَوْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَا بَلَغَ.

وَ مَمَّا مِنْ إِلَهٍ إِلَّاَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي يَقْهِرُ الْأَعْدَاءَ وَ يَغْلِبُهُمْ، وَ مِنْ أَبْرَزِ شَوَاهِدِ الْقَهْرِ وَ وَسَائِلِهِ هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي يَخْضُعُ لِهِ
الْجَمِيعُ، فَلَا يَقْوِي أَحَدٌ عَلَى دُفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَ نَقْرَأُ

فِي دُعَاءِ الصَّبَاحِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهُ: «فِيَا مِنْ تَوْحِيدٍ بِالْعَزَّ وَ الْبَقَاءِ، وَ قَهْرِ عَبَادِهِ بِالْمَوْتِ وَ الْفَنَاءِ» (١) وَ لَا يَنْحَصِرُ قَهْرُ
اللَّهِ فِي الْمَوْتِ وَ حَسْبٍ بَلْ يَدْخُلُ فِي تَطْبِيقِ كُلِّ حَقٍّ وَ سَنَّةٍ فِي الْحَيَاةِ، وَ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لِلَّهِ وَ لِلْحَقِّ الَّذِي تَضَمِّنَهُ رِسَالَاتُهُ، وَ بِمَا
يَنْذِرُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَ مِنْ يَتَبعُهُمْ بِإِختِيَارِهِ وَ إِرَادَتِهِ فَسُوفَ يَقْهِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالرَّغْمِ مِنْهُ، فِي الدُّنْيَا إِنْ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

[٦٦] وَ حَتَىٰ لَا يَسْتَبِدَ بِنَا الْخَوْفُ مِنْهُ تَعَالَى، يَذَكِّرُنَا بِرَحْمَتِهِ وَ غَفْرَانِهِ.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الْغَرِيزُ الْغَفَّارُ وَ رَبُّ الشَّيْءِ هُوَ الْأَرَأَفُ بِهِ، وَ الْأَحْرَصُ عَلَيْهِ.

[٦٧-٦٨] وَ مِنَ الْعِوَالِمِ النُّفْسِيَّهِ لَارْتِكَابِ الْخَطَأِ وَ الْوَقْوَعِ فِي الْضَّلَالِهِ التَّهَاوُنُ

ص: ٣٩٦

بهم، و الاسترسال فيهما، و عدم الجديّه في مواجهتهما، فان الله يقول:

قُلْ هُوَ بِنَا عَظِيمٌ * أَتَتْمُ عَنْهُ مُعْرِضُونَ أَيْ اعْرَاضُكُمْ عَنْ عَبَادَةِ اللَّهِ، وَ تَوْجِهُكُمْ إِلَى الشَّرِكِ أَمْ عَظِيمٌ جَدًا، وَ هَلْ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الْإِنْسَانِ رَبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَى الشَّرِكَاءِ الْمُزِيفِينَ، وَ نَبْذِهِ قِيمَ الْحَقِّ الْفَطَرِيِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَ الْضَّلَالِ؟ إِذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَهِيْنَ إِنْسَانٍ بِالشَّرِكِ وَ يَسْتَرِسْلُ مَعَهُ، وَ إِلَى أَيْنَ يَنْحَدِرُ بِهِ مَهْوِيُّ الشَّرِكِ؟ إِلَى الْجَحِيْمِ، وَ هَلْ يَمْكُنُ أَنْ يَسْتَهِيْنَ بِعَذَابِهِ الْخَالِدِ؟ وَ حِينَ يَكُونُ إِنْسَانٌ جَدِّيًّا فِي مَوْاجِهَةِ الشَّرِكِ يَعْرِفُ مَعْانِيهِ، وَ يَتَبَصَّرُ مَهَالِكَهُ، أَوْ لَيْسَ الْخَرْوَجُ عَنْ وَلَيْهِ أَئْمَهِ الْهَدِيَّةِ إِلَى وَلَيْهِ أَئْمَهِ الْكُفْرِ وَ الْضَّلَالِ شَرِكًا، أَوْ لَيْسَ أَتَابَعُ الظَّلْمَهُ أَوْ حَتَّى السُّكُوتُ عَنْهُمْ شَرِكًا عَظِيْمًا، هَكُذا

روينا عن الامام الصادق عليه السلام انه قال في تفسير الآية :الذين أوتوا العلم الأئمه، النبأ:

الإمامه (١) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِّهُمُونَ [٦٩] و يؤكّد ربنا على أهميّة التوحيد، و أنه محور الحوار الذي دار في الماء الأعلى حين خلق الله الإنسان الأول، و اسجد له ملائكته، و رفض إبليس السجود تكبراً، و بالتالي انه هدف خلق البشر، و حكمه سجود الملائكة له، فكيف يجوز التهاون

ص: ٣٩٧

١- (١) تفسير نور الثقلين ج / ص ٤٦٩

فيه؟! [٧٠] إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ان دور الرسول(ص) هو الإنذار بوضوح، ومسئوليته إبلاغ الرسالة إلى الناس كما هي بالضبط، وفى هذا تمهد للحديث الذى سيتطرق له الدرس القادم حول قضيه آدم و إبليس،التي تمثل جانبا من الغيب،حيث يحتاج التسليم لما يقوله الرسول فيها لهذه المعرفة بدورة الرسول،ذلك أن الجدل الذى دار عند خلق الإنسان فى الملاأ الأعلى بين الملائكة و ربهم - سبحانه و تعالى - كان حول حكمه خلق الإنسان الذى يفسد فى الأرض،و يسفك الدماء،ولكن ربنا قال لهم يومئذ:

إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ و كان من علم الله انبعاث الرسل،و ايمان فريق من الناس بهم،و خلوصهم فى عباده ربهم،برغم عواصف الشهوة،و نوازع الكبر و الغفلة،و ضغوط الطغاء،مما جعل هذا الفريق هم صفوه الخلق الذين باهى بهم الله ملائكته المقربين.

و هكذا نقرأ فى النصوص الاسلامية:ان ما اختصم به فى الملاأ الأعلى للأعمال الصالحة التى بادر إليها المخلصون من البشر،

فعن ابن عباس عن النبي(ص) قال :

«قال لي ربى أ تدرى فيما يختص الملاأ الأعلى؟ فقلت:لا، قال: اختصموا فى الكفارات و الدرجات، فأما الكفارات فإنها إسباغ الوضوء فى السيرات، و نقل الأقدام إلى الجماعات، و انتظار الصلاه بعد الصلاه، و أما الدرجات فإنشاء السلام، و إطعام الطعام و الصلاه بالليل و الناس نيام » [\(١\)](#)

ص ٣٩٨:

١-١) المصدر ص ٤٧٠.

عن النبی(ص): «و لا يَتَّبِعُ أَهْلَ بَيْتِهِ حَتَّى المَمَاتِ»^(١) و إذا تدبرنا في سياق الآيات لعرفنا أن أعظم أهداف خلق البشر هو توحيد الله، و لا يتحقق توحيد العبد ربه إلا بالتسليم لولايته لله و لولايته من عقد الله له الولايته، و رفض الأنداد و الآلهة التي تعبد من دون الله، أما مجرد الصلاة دون التسليم للقياده الشرعيه فإنها فارغه عن جوهر العباده.رأيت الطغاه يمنعون عن الصلاه؟ كلام...

بل ترى بعضهم يبادر إلى بناء المساجد، و إقامه الصلوات الحاشده فيها، و لكنهم يتکبرون في الأرض بغير الحق، فهل تشفع لهم صلاتهم هذه؟ كلام.. لأنهم ينazuون الله رداءه، و يغتصبون ولاليه الالهي و يدعون الناس إلى عبادتهم من دون الله.

ص: ٣٩٩

١- (١) المصدر.

اشاره

إذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي خَالقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَعَوَاهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ إِسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِلَيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبِرَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الْدِينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ أَمْحَلَصَةٌ يَوْمَ الْحِقْرِ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٣) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٤) قُلْ مَا أَنْتَ مُلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٥) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٦) وَلَعَلَّمَنَّ بَأْهَ بَعْدَ حِينَ (٨٧)

اللغه

[رجيم]: طرييد مبعّد.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من السوره و كعاده القرآن يؤكّد السياق على الموضوع الاساسى فيها، و ذلك ضمن بيان ما جرى بين رب العالمين و الملائكة ثم بينه وبين إبليس، و مغراه الكشف عن طبيعة الإنسان، و الأسباب الحقيقية التي ترديه، فاذا به وقد كرمه الله على كثير من الخلق ينتهي إلى أسوأ مصير.

في بدايه السوره أكد ربنا على دور العزه و الشقاقي في ضلال الكفار، حيث يغترون بما لديهم من قوه ظاهريه، فيستكبرون على الحق و يشقون عصا الطاعه لله -عز و جل- بينما نجد في مقابلهم أنبياء الله (عليهم السلام)فهم بالرغم من السدرجه المعنويه التي أعطيت لهم (النبوه) و ما أوتي بعضهم من القوه و الملك، إلا انهم في أعلى درجات التوبه و الانابه إلى ربهم.

و في نهايه هذه السوره المباركه يبين الله لنا صوره أخرى لهذه المقابله جرت في

الملائكة، فالعزه بالباطل عند إبليس عليه اللعنه، الذى اعتبر بعنصره، و رفض الخضوع لله فى قضيه، آدم من بين كل الملائكة، و بـر ذلك بأنه و هو المخلوق من نار السّموم أفضل من آدم الطين فكيف يسجد له؟ و لكن من قال: ان الأفضلية للطين؟ ثم لو افترضنا ذلك فهل هذا مبرر لمعصيه رب العالمين و اختيار العاقبه السوأى؟ بالطبع كلا... و لكن إبليس اختار العزه بالباطل متمثله فى العنصرية، ثم راح يغوى الإنسان و يضلله ليكون معه فى غضب الله و ناره.

و فى المشهد الآخر من الصوره نجد ملائكة الله على جلاله قدرهم يخرجون ساجدين لآدم تبعاً لله و طاعه و تسليماً، و يصلو القرآن بينهم و بين عباد الله المخلصين الذين لم يسمحوا لإبليس أن يغويهم.

و لأن سورة «ص» تتشابه و سورة «الصافات» في نفي الوهيه الملائكة و الأنبياء، فانها تنتهي ببيان سجود الملائكة لآدم عليه السلام الذي خلق من طين و الذى يتعرض لإغواء إبليس، و كيف يكون إليها من يسجد لغيره أو يتعرض لإغواء الشيطان؟!

بيانات من الآيات:

[٧١] لما بدا لله تعالى خلق آدم أطلع الملائكة على هذه الإرادة.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ وَالخُطَابُ هُنَا يُشَمَّلُ حَتَّىٰ إِبْلِيسُ، لَأَنَّهُ قَدْ رَفَعَ جَزَاءَ لِعْبَادِهِ لِلَّهِ إِلَىٰ مَقَامِ الْمَلَائِكَةِ، فَمَلَائِكَتُهُ الَّتِي يُشَمَّلُهُ (إِبْلِيسُ) بِمَوْجَبِهِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ - اعْتَبَارِهِ لَا ذَاتِهِ - وَيَبْدُوا أَنَّ مَتْعَلِقَ قُولَهُ: إِذْ قَالَ رَبُّكَ هُوَ قَوْلُهُ فِي آيَةِ سَابِقَهِ... إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

و بما أن أصل خلق البشر طين فلا يجوز أن يتفاخر الناس على بعضهم، كما لا ينبغي أن يفتخر أحد بنفسه و هل لمن أصله الطين فخر؟! و الطين عندنا نحن البشر من أرذل العناصر و أقلها قيمة و اعتبار، و الناس جميعاً خلقوا من طين فلا يجوز أن يتخد بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كالسلطين، و لا أن يصبح البعض صبغة الألوهية على بعض كما فعل النصارى بابن مريم (عليهمما السلام).

[٧٢] و لم يطلع ربنا الملائكة على ما بدا له لمجرد اضافه معلومه جديده إليهم بل ليأمرهم بالسجود له عليه السلام .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وَ قَدْ اتَّصَلَ الْأَمْرُ بِالسَّجْدَةِ بِحَالِهِ التَّسْوِيَّةِ وَ نَفْخِ الرُّوحِ عِنْدِ الْبَشَرِ، وَ هِيَ حَسْبُ الظَّاهِرِ كَمَالُ الْخَلْقِ مَا يُوحَى بِأَنَّ سَجْدَةَ الْمَلَائِكَةِ (الَّذِي يَدْلِي بِضَمِّنَاتِهِ عَلَى تَسْخِيرِ الطَّبِيعَةِ الْمَوْكِلَ بِهَا مَلَائِكَةُ اللَّهِ) (١) يَتَعَلَّقُ بِكَمَالِ الْإِنْسَانِ، فَكُلُّمَا رَقَى الْبَشَرُ مَعَارِجُ الْعِلْمِ وَ الْإِرَادَةِ وَ الْإِيمَانِ وَ التَّقْوَى كُلُّمَا سَخَرَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ أَكْثَرُ فَأَكْثَرُ. أَرَأَيْتَ كِيفَ سَخَرَ اللَّهُ لِدَادِ الْجَبَالِ وَ الطَّيْرِ وَ لِسَلِيمَانَ الرِّيحِ؟ وَ يُوحَى نَفْخِ الرُّوحِ مِنَ اللَّهِ فِي الْإِنْسَانِ وَ قَبْلَ السَّجْدَةِ لَهُ تَخْصُصٌ الْبَشَرُ بِمَيْزَاتٍ لَا تَوَجُّدُ فِي سَائِرِ الْأَحْيَاءِ، وَ يَبْدُو أَنَّ الرُّوحَ هُنَا هِيَ الْعُقْلُ الَّذِي قَالَ عَنْهُ رَبُّنَا سَبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (٢) فَعَوَّلُوا لَهُ سَاجِدِينَ وَ هَكُنَا أَسْسَنَ رَبِّنَا فِي حَيَاتِ الْبَشَرِ مِنْذُ السَّجْدَةِ لِلَّهِ عَبْرَ الْخَضْوعِ وَ التَّسْلِيمِ لِخَلْفَائِهِ

ص: ٤٠٤

١ - (١) راجع تفسير سورة البقرة آية (٣٤).

٢ - (٢) الإسراء / (٨٥).

فِي الْأَرْضِ، وَهُؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَهُم مِنْ أَعْزَى خَلْقَ اللَّهِ أَسْجَدُوهُمْ لَمَنْ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحٍ وَجَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ فِي الْأَرْضِ.

[٧٣] وَ حِيثُ أَمَرَ اللَّهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ إِسْتِجَابَ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ أَيْمَانًا مِنْهُمْ بِوْجُوبِ التَّسْلِيمِ الْمُطْلُقِ لِهِ -عَزَّ وَجَلَ- وَ أَنَّ أَيَّ اجْتِهَادٍ أَوْ قِيَاسٍ مُقَابِلٍ أَمْرُهُ بَاطِلٌ وَلَا يَرْفَعُ الْمَسْؤُلِيَّةَ عَنْ صَاحِبِهِ.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ وَكَانَ يَكْفِيُ أَنْ تَنْتَهِيَ الْآيَةُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ لِتَبَيَّنَ الْمُطْلُوبُ، وَلَكِنْ رَبُّنَا أَضَافَ تَأْكِيدًا لِذَلِكَ قَائِلاً:

أَجْمَعُونَ وَإِنَّمَا كَانَتْ عَظَمَةُ الْمَلَائِكَةِ بِخُصُوصِهِمْ لِلَّهِ وَلَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِالخُصُوصِ لَهُ.

[٧٤] ثُمَّ اسْتَشْنَى رَبُّنَا مِنَ السَّاجِدِينَ إِبْلِيسَ الَّذِي اسْتَكَبَرَ وَاسْتَبَدَّ بِهِ الْعَزَّةُ وَالْكَبْرِيَاءُ، فَشَقَ عَصَا الطَّاعَةِ.

إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ لَقَدْ كَانَ إِبْلِيسَ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجَدَاتٍ طَوِيلَةٍ لَعَلَّ بَعْضَهَا يَمْتَدُ أَرْبَعَةَ آلَافِ عَامٍ، وَقَدْ افْتَرَحَ عَلَى اللَّهِ بِأَنْ يَسْجُدَ لَهُ سَجْدَةً مُطْلُولَةً بَدَلَ سَجْدَةً لَحْظَاتٍ لَآدَمَ، فَرَفَضَ طَلَبَهُ. لِمَاذَا هَذَا الاقتراحُ؟ وَلِمَاذَا الرَّفْضُ؟ أَوْلَا: السُّجُودُ لِآدَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ -ذَلِكَ الطِّينُ الْلَّازِبُ الَّذِي يَحْتَرِفُهُ إِبْلِيسُ -هُوَ معيارُ الْخُصُوصِ لِلَّهِ وَلَيْسَ مُجْرِدَ الْوَقْوَعِ عَلَى الْأَرْضِ بِاسْمِ السُّجُودِ لِلَّهِ، وَلَعَلَّ صَاحِبَهُ

يكرّس ذاتياته بذلك، و إنما يفعل ما يفعل رباء، و لا يزيده إلا عجبا.

و هكذا نحن البشر لا- تنفعنا عامه الصلاه و الصيام ان لم نسلم لمن أمر الله بالتسليم له من خلفائه في الأرض، و هكذا كانت الولايـه سـنـم الدـيـن، و عمـود الشـرـيعـه، و أـعـظـم ماـفـي مـيزـان العـبـد يوم الـقـيـامـه لأنـها في الحـقـيقـه هـى التـوـحـيدـ الخـالـصـ.

ثانياً: حين لم يسجد إبليس لآدم اعتبر مستكراً، و الحق بالكفار بالرغم من انه كان يؤمن بالله، و لكن ايمانه لم يبلغ درجه التوحيد إذ أنه كان يؤمن قبلئذ بذاته و بعنصره النارى، فلم ينفعه الإيمان و لا سجدةـاته الطويلـه شيئاً.

[٧٥] [فـسـأـلـه ربـالـعـالـمـينـ:

قالَ يَا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَشْيُجْدَ لِمَا حَلَقْتُ بِيَدِيَ وَلِلْمُفْسِرِينَ فِي كَلْمَهِ «بِيَدِي» تفاسير عديدة اما التفسير الأقرب للسياقـ فـفي نظرـىـ انـها الـقـدرـهـ، و إنـما أـضـافـ «بـيـدـىـ» لأنـه سـبـحانـهـ لا يـمـلـكـ يـمـيـنـ وـ لا شـمـالـاـ أوـ كـمـاـ

في الحديث: «و كلـتاـ يـدـيهـ يـمـيـنـ وـ

في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام :

«يعـنى بـقـدرـتـىـ وـ قـوـتـىـ» (١) وـ تـعبـيرـ اليـدـينـ كـنـاـيـهـ عنـ تـامـ القـوهـ وـ الـقـدرـهـ التـىـ تـجـلتـ منـ خـلقـ آـدـمـ.

أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيَّنَ هلـ كانـ السـبـبـ انـكـ تـكـبرـتـ لمـجرـدـ الاستـكـبارـ وـ منـ دونـ سـبـبـ وـاقـعـىـ،ـ أمـ انـكـ

ص: ٤٠٦

(١) نور الثقلين / ج (٤) / ص (٤٧٢).

فعلا تجد نفسك جديرا بعدم السجود، و فوق أوامر الله.

وقال البعض أن معناه: هل استكترت الآن أم كنت أبداً من العالين.

[٧٦] إن عدم سجود إبليس كان لاستكباره، و لا فجوهره لا يميز عن آدم فهو مخلوق مثله، و لا يحق للملائكة ان يرفضوا أمر الخالق، و لكن إبليس رأى نفسه متميزاً، و سبب ذلك أنه اتبع المقاييس الشيئية لا المقاييس القيمية فانتهى إلى افضلية النار على الطين، و اعتبر بعنصره و ذاته، فرفض السجود للأدم و الطاعة لله سبحانه، و هذا يدل على بطلان القياس عموماً، ذلك لأن قيمته لأى شيء ليست بذاته بل بما يضفي عليه الرب من قيمة و اعتبار، فالصلاه معراج المؤمن لأن الله جعلها كذلك، و الحجـ جهاد الصعفاء لأن الله شرع ذلك، و الأنبياء خلفاء الله لأن الله حملهم رسالاته و جعلهم أئمه و هداه.

و لا يعرف تشريع الله إلا من عنده اما البشر فإنه إذا أراد أن يتثبت بالقياس فسوف يهبط إلى مستوى مقاييسه الشيئية فهذا إبليس برغم علمه و عبادته هو إلى أسفل السافلين حين ترك قيمة التوحيد إلى الشرك، و مقاييس أمر الله إلى مقاييس خلق الله، و لم يعرف ان عظمه خلق الله انما هي بأمر الله، فالنار كنار لا تعود ان تكون خلقاً خلقها الله بأمره، و أركز فيها خصائص و ميزات من الحرارة و الانضباط، و ان شاء الله أعدمها أو اعدم حرارتها، كما فعل لإبراهيم عليه السلام ، أو أزال ضوءها كنار جهنم، إذن الشيء كشيء لا قيمة له، إنما قيمته باعتبار أمر الله، و هذا هو السبب الجوهرى لبطلان القياس فى الدين، و الحاجة إلى الرسل.

قال و هو يبرر موقفه المنحرف.

أَنَّا خَيْرٌ مِّنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ الطَّاعَةِ وَ الْعِبَادَةِ الْمُخْلَصَةِ بِلِ بَعْنَصِرِ النَّارِ.

حَلَقْتَنِي مِنْ زَارٍ وَ حَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ان المهم فى الخلقه ليس المخلوق بذاته، بل ما يعطيه الخالق له من قيمة و منزله، و ما دام الرب واحد فان قيمة المخلوقين من الناحيه الجوهرية واحدة، و انما يتفضلون بما يحدده الرب من مقاييس للتفاضل، و ليس ثمـه قيمة عند الله لأحد بذاته، انما تقواه و عمله الصالح.

جاء في نهج البلاغة :

«الحمد لله الذي لبس العز و الكبرياء و اختارهما لنفسه دون خلقه، و جعلهما حمي و حرما على غيره، و اصطفاهما لجلاله، و جعل اللعنة على من نازعه فيهما في عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه و هو العالم بمضمرات القلوب و محظيات الغيوب:- إِنِّي خَالقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَهُ كُلُّهُمْ أَبْمَعُونَ إِلَّا إِلَيْسَ اعْتَرَضَتِهِ الْحَمِيمَهُ، فافتخر على آدم بخلقه، و تعصب عليه لأصله، فعدوا الله امام المتعصبين و سلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبيه، و نازع الله رداء الجبريه، و ادرع لباس التعزز، و خلع قناع التذلل. الا ترون كيف صغر الله بتكبره، و وضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، و أعد له في الآخره سعيرا، و لو أراد الله سبحانه أن يخلق آدم من نور يخطف الأ بصار ضياؤه، و يبهر العقول رواؤه، و طيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفعل. و لو فعل لظللت له الأعناق خاضعه، و لخفت البلوى فيه على الملائكة،

و لكن الله سبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تميزا بالاختبار لهم، و نفيا للاستكبار عنهم، و ابعادا للخيالء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، و جهده الجهيد، و كان قد عبد الله سنته آلاف سنة، لا يدرى أ من سنى الدنيا أمن من سنى الآخرة عن كبر ساعه واحده، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته. كلاما... ما كان الله سبحانه ليدخل الجنه بشرا بأمر آخرج به منها ملكا، ان حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض لواحد، و ما بين الله و بين أحد من خلقه هواده فى إباحه حرم الله على العالمين ^(١) ان انحراف إبليس لم يكن بجبر من الله انما باختياره هو نفسه، و من الحوار الذى جرى بين الله و بينه يتبين انه تعالى أراد هدایته فقد أكثر القول له، و هذا أساس فى القرآن و الرسالات الإلهية الاخرى، لأن الفلسفات الأخرى القديمة و الحديث كلها تعتقد بالجبر، و ان الشر من الله - تعالى عما يصفون - أو من الله معارض له فى الرأى، مساو له فى القوه، و هذه الثنائيه موجوده بصورة أو بأخرى فى كل الفلسفات كالفلسفه الشيوعيه التى تؤمن بثنائيه الحتميه التاريخيه، أو كفلسفه (فرويد)التي تعتقد بالثنائيه الجنسيه...إلخ، و قد تسربت هذه الفلسفه المنحرفة الى كثير من كتب الديانات و لكن هذه الآيات و أخرى كثيرة تلتقي معها فى الموضوع تبيّن أن إبليس كان حرا فى اطار قضاء الله و قدره، فهو غير قادر على مقاومه الإرادة الإلهية إذا أراد الله ذلك، لكنها من جانب آخر تؤكد بأنه تعالى لم يجبره على المعصيه و الانحراف، بل أعطاه المهمه و حاوره فى الأمر اقامه للحججه لعله يهتدى للحق سبيلا.

[٧٧-٧٨] فلما رفض وأصر على معصيته و اعتزاذه الباطل بعنصرية، طرده الله من رحمته، و استرد منه الاعتبار الذى وبه له من قبل.

ص: ٤٠٩

١- (١) نهج البلاغه/خ(١٩١)/ص(٢٨٥).

قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَالرَّجِيمُ هُوَ الْمَطْرُودُ الَّذِي لَا - أَمْلَ فِي رَجْعِهِ، وَرِبِّا لَوْ كَانَ ثُمَّهُ احْتِمَالُ لِعُودَتِ إِبْلِيسِ لِلْحَقِّ لَمَّا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَمْهَلَهُ أَكْثَرَ مَا أَمْهَلَهُ.

وَفِي الْقُرْآنِ آيَةٌ تُشِيرُ إِلَى الْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ الَّتِي مِنْ ذِكْرِهَا، يَقُولُ تَعَالَى فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ عَصِيَانِ إِبْلِيسِ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْتَيْجُدُوا لِلَّادِمَ فَسَيَجْدُوا إِلَيْ إِبْلِيسِ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (١) وَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ كَانَ جَنِّيًّا وَلَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ الْوَصُولَ إِلَى مَقَامِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ بِعِبَادَتِهِ وَسُعْيِهِ - كَمَا فِي الرِّوَايَاتِ - ثُمَّ تُشِيرُ إِلَى تَرَدِّيهِ وَمَسِيرَتِهِ التَّنَازِلِيَّةِ وَإِنْ سَبَبَهَا الْمَعْصِيَّةُ لِلَّهِ، وَتَأْكِيدُ الآيَةُ عَلَى كُونِهِ مِنَ الْجِنِّ يَهْدِفُ تَأْكِيدَ حَرِيَّتِهِ وَإِخْتِيَارِهِ، وَكَيْفَ أَنَّهُ عَلَى مَقَامِ الْمَلَائِكَةِ بِعَمَلِهِ ثُمَّ أَهْبَطَ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ.

وَهَذِهِ الآيَةُ مِنْ سُورَةِ «صَ» وَالَّتِي تُلِيهَا تَبَيَّنَانِ جَانِبَيْنِ مِنَ الْعَقَوبَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى إِبْلِيسِ وَهِيَ:

أولاً: سحب المزايا واعتبارات التي حصل عليه بعبادته كدخوله الجنة، واعتباره من الملائكة، وشمول رحمه الله الخاص به له.
ثانياً: رجمه من قبل الله، والرجم هو الطرد الذي لا سبيل للعوده بعده - كما مر آنفاً - فهو وبعد عن سائر الخلق، ومعنى ذلك انهم لا يتفاعلون معه، وهذه حقيقه علميه يشرحها القرآن بعبارات بسيطه جداً، يفهمها حتى الطفل المميت، لأن هدف الآيات هو هدايه الإنسان إلى الحق التي لا تتحقق بالعبارات الغليظه المعقده

ص: ٤١٠

١- (الكهف / ٥٠).

التي لو استخدمها في القرآن لكان لطبقه معينه، و هذه الحقيقة العلميه تمثل في ان عالم المخلوقات يتفاعل مع الحق و يتعاون معه، أما الشر و الباطل فهو شذوذ و شقاق عن مسirته، و حيث طرد إبليس- و هو رمز الشرك- بالرجم فانه لا يكون معه ما في السماء و الأرض و ما بينهما. إن الأصل في الخلاق الخير لا الشر، و الذى يطع إبليس فانما يطع عنصرا ضعيفا، و القرآن يصرح بهذه الحقيقة عند ما يقول: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [\(١\)](#) و من هذا المنطلق جاءت حتميه الانتصار للمؤمنين الصادقين على أعدائهم، و لهذا أيضا قال ربنا في مطلع السوره:

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ وَ شَقَاقٍ وَ قد فسرنا ذلك بأن الذى يخالف مسirه الكون هم الكفار الذين ينحرفون عن فطرتهم فهم حالكون، و قد حذرهم الله في هذه السوره من ذلك، و قال: كُمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَتِيلِهِمْ مِنْ قَوْنِ فَنَادُوا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

كما أكد مخالفه الطبيعه لمسييرتهم، و هزيمتهم الحتميه بقوله: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلَيْرَ تَقُوا فِي الْأَسْبَابِ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَخْزَابِ .

ثالثا:الحق اللعنة به الى يوم الدين من قبل الله سبحانه، و اللعنة تعبر عن عدم الرضا بشخص الملعون و عمله.

و هي تعنى أولاً:عدم شرعية أعمال إبليس و اتباعه مهمما أخذت أحجاما كبيرة على الطبيعه مؤقتا، و تعنى ثانيا: ملاحقه الشيطان و أتباعه بالعذاب، و بالخذلان، و إحباط العمل.

ص: ٤١١

وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَ فِي يَوْمِ الدِّينِ يَكُونُ الْحُكْمُ خالصاً لِلْقَيْمِ، وَ تَنْتَهِي فِيهِ كُلُّ السُّلْطَاتِ وَ الْحَاكِمِيَّاتِ الْأُخْرَى بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَ هُنَاكَ يَعْنِي الْحُكْمَ بِعَذَابِ إِبْلِيسِ وَ تَجَلِّي اللَّعْنَةِ عَلَيْهِ بِأَوْسَعِ مَعَانِيهَا.

[٧٩] وَ حِيثُ حَبَطَ أَعْمَالَ إِبْلِيسِ وَ لَا حَقَّتِهِ الْلَّعْنَاتُ عَرَضَ عَلَى اللَّهِ طَلْبَاً.

قَالَ رَبِّيْ ما دَمْتَ خَسِرْتَ الْآخِرَةَ، وَ حَبَطَ عَمَلِيْ.

فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ لِعَلَهِ طَلْبَ ذَلِكَ فِي مَقَابِلِ أَعْمَالِهِ وَ عَبَادَاتِهِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَنْ يَطِيلَ اللَّهُ عُمْرَهُ، وَ يَمْهُلَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثَةِ.

[٨٠-٨١] فَاسْتَجَابَ اللَّهُ طَلْبَهُ وَ لَكِنَّهُ لَمْ يُحدِّدْ لَهُ مَوْعِدًا مَعِيناً.

قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ * إِلَى يَوْمِ الْوُقْتِ الْمَعْلُومِ وَ قَدْ اخْتَلَفَ آرَاءُ الْمُفَسِّرِيْنَ حَوْلَ الْمَدِهِ الْمُعَيْنِ إِلَى قَوْلَيْنِ رَئِيْسِيْنَ :

الْأَوْلَى: أَنَّ إِنْظَارَ إِبْلِيسِ يَمْتَدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْظَرُ إِلَى يَوْمِ ظَهُورِ الْحَجَّةِ (عَجَّ).

وَ رَبِّمَا لَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ إِبْلِيسُ بِسَاعَهِ مَعِينَهِ لِمَهْلَهِ التَّى أَعْطَاهَا إِيَّاهُ لَكِى يَسْلِبَهُ الْأَطْمَئْنَانَ، وَ لَعَلَّ هُنَاكَ حَكْمَهُ أُخْرَى لِعدَمِ إِعْطَاءِ الرَّبِّ مَوْعِدًا مَحْدُودًا لِنَهَايَهِ إِبْلِيسِ

تتجلى في إعطاء الرب قدره محاربه الشر، واقتلاع شأفتة للبشر، حيث وهب لهم أماكنه القضاء على إبليس نهائياً في اليوم المعلوم، وربما تلقى هذه الحكم مع ظهور الإمام الحجه عليه السلام وظهور الحق على يديه -بإذن الله- حيث انه بدوره يعتمد في جانب منه على اراده أهل الحق والله العالم.

[٨٢-٨٣] وعندما استشاط اللعين غضباً، اقسم بعزم الله على إغواء أبناء آدم، و إذ يقسم بعزم الله فهذا دليل على أن معصيته لم تكن عن جهل بعظمته وقدرته تعالى، إنما مارسها عن وعي و عناد.

قالَ فِيْرَّاتُكَ لَأُغْوِيَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْلَصِينَ وَ النَّاسُ امَامُ إِغْوَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْيِطُ بِهِ، وَ يَسْتَجِيبُ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ وَ الْكَافِرُونَ، وَ مِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مَسِيرَتُهُمُ الْعَامَّةُ فِي الْحَيَاةِ سَلِيمَةُ وَ لَكُنُّهُمْ يَخْضُعُونَ لَهُ، وَ يَضْعُفُونَ أَمَامَهُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ وَ هُمُ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَادِيَةِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَحْرِيفِهِمْ أَبْدًا وَ هُمُ الْمُخْلَصُونَ الَّذِينَ تَمَحَّضُوا فِي الْإِيمَانِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَ الْأُولَيَاءِ، وَ الَّذِي يَحْدُدُ اِنْتِمَاءَ الْإِنْسَانِ لَأَيِّ مِنْ هَذِهِ الْفَرَقِ هُوَ مَدْيٌ إِيمَانَهُ وَ عَمَلَهُ وَ إِرَادَتَهُ، وَ هَذَا الْإِسْتِثنَاءُ مِنْ إِبْلِيسِ اعْتِرَافٍ وَاضْحَى بِإِرَادَةِ الْإِنْسَانِ، وَ نَسْفٌ لِجَمِيعِ الْحَتَمِيَاتِ الْمُزَعُومَةِ، لَأَنَّ ضَغْوَطَ الشَّيْطَانِ وَ اِغْرِيَاتِهِ مَعَ ذَلِكَ يُسْتَطِعُ الْبَشَرُ مُقاوَمَتَهَا وَ قَهْرَهَا بِإِرَادَتِهِ.

و هذه هي الفكرة المركزية في سورة "ص و الصافات" إذ تؤكد السورتان:

ان من بين عباد الله عباد خلصوا الله من كل العلاقات المادية والشركية، فلا سبيل للشيطان عليهم.

[٨٤-٨٥] وفي مقابل قسم إبليس بإغواء العباد قطع الله على نفسه عهداً ان

يدخله و من تبعه جهنم، و ان يملأها منهم.

قالَ فَالْحُقُّ أَنَّ الْجَزَاءَ حَقٌّ أَوْلًا لِأَنَّهُ يَجْرِي أَسَاسَ سَنَةِ الْجَزَاءِ الْعَادِلِ الْمُنْسَجِمِ مَعَ سُنْنِ اللَّهِ فِي الْحُكْمِ فِي الْخَلِيقَةِ، وَ ثَانِيَا لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ.

ثم أكد هذا التعهد بجمله تأكيداً، و قال:

وَ الْحَقُّ أَقُولُ بَلِيٌّ. كَلَامُ الرَّبِّ تَعْبِيرٌ دَقِيقٌ عَنْ حَقَائِقِ الْخَلِيقَةِ بِلَا أَدْنَى اخْتِلَافٍ.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ وَ مِمَّنْ تَبِعُكُمْ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَ لَا تَعْنِي هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الْعِبَادَ إِلَى النَّارِ جَبْرًا، إِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ طَرِيقَ الْبَاطِلِ الْمُنْتَهَى إِلَيْهَا، وَ إِنَّمَا أَشَارَ اللَّهُ إِلَى كُثُرَةِ مَنْ يَدْخُلُهَا لِعِلْمِهِ الَّذِي أَحْاطَهُ بِالْمُسْتَقْبَلِ احْاطَهُ تَامًا، وَ فِي الْقُرْآنِ تَكْرَرُ الْآيَاتُ الَّتِي تَشَبَّهُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَ مَعَ ذَلِكَ يَبْعُدُ الْكَثِيرُ مِنَّا عَنْ نَفْسِهِ التَّهْمَةِ فَيَعْتَقِدُ أَنَّ النَّارَ خَلَقَتْ لِلآخَرِينَ، بَيْنَمَا يُؤْكِدُ اللَّهُ عَلَى امْتِلَاءِ جَهَنَّمَ بِالْعَاصِينِ حَتَّى لَا يَصِيبَنَا الْغَرُورُ وَ الْعَجْبُ بِإِيمَانِنَا وَ أَعْمَالِنَا فَنَتَوَقَّفُ أَوْ نَتَوَانِي فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَ حَتَّى نَظَلْ نَسْعِي جَهْدَنَا لِإنْقَاذِ أَنفُسِنَا مِنْ جَهَنَّمَ بِدَافِعِ الْخَوْفِ مِنَ الْخَزْرِيِّ وَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتَّمًا مَقْضِيًّا (١) عَنْ أَئِمَّهِ الْهَدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ كُلَّ الْعِبَادِ يَمْرُونَ فَوْقَ الْصَّرَاطِ الَّذِي يَنْصِبُهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، وَ لَا يَجُوزُهُ إِلَّا الْمُخْلَصُونَ، إِنَّمَا مَنْ تَمْحُضُ فِي الْكُفْرِ وَ الشُّرُكَ فَانِهِ يَخْلُدُ فِيهَا أَبْدًا

ص: ٤١٤

(١ - ١) مريم / (٧١).

و يبقى الذين عندهم بعض المعا�ي و الذنوب، فيها فتره يطهرون منها بالعذاب و كل يلبت فيها بقدر انحرافه.

ولو بحثنا فى الأسباب التي تؤدى بالإنسان إلى جهنم لوجدناها كثيره جدًا، و علينا باليقظه الشديده حتى نتنقىها، و نتنقى بذلك نار جهنم.

[٨٦] و الملاحظ فى هذه السوره المباركه و بالذات عند الحديث عن قصه إبليس، و هكذا فى كثير من موارد القرآن تكرار الابداء بفعل الأمر «قل» و لعل ذلك للأسباب التالية:

الاول:لكى يتأكد لنا بأن القرآن ليس من عند الرسول، و انما هو واسطه بين الله و عباده، و دوره بالنسبة إلى الآيات ينحصر فى قراءتها على الناس، فهو ليس بمفتر و لا يأله، انما هو مبلغ لرسالات ربه.

الثانى: يتذكر هذا الأسلوب عند الحديث عن الأشياء الغيبية كقصه السجود لآدم عليه السلام و التي وردت فى هذه السوره، و ذلك لكى لا يعتقد الناس بأنها ضرب من الوهم و الخرافه، أو أنها مجرد تصورات إنسان مثلهم محدود العلم فلا يصدقونها.

ولهذا أيضا قدم قول الرسول بأمر من الله، حيث أراد الحديث عما جرى في الملائيل الأعلى $\boxed{\text{مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمُلَائِكَةِ}} \text{إِذْ يَخْتَصِّ مُؤْمِنٌ} \text{ ثم أكَّدَ أَنَّ مَا سُوفَ أَقُولُهُ لَكُمْ عَنِ الْغَيْبِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} \boxed{\text{إِنْ يُوحَى إِلَيَّ}} \text{ ثُمَّ بَدَأَ الْحَدِيثُ عَنِ الْغَيْبِ، وَ ضَمَّنَهُ فِي مَطْلَعِ كُلِّ آيَةٍ -تَقْرِيبًا- مَا يَدْلِلُ عَلَى نَزْوَلِهِ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ فَعَلَ «قل»}.$

الثالث: ان الأمر بالإعلان عن شيء بصيغه (قل) أكد من بيانيه للعلم. فلا ترى ان قوله سبحانه: $\boxed{\text{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}}$ أشد تأكيدا من قوله: $\boxed{\text{هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}}$ ذلك لأن من يعلم شيئا قد لا يكلف نفسه أمر الانصياع له أو إبلاغه للآخرين،

بخلاف ما لو قيل له (قل) فإنه يعني الالتزام بما يقوله، بالإضافة إلى بيانه و تحدي الآخرين به.

و هكذا نجد القرآن هنا يأمر الرسول بالإعلان عن تجرد دعوته من المطامع المادية، و انه لا يطالبهما بأجر.

فَلِمَا أَشَّئُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ا�ْمَا يَدْعُوكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَ هَذَا الإِعْلَانُ يُعَكِّسُ شَخْصِيَّتَهُ الرَّسُولُ الَّتِي تَشَهَّدُ بِصَدَقَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ يَعْتَبِرُ التَّزَامًا ادِيَّاً أَمَّا النَّاسُ بَعْدَ مَطَالِبِهِ بِأَجْرٍ، ثُمَّ أَمْرُهُ بِبَيَانِ أَبْرَزِ صَفَاتِهِ الْحَسَنِيِّ وَ قَالَ:

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ وَ لِمَاذَا يَتَكَلَّفُ صَاحِبُ الْحَقِّ وَ هُوَ يَحْمِلُ لِلنَّاسِ رِسَالَتَهُ تَنْقُوقُ مَعَ فَطْرَتِهِمْ، وَ تَؤْيِدُهَا عُقُولُهُمْ وَ جَمِيعُ سَنَنِ الْحَيَاةِ وَ قَوَاعِدِهَا لِأَنَّهَا رِسَالَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِلِّيَ أَنَّ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى التَّكَلُّفِ هُوَ صَاحِبُ الْبَاطِلِ، لِأَنَّ مَا يَأْتِيُ بِهِ لَيْسَ سُوَى شَذْوَذِ يَرْفَضُهُ كُلُّ مَا فِي الْحَيَاةِ، وَ تَأْبَاهُ النُّفُوسُ بِفَطْرَتِهَا، فَلَكِي يَخْدُعُ النَّاسَ بِهِ لَا بُدُّ أَنْ يَتَكَلَّفَ، وَ يَتَوَسَّلُ بِأَسَلِيبٍ مُلْتَوِيَّةٍ، وَ كَمَثَالُ عَلَى ذَلِكَ الْكَاذِبِ، فَانَّهُ وَ هُوَ يَرِيدُ الْحَدِيثَ عَنْ شَيْءٍ غَيْرَ وَاقِعٍ لَا يَصِدِّقُهُ النَّاسُ يُضْطَرُّ إِلَى زَخْرُفَةِ الْكَلَامِ، وَ الْحَلْفُ بِالْمَلِيمِينِ الْمُتَكَرِّرِهِ، امَّا الصَّادِقُ فَهُوَ وَاضِعُ فِي كَلَامِهِ مُطْمَئِنٌ فِي نَفْسِهِ.

و حياء الرسول تشهد بانسيابه مع الحقائق بالفطرة النقيه، و الصراحه البالغه، و البصيره النافذه، فلا يستعجل أمر ربه، و لا يتتكلف حكم ما انزل الله به قرآنا، و لا يجبر الله على شيء لم يبلغوا مسواه، و لا ينزع أحدا حقه أو سلطانه، و لا يجزع، و لا يهلك، و لا يستأثر، و لا يتصنع، و لا يغل، و لا يغش، و لا يطلب سوى صراح

الحق، و واضح الرأي.

و في النصوص الاسلامية بيان لصفات المتكلفين،

فعن الامام الصادق عليه السلام انه قال :

«المتكلف يخطئ و ان أصاب (فهو إن أصاب في غايته و محتوى كلامه إلاـــ أنه مخطئ في منهجه أو العكس) و المتكلف لا يستحلب في عاقبه أمره إلاـــ الهوان، و في الوقت الاـــ التعب و العناء و الشقاء (لأنه يتحرك خلاف سنه الحياة) و المتكلف ظاهره رباء و باطنه نفاق، و هما جناحان بهما يطير المتكلف، و ليس في الجملة من أخلاق الصالحين، و لا من شعار المتقيين، و المتكلف في اى باب كان قال الله تعالى لنبيه (و تلى الآية) » [\(١\)](#) و

قال الرسول الأكرم (ص) :

«للمتكلف ثلات علامات، ينazuع من فوقه، و يتعاطى ما لا ينال، و يقول ما لا يعلم » [\(٢\)](#) و

عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال :

«ان المسلمين قالوا رسول الله (ص) لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثرا عدتنا و قوينا على عدونا، فقال رسول الله (ص): ما كنت لألقى الله -عز و جلـــ بيـــدعـــه لم يـــحدـــث إـــلـــي فـــيـــهـــ شيئاـــ و ما أنا من المتكلفين » [\(٣\)](#)

ص: ٤١٧

١-) نور الثقلين /ج (٤)/ص (٤٧٣).

٢-) المصدر.

٣-) المصدر.

[٨٧] و تعرف الرساله بالرسول الداعى إليها، فهو الصادق الأمين، الذى لا يطلب أجرًا ولا يتكلّف أمرًا، و تعرف الرساله أيضًا بمحتواها، كما يعرف الرسول بمثل تلك الرساله.

و من أبرز علامات الصدق في رساله الإسلام عالميتها فهى تتجاوز الحدود والأطر لتكون لجميع الناس، فلا عشائرية، و لا عنصرية، و لا قوميه، و لا طبقيه، و لا...، بلـ. ان ما نزل من عند رب العالمين يكون لكل العالمين، اما ما انبعث من فكر الإنسان المحدود فهو محدود بحدود ذلك الإنسان.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ زَمَانٍ فَطْرَتُهُ وَاحِدَةٌ، وَ الْقُرْآنُ يُشَيرُ إِلَى هَذِهِ الْفَطْرَةِ بِمَا تَنْطَوِيُ عَلَيْهِ مِنْ تَسْلِيمٍ وَ اعْتِقَادٍ بِالْحَقَائِقِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا، وَ ذَلِكَ عَبْرَ التَّذْكِيرِ.

[٨٨] و إذا لم يتذكر البشر و يصدق بما جاء به القرآن فهــر قد طمس فطرته، و عطل عقله، و انما يكتشف صدق الرساله بعد الموت، أو أثناء الحياة عند التجلــى الأعظم له.

وَ لَتَعْلَمُنَّ بَأَنَّهُ بَعِيدٌ حِينٌ وَ هَذَا التَّحْذِيرُ الْمُبْطَنُ يَكْفِيُ الْإِنْسَانَ خَوْفًا مِّنْ عَوَاقِبِ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، وَ مَارِسَهُ الْإِنْجَافُ وَ الْمُعْصِيَهُ، وَ يَهْدِي إِلَى التَّصْدِيقِ بِالرساله، وَ عَدَمِ الْإِسْتِرْسَالِ فِي الْغَفْلَهِ وَ الْضَّلَالِ.

سورة الزمر

اشاره

ص: ٤١٩

فضل السورة:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال :

«من قرأ سوره الزمر، استخفاها من لسانه، أعطاه الله من شرف الدنيا والآخرة، وأعزه الله بلا مال ولا عشيره، حتى يهابه من يراه، وحرّم جسده على النار، وبني له في الجنة ألف مدينة، في كلّ مدينة ألف قصر، في كلّ قصر مائه حوراء، وله مع هذا عينان تجريان نضاحتان، وعينان مدها متان، وحور مقصورات في الخيام، وذواتاً أفنان، ومن كلّ فاكهة زوجان» (نور الثقلين/ج ١ ص ٤٧٤)

روى عن النبي (ص) انه قال :

«من قرأ هذه السورة لم يبق نبيّ و لا صديق إلا صلوا و استغفروا له، و من كتبها و علقها عليه أو تركها في فراشه، كلّ من دخل عليه و خرج أثني عليه بخير، و شكره، و لا يزالون على شكره، مقيمين أبداً تعطّفاً من الله عزّ و جل» (تفسير البرهان/ج ٤ ص ٦٧).

من الناس من ينهر بتفوق الأنبياء والأولياء على غيرهم بالعزم والقوى والعلم والاجتهاد، فيزعم أنّهم أبناء الله فتهون في عينه الذنوب اعتماداً على شفاعتهم.

و تتصدّى سوره الزمر لهذه العقيدة الفاسده لتكتمل صوره التوحيد النقى لدينا، بعد أن تصدّت سوره الصافات للعقيدة الفاسده التي زعمت الملائكة أبناء الله، و سوره (ص) لا إله سلطه و الثروه المزيفين.

ولأنّ محور سائر العقائد الفاسده محاوله الهروب من المسؤوليات فإنّ هذه السوره تعالج ذلك بحجج ترى، تخللها صعقات شديدة تهزّ أعماق الضمير.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١١ إلى ٦]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْيَاءً مَا نَعْيَدُهُمْ إِلَّا يُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَيْ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِنَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَا صِطْرَفَيْ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ أَلَّا وَاحِدٌ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الْلَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْلَّيْلِ وَسِحْرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمَّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَافُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنَعَامِ ثَمَانِيَةً أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ لِهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّى تُضَرِّفُونَ (٦)

اللغة

٥. [يُكَوِّر]: تشبيه بمن يلف شيئاً على شيء، فإذا جاء الليل كان كأنه لف على النهار حتى سره.

هدى من الآيات:

بعد أن يوجه القرآن أنظارنا إلى نفسه، وأنه تنزيل رب العزيز الحكيم، ينطوي السياق إلى الموضوع الرئيسي لهذه السورة.

(والدرس الأول يشير عاده إلى أهم موضوعات السورة) إلا و هو نفي شراكه الأولياء لرب العزة، و ضروره إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

و يتحج عليهم أولاً: باختلافهم الذي يحكم فيه رب يوم القيمة، و ثانياً: بأن الله لا يهدى بهم لأنهم قد كذبوا على الله و كفروا بأنعمه، و ثالثاً: بأن الله و ليسوا هم الذي يختار ولدا لو أراد أن يتخذ لنفسه ولدا.

و يختتم الحديث بتقديس الله عما ينسب إليه المشركون، لأنه الواحد و دليل وحدته قاهراته لكل شيء و شخص.

[١] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ تَوْحِي كَلْمَةَ التَّنْزِيلِ بِنَزْولِ الْقُرْآنِ عَلَى مَرَاحلٍ، بَيْنَمَا تَوْحِي كَلْمَةَ الإِنْزَالِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ بِنَزْولِهِ جَمْلَهُ وَاحِدَهُ، وَلَا تَنَاقُضُ فِي ذَلِكَ لَأَنَّ الْقُرْآنَ نُزِّلَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّهُ وَاحِدَهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَرَّهُ بِصُورَتِهِ مَنْسُجَمَهُ انسِجَامًا مَعَ الْحَوَادِثِ وَالظَّرُوفِ الْمُتَغَيِّرَةِ لِيُثَبِّتَ بِهِ فَؤَادُ الرَّسُولِ وَيُصوَّغَ شَخْصِيَّةُ الْأَمَّهِ وَهُوَ مِنْ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، الَّذِي بَعْزَتْهُ فِرْضُ الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ^(١) وَبِحُكْمِهِ جَعَلَهُ قَوِيمًا، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

[٢] إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ الْحَقُّ هُوَ وَسِيلَهُ الْكِتَابُ وَهُدُفُهُ، وَالْقُرْآنُ يُنَزَّلُ بِالْحَقِّ أَيُّ أَنْ يَكْشِفَ لَنَا تَلْكَ السُّنْنُ وَالْقِيمُ وَالْأَنْظَمُهُ الْجَارِيَّهُ فِي الْخَلِيلِ كَمَا أَنَّهُ يُشَرِّعُ التَّكَالِيفَ الْحَقِّ، وَفِيمَا يَأْتِي مِنْ آيَاتٍ نَعْرَفُ أَنَّ التَّذْكُرَهُ بِالْحَقِّ فِي هَذِهِ السُّورَهُ تَهْدِفُ فِيمَا تَهْدِفُ بِيَانِ أَنَّ الْمَسْؤُلِيَّهُ حَقٌّ، وَأَنَّهُ لَا يَجَازِي الْبَشَرُ إِلَّا بِمَا عَمِلَهُ خَيْرًا أَوْ شَرًا.

فَاعْبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَيْ اجْعَلْ عَبَادَتَكَ عَبَادَهُ وَاقِعَيَهُ وَلَيْسَ عَبَادَهُ نَظَريَهُ.

ما هو الدين؟ الدين هو السيادة القانونية على المجتمع، التي يتقبلها الناس طائعين غير مكرهين، و إخلاص الدين لله هو جعله المصدر الوحيد للسيادة و التشريع.

ص: ٤٢٧

.(١) القصص / (٨٥).

[٣] و لكن لماذا يجب أن نجعل كتاب الله هو المصدر الوحيد للتشریع؟ بالإضافة إلى انه لا يجوز أن نشرع من أهوائنا، أو حسب الضغوط النفسيه والاجتماعيه، فإن الدين الخالص هو لله وحده.

أَلَا لِلّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ فَلِهِ السَّيَادَةُ وَالْحَاكِمِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ عَلَى الْخَلْقِ، فَيُجَبُ أَنْ تَكُونَ عَبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهِيمَنُ عَلَى الْكَوْنِ، وَيَجْرِي بِقُوَّتِهِ الْأَنْظَمَهُ وَالْقَوَانِينَ بِصُورَهُ خَارِقَهُ، وَلَا أَحَدٌ يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ لَأَنَّهُ لَا يَمْارِسُ شَيْئاً إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

لماذا إذا يشرك البعض بالله، هل يعتقدون بأن الله شريكه في الأمر؟ كلاماً...

هؤلاء يشركون بالله لأنهم يعتقدون بأن الشركاء سبل إلى الله.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفِي النَّفِيِّ وَالْاسْتِشَاءِ دَلِيلُ الْحَصْرِ، وَإِذَا كَانَ هُدُوفُ هؤُلَاءِ الْوَصْوَلِ إِلَيْهِ فَلَمَّا ذَا يَخْتَارُونَ طَرِيقاً لَمْ يَأْمِرْ بِهِ؟! وَنَسْتَوْحِي مِنْ جَمْلَهِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ صَنَعُوا الْآلهَهُ وَاضْفَوْا عَلَيْهَا طَابَ التَّقْدِيسِ دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهَا قَدْرَهُ مُطْلَقَهُ عَلَيْهِمْ أَوْ أَنْ يَأْمِرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِعِبَادَتِهَا.

وَنَسْتَوْحِي مِنْ كَلْمَهِ «أَوْلِيَاءُ» أَنَّهُمْ أَحْبَوْهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ وَتَقْرَبُوا إِلَيْهِمْ.

و الضمير في كلامه «نعبدهم» يوحى بأنّ الأولياء عقلاً، بينما نجد البعض منهم يعبد الأصنام التي لا عقل لها. لماذا؟ ربما لأن تلك الأصنام كانت أيضاً تجسداً لقوى عاقلة في زعمهم -كالملائكة والأنباء أو الأولياء الصالحين، وهذا يظهر من الحديث التالي:

«أقبل رسول الله (ص) على مشركي العرب فقال: و أنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرّب بذلك إلى الله تعالى.

فقال لهم: أو هى سامعه مطيعه لربها عابده له حتى تتقرّبوا بتعظيمها إلى الله؟ قالوا: لا.

قال: فأنتم الذين نحتموها بأيديكم؟ قالوا: نعم.

قال: فلأنّ تعبدكم هي لو كان يجوز منها العبادة أخرى من أن تعبدوها، إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم وعواقبكم والحكيم فيما يكلفكم.

قال: فلما قال رسول الله (ص) هذا القول اختلفوا فقال بعضهم: إن الله قد حلّ في هيكل رجال كانوا على هذه الصوره فصورنا هذه الصور نعظّمها لتعظيمنا تلك الصور التي حلّ فيها ربنا.

وقال آخرون منهم: إن هذه صور أقوام سلفوها كانوا مطاعين لله قبلنا فمثّلنا صورهم وعبدناها تعظيمًا لله.

وقال آخرون منهم: إن الله لما خلق آدم و أمر الملائكة بالسجود له كنا نحن أحق بالسجود لأنّه من الملائكة، ففاتنا ذلك فصورنا صورته فسجدنا لها تقرّبا إلى

الله كما تقربت الملائكة بالسجود لأدم إلى الله تعالى «[\(١\)](#)».

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ قَالُوا إِنَّ ذَلِكَ تَهْدِيدٌ مُبِينٌ لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ حِيثُ إِنَّهُمْ سُوفَ يُسَأَّلُونَ عَنْ أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَيُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا حَسَابًا عَسِيرًا، وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ إِذَا—الاسترسال في نسبة الأولياء إلى الله واعتبارهم شفعاء من دون إذنه سبحانه.

و لعل الآية تشير إلى ما اشتهر بين الأمم من تقدير العظماء و نسبتهم إلى رب العزه، كالاعتقاد بأن هذا الملك أو ذاك السلطان هو ظل الله في الأرض من دون الرجوع إلى القيم الإلهية، والمقاييس الرسالية، بينما ليس كل من أوتي فضلا يصير ولئ الله بل الذي يعبد الله حقا و يتبع رسالته صدقا.

و نتساءل: ما هي الحكم في بيان هذه الحقيقة هنا؟ إن الناس يزعمون انهم لو نسبوا إلى الله أمرا كذبا وجب على الله ردتهم بصوره غبيه، كأن ينزل عليهم صاعقه أو لا أقل ملكا ينذرهم، و إذ لم يفعل مثل ذلك فهم على حق، و لعله لذلك يؤكده ربنا أنه لا يهدى الكاذبه و الدجالين و الذين يكفرون بنعمه و من أبرزها نعمه الرسالات التي أنزلها بهم، فليظلوا في ضلالتهم حتى يذوقوا الجحيم جراء كذبهم و كفرهم بأنهم ربهم.

و هكذا بين ربنا أولاه: أن أهواءهم بعيدة عن الحق الذي عند الله حيث يحكم بينهم يوم القيمة، وبين ثانيا: أنه لا يهدى لهم فهم المسؤولون عن ضلالتهم بكذبهم و كفرهم.

ص: ٤٣٠

١-١) الإحتجاج للطبرسي (ص ٢٦).

ولقد اخترعت أهواء الناس أفكارا باطلة لتوجيه هذه العقائد، فقالوا بنظرية الفيض و نظرية الحلول و الغنوص، لتبرير تقديسهم البعض العناصر و تأليفهم لبعض الناس، قالوا بـأن الله - سبحانه و تعالى - عما يشركون كالشمس تفيض منها الأشعه، و كالبحر تتضاعد منه السحب، أو الينبوع تجري منه الروافد، أو أنه سبحانه يتنزّل إلى مستوى خلقه فيحل في أوليائه حلولاً. حتى يقول أحدهم في إحدى شطحاته الكفرية: ليس في جنتي سوى الله.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْهَا يَدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ [٤] و يسْفَهُ اللَّهُ أَحْلَامَهُمْ و يُؤْكِدُ بِأَنَّهُ لَا وَلَنْ يَتَخَذَ وَلَدًا وَ حَتَّى لَوْ اتَّخَذَ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَصْطَفِيهُ اصْطَفَاءً.

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَخَذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ الْحَقَائِقِ التَّالِيَةِ:

أولاً: إن اتخاذ الولد لو تم (و هو لا يتم) فليس عبر أولئك الكذبة، بل الله وحده صاحب هذا الحق، إنه لو تم يكون ولده و ليس ولدهم، فهو يختاره دونهم، و لا يحق لأى كافر أن يقول: فلان ابن الله و أقرب الناس إليه، من دون سلطان له على ذلك.

ثانياً: إنه لا يتم - لو تم - إنجاز الولد - بسبب علاقه نسبية بين الله سبحانه و بين بعض خلقه، إذ كل شيء مخلوق لله، و لا تفاضل في أصل الخلق بين شيء و شيء، فليس بعض الخلق مارس الله حين أنشأه لغوبا، بينما خلق بعض الأشياء بيسر و سهولة، كلا... و لا هناك مراتب في الخلق كما زعمت الفلاسفه بلا حجه، إنما يكون عبر الاختفاء.

ثالثاً: إنّ الاصطفاء الإلهي يكون عبر القيم الإلهية لا تفاضل الجوهر إذ أنّ الأشياء كلّها مخلوقات فلا حاجه له إلى واحد منها لأنّه كان قبل أن يكون أي شيء فكيف يحتاج إلى شيء لم يكن من الأزل، بل كيف يحتاج إلى شيء هو في وجوده يحتاج إلى خالقه سبحانه؟! وإنما استوحينا هذه البصائر بالترتيب من الكلمات الثلاث في الآية «يتخذ» و«اصطفى» و«مما يخلق».

سُبْحَانَهُ عَنْ نِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ أَوْ عَنْ اتِّخَادِ الْوَلَدِ حَتَّىٰ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ اصْطَفَاهُ.

هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ فَلَا يَتَجَزَّأُ بِالْإِفَاضَهِ وَلَا بِالتَّنْزِيلِ وَلَا بِالْحَلُولِ، وَلَا يَتَجَلَّ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ وَالسَّهْلِ وَالجَبَلِ وَالشَّجَرِ وَالْبَحْرِ وَالْأَحْيَاءِ... كَمَا ادْعَاهُ الضَّالُّونَ مِنْ أَنْصَارِ وَحْدَهُ الْوَجُودِ.

«قام أعرابى إلى الإمام أمير المؤمنين فى بحر معركه الجمل الطاحنه وقال له: يا أمير المؤمنين: أتقول: أن الله واحد؟ فحمل الناس عليه و قالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسىم القلب؟ فقال أمير المؤمنين: دعوه فإن الذى يريد الأعرابى هو الذى نريده من القوم، (أى أننا نخوض الحرب من أجل بيان هذه البصائر).

ثم قال: يا أعرابي أَنَّ القول فِي اللَّهِ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَهُ أَقْسَامٌ: فِوْجَهَانُ مِنْهَا يَجُوزُ إِنَّ عَلَى اللَّهِ وَوِجْهَانَ يُبَثَّانُ فِيهِ، فَأَمْمًا لِلذَّانَ لَا يَجُوزُ إِنَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْقَائِلَ وَاحِدٌ، يَقْصُدُ بِهِ بَابُ الْأَعْدَادِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ مَا لَا ثَانِي لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ إِلَّا تَرَى أَنَّهُ كُفَرٌ مَنْ قَالَ ثَالِثًا ثَلَاثَةٌ؟ وَقَوْلُ الْقَائِلَ هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ وَجَلٌّ رَبِّنَا عَنْ ذَلِكَ.

وَأَمْمًا لِلْوِجْهَانِ لِلذَّانِ يُبَثَّانُ فِيهِ قَوْلُ الْقَائِلِ هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شَبِيهٌ، كَذَلِكَ رَبِّنَا، وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّهُ عَزٌّ وَجَلٌّ أَحَدٌ لِلْمَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقُسُ فِي وُجُودٍ وَلَا عُقْلٍ وَلَا هُمْ، كَذَلِكَ رَبِّنَا عَزٌّ وَجَلٌّ «^(١)الْقَهَّارُ وَلِأَنَّهُ قَهَّارٌ فَهُوَ وَاحِدٌ، إِذَا لَا شَيْءٌ يَتَحَدَّى إِرَادَتِهِ وَيَقاومُ مُشَيَّطَتِهِ سُبْحَانَهُ.

وَكَمَا لَا يَخْضُعُ سُبْحَانَهُ لِشَيْءٍ لَا يَحْتَمِلُهُ شَخْصٌ أَمْرًا، فَمَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرِيمٍ وَالْعَزِيزُ إِلَّا عَبْدُنَا مُطِيعُنَا لَهُ يَخْضُعُنَا لِأَوْامِرِهِ، وَلَا يَحْتَمِلُهُ شَيْءٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمَا عِبَادَتَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ طَوْعاً فَكُرَّهَا.

وَمِنْ هَنَا تَبَلُّورَ فَكْرَهُ الشَّفَاعَهُ الْحَقُّ وَهِيَ إِنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُكَرَّمِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ لِيغْفِرْ لَبْعَضِ الْمَذْنَبِينَ فَإِنْ شَاءَ غَفَرَ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ بَعْضِ الْمَنَافِقِينَ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ^(٢) الْفَاسِقِينَ وَقَالَ تَعَالَى:

ص: ٤٣٣

١ - (١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٧٥-٤٧٦).

٢ - (٢) المنافقون / (٦).

إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ مَرَّةً سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ^١ الفاسِقِينَ (١) وَلَكِنَ الرَّسُولُ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ يَمْلِكُهُمُ اللَّهُ الشَّفاعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَيغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيَعْذِبُ مِنْ يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَمَغْفِرَةُ اللَّهِ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ مُمْكِنَةٌ وَلَكِنَ حَسْبُ مَقَايِيسِ مَحْدُودَةٍ، فَلَا يَمْلِكُ الرَّسُولُ لِلْمَذْنَبِينَ الْمُصْرِينَ، أَوِ الْكُفَّارِ شَيْئًا، وَيُوجَزُ اللَّهُ فِي آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ فَكُرْهَ الشَّفاعَةِ فِي قَوْلِهِ:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجِدُوا اللَّهَ تَوَبَّا رَحِيمًا (٢).

وَخَطَأَ تَلْكَ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي يَقُولُهَا بَعْضُ الطَّوَافِفِ فِي طَوَافِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ إِذْ يَقُولُونَ: (اغْفِرْ أَغْفِرْ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ جُزْمًا تَغْفِرْ) فَلَا أَحَدٌ يَحْتَمِلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ شَيْئًا.

[٥] وَقَدْ سُبِقَ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ أَنْ فَسَرَّنَا قَوْلُهُ: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ فَقَلَنَا بِأَنَّهَا تَشِيرُ إِلَى السُّنْنِ الَّتِي تَحْكُمُ فِي الْخَلِيقَةِ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ وَهِيمَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَيُوضَعُ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَدُوْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ نَفْيِ الْعَقَائِدِ الَّتِي يَتَشَبَّثُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ، وَنَفْيِ كَوْنِ الْوَلَدِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنَ الْشَّرِّ كَاءِ يَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ أَخْذَ يَذْكُرُنَا بِنَفْسِهِ ذَلِكَ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ حَقًا كَفِيلَهُ بِنَفْيِ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ وَإِزَالَةِ الْأَوْهَامِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي هِيَ هِلْيَهُ الْجَهْلُ بِالْخَالِقِ.

وَلِعَلِ الإِشَارَةِ إِلَى «الْحَقِّ» هُنَا لِبِيَانِ أَنَّ تَمْنَياتَ الْقَوْمِ بِالشَّفَاعَةِ الْبَاطِلَةِ

ص: ٤٣٤

١ - (٢) التوبه / (٨٠).

٢ - (٣) النساء / (٦٤).

سراب، لأنّ أساس الخلق هو الحق، وأنّه لا أحد يبلغ الثواب والكمال بالتمني والتظنب أو الشفاعة الباطلة بل بالحق والحق وحده.

و دليل أحديه الربّ و قاهرته و أنّه خلق السموات والأرض بالحق ما نراه من اختلاف الليل والنهار.

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ تَكْوِيرُهُ هَذَا يَتَم بِزِيادَتِهِ عَلَى حِسَابِ ذَاكَ وَ بِالعَكْسِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَهَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِحَرْكَتِهِمَا الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا يُسْتَطِيعُنَا مُقاوْمَتَهَا قَيْدًا شَعْرَهُ، ثُمَّ إِنَّهُمَا يَجْرِيَانَ بِنَظَامٍ دَقِيقٍ مَا يَهْدِينَا إِلَى أَنَّهُ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ بِالْحَقِّ.

وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ مَا يَهْدِينَا إِلَى أَنَّهُ الْقَاهِرُ.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام :

«أنظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون، فإنها لو كانت تبزع في موضع من السماء فتقف لا تعوده لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع في أول النهار من المشرق فتشرق ما قبلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فلا يبقى موضع من المواقع إلا أخذ بقسطه من المنفعة والإرب التي قدرت له » ^(١) كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى

ص: ٤٣٥

١- (١) بحار الأنوار/ج(٣)ص(١١٣).

و كما أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ، وَ سَخَرَهُمَا بِقَدْرِهِ، كَذَلِكَ فَإِنَّ انتِهاءَهُمَا بِيَدِهِ، وَ رَبِّمَا تَوَصَّلُ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْعُمُرِ التَّقْرِيبِيِّ لِلشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ بِمَقْدَارٍ مَا يَعْطِيَانِ مِنْ طَاقَةٍ مِّنَ النُّورِ وَ الْحَرَكَةِ.

أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ فَبِعْزَتِهِ أَقَامَ النَّظَمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَ أَلْزَمَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النَّجُومَ أَفْلَاكَهَا، وَ سَخَرَهَا لِمَا خَلَقَ لَهَا، وَ بِمَغْفِرَتِهِ فَتَحَ أَمَّامَ عَاصِيهِ بَابَ التَّوْبَةِ حَتَّى لا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

و صفة العزه تبعث الرهبه بينما صفة المغفره تبعث الرغبه، و هما معا ضروريتان لاستقامه النفس البشرية.

و أخطأ من قال-من المتكلمين-أن القول بالمحفره مخالف للقرآن لأن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح، و هذا مذهب البغداديين المعزله، و مذهب البصررين الذى يقول: إن عذاب الله جائز عقلا، و أيضا فيلزم عليه ان لا يحصل الغفران بالتوبه، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم يتزر (١).

[٦] حَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا أَى جَعَلَ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ زَوْجَهُ، وَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى تِكَالِمِهِ الْذَّكْرُ وَ الْأَثْنَى .
وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ تِمَانِيَّةً أَزْوَاجًا هِيَ الْأُخْرَى تَتَرَوَّجُ، وَ ثَمَانِيَّةً أَزْوَاجًا هِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : مِنَ الضَّانِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْإِبْلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .

ص: ٤٣٦

١- (١) التفسير الكبير/ج (٢٦) ص (٢٤٠).

و قد اختلف المفسرون في كلامه «و أَنْزَل» فكيف يمكن أن تنزل الأنعام، و هذا مجمل ما قالوا:

١- إن الإنزال بمعنى الإحداث و الإنشاء كقوله: قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِيَاساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ .

و

في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال :

«إِنَّ اللَّهَ ذَلِكَ خَلْقَهُ إِيَّاهَا» (١) - إِنَّهُ أَنْزَلَهَا بَعْدَ أَنْ خَلَقَهَا فِي الْجَنَّةِ، وَ فِي الْخَبْرِ الشَّاهِ مِنْ دَوَابِ الْجَنَّةِ، وَ الْإِبَلِ مِنْ دَوَابِ الْجَنَّةِ.

٣- إنَّهُ جَعَلَهَا نَزْلًا وَ رِزْقًا، وَ الرِّزْقُ يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ.

٤- إنَّ قَضَاءَ اللَّهِ وَ تَقْدِيرِهِ وَ حُكْمِهِ مُوصَوفٌ بِالنَّزْولِ مِنَ السَّمَاءِ، وَ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ بِرَكَاتِ الْأَرْضِ جَمِيعًا -أَوْ لَا أَقْلَ أَكْثُرُهَا- مِنَ السَّمَاءِ سَوَاءً مِنْ أَشْعَهِ الشَّمْسِ أَوْ مِنْ الْمَاءِ الَّذِي يَنْزَلُهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، عَرَفْنَا أَنَّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ، وَ اللَّهُ الْعَالَمُ.

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ لَا -أَنْتَ وَ لَا زَوْجُكَ تَعْلَمَا مَا فِي الرَّحْمِ، وَ كَيْفَ يَتَكَوَّنُ الْجِنِّينُ، وَ مَا هِيَ أَطْوَارٌ خَلْقَهُ، حَتَّى يَصِيرَ طَفْلًا، وَ لَكُنَّ اللَّهُ يَخْلُقُكَ وَ يَصُورُكَ هَنَاكَ.

فِي ظُلُمَّاتٍ ثَلَاثٍ

ص: ٤٣٧

١- (١) تفسير نور الثقلين/ج (٣) ص (٤٧٦).

ظلمه البطن، و ظلمه الرحم، و ظلمه المشيمه.

ذلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ثَلَاثٌ هُوَ الْمَالِكُ الْحَقُّ وَالْمَلِيكُ الْمُقْتَدِرُ أَحَقُّ أَنْ تَعْبُدُهُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ وَحْدَهُ فِإِنَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّمَا تُصْرِفُونَ إِلَى أَيْنِ تَتَجَهُونَ، وَمَنِ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ؟!

ص: ٤٣٨

اشاره

إِنْ تَكُفُّرُوا بِإِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ غَنِّيْ كُمْ وَ لَا يَرْضِي لِعِبَادِهِ الْكُفَّرْ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضِهِ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَهُ وَزْرُ أُخْرَى شُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَبْتَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلَيْمٌ بِعِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَ إِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ اللَّهَ أَنْدَادًا لِيُصِلَّ عَنْ سَيِّلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَنَ هُوَ قَاتِلُ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَاتِلًا يَعْذِرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَخْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَهُ إِنَّمَا يُوَفَّ فِي الصَّابِرِوْنَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّدِينَ (١١) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِيْنَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِهِمْ يَوْمَ الْحِيَاةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْلٌ ذَلِكَ يُخَوَّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

هدى من الآيات:

يتبع السياق القرآني في هذا الدرس الحديث عن الشرك بالله، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيا إليه دون الأنداد، ويحتاج الرب عليهم بحجه وجدا نيه بالغه هي أن الأنداد لا يضرون شيئاً ولا ينفعون فلما ذا الشرك بهم، وهم ينسون نسياناً عند الضرورات، مما يدل على أنهم ليسوا شفعاء إلى الله كما يزعمون، وتكاد آيات القرآن جميعاً تحدثنا عن التوحيد ونفي الشرك، وذلك لأن الشرك ليس لوناً واحداً، بل ألوان شتى، إذ الشرك هو الاستسلام لجاذبيه الماده بشتى صورها، فقد تكون الماده أرضاً أو شخصاً أو خوفاً أو طمعاً، لذلك فإن التخلص من الشرك وأغلاله ينبغي أن يكون بالتخلص عن كل جاذبيه تجذب الإنسان نحو الأرض، كي يحلق بعيداً في سماء التوحيد.

من هنا نجد القرآن العظيم يحدثنا في قضيه التوحيد عن ضرورة التخلص من الشرك، وفي كل مرّه يحدثنا عن بعض ألوان الشرك، ثم إن الناس في خضوعهم

للماده مختلفون، فمنهم من يخضع بكل صراحه، و منهم من يستخدم سلاح التبرير، و هكذا كان نصف قواعد التبرير من أبرز أهداف القرآن الحكيم، و بما أن التبريرات تختلف من قوم لآخر، بل حتى بين الأفراد أنفسهم الذين يتبعون إلى مذهب شرك واحد، لذا يعالج القرآن الحكيم كل تبرير بصفه مستقله و مختلفه.

و في هذا الدرس يعرض الله نموذجين من الناس: الكافرين المشركون الذين يجأرون لله بالدعاء حال الشده و الضر، و المؤمنين الذين يقتلون لله آناء الليل ساجدين قائمين، فرقين من الآخره، و يعبدون الله مخلصين، مسلمين له، لكنى ينسف التمنيات التي يعتمد عليها البعض في ارتكاب المعاصي، فيزعمون -مثلاً- أن الأنداد يشفعون لهم فلما ذا التقوى من الذنب.

بيانات من الآيات:

[٧] ييرر بعض المشركون شركهم بالجبر حين يقولون: **بِأَنَّ اللَّهَ لَوْلَمْ يَكُنْ راضِيَاً عَنْ شَرِّكُهُمْ إِذَا مَنَعَهُمْ مِنْهُ، وَلَأَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْهُمْ فَهُوَ راضٌ عَنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: كَلَّا... فَإِنَا لَا أَرْضَى لِعِبَادِنَا الْكُفَّارَ.**

و إذا لم يرض الله الشرك لعباده فلم هم مشركون دون أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟! و يجيب القرآن: لأن الدنيا دار ابتلاء فقد خَوَّلَ اللَّهُ الْعِبَادَ، وَ أَعْطَاهُمْ مَهْلَةً لَكَى يَجْرِبَ إِرَادَتَهُمْ.

□
إِنْ تَكُفُّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِّيٌّ عَنْكُمْ فَكُفَّرُ النَّاسُ لَا يُسَبِّبُ لَهُ خَسَارَهُ، وَ عِبَادُهُمْ لَا تُزِيدُ فِي مُلْكِهِ مُثْقَالَ ذَرَّهُ.

وَ لَا يَرْضِي لِعِبَادِهِ الْكُفُّرُ أَىٰ أَنَّ اللَّهَ يُسْمِحُ لَكُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوا مَا شَتَّمْ مِنْ دُونِ أَنْ يَرْضِهِ لَكُمْ.

و يقسم الحكماء إراده الله إلى قسمين:

١-إراده تكوين.

٢-إراده تشريع.

فمن الناحيه التكوينيه و فر الله للإنسان الحرية ليفعل بها ما يشاء، فأشرك به سبحانه، ولكن من الناحيه التشريعيه لم يرض له الشرك، وبتعبير آخر لم يجر الله الناس على التوحيد، ولو فعل ذلك بطل الثواب والعقاب، ولكن أمرهم و نهاهم و رغبهم وأنذرهم و وفر لهم المشيئة، ولو لا المشيئة الإلهيه لم يقدر أحد على عصيانه، فهو الذي جعلهم مختارين، وأعطاهم القدرة.

جاء في الحديث عن فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«شاء و أراد، و لم يحب و لم يرض، شاء أن لا- يكون شيء إلا- بعلمه، و أراد مثل ذلك، و لم يحب أن يقال له: ثالث ثلاثة، و لم يرض لعباده الكفر » (١) و نستطيع أن نشبه هذه الحاله بمن يعطي ابنه دينارا و يأمره بأن يشتري ما ينفعه فيشتري ما يضره، فهو قد اشتري بمال أبيه ما لم يرض به.

ورضي الله أو عدم رضاه ليس كما نحن البشر - كما أسلفنا في كثير من سور أن الله تطبق عليه الغaiات لا المبادئ - فرضي الله قد يكون بتوفيقه للإنسان ،

ص: ٤٤٣

(١) التوحيد / (٣٣٩).

و استجابه الطبيعه من حوله، لأنّ كلّ ما في الحياة يستجيب للتوحيد و ينسجم معه، و يتناقض مع الشرك و ينفر منه.

و إِنَّ تَشْكُرُوا يَرَضَهُ لَكُمْ فَاللَّهُ يَرْضِي الشَّكْرَ لِعِبَادِهِ، وَعِنْدَ مَا يَشْكِرُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ فَفِي شَكْرِهِ إِرَادَتَانِ:

إراده تكوين، و إراده تشريع، و هناك من يبرر شركه بإلقاء المسؤوليه على غيره، و لكنّ الله ينفي ذلك، و يؤكّد أنّ كلّ إنسان يتحمّل مسئوليته عمله، و لا يتحمّل الآباء أو العلماء أو السلطات من وزره شيئاً.

وَ لَا تَرِرُ وَازْرَهُ وَزْرَ أُخْرَى الْوَازِرَهُ:النفس التي تحمل ثقلاً، فكلّ إنسان يحمل حملاً، و من عنده حمل لن يرضى أن يحمل حمل الآخرين، إذ له من الحمل ما يكفيه.

و سواء ببرنا أم لم نبرر فإنّ جراء أعمالنا يوفى إلينا يوم القيمه، حين يتباًأ الرب عباده بكلّ صغيره و كبيره عمليها، و لعلّهم نسوا أو تناسوا بعضها و لكنّ كتاب ربّنا لا يضلّ و لا ينسى.

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَعِلْمُ اللَّهِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى ظَوَاهِرِ الْعَمَلِ بَلْ يَنْفَذُ إِلَى الْقُلُوبِ حِيثُ الدَّوَافِعُ وَالْتَّيَاتُ.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَلَعَلَّ الْآيَهُ تُشِيرُ إِلَى فَعْلِ الْقُلُوبِ وَمَسْؤُلِيهِ الْإِنْسَانُ عَنْهُ، وَالْوَسَوْسُ وَالْتَّبَرِيرَاتُ

و العقائد الفاسد و الرضا و البغض كلها من فعل القلب، فمثلاً كثيراً ما يزعم الفرد أنه مجبور على عمل و هو غير مجبور و الله يعلم ما في صدره.

[٨] و بعد أن نصف السياق قواعد التبرير، و مهد القلب لتلقي الحججه، أبلغنا بأنفذه الحجج و هو دليل الفطره و الوجدان، حيث ينقطع في أوقات المحنة أمل الإنسان في أي شيء سواه سبحانه، و هنالك يتصل قلبه بالله، إن الله هو ذلك الأمل الذي ينجيك حين لا منجي، و يتعلق قلبك به حين لا تجد خشبه خلاص تتعلق بها، و هذه أحد الأدله و الشواهد التي تهدينا إليه سبحانه، ففي أيام الرخاء تعتبرينا الغفله، و ننسى الله، إلا أن المصائب تأتي هزات عنيفه ليس لكيان الإنسان و إنما لضميره و وجданه حيث يرى الله، و المؤمنون غير هؤلاء، إنهم يرون الله كما

أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول :

«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله و معه و بعده» و إذا مسَّ إِنْسَانٌ ضُرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ أَيْ يعود إلى الله و يترك الشركاء من دونه، و الدعاء و الإنابة حالة الصراع، فهو من جهه يدعوا الله كي يخلصه من الضراء و من جهه أخرى يتوب إليه عمما اقترفت يداه.

و في ذلك شهاده فطريه على أن الأنداد الذين اتخذهم شفعاء لا على كشف الضر عنه و لا على التوسط بينه وبين الله، و إنما الله أقرب إليه من كل تلك الآلهه المزيفه، و إن أمره بالرجوع إلى الرسول أو خليفته الشرعي هو المقياس.

ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ

خَوْلَهُ مَلِكٌ وَجَعَلَهُ مَتَعْهِدًا لِلنِّعَمِ، وَفَلَانٌ مَخْوَلٌ: أَيْ لَهُ حَقُّ التَّصْرِيفِ، إِذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ النِّعَمَ، وَبَدَلَ الْفَرَاءَ نِعَمَاءً.

نَسِيَتْ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ يَدْعُو أَنَّ الْمَصَابَ بِضَرٍّ وَلَا أَمْلَ لَهُ بِالنجاةِ فَيُنْجِيهِ اللَّهُ مِنْ ضَرِّهِ يَكُونُ أَسْرَعَ فِي الْعُودَةِ إِلَى الذَّنْبِ
مِنَ الَّذِي يَلْغِي النِّجَاهَ عَبْرَ الْوَسَائِلِ الْمَادِيَّةِ.

وَفِي التَّعْبِيرِ إِشَارَهُ إِلَى أَنَّهُ يَنْسِى كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَالَتِهِ السَّابِقَهُ، وَنَسْتَوْحِي ذَلِكَ مِنْ كَلْمَهِ «مَا» فِي الْآيَهِ.

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا فَقَالَ لَوْلَا صَدِيقِي، لَوْلَا الدَّكْتُورُ، لَوْلَا الصِّدْفَهُ الْحَسَنَهُ، لَوْلَا حَظِيٍّ، لَوْلَا ذَكَائِي، لَكِنْتُ قَدْ هَلَكْتُ، وَيَنْسِى أَنَّ مِنْ
أَنْقَذَهُ إِنَّمَا كَانَ الَّذِي «يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ» وَهُوَ رَبُّ الْعَزَّهِ.

وَلَعِلَّ مَعْنَى الْجَعْلِ هُنَا اعْتِبَارُ ذَلِكَ لِلأنْدَادِ مِنْ خَلَالِ اضْفَاءِ صِبَغَهُ الْقَوَهُ الْذَّاتِيهِ عَلَيْهِمْ، وَبِتَعْبِيرِ آخَرِ جَعْلُ الشَّرْعِيهِ لَهُمْ مِمَّا لَا
يَقْتَصِرُ أُثْرُهُ فَقَطْ عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ يَتَجَاوزُهُ إِلَى الْآخَرِينَ فَيُسَبِّبُ ضَلَالَهُمْ أَيْضًا.

وَيَشَهَدُ عَلَى ذَلِكَ التَّعْقِيبُ التَّالِي:

لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِهِ إِذَا أَنَّهُ لَمْ يَبْيَّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ أَنْقَذَهُ حَتَّى يَهْتَدُوا إِلَيْهِ بِلَأَخْبَرِهِمْ كَذِبًا أَنَّ غَيْرَهُ هُوَ الَّذِي أَنْجَاهُ فَأَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ
الَّهِ وَهُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ.

هذا من جهه و من جهه أخرى قلب الإنسان يرفض الفراغ، فلا- بد أن يتعلق بشيء، فإذا نسى ربه اخترع لنفسه إليها مزيقاً من الشركاء، يستعيض به عن ربه.

و الدافع النفسي وراء الكفر بنعمه الخلاص من الهمكة هو التخلص من مسئوليه شكر الله، فالذى يقع في الهمكة يحس بتقصيره في جنب الله و يعقد العزم على تلافيه، و يعاهد الله على ذلك إن نجاه من الهمكة، و لكنه الآن و قد ذهب عنه عاصفه البلاء و زعم أنه استغنى عن ربه عادت إليه عواصف الشهوات تحثه نحو الموبقات و ترك الفرائض و الخوض في الإباحية، لذلك نسى ربه و كفر بنعمته عليه، و نسب النعمه إلى الآلهه المزيفة، فيقول له الرب:

قُلْ تَمَّنَّ يُكْفِرُكَ قَلِيلًا إِنَّكَ لَنْ تَحْصُلْ إِلَّا عَلَى مَتَاعٍ قَلِيلٍ وَ فِي فَتْرِهِ قَلِيلٌ وَ فِي قَطْرِهِ تَنْتَهِي إِمَّا بِالْمَشَاكِلِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ عَلَيْكَ أَوْ بِالْمَوْتِ.

إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ هَلْ هِيَ مَتْعَهُ تُلَكَ الَّتِي تَنْتَهِي بِصَاحْبِهَا إِلَى النَّارِ؟ وَ التَّعْبِيرُ بِ«أَصْحَابِ النَّارِ» باعتبار أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ صاحبه و لا يتركه، فهو و النار قرينان لا يفترقان.

[٩] و في مقابل هؤلاء الذين يجعلون لله أندادا هنالك طائفه أخرى هم المخلصون، يقول الله عنهم:

أَمَّنْ هُوَ قَاتِنُّ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ

قانت لربه في ديجور الليل، صافاً قدميه، ساجداً قائماً، خائفاً راجياً.

و يبدو أن الخوف والرجاء قد تساوايا في قلبه، فهو يخشى النار وأهواها، ويرجو رحمة ربِّه في الجنة.

إِنَّ هُؤُلَاءِ دَأْبُهُمُ الارْتِيَاحُ إِلَى اللَّهِ وَالْحَنْنِينُ فِي الْحَالَاتِ الْعَادِيَةِ، فَكَيْفَ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ.

و هكذا صور السياق نمطين من البشر: من يكفر بعد إنقاذه من الهمكة و عوده بالتوبه، و من هو قانت آناء الليل و أطراف النهار، ليكون الفرق واضحًا بينهما، و أنه لا يجوز أن يجعل هذا كذلك في الجزء، و هذا هو الموضوع الأساسي في هذه السورة التي أوضحت اختلاف مسيرة الزمر الصالحة و الزمر التي تساق إلى النار.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ حَقٌّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ صَادِقٌ.

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ كَلَّا...لَا يَسْتَوِيَانِ مثلاً.فَلَا يَجُوزُ الاتِّكَالُ عَلَى شَفَاعَةِ الْأَنْدَادِ.وَلَا الاتِّكَاءُ عَلَى التَّمْنِيَاتِ وَالظُّنُونِ.

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابُ بفالرغم من وضوح الفرق بين العالم والجاهل، فإن أكثر الناس لا يهتدون إلى ذلك لأنهم أصحاب القصور والظواهر وأتباع الص Bjig، وليسوا أصحاب العقول المتعتمقين في جوهر الأمور وأبابها.

جاء في الحديث، عن عمار السباطي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضُرًّا دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ قال: نزلت في أبي الفضيل، أنه كان رسول الله عند ساحراً، فكان إذا مسه الضر يعني السقم، دعا به منيا إليه، يعني تائباً إليه من قوله في رسول الله (ص) ما تقول «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ» يعني العافية «نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ» يعني نسي التوبة إلى الله عز وجل مما كان يقول في رسول الله (ص) أنه ساحر، ولذلك قال الله عز وجل: قُلْ تَمَغَّبُ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ يعني أمرتك على الناس بغير حق على الله عز وجل، ومن رسوله (ص)، قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ثم عطف القول من الله في عليه السلام يخبر بحاله وفضله عند الله تبارك وتعالى: أَمَّنْ هُوَ قَاتِنُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْيَدُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ، وأنه ساحر كذاب إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١) و

في الرواية عن أنس قال: «نزلت في عليه السلام أَمَّنْ هُوَ قَاتِنُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا... الآية» قال: فأنت عليا - عليه السلام - وقت المغرب فوجده يصلّى ويقرأ إلى أن طلع الفجر، ثم جدد وضوئه وخرج إلى المسجد وصلّى الناس صلاة الفجر، ثم قعد في التعقيب إلى أن طلعت الشمس، ثم قصد الناس فجعل يقضى بينهم إلى أن قام [إلى] صلاة الظهر، فجدد الوضوء ثم صلّى بأصحابه الظهر، ثم قعد في التعقيب إلى أن صلّى بهم العصر، ثم كان يحكم بين الناس ويفتيهم إلى أن غابت الشمس.

[١٠] وبعد أن ينجز السياق إقرار الإنسان بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، يشرح صفات وجزاء الذين يعلمون ويسوغون شخصيتهم بما يعلمون

ص: ٤٤٩

١- (٤) نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٧٨).

و ذلك بالإيمان والتقوى والإحسان والهجرة (عند الضروره) و الصبر.

قُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا رَبُّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ

و التقوى تجنب المهملکات، و عاقبتها الفلاح، و الفوز بالجنة، و أما الإحسان فعاقبته السعادة في الدنيا أيضا، و معناه أن تكون صبغة حياه الفرد العطاء للآخرين، و قد بلغ الأنبياء-عليهم السلام-ما بلغوه من شرف الرساله بالإحسان. أما الهجره عند الضروره فهدفها المحافظه على الاستقلال والحرية، و الصبر من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد، فهو لباب التوحيد وجوهر الأخلاص، و درع الاستقلال، و أجره عند الله لا يبلغه العادون فهو بلا حساب.

هكذا

روى الإمام الصادق-عليه السلام-عن النبي(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) :

«إذا نشرت الدواوين، و نصبـتـ المـوازـينـ، لمـ يـنـصـبـ لأـهـلـ الـبـلـاءـ مـيزـانـ، و لمـ يـنـشـرـ لـهـمـ دـيوـانـ، ثـمـ تـلاـ هـذـهـ الآـيـهـ» [\(١\)](#) [١١] بالرغم من أنـ الـهـجـرـ قـائـمـهـ إـلـىـ يـوـمـنـاـ هـذـاـ إـذـاـ تـعـرـضـنـ لـلـضـغـوطـ، و اـفـتـنـنـاـ فـيـ دـيـنـنـاـ، إـلـاـ أـنـ يـلـزـمـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ التـحدـيـ.

و هكذا يأمر الله نبيه بأن يعلن للناس جميعا إخلاصه لربه، و رفضه للأنداد، مما يعني التمرد على سلطات الجبارين و إمره المترفين و قياده الجهلاء.

ص: ٤٥٠

١ - ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٨١).

قُلْ إِنّى أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ، فَلَا قَدَاسَهُ وَ لَا شَرْعَيْهِ وَ لَا حَرْمَهُ لِهَذِهِ السُّلْطَاتِ الْفَاسِدَهُ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ بِهَا، بَلْ أَمْرَ بِرْفَضِهَا حِيثُ قَالَ رَسُولُهُ:

مُخِصِّصاً لَهُ الدِّينَ مُسْلِمَاهُ لَهُ وَحْدَهُ، خَاصِّهَا لِمَنْ نَاهَجَهُ وَ شَرَائِعَهُ فَقَطُّ، وَ مَا دَامَ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ يَتَحَمَّلُ كُلَّ أَذى فِي سَبِيلِ تَطْبِيقِهِ هَذَا الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ، وَ اللَّهُ يَعِينُهُ عَلَيْهِ، وَ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَجَاوِزِهِ دُونَ التَّعْرُضِ لِعَذَابِ اللَّهِ وَ عَذَابِهِ.

[١٢] وَ مَا دَامَ الْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ فَلَا يَسْتَدِمُ شَرْعِيهِ مِنَ النَّاسِ فَسَوَاءٌ أَمْ كَفَرُوا، وَ افْقَوْنِي عَلَى تَمَرُّدِي ضَدَ الْأَنْدَادِ أَمْ خَالِفُونِي فَإِنَّى أَوَّلَ صَرْبَلِيَّةِ درَبِيِّ.

وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ أَسْبِقُهُمْ إِلَى التَّسْلِيمِ لِلَّهِ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْآخَرِيْنِ، كَمَا قَالَ السَّاحِرُهُ بَعْدَ أَنْ آمَنَّا: لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُمْكِنُّوْنَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَائِيْاتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِيْنَ . (١)

بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوْا فَعْلَاهُ - أَوَّلَ الْمُؤْمِنِيْنَ، فَقَدْ آمَنَ لَمُوسَى ذُرِيْهِ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفِ مِنْ فَرَعَوْنَ وَ مَلِئَهُ، وَ لَكُنُّهُمْ فَتَحُوا الطَّرِيقَ لِغَيْرِهِمْ كَمَا يَؤْمِنُوا.

[١٣] قُلْ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وَ هَذَا بِالْعَذَابِ الْإِنْذَارِ حِيثُ يَخْشَى رَسُولُ اللَّهِ عَذَابًا عَظِيمًا فَكِيفَ بِنَا.

ص: ٤٥١

[١٤-١٥] قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَمَا أَنَا فَاعْبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ.

هكذا يتحدى الرسول بأمر الله أولئك الجاهلين الذين اتخذوا أهواهم آلهه فعبدوا ما شاؤوا، و هذا هو خلاصه الإخلاص و صفوه التوحيد، و حين يبلغ المرء هذا المستوى الأرفع من الإخلاص لا يخشى أحدا و لا يخضع لشيء فإنه:

أولاً: يضمن حرية التامة، و استقلاله الشامل، لأن الأعداء لن يجدوا فيه ثغرة يستعبدوه من خلالها، فلا المال و الجاه و الثناء يغريه و لا السجن و التهجير و الإعدام يخيفه.

ثانياً: إنه يضمن استقامته على الطريق دون تعب، لأن النفس يؤلمها مخالفه الناس، و ملامتهم و جراحات أسلتهم، أما هو فقد تعالى بإذن الله عن لومه اللائمين، و لدغات الجاهلين.

ثالثاً: لا يكون شأنه و براءته من الناس بعصبيه أو ظغينة، بل لفطر حبه لله و حبه للناس فهو يستقبل من يئوب إلى الحق بترحاب، و هكذا لا يستمرى الاعتزال، و لا يجعل بينه و بين الناس حجابا من الكبراء و العصبيه.

قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ كَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ نعم. يخسر الإنسان في ذلك اليوم كل شئ، نفسه حيث لا يتمتع شيئا، و يخسر أهليه فلن يراهم في ذلك اليوم إذا كانوا مؤمنين، و يحرم من شفاعتهم، لأنه لا

تنفع الشفاعة إلا لمن ارتضى، وإن كانوا معه في جهنم، فلكل امرء منهم شأن يغنيه، ويا لها من خساره كبرى.

[١٦] و بعد ذلك يبيّن الله لنا عذاب أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، أنهم يعيشون في ظلل النار في أسفل طبقاتها، و لعل في هذه إشاره إلى ما في الدنيا فما في الآخره تجسيد للدنيا، فقد كانوا واقعين تحت الحجب، من حجب الشهوات، إلى حجب الثقافه الجاهليه، و الخضوع للطاغوت.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْلَلُ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْلَلُ إِنَّهُ مَحَاطٌ مِنْ فَوْقِهِ وَ مِنْ أَسْفَلِهِ مِنْهُ بِالنَّارِ، وَ رَبِّمَا كَانَ قَوْلُهُ: « وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْلَلُ » دلالة على أن هناك من هم أسفل منهم في النار مثل أصحاب التابوت وغيرهم.

ذِلِكَ يُحَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ اتَّقُوا عَذَابِي وَ غَضَبِي، وَ تَعْجِيبُ الآيَاتِ التَّالِيَاتِ كَيْفَ نَجْتَنِبُ غَضَبَهُ.

اشاره

وَالَّذِينَ إِجْتَبَوُا الظَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَبُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمْ أَبْشُرُوا بَشِّرَ عِبَادٍ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُولَ فَيَسْتَمِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمِنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلْمَةُ الْعِذَابِ أَفَإِنَّ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبِيتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَغَيْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسِلَكَهُ يَنْابِعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرُجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْيِجُ فَتَرَاهُ مُصْيِّفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (٢١)

اللغه

٢١ [يهيج]: يجف الزرع و يبس، من هاج أي ثار، فكان البناء يثور عن حاله الأولى.

هُدَىٰ مِنَ الْآيَاتِ:

يستمر السياق في بيان نموذجين من الناس و يقارن بينهما لنعرف أنهما ليسوا سواء في الجزاء، و لكنى نزداد وعيًا بهما فعبر مقارنه النور بالظلام نتبصر بحقائقهما، وقد نزل القرآن مثاني يفرق أبداً بين الحق و الباطل، الصلاح و الفساد.

و حين شرح الله صفات القانتين - و هم أئمه الهدى - و ميزهم عن أصحاب النار من أئمه الكفر، عاد إلى بيان أشياعهما، فهناك من يجتنب الطاغوت، و يستمع القول فيتبع أحسنه، و هناك من حقت عليه كلمه العذاب.

و يذكرنا الدرس بالعقل الذي هو لب الإنسان، و الذى يهدى به الله قوماً يجعلهم من أصحاب الجنة لهم غرف من فوقها غرف، و يوقظ العقل بآيات الله في الخليقة حيث يذكرنا بالدوره النباتيه التي تبدأ بتزول الغيث، و احتزان الماء في الينابيع، و إخراج الزروع المختلفة، و تنتهي بالحطام.

[١٧] من هو الطاغوت؟ كلّ من فرض نفسه زوراً على الآخرين يعتبر طاغوتاً، إذ قد يطغى المرء في حدود نفسه فلا يعبد الله و يتجرّب و يتکبر، و يسمّي طاغياً، و يقول عنه الرب:

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغِي أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى .

و قد يتجاوز حدود ذاته إلى الآخرين، فيحاول منع الناس عن عبادته، فيكون قد بالغ في الطغيان، فيسمى بـ(الطاغوت) لأنّ هذه الصيغة تعني المبالغة، كما نقول ملكوت مبالغة في الملك، و جبروت مبالغة في السيطرة، و الرحمة مبالغة في الرحمة.

و ما هي عباده الطاغوت؟ قليل من الشعوب الخاضعة لحكم الجباره كانت تزعم أنّهم آلهه فيسجدون لهم تعظيمًا، إنما كان يستسلم أكثرهم للطاغوت رهباً و رغباً، أو استرسلاً، و هكذا اعتبر طاعتهم لها عباده و خصوّعهم سجوداً.

قال الإمام الصادق -عليه السلام- (حسب روايه أبي بصير) و هو يخاطب المؤمنين :

«أنتم هم، و من أطاع جباراً فقد عبده» [\(١\)](#) و كيف يجتنب الطاغوت؟

ص: ٤٥٦

١- (١) المصدر / ص (٤٨١).

الطاغوت حقيقة قائمه في كلّ مكان تقرّبا، فإنّي تولّيت وجدت سلطه شيطانيه مفروضه، و شبکه فاسده من أنصاره و تابعيه، و المؤمن هو الذي يتجنب هذا الوضع، و يطهر نفسه من تأثيراته الفاسد، فهو إذا يثور على الطاغوت، و يتحداه حتى لا- تشمله سيئاته، و هذا بعض معانى الاجتناب، و لكن آثار الطاغوت السلبيه تنتشر في كل مكان، و تصيب المؤمنين برذاذها شاؤوا أم أبوا، فهذه أنظمته الاجتماعيه و الاقتصاديه، و تلك أفكاره الجاهليه تملأ المحيط الذي يعيشه المؤمنون و لا بد أنهم يخضعون لها حينا من الأحيان.

فما ذا يصنعون؟ إنّ عليهم الإنابة إلى الله في كلّ حين، فكلّما هزّتك ضغوط السلطه الفاسد نفسياً، و ملت إليها أو خضعت لقوانينها، أو مالأتها خشيه بطشها أو رغبه عطائها فلا بد أن تعود إلى طهرك، و توب إلى الله متابا، لتكون لك البشري على لسان نبيك المرسل.

وَ الَّذِينَ اجْتَبَوُا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنْبُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ وَ يَدْخُلُكَ اللَّهُ فِي حَصْنِ عِبُودِيَّتِهِ .

فَبَشِّرْ عِبَادٍ [١٨]- لا- يفرض الطاغوت على الناس هيمنته حتى ينشر بينهم فلسفتة، فهو كمدخنه كبيره تنفس دائمًا تيارا من الدخان الأسود فتلّث الأجواء.

إنّ أجهزه إعلامه السلطويه تبّث بين الناس الأفكار الشركيه التي تبعدهم عن

ربهم، وتشييع فيهم أفكارا باطلة تسليبهم ثقتهم بأنفسهم، وتفرق كلمتهم وتضعهم في حالة من الأمانيات، وتشييع فيهم أنه مرهوب الجانب، وقراراته صائبة، وهو رجل إلهي مقدس.

كما أنها تبىء فيهم العصبيات العرقية والقبلية والقومية، وتحمد إليهم أصنام التراث وأنصاف المصالح المادية.

و حول الطاغوت يتحقق طائفه من تجّار الدين و العلم، يوحون إليه بالمكر، و يزيّنون له باطله، و يلمّعون للناس وجهه.

و هكذا يصبح التخلص من دائرة نفوذ الطاغوت عملاً عسيراً يحتاج إلى همه و اجتهاده، و لعلَّ هذا ما تشير إليه كلمة «و اجتنبوا» في الآية السابقة، و التي تتخصص في هذه الآية باجتناب الثقافة الطاغوتية إذ يقول ربنا:

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِلْفُوْلَ فَيَتَّسِعُونَ أَخْسَنَهُ وَ هَكُذا يَصِفُ الظَّالِمُونَ تَجَانِبُوا الطَّاغُوتَ وَ تَأْمِرُوهُمْ بِمَا يَنْهَا وَ لَا يَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ بَلْ أَحْسَنَهُ.

و لكن كيف يتم ذلك؟ أولاً: إن عباد الله يتعاملون مع القول الذى يعبر عن الفكره باهتمام منهم، لا يسمعونه بل يستمعون اليه، و فرق بينهما كبير، فالسماع لا اهتمام فيه بعكس الاستماع، و هكذا

جاء في الحديث:

﴿كُونوا نَّقَادَ الْكَلَام﴾

٤٥٨:

ثانياً: إنهم يمارسون التعلّق والتفكّر ليعرفوا أحسن الحديث، وبذلك يميّزون بين الرديء والجيد وبين الحسن والأحسن، فلا يكتفون بمعارفه الجيد بل يسعون لمعرفة الأحسن وفق قيم العقل والوحي، ذلك أنّ أحسن القول هو الأصلح لدنياهם حسب هدى العقل والأنفع لأخراهم حسب هدى الوحي.

ثالثاً: فإذا عرفوا الأحسن اتبّعواه، ولم يبحثوا عن العلم للعلم بل للعمل، ولم يتعلّموا العلم لينقلوه إلى غيرهم بل ليعملوا به أولاً.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ إِنَّهُمَا حجتان في حجه، حجه الوحي و حجه العقل، وَهُمَا تجليان لنور الله، الذي أودعه بقدر في ضمير كل بشر، وأنزله بهيا عبر رسالاته، وقد تجلّى هذا النور في ضمير هؤلاء لأنّهم اتبّعوا أحسن القول. وَهَكُذا هدى الله يتتنزّل على قلب من يسعى إليه و يتبعه، أو لم يقل ربنا سبحانه: وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُّلًا وَ باطل أمنيه أولئك الذين يتظرون الهدى من دون سعي و جهاد.

وَاستوحى من الآية فكره اعتبرها مفتاحاً لغيب الكتاب الحكيم، وهي: إن كل كتاب ربنا حسن، إلا أن الناس يختلفون في مدى الانتفاع به، فبعضه بالنسبة إلى البعض أحسن من غيره لحاجته الملحة إليه، و مثل القرآن مثل أنواع الطعام متتشابه في فائدته و روعته و لذته إلا أن الناس يختلفون في انتفاعهم به.

فمثلاً: آيات الجهاد تجلّى في عصر التحدّيات أكثر من آيات الصبر، بينما تجلّى آيات الإنفاق للأغنياء بقدر تجلّى آيات العفاف للقراء.

وَمعرفة الظروف الاجتماعية والشخصية تكون بالعقل، فهو ليس دليلاً مستقلاً بين الأدلة الشرعية بالإضافة إلى الكتاب والسنة والإجماع، بل هو النور الذي يعرف

بِهِ الْكِتَابُ، وَبِهِ نَمِيزُ السَّنَةِ، وَبِهِ نَقْشٌ بِالإِجْمَاعِ، فَلَوْ لَا عَقْلٌ كَيْفَ نَهْتَدِي إِلَى مَعْنَى الْكِتَابِ، وَكَيْفَ نَصْدِقُ أَوْ نَكْذِبُ بِالرَّوَايَاتِ الَّتِي نَقْلُوا إِلَيْنَا السَّنَةَ، وَكَيْفَ يَعْكُسُ الإِجْمَاعُ لَنَا السَّنَةَ؟ [١٩] وَبَعْكُسُ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُمْ حِينَ اسْتَسْلَمُوا لِضَلَالِهِ الطَّاغُوتِ حَتَّىٰ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ حِينَ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَسَلَبَهُ هُدًى عَقْلِهِ بَعْدَ أَنْ أَسَاءَ التَّصْرِيفَ مَعَهُ.

أَفَمِنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ وَأَرْزَمَهُ الْتِيهَ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعُقْلِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ هُدًى رَبِّهِ.

أَفَأَنْتَ تُنْقِدُ مَنْ فِي النَّارِ إِنَّهُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا، لِأَنَّ وَسِيلَتِهِ الْوَحِيدَةُ لِلإنْقَاذِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَهُوَ مُحْرُومٌ مِّنْهَا.

[٢٠] ذَلِكَ كَانَ جَزَاءُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الطَّاغُوتَ. أَمَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا فِي الدُّنْيَا فَهُمْ يَحْبَرُونَ فِي الْجَنَّةِ.

لِكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ وَهِيَ الْبَيْتُ الْمَرْتَفَعَةُ.

مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مِّمَّا يُشَبِّهُ الْعَمَاراتُ الْمُبْنَيَّةُ بِإِتقَانِ ذَاتِ طَوَابِقِ عَدِيدٍ.

مَبْنَيَّهُ تَهْرِيَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَالَّذِي يُضْمِنُ هَذَا الْجَزَاءَ الْحَسَنَ لَهُمْ هُوَ وَعْدُ اللَّهِ أَتَرِي يَخْلُفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ وَ

يَشُوَّقُنَا الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ فَيَقُولُ فِي جَوابِ عَلَى سُؤْلِهِ عَنْ تَفْسِيرِ

الآيَةِ:

«بِمَاذَا بَنِيتَ هَذِهِ الْغُرُفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: يَا عَلَى تَلْكَ غُرْفَ بَنَاهَا اللَّهُ لِأُولَائِهِ بِالسَّدْرِ وَالْيَاقُوتِ وَالْزَّبِرْجَدِ، سَقْوَهَا الْذَّهَبُ، مَحْبُوكٌ^(١) بِالْفَضْهُ، لَكُلِّ غُرْفَهُ مِنْهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ ذَهَبٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَلْكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ، وَفِيهَا فَرْشٌ مَرْفُوعٌ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنْ الْحَرِيرِ وَالْدِيَبَاجِ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَشُوْهَا الْمَسْكُ وَالْعَنْبُرُ وَالْكَافُورُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: وَفُرْشٌ مَرْفُوعٌ إِنْذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ إِلَى مَنَازِلِهِ فِي الْجَنَّةِ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجَ الْمَلَكِ وَالْكَرَامَةِ، وَأَلْبَسَ حَلْلَ الْذَّهَبِ وَالْفَضْهِ وَالْيَاقُوتِ وَالسَّدْرِ مَنْظُومًا فِي الْإِكْلِيلِ تَحْتَ التَّاجِ، وَأَلْبَسَ سَبْعِينَ حَلَّهُ حَرِيرًا بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، مَنْسُوجٌ بِالْذَّهَبِ وَالْفَضْهِ وَالْمَؤْلُوْدِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: يُحَلَّوْنَ فِيهِمَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَبِلَاسِهِمْ فِيهَا حَرِيرٌ إِنْذَا جَلَسَ الْمُؤْمِنُ عَلَى سَرِيرِهِ اهْتَرَ سَرِيرَهُ فَرَحاً، إِنْذَا اسْتَقْرَرَ بِوْلِيِّ اللَّهِ مَنَازِلِهِ فِي الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِجَنَّاتِهِ بِكَرَامَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، فَيَقُولُ لَهُ خَدَّامُ الْمُؤْمِنِ وَوَصْفَاؤُهُ^(٢):

مَكَانِكَ فَإِنَّ وَلِيَ اللَّهِ قَدْ اتَّكَى عَلَى أَرِيكَتَهُ وَزَوْجَتِهِ الْحُورَاءِ الْعَيْنَاءِ قَدْ ذَهَبَتِ إِلَيْهِ فَاصْبَرْ لَوْلَيَ اللَّهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ شَغْلِهِ»

[٢١] إِنْ تَأْمَلْ فِي نَعْمَ اللَّهِ الْمَبْثُوثَهُ حَوْلَنَا نَزَادُ إِيمَانًا بِصَدْقَ وَعْدِ رَبِّنَا بِنَعْمِ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ أَنْقَى وَأَبْقَى.

ص: ٤٦١

١-١) حِبَّكَهُ: شَدَّهُ وَأَحْكَمَهُ.

٢-٢) وَصَفَاءُ جَمْعُ الْوَصِيفَهُ: الْجَارِيَه.

٣-٣) الْمَصْدَرُ / ص (٤٨٣).

تعالوا إلى الروابي لنتظر إلى الغيث حين ينزل على الأرض فينشر الله عليهما بركاته. تأملوا في طبقات الأرض، وامعنوا النظر في القنوات التي جعلها الله فيها وفي الأحواض الكبيرة التي تنتهي إليها فتختزن مياه المطر بعد تنقيتها في جوف الأرض ثم تتفجر ينابيع مستمرة على مدار السنة.. أو لا تشهدون يد القدرة الإلهية التي نظمت الخليقة أحسن تنظيم؟! ألم تر أن الله أنزل من السماء ماً كيف سخر الرياح لحمل السحب الثقيلة من أعلى البحر، وكيف مررها بتيارات باردة، وكيف لقحها بعواصف الرياح الهوج في جو السماء؟! ثم كيف هداها إلى حيث أمرها بإلقاء حملها؟! تبارك الله رب القدرة والرحمة.

و الماء هو الماء، ولكن ينقسم إلى ما يصرف آنيا، و ما يخزن في باطن الأرض.

فَسَلَّكُهُ يَنَائِيْعَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الرَّبِيعِ إِلَى الْخَرِيفِ، وَمِنَ الشَّتَاءِ إِلَى قِيَضِ الصِّيفِ.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِذَا بِالْمَاءِ الْوَاحِدِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ نَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.

ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا فَهِينَ تَيْنَعُ الشَّمَارِ، وَتَيَسِّرُ الْجَبَوْبُ، لَا تَسْتَقِرُ فِي مَوَاقِعِهَا، بَلْ تَمِيلُ إِلَى الصَّفَرِهِ بَعْدِ الْخَضْرَهِ اسْتَعْدَادًا لِحَصَادِهَا.

ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً

يابسا تذرّه الرياح، و الحطام ما يتفتت من النبت، أو لا ترون آثار القدر و التدبير في كلّ هذه الدوره الحياتيه السريعة؟! إنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ يعرفون الله من خلال آياته، و يعرفون صنع الله فيما يأتي من خلال صنعه فيما مضى، و يعرفون سنه الله الواحده في الخلق فكما تمّ النباتات بالدوره الحياتيه يمر الإنسان بذات الدوره، و عليه أن يستعدّ للرحيل، و يتزوّد للمسير بالقوى، و يأخذ من دار الغرور لدار الجزاء.

و كلمه أخيره: إنَّ هذه الدوره النباتيه تعكس النبات في حالتين: عند ما يزهو في اخضراره، و حينما يكون حطاماً. إنَّه ذات النبات يمر بحالتين، كذلك الإنسان قد يكون في ذروه إيمانه و قد يكون في حضيض الكفر. هل يستويان مثلاً؟!

اشاره

أَفَمِنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدِرَةً لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيِّهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمِنْ يَتَّقَى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْنَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعِذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ ضَرَبَنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوْجَ لِعَالَمِهِمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرُكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَيِّلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَشِّيَّوْنَ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

اللغه

[٢٣][مثاني]: جمع مثنى أي أنّ قصص هذا الكتاب و إخباراته و أحكامه تذكر مثنى مثنى في قوله مختلفه للتركيز في الأذهان.

[متشاكسون]: التنازع والتمانع، وأصله من الشكاسه وهو سوء الخلق والاختصار.

ص: ٤٦٥

هـدـى مـنـ الـآـيـاتـ:

من تجليات الإعجاز البلاـغـى فى كتاب ربنا أنه مثاني تقشعر منه جلود الذين آمنوا، و من معانى المثاني أنه يتبع سلسلتين من الأفكار متداخلتين يتحدث عنهما معا فى سياق آياته بنظم دقيق و منهج متين، ذلك أنه من الله الذى لا يشغله شيء عن شيء.

و هنا نجد السياق فى ذات الوقت الذى يتبع الحديث عن فوارق النمطين من الناس: فهناك من شرح الله صدره للإسلام، و هناك من قسى قلبه من ذكر الله، و يتقوى بوجهه سوء العذاب، و يكذب بالله ليلقى جزاءه خزيا فى الدنيا، فى ذات الوقت يبين خصائص القرآن و كيف تتلقاه النفوس الطيبة، و كيف يضرب الله فيه من كل مثل للناس لعلهم يتذكرون.

[٢٢] ما هي المعرفة، وكيف يتخلص البشر من روابط الجهل، ولماذا نجد البعض يرتفعون إلى أعلى درجات الإيمان بينما يهبط الآخرون إلى الحضيض في الكفر؟ للقرآن بصيره واضحه في المعرفة تتلخص في أنّ محل العلم القلب، فإذا كان من شرحاً ازداد معرفة و إيماناً، بينما القلب القاسي لا يتسع للمعرفة.

أَفَمِنْ شَرَحَ اللَّهُ صَيْدَرَةً لِلإِسْلَامِ[□] مَا هُوَ الصَّدْرُ الْمُنْشَرِحُ بِالإِسْلَامِ؟ إِسْلَامٌ هُوَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ لَسْنَنَ اللَّهِ لِشَرَائِعِ اللَّهِ وَلِالْحَقِّ أَتَى
كَانَ، فَإِذَا شَرَحَ اللَّهُ الصَّدْرُ خَشِعَ لَهُ وَلَانَ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ وَوَسَعَهَا كَمَا تَخْشَعُ الْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ لِمَاءِ السَّمَاءِ، كَمَا تَلَيَّنَ التَّرْبَةُ الصَّالِحَةُ
لِنَبْتَهُ مُبَارِكَةً، كَمَا تَسْتَقْبِلُ الْأَزْهُورُ النَّسِيمَ الْعَلِيلَ، بَيْنَمَا الْقَلْبُ الْقَاسِيُّ كَالصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ لَا يَتَسْعُ لِمَعَارِفِ الْحَقِّ، وَلَا يَهْتَزُ لِوَابْلِ
السَّمَاءِ، وَلَا يَنْبُتُ زَهْرَهُ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ نَسْمَهُ.

هكذا

أوصى نبينا الأكرم ابن مسعود فقال له: «يا ابن مسعود! فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه، فإنّ النور إذا وقع في القلب انشرح و انفتح.

فقيل يا رسول الله: فهل لذلك علامه؟ فقال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإتابه إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الغوث، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها، وتركها لأهله» [\(١\)](#)

ص: ٤٦٧

١ - (١) بحار الأنوار/ ج (٧٧) ص (٩٣).

فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فِي النُورِ الرَّبِّيَّانِي يَتَصَلُّ صَدْرُ الْإِنْسَانِ بِعَالَمِ الْحَقَائِقِ، فَيَتَسَعُ لَهَا، وَيَنْشَرِحُ بِهَا، وَنُورُ اللَّهِ هُوَ الْعُقْلُ الْمُسْتَضِيءُ بِالْوَحْيِ، وَلَعْلَ التَّعْبِيرُ بِـ«عَلَى» لِلإِيْحَاءِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ ماضٌ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَنِيرٍ، كَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ .

وَيُمْكِنُ أَنْ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَيْهِ: أَنَّ لِلْقَلْبِ حَالَتَيْنِ: فَهُوَ يَنْغُلُقُ عَلَى ذَاتِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا نَفْسَهُ فَيَعِيشُ فَقَطَ ضَمِّنَ مَصَالِحَهَا وَتَمَنِيَّاتِهَا وَأَوْهَامِهَا، وَيَرِيدُ الْعَالَمَ الْمُحِيطَ لِذَاتِهِ، فَيَكُونُ قَاسِيَا وَمَعَ الْهُوَى مُتَقْلِبَا، وَبِالرِّينِ وَالْطَّبَعِ مُتَلَبِّسا، لَا يَعْرِفُ بِقَانُونِ، وَلَا يَؤْمِنُ بِسَنَهِ، وَيَكُونُ مُثْلَهُ مِنْ يَعِيشُ فِي بَيْتٍ وَيَزْعُمُ بِأَلَا— أَحَدٌ يَمْكُثُ فِيهِ مَعَهُ، فَيَفْعُلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَيَتَحَلَّ مِنْ كُلِّ التَّرَازِمِ، وَأَمَّا الْحَالَهُ الثَّانِيَهُ فَهُوَ الْخُرُوجُ مِنْ زِرْنَاهُ الذَّاتِ إِلَى رَحَابِ الْحَقِيقَهِ، حِيثُ يَعِيشُ فِي عَالَمٍ وَاقِعِي يَعْرِفُ بِوُجُودِهِ، وَيَسْعِيُ لِلتَّعْرِفِ عَلَيْهِ وَالتَّكْيِفِ مَعَهُ، أَنْ مُثْلِ صَاحِبَهَا كَمَنْ يَدْخُلُ بِلَدًا وَيَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ أَنْسَاً لَا بُدَّ أَنْ يَعَايِشُهُمْ، وَأَنَّ لَهُمْ قَوَانِينَ لَا بُدَّ مِنِ الْالْتَرَامِ بِهَا، وَهَكُذا لَا يُضِيقُ ذِرْعًا إِذَا تَعْرَفُ عَلَيْهِمْ وَعِرْفُ حُوقُوقِهِمْ، بَلْ أَنَّهُ يَسْتَقْبِلُهُمْ بِتَرْحَابٍ، وَيَخْضُعُ لِنَظَامِهِمْ بِلَا تَرْدُدٍ.

وَإِذَا كَانَتِ الْحَالَهُ الْأُولَى تَعْكِسُ الْجَمُودَ وَالتَّخَلُّفَ وَالْجَهَلَ وَالْفَوْضَى، فَإِنَّ الْحَالَهُ الثَّانِيَهُ هِيَ ذُرُوهُ النَّشَاطِ وَالرَّفْقِ وَالْعِلْمِ وَالْالْتَرَامِ.

فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ آيَاتُ رَحْمَتِهِ وَقُدرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ، مَعَ ذَلِكَ تَرَى قُلُوبَهُمْ قَاسِيَهِ مِنْ ذِكْرِهِ، فَكَيْفَ سَائِرُ حَقَائِقِ الْخَلْقِ؟ أَرَأَيْتَ مِنْ عَمَى عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ هُلْ يَرَى شَمْعَهُ؟! كَذَلِكَ حِينَ قَسَى الْقَلْبُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَلَا يُرجِي أَنْ يَنْشَرِحَ لِمَعْرِفَهِ

أُولئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ يحيط بهم الضلال المبين كما يحيط بأولئك نور الله.

[٢٣] من أبرز معالم شرح الصدر استقبال نور الله في القرآن، فقد أنزل الله أحسن الحديث، اختصر الجمال والروعه والبلاغه والعلم والهدى والنور، وتجلى فيه الرب حتى رأى فيه قلوب المؤمنين جمال ربهم كما رأت أعينهم جمال صنعه.

الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ إِنَّهُ مِرَآهُ تَعْكِسُ رُوْعَهُ الْخَلْقِ وَجَمَالَ الْخَالِقِ وَأَحْسَنَ الْخَلْقِ وَأَنْبَلَ الْأَعْمَالِ..

كتاباً منتظماً في وحده متancockه، مجموعاً إلى بعضه بتماسك لا ثغره فيه ولا فطور، ولا تناقض ولا اختلاف.

مُتَشَابِهًأً بعضه يشهد على بعضه ويفسره ويبينه، وفي ذات الوقت لا يرقى إلى كنه فهمه عقل، ولا ينفذ في غور علمه أحد، وكلما تلوت آياته استفدت علماً جديداً وهدى طارفاً، وما أُوتيت من علم فهو بالنسبة إليك محكم، ولكن يبقى ما لم تؤت من علم كالمحيط الواسع لا تنتهي عجائبه ولا تنقضي غرائبه.

مثاني فنجد فيه:

أولاً- مفارقات بين الخالق والمخلوق، بين الحق والباطل، بين المحسن والمسيء، كما يذكّرنا بالمفارقات الظاهرة بين النور والظلام، بين الظل والحرور، بين الحرية والعبودية، و.و.

و لعل سورة الزمر قد بلغت الذروه في هذا التمييز، بالذات بين الناس حيث تجلت فيها صفة (الفرقان) في معرفة الصالحين وتزييلهم عن سواهم.

ثانياً: مقارنات بين أزواج الطبيعة، بين الذكر والأئنة، بين السماء والأرض، البر والبحر، الإنسان والحيوان، الزيتون والأعناب، الفاكهة والأب، وهكذا.

ثالثاً: شواهد و أمثله، فما من حقيقه يذكّر بها كتاب ربنا إلا و تتشّعّب بتفسيرها و دليلها و مثالها، فما تتلو فيه من آيه حتى تجد في السياق عاده أو في موقع آخر تبيانا لها، فإذا ذكرت عاقبه المتقين ضربت لها أمثله من جزائهم عند الله و انتصارهم في الدنيا، وإذا ذكرت من صفات المتقين واحده ثنيت بشواهدها من حياء النبسين - عليهم السلام -، وإذا ذكرت حقيقه من حقائق التوحيد توالت شواهدها.

فمثلاً حين ذكر السياق شرح الصدر بالإسلام بين مثله في خشوع قلب المؤمنين لآيات الذكر.

و هكذا وأشارت الآيات التالية إلى أن القرآن ضرب للناس من كلّ شيء مثلاً، فيكون المثل ثنيه كلّ حقيقه مذكوره في القرآن.

هذا بعض معاني المثاني.

ولأنّه مثاني تشفع الحجه بالحقيقة فإنّ قلوب المؤمنين تصعق له، و تسري في

أعصابهم رعشة الخشية، فتهاهت تبعاً لذلك -جلودهم.

تَقْسَّمُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْشُونَ رَبَّهُمْ عند ما تواجه النفس حقيقه أكبر من سعتها تندesh بـها و تحصل لصاحبها قشعريره، أما لاهتزاز الأعصاب أو لتجمع الدم حول القلب كما يحصل في حالات الخوف الشديد.

و لأن هذا الفريق يخشون ربهم، و يعرفون شيئاً من عظمته و كبرياته، و يعلمون أن الكتاب رساله الله إليهم، فلا تكاد قلوبهم تستقر لتجلياته الظاهره في كتابه، و لو لا أن الله يؤيدهم في تلك اللحظه بروحه لتصدّع قلوبهم كما اندك الجبل عند ما تجلّى الله له أمام موسى فخر موسى عليه السلام صعقاً،رأيت تجلّى الله للجبل كان أعظم من تجلياته في كتابه للرسول و المؤمنين؟ إنما المؤمنون توجل قلوبهم بمجرد ذكر الله، فكيف لا- تصعق عند ما تتلى عليهم رساله الله إليهم، إنه الله يتحدث إليهم فكيف يصمدون، بل أنا و أمثالى الذين أحاطت الشهوات بقلوبنا لا نعرف ذلك، إلا إذا رفع الله الحجب و اتصل القلب بنور الرب.

ثُمَّ تَبَيَّنُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ إِذَا ذَهَبَتْ آثَارُ الصَّدْمَةِ، وَ تَغْلِبُ الْعُقْلُ بِتَأْيِيدِ اللهِ عَلَى هُولِ الْمَوَاجِهِ، لَأَنَّ الْجَلْدَ تَعْبِرَهُ عَنْ خَشْوَعِ الْقَلْبِ، وَ اسْتَعْدَادَهُ لِاستِقبَالِ ضِيَاءِ الْهُدَىِ.

و قال المفسرون: إن قشعريره الجلد تعبر عن خشيتهم من عذاب الله، أما حين يلين فإنه دليل على طمعهم في رحمه الله، و هكذا يعيش قلب المؤمن بين الخوف

والرجاء.

و قال الفخر الرازى: إن المقامين المذكورين فى الآية «تقشعر و تلين» لا يجب قصرهما على سماع آيه العذاب والرحمة، بل ذاك أول المراتب، وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين.

ثم تناول هذا المفسر الكبير الفرق بين حاله المؤمنين عند تلاوه الكتاب، و حاله الوجد الصوفيه عند سماع أشعار الهجران والوصل، و قال: إن الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسأله فى كتاب «إحياء علوم الدين» و هي آننا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتمله على شرح الوصل والهجر، و عند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال، ثم إنه سلم هذا المعنى و ذكر العذر فيه من وجوه كثيرة، و أنا أقول: إنني خلقت محروما عن هذا المعنى، فإنني كلما تأملت فى أسرار القرآن اقشعر جلدى، و وقف على شعري، و حصلت فى قلبي دهشه و روعه، و كلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علىي، و ما وجدت البته فى نفسي منها أثرا، و أظن أن المنهج القويم و الصراط المستقيم هو هذا، ثم ذكر وجوها فى بيان ذلك تتلخص فيما يلى:

أولاً: إن تلك الأشعار لا تليق بمقام الخالق، و إن إثباتها فى حقه كفر.

ثانياً: إن قائل القرآن هو الله عبر جبرائيل إلى الرسول إلينا، بينما قائل تلك الأشعار شاعر كذاب مملوء من الشهوه و داعيه الفجور.

ثالثاً: إن مدار القرآن الدعوه إلى الحق، و مدار الأشعار الباطل. [\(١\)](#)

و أقول: إن تلك الأشعار تثير شهوات البعض، و تدغدغ عواطف الهوى المكبوته

ص: ٤٧٢

١- راجع التفسير الكبير/ج (٢٦) ص (٢٧٣).

لديهم، بينما تستثير آيات الذكر دفائن العقول، و تجلى القلوب من رين الشهوات، و كل إباء بالذى فيه ينضح.

﴿ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ سُبُّ الْزَّلْفَى إِلَى اللَّهِ عَبْرَ الْأَشْعَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَ الطُّرُقَ غَيْرَ الشَّرِيعَةِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إِلَيْهِ، بَلْ يَضْلِلُهُمْ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا الْوَسِيلَةَ الَّتِي بَيْنَهَا لَعْبَادَهُ .﴾

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَهْتَدِي إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ، وَ بِأَوْلِائِهِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ وَسَائِلَ رَحْمَتِهِ، وَ أَلَا يَخْرُعُ لِنَفْسِهِ مِذْهَبًا فَيُضْلِلُهُ اللَّهُ، وَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَدْلِلُ عَلَى ذَاتِهِ، وَ لَا شَيْءٌ أَظْهَرَ دَلَالَهُ مِنْهُ وَ لَا شَفِيعٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، وَ هَكُذا يَخْلُصُ النَّيْهَ لِرَبِّهِ، وَ حَاشَا اللَّهُ أَنْ يَخْيِبَ ظَنَّ عَبْدِهِ بِهِ .﴾

[٢٤] وَ يَعُودُ الْقُرْآنُ إِلَى مُفَارِقَتِهِ بَيْنَ مَنْ يَتَّقِيُّ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَيُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَ بَيْنَ مَنْ لَا يَتَّقِيُّ وَ لَا يَجِدُ هَنَاكَ شَيْئًا يَحْتَجِزُ بِهِ عَنِ النَّارِ، فَتَرَاهُ يُضْطَرُّ إِلَى اتِّقاءِ النَّارِ بِوْجْهِهِ .

أَفَمَنْ يَتَّقِيُّ بِوْجْهِهِ سُوءَ الْعِذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ عَذَابُ هَائِلٍ ذَلِكَ الْعِذَابُ، حِينَ تَتَمَيَّزُ جَهَنَّمُ غَيْضاً، وَ تَنْفَجِرُ فِيهَا النَّيْرَانُ تَفْجُراً، وَ يَأْتِيَ الْمُجْرُمُونَ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ التَّوَابِ مَا يَقِيمُهُمُ النَّارُ، فَتَتَعَرَّضُ وُجُوهُهُمْ لَهَا، تَلَكَ الْوَجْهُ الَّتِي اعْتَرَوْا بِهَا وَ يَإْثِمُهَا فِي الدُّنْيَا، وَ صَانُوهَا بِأَيْدِيهِمْ وَ بِمَا يَمْلِكُونَ .﴾

وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

إِنَّ الْفَوَاحِشَ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الظَّالِمُونَ فِي الدُّنْيَا تَجْسِدُ فِي صُورَهُ نَيْرَانٌ مُلْتَهِبٌ وَعَقَارِبٌ وَحَيَاتٌ أَوْ رَأَيْتَ الَّذِي يَصْنَعُ الْقُنْبَلَهُ النَّوْوِيهِ
بِسِدهِ ثُمَّ يَفْجُرُ نَفْسَهُ وَالْبَلَادَ كَيْفَ أَنَّهُ حِينَ يَصْنَعُهَا لَا يَتَصَوَّرُ بِسَهْوَهُ هُولَ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ الْمُجْرَمُونَ حِينَ يَزْنُونَ أَوْ يَغْتَابُونَ أَوْ
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَهُمْ بِالْبَاطِلِ أَوْ يُؤْيِدُونَ الطَّاغُوتَ لَا يَتَصَوَّرُونَ أَيْ عَذَابَ شَدِيدٍ يَكْتَسِبُونَهُ وَيَعْدُونَهُ لِأَنفُسِهِمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَهِ.

[٢٥] وَ كَمَا هُوَ فِي الْآخِرَهِ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ بَنَى السَّدًّ وَطَغَىْ بِهِ عَذَابٌ بَعْدَهُ، كَمَا أَنْهَارَ سَدَّ مَأْرِبٍ، وَمَنْ عَبْدَ الْحِجَارَهُ، أَوْ اتَّخَذَ
مِنَ الْجَبَالِ أَكْنَانًا عَذَابٌ بِهَا كَمَا عَادَ وَثَمُودٌ، وَمَنْ عَبْدَ الْمَاءَ أَغْرَقَ فِيهِ كَقْوَمَ فَرْعَوْنَ.

كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَمَنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا أَتَاهُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَ
عَلَيْنَا أَنْ نَرَاجِعَ قَصْصَ الْقُرْآنِ كَيْفَ عَذَبَ اللَّهُ الْأَقْوَامَ، فَهَلْ كَانَ يَتَصَوَّرُ فَرْعَوْنَ أَنَّ مُوسَىَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي رَبَّاهُ فِي بَيْتِهِ يَكُونُ
فَنَاءَ مَلْكَهُ عَلَى يَدِيهِ؟! كَلَّا.. وَهَلْ كَانَ يَعْلَمُ فَرْعَوْنَ وَمَلْوِهِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْمَاءَ، فَكَانُوا يَرْمُونَ فِي النَّيلِ بِأَجْمَلِ فَتَيَّاتِهِمْ لِإِرْضَائِهِ، وَ
كَانَ فَرْعَوْنُ يَفْتَخِرُ بِالْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ، وَكَانَتْ حَضَارَتِهِمْ قَائِمَهُ عَلَيْهِ، هَلْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِأَنَّهُمْ سُوفَ يَغْرُقُونَ فِي
مَعْبُودِهِمْ وَأَسَاسِ تَحْضُورِهِمْ. إِنَّ الَّذِي يَكْذِبُ بِآيَاتِ اللَّهِ يَكُونُ هَلَاكَهُ بِالْقُوَّهِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا (يَعْدُهَا).

[٢٦] فَمَاذَا قَهُمُ اللَّهُ الْبِخْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِشَيْءٍ غَرُورًا، وَالآنَ يَجِبُ أَنْ يَلَاحِقُهُمُ الْخَزْرَى وَ
الْعَارُ، هَذَا فِي الدُّنْيَا...

وَلَعَذَابُ الْآخِرَهِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

أكبر خزيًا وألمًا، و الإنسان يهرب من عذاب الدنيا فكيف لا يهرب مما هو أكبر منه؟! [٢٧] وبعد ذلك يذكرنا ربنا بأنّه ضرب لنا الأمثال، من قصص الأنبياء وأممهم.

و هي وقائع خارجية جسّدت القيم التي يبشر بها القرآن و هذا المعنى المثل أى التطبيق الخارجي للحقيقة.

وَلَقَدْ ضَرَبَنَا لِلَّهِ أَسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَالتعبير «بكل مثل» يدل على أن في القرآن إشاره الى كل الحقائق، و ذلك عبر أمثله واقعيه لها، فإني تفكرت فيه مما يتصل بالخلق و الخالق و الصله بينهما وصله الخلق ببعضهم و غيرها مذكور في القرآن و مفصل بالأمثله التي لا تقتصر على حياه الشعوب السابقين بل و تشمل إشارات الى الطبيعة و أحوالها.

[٢٨] و بعد ذلك يأخذنا ربنا إلى صفات ذلك القرآن الذي يضرب فيه من كلّ مثل، و يذكر له صفات ثلات:

١-قرآن: مفروءاً، يوصلنا بالماضي، و يفصل لنا الحاضر، و يرسم خريطة المستقبل.

٢- عربياً: بلغه مفهومه، فأعرب الكلام أفعصح عنه، و يقال أعرب فلان عن أستيائه أى بيته، و العربي هو الذي يكون فصيحاً بليغاً.

٣- غير ذي عوج: ليس به انحراف يمنه أو شمالاً، شرقاً أو غرباً، ذلك أنّ

من أسباب الانحراف الجهل و الهوى و الاستسلام للضغوط، و تعالى الله عن كل ذلك، و هكذا يفصح القرآن عن الحقائق بصورة مباشرة.

فُرِّآنًا عَرَيَّا غَيْرَ ذِي عِوْجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَ هَذَا هُدُفُ الْقُرْآنِ، إِنَّهُ يَرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَيْهِ وَ تَخَافَهُ، وَ نَعْمَلُ بِمَضْمُونِ التَّقْوَى مِنْ إِصْلَاحٍ دُنْيَا وَ أَخْرَانَا.

[٢٩] وَ مِنْ أَمْثَالِهِ الْقُرْآنُ الَّتِي تَقْرَبُ إِلَى أَذْهَانِنَا قِبَحُ الشُّرِّكَاءِ اشْتِراكٌ مُجْمُوعٌ فِي امْتِلاَكٍ شَخْصٍ.

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرٌّ كَائِنٌ مُتَشَاكِسُونَ هَلْ يَسْتَوِي عَبْدٌ يَمْلِكُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَالِكٍ وَ عَبْدٌ يَمْلِكُهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ؟ كَلَّا... لَأَنَّ فِي الشَّانِي كَلَّا مَالِكٌ يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ لِحْسَابِ الْآخَرِينَ، وَ قَدْ يَبْيَنَ الْبَارِي ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلُطَاءِ لَيَغْنِي بِعَظُمَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (١) وَ قَالَ تَعَالَى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُدَّ بِحَمَّانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِحُّ فُونَ (٢) وَ قَالَ تَعَالَى عَنِ اسْتِحْالَةِ الْأَشْيَاءِ وَ الْأَعْصَادِ: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيًّا وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَمَّا هَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٣).

وَ هَنَاكَ مَثَلٌ مِنْ وَاقْعَنَا: حِيثُ تَعِيشُ بَعْضُ الدُّولِ الْمُسْتَضْعِفَةِ فِي إِطَارِ وَلَاءَاتِ مُخْتَلِفَهُ فَتَتَصَارِعُ عَلَيْهَا قُوَّى الْشَّرْقِ وَ الْغَربِ، وَ قَدْ يَجْرِي الصَّرَاعُ عَلَى أَرْاضِيهَا وَ بِأَيْدِيهَا، وَ يَكُونُ بِالْتَّالِي الْغَرَمُ لَهَا وَ الْمَكَاسبُ لِلْأَسِيَادِ، وَ آخَرُ مَثَلٌ عَلَى ذَلِكَ مَا

ص: ٤٧٦

١ - (٢٤) ص / (١). .

٢ - (٢٢) الأَنْبِيَاء / (٢). .

٣ - (٩١) الْمُؤْمِنُون / (٣). .

يجرى حتى اليوم فى كمبوديا حيث تتصارع قوى عالمية عديدة على أراضيها و بأنائها و لكن لمصالح الأجانب، وقد هدمت البلاد و قتل من الشعب الكمبودى زهاء ثلاثة ملايين بشر.

و ليست الآلهة التى تعبد من دون الله سوى رموز للقوى السياسية و الاجتماعيه التى تتصارع على استعباد البشر فتجزء إلية الولايات، و ما يخلصنا سوى التحرر من عبادتها و التمرد على سلطانها للنجاه من مشاكلاتها و حروبها التى تطحتنا اليوم طحنا.

وَرَجُلًا سَيِّلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا... إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَقُولُهُ شَخْصٌ وَاحِدٌ بِاسْمِ اللَّهِ وَلَا تَتَدَبَّرُ فِيهِ شَهْوَاتُ الْآخَرِينَ وَلَا ضُغُوطُهُمْ وَلَا... مَصَالِحُهُمْ يَعِيشُ دَائِمًا فِي حَرَبٍ مُسْتَقِيمٍ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ، لَا تَعْصُفُ بِهِ الْاِخْتِلَافَاتُ، وَلَا تَتَحَكَّمُ فِيهِ الْفَوْضَى، وَلَا يَوْجَهُ مَشْكُلَهُ تَعْدُدُ الْوَلَاءَتَاتِ، إِنَّهُ لَا... يَخَافُ الْمُنْفَعَاتَ وَلَا... تَنَافِسُ الْقُوَى عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَعِيشُ بَعِيدًا عَنْ أَهْوَاءِ الشَّيَاطِينِ وَأَطْمَاعِ الْحَكَامِ.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال :

و أنا السلم لرسول الله (ص) يقول الله عز و جل : «(و رجلا سلما لرجل)»^(١) و

عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال :

«سلمًا هو على عليه السلام لرجل هو النبي (ص) و شركاء متشاكسون: أي مختلفون، و أصحاب على مجتمعون على ولائه »^(٢)

ص: ٤٧٧

١ - (٤) تفسير البرهان/ج (٤) ص (٧٥).

٢ - (٥) المصدر.

الْحَمْدُ لِلّٰهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فَلَا يَفْرَقُونَ بَيْنَ الَّذِينَ يُوَحِّدُ اللّٰهُ وَيَخْضُعُ فَقْطًا لِأَوْلِيَاءِهِ وَمَنْ تَسْتَعْبِدُهُ قَوْيُ السُّلْطَةِ وَالثَّرَوَةِ.

وَهَكُذا ضرب اللّٰهُ لَنَا مَثَلًا—للتَّوْحِيدِ مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ، وَمَيْزَانِ نِمَطِيْنِ الْحَيَاةِ، حَيَاةِ الْاِسْتِقْلَالِ وَحَيَاةِ الْعَبُودِيَّةِ، وَذَلِكَ تَكْمِيلًا لِبَيَانِ الْمُفَارِقَاتِ فِي سُورَةِ الزَّمْرِ.

ص: ٤٧٨

اشاره

إِنَّكَ مَيْتُ وَ إِنَّهُمْ مَيْتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْيَقَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تُحْصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَبَ بِالصَّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِكُلِّ كَافِرٍ (٣٢) وَ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ وَ صَدَقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لَيَكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَعْزِيزُهُمْ أَجْرُهُمْ بِمَا حَسِنُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ وَ يُحَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٌّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي إِنْتِقامَةٍ (٣٧) وَ لَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ رَهِيلٌ هُنَّ كَاشِفُتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَهِ هَلْ هُنَّ مُمْسِيَ كَانُتْ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسِبَيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمَ اعْمَلُوا عَلَى مَا كَاتَبْتُكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) ... لِـS...I...R...e...)

أَعْمَلُوا عَلَى مَا كَاتَبْتُكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) ... لِـS...I...R...e...)

عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحُقُّ فَمَنْ إِهْتَدَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١)

هدی من الآیات:

تهبط آيات القرآن كالصاعقة على القلب الغافل فتفجر فيه طاقات الفهم، وثير فيه دفائن العقل، من ذلك ما نجده في هذا الدرس حيث يهدينا إلى حقيقة يحاول ابن آدم إنكارها تكتيراً وعلقاً حتى أضحت تشبه في إنكار الناس لها الباطل، وتلك هي الموت الذي يتضرر كلّ حي، ولكن الموت هو أهون المراحل التي تنتظرك، فما بعده أعظم، كالاختصار يوم القيمة، ذلك لأنّ الإنسان لا يستطيع في ذلك اليوم حين يقف وحيداً أمام محكمه الحق أن يتهرّب من الحقائق، فلا بد إذاً أن نهتم بالمعايير الأخرى اليوم وقبل ذلك اليوم. وفي بدايه سورة آل عمران قلنا: إن الإيمان بالبعث يمثل حجر الزاوية في كفر الإنسان المسلم، حيث يحافظ على توازنه، ويدعوه إلى الإيمان بحقائق خارج محيط ذاته وأنّها هي المحور، وإذاً من الإنسان بوجود محور في الحياة بحث عنه، وإذاً بحث عنه وجده.

و هذا الدرس امتداد للدرس الماضي، حيث ذكرنا هنالك أن القلب الخاشع لله

يَهْدِيهِ اللَّهُ لِلإِسْلَامِ، فَيُعْرَفُ بِوُجُودِ الْحَقِّ، بِعَكْسِ الْقَلْبِ الْقَاسِيِّ الْمُنْغَلَقِ عَلَى ذَاتِهِ، الَّذِي لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِمَا يَعِيشُ دَاخِلَهُ، فَهُوَ يَتَمَحَّرُ حَوْلَ ذَاتِهِ.

وَفِي هَذَا الدُّرْسِ يُعَرِّضُ الْقُرْآنُ مُفَارِقَهُ بَيْنَ مَنْ جَاءَ بِالصَّدْقِ وَ صَدَقَ بِهِ، وَ مَنْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَ يَكْذِبُ بِالْحَقِّ وَ يَدْعُى الْأَنْدَادَ لِلَّهِ، وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَعْلَمُ اللَّهُ كَفَائِيَّتَهُ لِرَسُولِهِ رَغْمَ تَخْوِيفِ الْمُشْرِكِينَ لِهِ بِالذِّينَ مِنْ دُونِهِ، وَ أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِعُوا إِضْلَالَ مِنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَ لَا يَسْتَطِعُ الْذِينَ مِنْ دُونِهِ كَشْفَ النُّصُرِ عَنَّا أَوْ مَنْعَ الْخَيْرِ.

بيانات من الآيات:

[٣٠] مِنْ أَبْرَزِ وَ أَخْطَرِ مَصَبِّيَّاتِ الْبَشَرِ انْغْلَاقُ قَلْبِهِ عَنْ حَقَّاتِ الْخَلِيلِ، وَ إِيمَانِهِ بِمَقَايِيسِ ذَاتِهِ، يَقِيمُ بِهَا الْأَحْدَاثُ وَ الْأَشْخَاصُ مِنْ حَوْلِهِ، فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْمَصَبِّيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ سَائِرَ أَبْنَاءِ آدَمَ، وَ تَعْبِيرُ آخَرَ كَيْفَ يَتَقَى الْإِنْسَانُ شَحَّ ذَاتِهِ، وَ يَخْرُجُ مِنْ زَنْزَانِهِ نَفْسِهِ الْضَّيْقِ إِلَى رَحَابِ الْحَقِّ؟ لَا رِيبَ أَنَّ وَعَيَّ الْمَوْتِ وَ النُّشُورِ ثُمَّ الْوَقْوفُ أَمَامَ مَحْكَمَتِ الْحَقِّ أَقْرَبُ السَّبِيلِ لِلْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيهِ، ذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ الْإِنْسَانِ بِوُجُودِ مَقَايِيسٍ مُوْضِعِيَّةٍ ثَابِتَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَ أَنَّهُ سُوفَ يُعرَضُ عَلَيْهَا بِأَفْكَارِهِ وَ أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ، وَ سُوفَ يُحاَكَمُ وَفَقَ تَلْكَ الْمَقَايِيسِ شَاءَ أَمْ أَبَى، كُلُّ ذَلِكَ يَعِيدُهُ إِلَى رَشْدِهِ، وَ يَنْتَهِي عَقْلُهُ عَلَى حِسَابِ هَوَاهُ، وَ يَجْعَلُهُ يَبْحَثُ عَنْ تَلْكَ الْمَقَايِيسِ الْيَوْمَ وَ قَبْلَ فُواتِ الْأَوَانِ.

هَكُذا يَدْعُونَا الإِيمَانُ بِالْبَعْثِ إِلَى الإِيمَانِ بِكُلِّ الْحَقَّاتِ، وَ هُوَ كَمَا أَسْلَفْنَا حَجَرُ الزَّاوِيَّهُ فِي بَنَاءِ صَرْحِ الْمَعْرِفَهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، وَ قَبْلَ الإِيمَانِ بِالْبَعْثِ لَا بدَ مِنْ وَعَيِّ الْمَوْتِ.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

فإذا مات الرسول (ص) رغم عظمته و جلال مقامه فهل يبقى أحد مثاً؟ قال تعالى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَتِيلَكَ الْخُلُدُ أَفَإِنْ مِّنْ فَهُمْ الْخَالِدُونَ [\(١\)](#) و يبدو لي أن الخطاب ليس خاصا برسول الله (ص) فكل من يقرأ القرآن معنى بهذا الخطاب، لأن القرآن نزل على لغة (إياك أعني و اسمعى يا جاره).

هكذا تبعث هذه الآية في أنفسنا يقظه، وفي أعصابنا رعشة، وفي عقولنا إثارة، وفي أفئدتنا سكينة، فأيّ هيبة عظيمه للموت، هذا الباب الذي لا يعود منه من دخله، ولا ينجو منه من هرب منه، وأين يذهب أعزتنا الذين نحملهم كل يوم إلى المقابر مرغومين، ونقف عند أجاداثهم مرهوبيين، ويهمس في آذاننا داعيه الحق آنئذ قائلاً:

و إِذَا حَمَلْتَ إِلَى الْقَبُورِ جَنَازَهُ فَاعْلُمْ بِأَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولٌ ...

و

يقول الإمام علي (عليه السلام) :

«لو رأى العبد أجله و سرعته إليه لأبغض الأمل و ترك طلب الدنيا » [\(٢\)](#) [٣١] أو هل تنتهي المشكلة عند الموت؟ كلا... ثم إنكم يوم القيمة عند ربكم تحصي مون فخلافاتكم في الدنيا تنتقل إلى الآخرة، وربنا سبحانه هو الحكم يومئذ، و الموازين و القوانين يومئذ غيرها في الدنيا، و علينا أن نبحث عنها و أن نطبق حياتنا

ص: ٤٨٣

١ - (١) الأنبياء / (٣٤).

٢ - (٢) نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٨٩).

و فقها إن أردانا الحياه.

[٣٢] و محور المعايير هنالك الصدق، و أظلم الناس لنفسه من كذب على الله و كذب بالصدق، و لكن كيف يكذب على الله؟ يزعم الإنسان حينما يقسوا قلبه، و ينغلق عن الحقائق، بأن ذاته هي الحق، و يكون مثله مثل ذلك الذي سئل: أين مركز الدنيا؟ فقال: حيث يقف حمارى، لقد كان يزعم هو و الكثير من أمثاله بأنهم مركز الحياة، فالعالم يبدأ من حيث هم، و ليس من حيث هي، و يتصورون أن الحق ما يرون، و الباطل ما يرفضونه، و هذا هو الكذب على الله، و حين يعرفون دين الله تراهم تبعاً لهذه الحاله النفسيه يتحققون الباطل و يبطلون الحق، و هكذا يكذبون على الله افتراء عليه.

□
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ بِيَانِ الرَّسُولِ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ شَاهَدَ عَلَى صِدْقَهُ، إِذَا مَنْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ يَهْوَنُ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا الذَّنْبُ ثُمَّ يَرْتَكِبُهُ، بَيْنَمَا نَرَى الرَّسُولَ بِالْعَكْسِ تَمَامًا يَبْيَّنُ مَدْيَ جُرْمِهِ الْكَذْبُ عَلَى اللَّهِ.

و كثير من الناس يمارسون الكذب على الله و هم لا يشعرون، و ذلك حين يقولون: هذا حلال و هذا حرام، دون سلطان من الله أتاهم.

و جرم الكاذب على الله عظيم، و لا يعادله إلا تكذيب الصدق الذي يجئ من عند الله، إذ الإنسان مسئول عن معرفه الصدق و التصديق به، و لا يجوز أن ينطوى على نفسه و يقول: من أين نعرف صدق هذا الداعيه؟ و كذب بالصدق إذ جاءه

و جزاء هذا و ذاك الإقامه فى جهنم، لأنهما معاً كافران.

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَتْوَى لِلْكَافِرِينَ وَ يُتَرَكُ السِّيَاقُ الْجَوَابُ عَلَيْهِمْ لَكِ تَقْرَأُ أَسْتَهْمُ بِهِ .

[٣٣] وَ فِي مَقَابِلِ هَؤُلَاءِ يَقْفَ الصَّادِقُونَ فَحِينَ يَخْرُجُونَ عَنْ ذُواهُمْ يَرَوْنَ الْحَقَّ بِوضُوحٍ، لَأَنَّ مَشْكُلَهُ الَّذِي لَا يَرَى الْحَقَّ اغْلَاقٌ نَفْسَهُ، فَهُلْ تَدْخُلُ الشَّمْسَ غَرْفَهُ مَغْلُقَهُ مَسْدَلُهُ الْسَّتَّارُ؟! كَلَّا... فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْتَحْ صَدْرَهُ، وَ يَزِيلَ الْسَّتَّارَ وَ الْحَجْبَ عَنْ ذَاتِهِ، لَكِ يَدْخُلُ نُورُ اللَّهِ أَرْجَاءَ قَلْبِهِ.

وَ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ وَ صَدَقَ بِهِ «جَاءَ بِالصَّدْقِ» أَيْ دَعَا إِلَيْهِ كَالْرَسُولُ، «وَ صَدَقَ بِهِ» أَيْ التَّرَمَ بِمَا آمَنَ، فَلَا يَكْفِي الإِيمَانُ بِصَدْقِ شَيْءٍ مِنْ دُونِ الْعَمَلِ بِمُضَمُّونِهِ هَذَا الإِيمَانُ، وَ الصَّدِيقُ هُوَ الَّذِي يُؤْمِنُ فِي الْأَوْقَاتِ الْحَرْجِ، حِيثُ لَا تَسْمَحُ لِهِ السُّلْطَاتُ وَ لَا يُؤْيِدُهُ النَّاسُ.

و

جاءَ فِي تَفْسِيرِ مَجْمُوعِ الْبَيَانِ: قِيلَ إِلَى الَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ مُحَمَّدَ (ص)، وَ صَدَقَ بِهِ عَلَيْيَ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَ هُوَ الْمَرْوُى عَنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. [\(١\)](#)

وَ الصَّدِيقُ يَتَقَى بِصَدَقَهُ عَذَابَ اللَّهِ:

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ الْقُرْآنُ عَادَهُ مَا يَرْبِطُ بَيْنَ الْفَكْرِ وَ الْعَمَلِ بِرْبَاطِ التَّقْوَى، وَ التَّقْوَى حَقِيقَهُ تَدُورُ حَوْلَهَا كُلُّ الْحَقَائِقِ، وَ هَذَا مَا تَشِيرُ إِلَيْهِ الْآيَةُ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . [\(٢\)](#)

ص: ٤٨٥

١ - (١) المُصْدِرُ / ص (٤٨٩).

٢ - (٢) الْمَائِدَهُ / (٢٧).

لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ لِأَنَّهُمْ ترَكُوا مَا يَشَاءُونَهُ فِي الدُّنْيَا، فَأَهْوَاهُمْ كَانَتْ تَدْعُوهُمْ لِلخُضُوعِ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَالْمِيلُ لِلْمَجَمِعِ الْفَاسِدِ، وَالْإِنْسِيَاقُ وَرَاءَ شَهْوَةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ...

و هكذا أعطاهم الله ما يشاءون، أو لأنهم أعطوا للمحتاج ما يشاء أعطاهم الله ما يشاءون.

و كلامه «ما» تعنى الإطلاق، فهم لا يتمنون على الله شيئاً إلا أعطاهم.

و قيل: إنَّ ما عند ربِّهم يشاءونه، فقد أعدَ الله لهم نعيمًا في الجنـه يشاءونه، و لا تعارض في المعنيين.

ذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ بَعْدَ مَرْجِلَةِ التَّقْوَى يَأْتِي الْإِحْسَانُ، وَالْإِحْسَانُ هُوَ الْعَطَاءُ، وَنَسْأَلُ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُعْطَى الإِنْسَانُ التَّقْوَى شَيْئاً دونَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ قَوْقَعِهِ ذَاتَهُ؟ كَلَّا... فَالَّذِي يَعِيشُ فِي حَدُودِ نَفْسِهِ وَشَهْوَاتِهِ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يُعْطَى، وَإِنَّمَا يُعْطَى مَنْ يَفْكِرُ فِي حاجاتِ الْآخَرِينَ قَبْلَ حَاجَاتِ نَفْسِهِ، فَالْإِحْسَانُ إِذْنُ أَرْفَعِ مَرَاحِلِ التَّكَامُلِ البَشَرِيِّ، فَقَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ مُتَقِيًّا وَلَكِنْ لَا يُعْطَى إِلَّا بِحَسَابٍ، وَالْمُحْسِنُ مُوْقَنٌ بِالْخَلْفِ فَيَسْتَهْلِكُ الْبَذْلُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الإِيمَانَ وَالتَّقْوَى يَكْتُمِلُ بِالْإِحْسَانِ، وَهُوَ أَعْلَى الْمَرَاحِلِ فِي الْمَسِيرَةِ الإِيمَانِيَّةِ.

[٣٥] و يبقى المتقون خائفين من سيئاتهم التي إن بقيت أكلت جانباً من حسناتهم، و لكنَّ الله يطمئنهم حين يعدهم بغفرانها:

لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا إِذَا كَانَ الْخَطَّالُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ سَلِيمًا فَإِنْ هُفْوَاتِهِ تَغْتَفِرُ لَهُ، كَمَا لَوْ كَانَتْ إِسْتَرَاطِيجِيَّةُ الْقَائِدِ سَلِيمَهُ فِيَّ إِنْ أَخْطَاءَهُ التَّكتِيكِيَّهُ لَا تَؤْثِرُ عَلَيْهِ، بَعْكَسَ مَا إِذَا كَانَتْ اسْتَرَاطِيجِيَّتِهِ خَاطِئَهُ فِيَّ صَوابُ خَطْطِهِ الْمَرْحَلِيَّهُ لَا يَنْفَعُهُ شَيْئاً.

و هكذا إذا كان الخط العام لحياة شخص سليماً، فتولى الله و رسوله و أولى الأمر حقاً، و نهض بواجباته في التحضر ضد الانحرافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فلم ينصر ظالماً، و لا خذل مظلوماً، و لا أكل أموال الناس بالباطل، و لا أدلى بها إلى الحكام، و بالتالي اجتنب فواحش الذنوب، ثم ارتكب اللهم و هي الصغائر، أو حتى الكبائر بلا جحود و لا إصرار، ثم تاب إلى ربّه متتاباً فإنه ترجى له مغفرة الله.

أمّا من كان خطّه العام منحرفاً فكان ولينا لأعداء الله، معيناً للظلمة على عباد الله، فإنَّ كثرة صلاته و صومه لا تنفعه، كذلك لو عاش على الحرام حتى نبت لحمه و عظمه منه.

و لعلَّ المعيار الأساسي في ذلك ألا تكون السيئة الصادره من منطلق سيء، إذ قد يرتكب المرء ذنباً و لكنَّ قلبه لا يزال مطمئناً بالإيمان فيمكن تدارك الأمر، و لكنَّ الذي يرتكب الموبقات و هو جاحد بربوبيه الربّ، مستحلّ للمحرمات، فإنَّ توبته إلى الله بعيدة.

و تشجيعاً لحاله الإحسان في الأمة ألغى الإسلام الضمان عن المحسنين الذين

يقعون في الخطأ، فقال سبحانه: **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَيِّلٍ** ، ومضت هذه الآية قاعده فقهيه استنبط العلماء منها أحكاماً كثيرة حيث أسقطوا بها الضمان من الدين يريدون الإحسان ولکئم يخطئون فيلحقون ضرراً بالطرف الآخر، كمن أراد إنقاذ غريق فتسبب جهله بطريقه الإنقاذ إلى المساهمه في غرقه.

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا حَسَنُوا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٣٦] و من العقبات التي تعرّض طريق المؤمنين المحسنين خشيته الناس، والخوف من مقاطعتهم و هجرهم، و لكن الله وعدهم بكافياتهم شر الناس، و الله سبحانه هو الذي يحفظ السموات والأرض أن تزولاً، فكيف لا يحفظ عبداً؟! أليس الله يكفي عبده شر جور السلاطين، و كيد الحاسدين، و بغي الطالمين.

وَيُخَوِّفُ نَكَّ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بِإِثَارَهُ الرُّعبُ فِي قَلْبِكَ مَمَنْ هُوَ مِنْ دُونِهِ سَبَّانَهُ، أَنْ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِهِ.

وَمَنْ يُصْبِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَهِيمِنَ هُوَ اللَّهُ، وَأَنَّ الْأَنْدَادَ مِنْ دُونِهِ، وَالسُّلْطَاتُ الطَّاغُوتِيَّةُ، وَالْمَجَامِعُ الْفَاسِدُ، وَوَلَا تَمْلِكُ أَيْ قَوْهُ، وَلَا تَنْهُمْ تَوَجَّهُوا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ سَلَبَ مِنْهُمُ اللَّهُ نُورُ الْهُدَى يَهُ فَأَضَلَّهُمْ.

[٣٧] و مره اخرى يؤكّد الله على فكره الكفايه بقوله:

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٌّ أَيْ لَا تَوْجِدُ قَوْهُ قَادِرُهُ عَلَى إِضْلَالِ امْرَءٍ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ هُدًاهُ.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله(ص) ثابت ابن سعيد :

«يا ثابت! ما لكم وللناس؟! كفوا عن الناس، ولا تدعوا أحدا إلى أمركم، فوالله لو أنّ أهل السموات والأرضين اجتمعوا على أن يهدوا عبدا ي يريد الله ضلالته ما استطاعوا على أن يهدوه، ولو أنّ أهل السموات وأهل الأرضين اجتمعوا على أن يضلّوا عبدا ي يريد الله هداه ما استطاعوا أن يضلّوه. كفوا عن الناس، ولا يقول أحد: عمي، أخي، وابن عمّي، وجارى، فإنّ الله إذا أراد بعد خيرا طيب روحه فلا يسمع معروفا إلا عرفه، ولا منكرا إلا أنكره، ثم يقذف في قلبه كلمه يجمع بها أمره » [\(١\)](#) وهذا الحديث يفسّره قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بِالْخُبُورِ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثَ أَسْفًا . [\(٢\)](#)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقامَةٍ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ، وَمَنْ عَزَّتْهُ انتقامَهُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمَنْ مَظَاهَرَ انتقامَهُ إِضْلَالَهُ لِلْمَعَانِدِينَ كَمَا أَنَّ مَظَاهِرَ عَزَّتْهُ هُدَيْتَهُ لِلْمُحْسِنِينَ.

[٣٨] وَ مَنْ أَمْثَلَهُ عَزَّهُ اللَّهُ خَلْقَهُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ تَدْبِيرِهِ لَهُمَا:

وَ لَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

ص: ٤٨٩

١ - نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٩٠).

٢ - الكهف (٦).

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُما بِيَدِهِ، فَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَحِيطِ دُولَةٍ يَحْكُمُهَا قَزْمٌ، وَتَقُولُ: هَذَا رَبِّيٌّ كَلَّا... فَالَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ رَبُّكَ وَرَبُّهُ وَأَنْتَ مُنْتَهٍ مِّنْ سُلْطَانِهِ، وَمَا يَمْلِكُ فَهُوَ لَهُ سَبَاحَةٌ.

قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرَّهِ فَلَوْ اجْتَمَعَتْ كُلُّ سُلْطَاتِ الْعَالَمِ لَتَمْنَعَ عَنْ أَحَدٍ ضررَ فِيْرُوسَ كَفِيرُوسَ الْإِيْدِيزَ مثلاً أَتَرَاهُمْ يَقْدِرُونَ؟ كَلَّا...

فَكُلُّ أَجْهَزَهُ الْطَّبِ الْمُتَقْدِمَهُ فِي الْوَلَيَاتِ الْمُتَّحِدهُ لَمْ تُسْتَطِعْ إِنْقَادَ حَيَاهُ الرَّئِيسُ الْأَمْرِيْكِيَّ كَنِيْدِيَّ بَعْدَ إِصَابَتِهِ بِرَصَاصَاتِ قَاتِلِهِ، وَكَذَا لَمْ تُسْتَطِعْ الْاِتَّحَادُ الْسُّوفِيَّتِيُّ أَنْ تَنْقَذَ حَيَاهُ طَاغُوتَهَا سَتَالِينَ.

أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَمِهِ هَيْلُ هُنَّ مُمْسِيَّاتُ رَحْمَتِهِ فَلَوْ شَاءَتْ إِرَادَهُ اللَّهُ إِنْزَالُ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى بَلْدَ مَعِينٍ، وَأَرَادَ طَاغُوتَ هَذَا الْبَلْدَ مَنْعِهِ فَهَلْ يَسْتَطِعُ؟! كَلَّا... إِنْ مَشْكُلَهُ الْإِنْسَانُ هُوَ خَضُوعُهُ النُّفُسِيُّ لِلْطَّاغُوتِ، وَإِذَا لَمْ يَخْضُعْ لَهُ نَفْسِيَا فَهُوَ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَفْعُلْ شَيْئاً.

قُلْ حُسْبَى اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ كُلُّ الْمَتَوَكِّلُونَ فَاللَّهُ يَكْفِيَنِي، وَعَلَيْهِ تَوَكِّلي.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْثَّلَاثُ تَسْلِيهُ لِلرَّسُولِ وَمَنْ يَحْمِلُ رَسَالَهُ رَبُّهُ أَلَا يَهُنَّ أَوْ يَخَافُ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، فَقَدْ ضَمَنَ اللَّهُ مَا يَلِي:

١- كفایته للرسول و من يحمل رسالته من بعده من تخویف الكافرین له.

٢- إِنَّه سُبْحَانَه يُضْلِلُ الْكَافِرِينَ وَ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، وَ لَنْ يَهْدِيَهُمْ سَوَاءُ السَّبِيلِ.

٣- إِنَّ اللَّهَ سُوفَ يَهْدِي الَّذِينَ آمَنُوا حِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِهِدَاهُ، وَ لَنْ يُضْلِلَهُمْ أَعْمَالَهُمْ.

٤- إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقَامٍ لَا يَرِدُ بِأَسَهِ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَسُوفَ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُنْتَقِمٍ.

٥- إِنَّ اللَّهَ حِينَ يَرِيدُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا فَلَنْ تُسْتَطِعُ قَوْهُ أَنْ تَهْزِمَهُمْ، وَ إِنَّ حَمَائِهِمْ وَ حَسْبِهِمْ وَ كَفَايَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ، لَأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ ذَلِكَ.

[٣٩] وَ حِينَ يَطْمَئِنُ اللَّهُ الرَّسُولُ يَأْمُرُهُ بِتَحْدِيَهُمْ:

قُلْ يَا قَوْمَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَا كَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ هَذَا التَّحْدِي مِنَ الرَّسُولِ (ص) يَنْبَغِي مِنْ رُوحِ الْاِطْمَئْنَانِ بِسَبِبِ حِمَايَةِ اللَّهِ وَ كَفَايَتِهِ وَ حَسْبِهِ، وَ هَذِهِ الرُّوحُ يَجُبُ أَنْ يَتَحَلَّ بِهَا الرَّسَالِيُّونَ، وَ يَقُولُونَ كَمَا

قال الرسول (ص): يَا قَوْمًا! أَعْمَلُوا مَا شَيْتُمْ، وَ امْكَرُوا مَا شَيْتُمْ، وَ اظْلَمُوا مَا شَيْتُمْ، وَ اقْتَلُوا مَا شَيْتُمْ، إِنَّا مَاضُونَ عَلَى الطَّرِيقِ فَسُوفَ تَظَهَّرُ النَّتَائِجُ سُرِيعًا.

[٤٠] وَ هَنَاكَ تَعْلَمُونَ:

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ فَقَى مَحْكَمَهُ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ يَتَقَرَّرُ مِنَ الصَّالِحِ وَ مِنَ الْمُفْسِدِ، فَهَنَاكَ الْمِيزَانُ الْحَقُّ،

و المقاييس السليمة.. و تذكره القرآن بذلك اليوم تتحقق التعادل في النفوس السليمة.

فلا تأبه بالمعايير المادية الخاطئة.

[٤١] إذاً فمن اهتدى بالكتاب فقد آمن يوم الفزع الأكبر، و من ضلّ فقد ضلّ على نفسه، و هو الخاسر الوحيد، إذ يخسرون في يوم القيمة أنفسهم و أهليهم.

إِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلَّذِينَ بِالْحُقْقِ الْقُرْآنُ هُوَ ذَلِكَ الْمُقْيَاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ سِيَّئَاتِي مَجْسِدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا بدَ مِنْ أَنْ نَجْعَلَهُ مَقْيَاسًا لَنَا فِي الدُّنْيَا.

فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّهُمْ بِأَنفُسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا فَالْهُدَى لَهُ، وَ الضَّلَالُ عَلَيْهِ.

وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ كُلُّ إِنْسَانٍ لَا بدَ أَنْ يَوَاجِهَ مَصِيرَهُ بِنَفْسِهِ، وَ يَخْتَارُ طَرِيقَهُ بِإِرَادَتِهِ، وَ يَتَحَمَّلُ مَسْؤُلِيَّةَ اخْتِيَارِهِ، وَ لَا أَحَدٌ يَتَحَمَّلُ مَسْؤُلِيَّهُ أَحَدٌ، حَتَّى الرَّسُولُ لَيْسَ وَكِيلًا عَنْ قَوْمٍ، إِنَّمَا هُوَ نَذِيرٌ.

اشاره

اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي فَضَى عَنِيهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْلٍ مُسَمًّى إِنْ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ (٤٢) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلُكُونَ شَيْئًا وَ لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اسْمَأَرْتُ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشُرُونَ (٤٥) قُلْ لِلَّهِمَّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلُهُ مَعْهُ لَا فِتْدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ أَهْنَعَهُ مِنْهَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتِهِ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لِكَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هُؤُلَاءِ سِيِّصَةٌ بِيَمِنِهِمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

هدى من الآيات:

إن آيات الله في الكون و التي يشير إليها هذا الدرس، ليست فقط دليلاً للإنسان على وجود الله، بل طريقة إلى معرفته المعرفة الأسمى أيضاً. على الإنسان أن لا يكتفى بدرجاته من الإيمان بل يتبع مسيرته التكاملية حتى يصل إلى مرحله العرفان، وللعرفان أيضاً درجات، فكلما تفكّر الواحد في آيات الله في الآفاق و في نفسه، و التحوّلات و التغييرات التي تحدث عنده، كلّما ازداد يقيناً و معرفة، حتى يبلغ الحدّ به أن يقول:

«لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا» [\(١\)](#) كما قالها سيد العارفين الإمام عليه السلام .

ص: ٤٩٥

١- (١) غرر الحكم / ص (٦٠٣).

[٤٢] تقارن الآية الأولى بين النوم واليقظة، وبين الموت والحياة عند الإنسان، فكما لم يكتشف العلم لغز الموت، فإنه لم يكتشف لغز النوم أيضاً، وهم أخوان، ولكن بينما ينام الإنسان بخروج جزء من روحه، أو حسب تعبير بعض المفسرين (خروج نفسه وبقاء روحه)، فإن كل روحه تخرج بالموت. ولو فسرنا كلمه النفس بالعقل، فلا ريب أنه في حالة النوم يعيش البشر سباتاً عقلياً.

و يذكّرنا الله بأنّ الله هو الذي يسلب نفس الإنسان و يأخذها في حالتين:

حالة النوم، وحالة الموت، فالتي يسلبها في حالة النوم يردها على صاحبها عند اليقظة، بينما يدع تلك الأخرى عنده إلى يوم البعث.

و

في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال :

«ما من عبد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، و بقيت روحه في بدنها، و صار بينهما شعاع كشعاع الشمس، فإذا أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح» [\(١\)](#) و

في حديث آخر قال الإمام الصادق عليه السلام :

«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل: اللهم إني أحبس نفسي عندك، فاحتبسها في محل رضوانك و مغفرتك، فإن رددتها إلى بدنى فاردها مؤمنه عارفه بحق أوليائك حتى تتوافها على ذلك» [\(٢\)](#) و ربنا في هذه الآية يقول:

ص: ٤٩٦

١ - نور الثقلين / ج (٤) ص (٤٨٩).

٢ - المصدر / ص (٤٨٨).

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ فِي اللُّغَةِ تَوْفِي بِمَعْنَى أَخْذِ الشَّيْءِ وَ افِيَا.

وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا تَلَكَ النَّفْسُ الَّتِي لَمْ تَمَتْ يَتَوَفَّهَا اللَّهُ عِنْدَ النَّوْمِ.

فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ لَا يَدْعُهَا تَعُودُ إِلَى الْجَسَدِ، وَ لَعْلَّ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ لِلنَّفْسِ وَ لِهَا بِالْجَسَدِ وَ تَرِيدُ الْعُودَةِ إِلَيْهِ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُهَا إِمْسَاكًا.

وَ يُرْسِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى أَجَلٍ مُسَيَّبٍ أَمَا النَّفْسُ الَّتِي لَمْ تَمَتْ بَلْ نَامَتْ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَأْخُذُهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا إِلَى صَاحِبِهِ لِفَتْرَةِ مَعِينَهِ هِيَ حَلُولُ أَجْلِهِ. إِنَّمَا حَلُولُ سَلْبِهَا مِنْهُ دُونَ عَوْدَةِ إِلَّا عِنْدَ الْبَعْثِ.

فَمَا هَذِهِ الرُّوحُ؟ هَلْ هِيَ كَامِلُ الرُّوحِ؟ أَمْ شَعَاعٌ مِنْهَا؟ أَمْ شَيْءٌ آخَرُ؟ فِي الْوَاقِعِ أَنَّ مَسَائِلَ الرُّوحِ لَا تَزَالْ بَعِيْدَةً عَنْ أَفْهَامِنَا. وَ الْآيَةُ تَشِيرُ بِوَضْحَيْنِ إِلَى الْمَوْتِ وَ طَبِيعَتِهِ، وَ نَحْنُ لَمْ نَمِتْ وَ لَمْ يُعْدِ إِلَيْنَا مِنْ مَاتَ لِيَخْبُرَنَا عَنْ وَاقِعِ الْأَمْرِ، وَ لَكِنَّنَا نَنَامُ وَ حَيْثُ يَخْبُرُنَا الرَّبُّ بِأَنَّ الْمَوْتَ مِثْلُ النَّوْمِ نَسْطَطِعُ أَنْ نَتَعْرِفَ عَلَيْهِ نَسْبِيَاً مِنْ خَلَالِهِ.

و

يَقْتَبِسُ لِقَمَانُ مِنْ هَذِهِ الْفَكْرَةِ حَكْمُهُ فَيَقُولُ لَابْنِهِ وَ هُوَ يَعْظِمُ بِالْمَوْتِ:

«يَا بْنَى إِنْ تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنَ الْمَوْتِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ النَّوْمَ وَ لَنْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ،

ص: ٤٩٧

و إن كنت في شك منبعث فارفع عن نفسك الانتباه، و لن تستطيع ذلك، فانك إذا فكرت في هذا عرفت أن نفسك ييد غيرك، و انما النوم بمنزلة الموت، و انما اليقظه بمنزله البعث بعد الموت»^(١) و يقول أبوذر الغفارى (رضوان الله عليه)، مستوحيا فكرته من هذه الآية الكريمهه: «كما تنامون تموتون، و كما تستيقظون تبعثون» فلما ذا نحن نتعجب من البعث و النشور، بينما لا نتعجب من اليقظه بعد النوم؟! أو ليس القادر على إيقاظ النائم من نومه بقدر على أن يعيد إلى الميت الحياة؟! إن في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و لعل المعنى الحقيقى لكلمه التفكير هو تحريك المعلومات و ربطها بعضها و تحليلها، و الذين يفعلون ذلك يصلون إلى مغزى الموت و النوم، و يعرفون من وراء التحول من يحول، و من خلال التدبير من يدبّر و هو الله سبحانه و تعالى.

و انهم يعرفون من خلال ذلك الشيء، ان القدرة المهيمنه على نهاية حياه الإنسان، هي التي يجب أن تعبد حقا.

[٤٣] أما الشفعاء المزعومون من دون الله و الذين لا يملكون الموت و لا الحياة، و هما أهم قضيتي في حياه الإنسان، فلا يحق لهم أن يتحكموا في حياته، و لا أن يخضع هو لهم أبدا.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءً

ص: ٤٩٨

١ - ١) بح/ج (١٣) ص (٤١٧).

و للشفعاء المرفوضين عند الله تفسيران:

الأول: انهم الشركاء من دون الله، و هم رموز القوى المؤثره في حياه البشر، كسلطان القوه و المال و الشهره. و ينفي القرآن أيه قيمة لهذه القوى عند الله، فلا يزعم صاحب السلطان و الغنى و الشهره إن ميزته في الدنيا تستمر إلى الآخره بل إنه يأتي ربه يومئذ فردا فقيرا مغمورا، و لا يزعم الواح منهم كما زعم صاحب الجنتين إذ قال لصاحبه و هو يحاوره: **ما أَطْلُنُ أَنْ تَبِدِّهِ أَيْدِيَاً*** و **مَا أَطْلُنُ السَّاعَةَ قَائِمَهُ وَ لَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَّاً** **(١)** الثاني: انهم الذين يزعم البشر أن باستطاعته التهرب من المسؤوليه بسببيهم، و ذلك بإلقاء مسئوليه ضلاله و انحرافه عليهم، لأن يلقى بمسئولييه انحرافه و ضلاله على والديه، أو السلطات الحاكمه، أو المجتمع.

و لكن الله ينصف فكره الشفاعة عموماً ما فقول:

قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً كَالنُّفُعِ وَالضُّرِّ أَوِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، أَوْ أَقْلَّ مِنْ ذَلِكَ لَا نَعْلَمُ كَلِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَا يَعْقِلُونَ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ لَمْ يَكُنُوا لِيَأْمُرُوا بِمَا يَخَالِفُ رَضْيَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُمْ إِذْنَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ وَلَا عِلْمٌ وَمَنْ يَكُونْ هَكُذا
لَا يَكُونُ شَفِيعاً.

[٤٤] ان الشفيع الحقيقى هو الله الذى يده ناصيه كل شيء، وإذا كان ثمه آخرون فانما يشفعون بأذنه.

499:

١ - (٣٥-٣٦) الكهف /

قُلْ لِّلَّهِ السَّفَاعَةُ جَمِيعاً إِذَا أَرَادَ الْبَشَرُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَلِيَهُبِّ الْيَهُ تَعَالَى، فَلِيَسْ مِنْ مَلْجَأٍ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ كَمَا قَالَ رَبُّنَا: فَفَرُّوْا إِلَيْهِ وَ كُلُّنَا يَخْشَى مِنْ ذَنْبِنَا وَ لَكُنْ لَنْ نَجْدَ غَافِرًا لِلسَّيِّئَاتِ الَّتِي احْتَطَبَنَا هَا سُوِّيَ اللَّهُ.

وَ مِنْ عَادَهُ الْبَشَرُ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا حَاوَلَ تَبْرِيرَهُ، أَوْ اخْتَرَعَ لِنَفْسِهِ شَفِيعًا يَزْعُمُ أَنَّهُ سُوفَ يَخْلُصُهُ مِنْ ذَنْبِهِ، وَ اللَّهُ يَقُولُ: لَا، لِمَاذَا تَذَهَّبُ هَنَا وَ هَنَاكَ؟! تَعَالَى اللَّهُ، حَتَّى وَ لَوْ كَنْتَ مَذْنَبًا تَعَالَى، فَإِنَّا الَّذِي أَخْلَصَكَ مِنَ الذَّنْبِ، لَا أَوْلَئِكَ الشَّفَعَاءُ، وَ لَا تَلِكَ التَّبَرِيرَاتِ.

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فَاللَّهُ هُوَ الشَّفِيعُ حَقًا، لِأَنَّهُ هُوَ السُّلْطَانُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، فَهُوَ الَّذِي يَدْبِرُ الْأُمُورَ الْيَوْمَ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ حِيثُ الْحِسَابُ الدَّقِيقُ وَ الْجَزَاءُ الْأُوْفِيُّ.

[٤٥] وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَ حَمَدَهُ اشْمَأَرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ، وَ يَحَاوِلُونَ التَّهَرُّبَ مِنَ الْمَسْؤُولِيَّاتِ، وَ يَعْرُفُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْآخِرَهُ أَمْرًا وَاقِعًا فَإِنَّهُمْ سُوفَ يَحْمَلُونَ عَبَاءَ الْأَمَانَهُ، لَكُلِّ ذَلِكِ تَرَاهُمْ يَشْمَرُونَ، فَحَرِبُهُمْ لِفَكِّهِ الْآخِرَهِ اِنْمَا هِيَ بِدَافِعٍ نَفْسِيٍّ، فَهُمْ لَا يَحْبُونَ الْقِيَامَهُ لِأَنَّهُمْ لَا يَحْبُونَ الْمَسْؤُولِيهِ، وَ الْمَثَالُ عَلَى ذَلِكَ: إِذَا قِيلَ لِمَجْرِمٍ: جَاءَ الشَّرْطَهُ يُشْمَأَرُ قَلْبَهُ، لِمَاذَا؟ لَانَ الشَّرْطَهُ سِيَاخْذُونَهُ إِلَى الْمَحْكُومَهُ، وَ مِنْ ثُمَّ الْجَزَاءُ الْعَادِلُ، وَ أَمَّا الرَّجُلُ الْمُظْلُومُ، الَّذِي يَسْمَعُ وَ هُوَ بَيْنَ يَدِيِّهِ مِنْ يَظْلِمَهُ، أَنْ جَاءَ الشَّرْطَهُ تَرَاهُ يَحْمَدُ رَبَّهُ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ سُوفَ يَتَخلَّصُ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ... وَ هَكُذا الْمُؤْمِنُونَ يَشْتَاقُونَ إِلَى الْآخِرَهِ،

لأنهم يعرفون أن هناك الجزاء الأولى لحسناتهم، بينما الكافرون تشمئز قلوبهم، إذا ذكر الله وحده، لأنهم يفتشون عن إله آخر يخلصهم من رب السموات والأرض، ويخلصهم من ذنوبهم وسيئاتهم.

وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِّشُونَ فَإِذَا كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْآباءِ وَالْقِيمِ الْفَاسِدَةِ وَالشَّفَعَاءِ الْمَوْهُومِينَ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَاحُونَ نفسيًا.

وتجد هذه الآية تطبيقها في كل إنسان، خصوصاً في العالم المتختلف، حيث لا نحب نحن البشر الاستماع إلى من يحدثنا عن مسئولياتنا، أما إذا تحدثوا إلينا عن تبرير وضعنا الفاسد وإلقاء المسؤولية على الدول أو على الخطوط، أو على القضاء والقدر، فإننا نستمع مرتاحين، والسبب هو أن مثل هذا الكلام لا يحملنا المسؤولية.

[٤٦] وفي مواجهه هذا الانحراف الكبير والضلال البعيد يتوكّل المؤمن على الله ويدعوه ضارعاً ليثبت فؤاده حتى لا يتأثر باشمئازهم من ذكر الله، وفي ذات الوقت يتحداهم بال المزيد من ذكر ربه.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ حِينَ يَنْشُقُ شَيْءٌ يُقالُ انْفَطَرَ، وَاللَّهُ شَقَ الْعَدْمَ بِالْخَلْقِ فَإِذَا بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَخْرُجَانِ مِنْ ضَمِيرِهِ.

ومن معانى الانفطار ان السموات والأرض لم تكونا فكانتا مره واحدة، فابدعهما من غير مثال يحيطى به، ومن معانيه انهما كانتا رتقا ففتقهما بقدرته.

أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ

ان تعميق الإحساس برقبابه الله في نفس الإنسان، و انه هو الحكم بين عباده، يجعله لا يعصيه، لأنه لا يمكن له الكتمان عليه أو الكذب عليه يوم القيمة.

و إذا كان هو الحكم بين عباده فما هو دور الشركاء الذين يتخذونهم الكافر شفعاء، و يتثبت بهم هربا من المسؤولية؟! علما بأن محكمه الله آنئذ تحكم بين الناس بالحق.

في مَا كانوا فيه يختلفون فهناك الكلمة الفصل، التي لا- ريب فيها، و لا- تلبيس، و لا- تحيط بها ضلالات الهوى، و تبريرات الشهوات، و كلما تفكرا في الإنسان في ذلك اليوم، و في ميزان الحق الذي ينصب فيه، كلما تباعد عن محوريه ذاته، و تحصن ضد قسوه القلب و انغلاقه دون فهم الحقائق.

[٤٧] [فمن كفر بالله و ظلم نفسه أو الناس هلك و لا تنفعه ثرواته شيئاً.]

وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ مِثْلُهُ مَعَهُ لَاقْتِدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعِذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ فِي آيَهِ أُخْرَى يَقُولُ اللَّهُ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدٍ دِهْنُهُ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِيَةٍ
[\(١\)](#) بلى قد يبيع المرء نفسه بثمن بخس فيشتري جهنم بغيه أو بكذبه، و ما بخس هذا الثمن إذا كانت النار عاقبته!

ص: ٥٠٢

١ - (آل عمران/٩١).

و هكذا يهون علينا القرآن شأن الدنيا حتى لا تخدعنا زخارفها و لو كانت الأرض كلها بأيدينا فهى تعف عنها أنفس المؤمنين بالآخرة، لأن عذابها لا يزول بافتداء كل الأرض و مثلها معها، فما شأن بيت معمور فيها أو زوجه حسناء أو منصب بسيط؟! و بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون لأن كتابهم آنذاك لا يغادر صغيره ولا كبيره الا أحصاها مما لم يكونوا يتوقعونه و لم يحتسبو أن الأمر بهذه الدقة و بهذه الجدية، و

في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال :

«اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالبا، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله، ان الله عز وجل يقول: نكتب ما قدموا و آثارهم و كُلَّ شَيْءٍ أَخْصَصَنَا فِي أَمْمَامِ مُبِينٍ و قال عز وجل: إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَمْرَضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيرٌ [\(١\)](#) و يبدو من خلال الآية أن الإنسان قد يتصور أن مجرد ذنبه البسيط قد لا تسبب له دخول النار، ولكن الحقيقة شيء آخر، إذ تجمع الذنوب إلى بعضها حتى تكون كالجبل على قلبه.

و

في الحديث عن الإمام أبي الحسن عليه السلام :

«لا تستكروا كثير الخير، و لا تستقلوا قليل الذنوب، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا، و خافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف » [\(٢\)](#) [٤٨] و بدا لهم سِئَاتٌ مَا كَسَبُوا

ص: ٥٣٠

١ - [\(١\) بحار الأنوار/ ج \(٧٣\) ص \(٣٢١\).](#)

٢ - [\(٢\) بحار الأنوار/ ج \(٧٣\) ص \(٣٤٦\).](#)

فالسيئات التي مكروها في الحياة الدنيا بدت لهم على حقيقتها، إذ ان النفس الامارة و الشياطين من الجن والانس كل أولئك يزينون للبشر سيئات أعماله، حتى تخفي ظاهر سوءاتها و تبدو لهم أنها حسنات، و ذلك بإظهار حسناتها، ييد أنها في القيامه حيث تبلو السرائر تظهر سيئات أعمالهم التي اكتسبوها.

و قد تكون الآية تشير الى تجسد الأعمال، حيث تصبح السيئات عقارب و حيات و نيران ملتهبه، و الدليل على ذلك قوله تعالى:

و حَاقَ بِهِمْ أَيُّ أَحَاطَ بِهِمْ.

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ فَذَاتُ الرَّسُولِ الَّتِي اسْتَهَزُوا بِهَا أَهْلَكَتْهُمْ، فَالْقُرْآنُ فِي يَوْمِ الْبَعْثِ يَقُودُ مِنْ أَتَبَعَهُ هَنَاكَ، وَ يُسْوِقُ مِنْ تَوْلِي عَنْهُ هَنَا إِلَى النَّارِ هَنَاكَ. وَ هَكُذا كُلُّ رِسَالَاتِ اللَّهِ.

[٤٩] أو يمضي السياق قدما في بيان ان الشروه ليست قيمه مطلقه لأنها ليس فقط لا تغنى شيئا عن عذاب الله في الآخره، بل و لا عن بلائه في الدنيا حينما تحيط بالإنسان الضراء فتراه يدعوه، و لكنه لا يلبث ان ينسب النعم الى ذاته، و يزعم بأنه انما حصل عليها بعلمه. كلا انها من عند الله و لكنها ليست دليلا على كرامته عنده، بل هي مجرد فتنه يمتحن الله بها خلقه.

فَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ

و هذه الآية تكمل الآية الثامنة من هذه السورة، حيث ان الإنسان هناك نسب النجاة الى الأنداد بينما هنا نسبها الى نفسه، و الفرق واضح، ففي المره الاولى إله غيره، و في المره الثانية الله نفسه، و اعتقد ان ما خوله الله به من نعمه انما هو من ذاته.

ولان السياق هناك كان في مقام نفي الأنداد فقد عالج حاله الشرك بهم، بينما السياق هنا - فيما يبدو - ينفي قيمه الشروه فانه عالج عباده الذات و الزعم بأن ما حصل عليه من النعم كانت بعلمه.

و تذكرنا الآية بما قاله قارون إذ قال لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَ ابْشِنْ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِّيَّبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . (١)

بل هي فتنه و لكن أكثرهم لا يعلمون لماذا قال ربنا أولاً «نعمه» و هي صيغه مؤنث حيث استخدم ضمير المذكر ثم عاد إلى صيغه المؤنث؟ لحل الجواب ان الأصل في السياق استخدام صيغه المؤنث و انما انصرف عنه في قوله: «أوتته»، لبيان ان الله انما خوله شيئاً من النعمه ذلك ان الإنسان يتصور انه حاز على النعمه جميرا بينما لم يخوله الله الا شيئاً بسيطاً منها، فإذا هو بهذا القليل يطغى فكيف بكل النعم.

ويشير السياق إلى انه ينبغي الا يرى الإنسان ان النعمه خير له... بل قد تكون فتنه و ابتلاء، بل قد تكون استدراجاً من الله له،

ففي الروايه عن أمير المؤمنين -

ص: ٥٠٥

١- (١) القصص / (٧٦-٧٨).

عليه السلام :

«يا ابن آدم! إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره» [\(١\)](#) و

قال عليه السلام :

«كم من مستدرج بالإحسان إليه، و معور بالستر عليه، و مفتون بحسن القول فيه، و ما ابتلى الله أحدا بمثل الاملاء له» [\(٢\)](#) و أمرنا الإسلام بأن نكون على حذر شديد من النعم لكي لا تغرنـا،

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«أيها الناس! لا يراكم الله من النعمه وجلين كما يراكم من النقمه فرقين، انه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا، و من ضيق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيّع مأولا» [\(٣\)](#) بل يجب ان يكون خوف الإنسان من الغنى أشد من خوفه من الفقر، و من الصحه أشد من خوفه من المرض، فقد وضع الله سبحانه الحرج عن المريض، و لم يكلف الله نفسها إلا بما أتاها بينما صاحب العافيه و الشروه تلزمـه مجموعـه كبيرـه من الحقوق لو قصر فيها استحق العذاب، و

في الحديث :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، و المرض أحب إليه من الصحـه (العافـيه)»

ص: ٥٠٦

١ - [١\) بحار الأنوار/ج \(٧٣\) ص \(٣٨٣\).](#)

٢ - [٢\) بحار الأنوار/ج \(٧٣\) ص \(٣٨٣\).](#)

٣ - [٣\) بحار الأنوار/ج \(٧٣\) ص \(٣٨٣\).](#)

[٥٠] وَ فِي التَّارِيخِ عَبْرَهُ فَلَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَرْوَنَ مَنْ كَانَ يَمْلِكَ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةَ، وَ يَزْعُمُ أَنَّهَا تَمْنَحُهُ الْحُرْيَةَ فِي التَّصْرِفِ حَيْثُ يَشَاءُ، وَ التَّهْرِبُ مِنْ مَسْؤُلِيَّةِ أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ، وَ قَدْ قَالَ مُثْلُ قَوْلِ هُؤُلَاءِ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَى الْثَّرَوَةِ بِعِلْمِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى دُفَعِ الضرَّرِ عَنْ نَفْسِهِ.

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَوْغَلُوا فِي الْمَعَاصِي اغْتَرَارًا بِالنَّعْمَ.

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٥١] لَقَدْ اعْتَمَدُوا عَلَى مَكَاسِبِهِمُ الْمَادِيَّةِ، وَ زَعَمُوا أَنَّهَا تَحْلِلُ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ، أَوْ لَا أَقْلَى يَقْدِرُونَ عَلَى دُفَعِ الْعَقَابِ عَنْ أَنفُسِهِمْ وَ لَكِنْ هِيَهَا.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ لَزَمَهُمْ عَقَابٌ مَا اجْتَرَحُوا مِنَ الذَّنَوبِ وَ تَلَكَ سَنَهُ اللَّهُ تَجْرِي فِيمَنْ يَأْتِي كَمَا جَرَتْ فِيمَنْ مَضَى.

وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هُؤُلَاءِ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا جَزَاءٌ لِلْسَّيِّئَاتِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا.

وَ مَا هُنْ بِمُعْجِزِينَ إِنَّمَا يَعْجِزُونَ اللَّهُ إِهْلَكَهُمْ، أَوْ إِحْضَارَهُمْ إِلَى جَهَنَّمِ.

[٥٢] لَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا سَبِيلًا مَكَاسِبِهِمْ، فَرَدَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَوْلًا مَا ذَرَ

تغنى مكاسبكم عن العذاب، وثانياً بأن الرزق من عند الله. ويبدو أن الرزق يختلف عن الكسب، فالرزق هو ما يعطيه الله سواء بسعى أو بدون سعى، والكسب هو الذي يحتاج إلى سعي، فكل كسب رزق، وليس كل رزق كسباً، والنعم الأولية الفطرية هي رزق من الله مثل السمع، والبصر والفؤاد، والقوه، والشباب.

ولو لم يكن رزق الله هل كان يقدر الإنسان على الكسب؟ لو لم يعطك الله السمع والبصر والفؤاد هل كنت قادراً على السعي وراء رزقك؟ ولا تحصى نعم الله التي توفر للإنسان فرصه لكسب و من دون واحده منها لا يقدر عليه فهل بعد ذلك يصح الادعاء بأن علم الإنسان هو سبب غناه؟! كلا...

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْتُطِعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أَمَا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَاهُمْ يَنْسِبُونَ الرِّزْقَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَوْيَ اللَّهِ فَتَرَى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَرْبِطُ رِزْقَ اللَّهِ بِنَفْسِهِ، حَتَّى يَعْقِدَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَزَقَ نَفْسَهُ، أَوْ يَرْبِطُ رِزْقَ اللَّهِ بِالنَّجُومِ، فَالنَّجُومُ هِيَ الَّتِي رَزَقَهُ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُسْتَعِداً أَنْ يَقُولَ: بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي رَزَقَنِي، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ لَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَؤْدِي حَقْوَهُ وَيُلْتَرَمَ بالمسؤوليات.

اشاره

فُلْ يَا عِبَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الظُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَ أَنْبِيَا
إِلَيْ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنَصَّرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ بَعْدَهُ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسِيرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِرِينَ (٥٦) أَوْ
تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هِيدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعِذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّهًا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلِي قَدْ
جَاءَتِكَ آيَاتِي فَكَذَبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ أَ
لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

هدى من الآيات:

يذكّرنا ربنا في آيات هذا الدرس برحمته الواسعة، وإلى أي مدى يمكننا الاستفاده منها. أو ليس الله أنعم علينا برزقه الواسع، وأسبغ علينا نعمه ظاهره وباطنه؟! أو ليس الله دعاانا للاستفاده من رحمته، وأن لا نقنط منها حين نصرف على أنفسنا بالذنوب؟! بلـ. ولكن طالما تحول بيننا وبين رحمة ربنا العقبات النفسيه كإسرافنا على أنفسنا بالذنوب، وقنوطنا من رحمته تعالى بسببيها، وهكذا بعض العقبات الاجتماعيه التي تنتهي إلى ذات المشكله.

وقد جاء هذا الدرس ليعالج جانبا من المشاكل النفسيه والاجتماعيه عند الإنسان.

[٥٣] كانت آيات الدروس الماضية شديدة على من اتخذ من دون الله ندًا أو شفيعاً، أو احتسب الرزق من علمه، حتى تكاد تتفجر لهباً، والذين يتلون الكتاب حق تلاوته توشك قلوبهم أن تتتصدع من وقع آيات الزمر عليها، ليس فقط لنفذ بلاعاتها، وقوه صعقاتها المتتالية، وإنما أيضاً ليبيان جديه الحساب ومدى دقته مما يضيق الأمر على البشر بحيث لا تخلص نفس منها، فحتى الصالحون من عباد الله قد يقعون في خطأ نسبة الرزق إلى علمهم أو الزعم بأنّ هناك من يشفع لهم من دون الله أو يشوب قلوبهم ما يتنافي ونقاء نياتهم.

ولعل خطر اليأس من روح الله كان قريباً من قلوبهم عند تلاوتهم لهذه الآيات أكثر من أي وقت آخر، فجاءت هذه الآية التي هي الأرجى بين آيات الرحمة في الكتاب لإعاده التوازن إلى نفوسهم. أو ليس قلب المؤمن يعيش بين شده الخوف وشده الرجاء؟ قُلْ يَا عِبَادَيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ إِنَّهَا قَمَةٌ فِي الرَّحْمَةِ، أَنْ يَدْعُوا الرَّبَّ الْمَسِرِفِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهَذِهِ الْكَلْمَةِ «عبدادي» التي تختلف عن كلمة (عبد) حيث يختص الخطاب بها بالعباد الصالحين عاده، لكنها هنا تشمل -كما رحمة الله- حتى الذين تجاوزوا الحدود، فلم يتزموا بالشرائع الإلهية، بل وأسرفوا في المعاصي والذنوب، إلا أن الله لم يطردهم عن باب رحمته التي وسعت كلّ شيء، إنما فتحه لهم على مصراعيه، ودعاهم إلى التوبة، كما نهرهم عن القنوط واليأس.

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

قالوا: القنوط بذاته هو اليأس من الرحمه، فلما أضيف إلى الكلمه: «من رحمه الله» كان تأكيدا للأمر.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا كُلَّ الذُّنُوبِ بِلَا إِسْتِثْنَاءٍ، وَإِذَا كَانَ فِي آيَاتِ الرَّجَاءِ فِي الْقُرْآنِ بَعْضُ الْإِسْتِثْنَاءِ فَإِنَّ كَلْمَةَ «جَمِيعًا» هُنَا بَعْدَ كَلْمَةِ «الْذُنُوبِ» الَّتِي هِيَ أَصْلًا لِلْعُلُومِ، تَزِيدُ الْجَمْلَةَ سُعَهُ، مَمَّا يَشْمَلُ الْكَبَائِرَ كَالْزَنَاءِ، وَالْغَيْبَةِ، أَوِ الْقَتْلِ وَخَدْمَهِ الظَّالِمِينَ، وَأَظْنَانَ الْآيَةِ تَعْنِي بِالْخُصُوصِ الْذُنُوبِ الْقَلِيلَةِ، الَّتِي تَقْرَبُ مِنَ الشَّرِكَ بِاللَّهِ، وَانْدَادُ الْخَلُوصِ فِي الدِّينِ، مَمَّا سُيِّقَتْ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ.

و

في الحديث عن رسول الله(ص) أنه قال :

«ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية »[\(١\)](#) و

قال أمير المؤمنين عليه السلام و هو يؤكّد التفسير المتقدم للآية :

«ما في القرآن آية أوسع من يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَشِرَّفُوا... الآية »[\(٢\)](#) و في نهاية الآية نفسها نجد تأكيدا على رحمة الله، و دليل على سعتها و شمولها إذ يقول تعالى:

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَقَدْ تَأكَدَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ:

ص: ٥١٢

١- (١) مجمع البيان/ج(١)ص(٥٠٣).

٢- (٢) المصدر.

الأولى: عند قوله تعالى ناهيا عن اليأس من الرحمة لا تقنطوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

الثانية: عند تعميمه للغفران بأنه لا ينحصر في نوع من الذنوب إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً .

الثالثة: عند ما وصف نفسه في نهاية الآية بـ«الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

و هنا دعنا نقرأ هذه الرواية عن رحمة الله لتردد ثقه و رجاء في غفرانه تعالى:

في كتاب نور الثقلين :دخل معاذ بن جبل على رسول الله (ص) باكيا فسلم فردا عليه السلام ثم قال،ما يبكيك يا معاذ؟ فقال:يا رسول الله إن بالباب شابا طرى الجسد،نقى اللون،حسن الصورة،يبكي على شبابه بكاء الشكلى على ولدها يريد الدخول عليك، فقال النبي (ص):أدخل على الشاب يا معاذ،فأدخله عليه فسلم فردا عليه السلام ثم قال:ما يبكيك يا شاب؟ قال:كيف لا أبكي وقد ركب ذنوبا إن أخذني الله عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم،ولا أرانى إلا سيأخذنى بها ولا يغفر لي أبدا فقال رسول الله (ص):هل أشركت بالله شيئا؟ قال:أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئا، قال:أقتلت النفس التي حرم الله؟ قال لا، فقال النبي (ص):يغفر الله لك ذنبك وإن كانت مثل الجبال الرواسى، قال الشاب:

فإنها أعظم من الجبال الرواسى، فقال النبي (ص):يغفر الله لك ذنبك وإن كانت مثل الأرضين السبع و بحارها و رمالها وأشجارها و ما فيها من الخلق قال:

فإنها أعظم من الأرضين السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فيها من الخلق، فقال النبي (ص):يغفر الله ذنبك وإن كانت مثل السموات و نجومها و مثل العرش و الكرسى، قال:فإنها أعظم من ذلك، قال:فنظر النبي (ص) إليه كهيئة الغضبان ثم قال:ويحك يا شاب ذنبك أعظم أم ربك فخر الشاب لوجهه و هو يقول:سبحان ربى ما شئ أعظم من ربى، ربى أعظم يا ربى الله من كل عظيم،

فقال النبي (ص): فهل يغفر لك الذنب العظيم إلا رب العظيم؟ فقال الشاب:

لا والله يا رسول الله، ثم سكت الشاب فقال له النبي (ص): ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك، قال: بل أخبرك إنني كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت جاريه من بعض بنات الأنصار فلما حملت إلى قبرها ودفت وانصرف عنها أهلهما وجن عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها، ثم استخرجتها ونزعـت ما كان عليها من أكفانها وتركتها مجردـه على شفير قبرها، ومضـيت منصرفـاً، فأـتـاني الشـيطـان فـأـقـبـلـ يـزـيـنـهـ لـىـ وـيـقـوـلـ:ـأـمـاـ تـرـىـ بـطـنـهـ وـيـاضـهــ؟ـأـمـاـ تـرـىـ وـرـكـيـهــ؟ـفـلـمـ يـزـلـ يـقـوـلـ لـىـ هـذـاـ حـتـىـ رـجـعـتـ إـلـيـهـ وـلـمـ أـمـلـكـ نـفـسـىـ حـتـىـ جـامـعـتـهـ وـتـرـكـتـهـ مـكـانـهــ،ـفـإـذـاـ أـنـاـ بـصـوـتـ مـنـ وـرـائـيـ يـقـوـلـ:ـيـاـ شـابـ وـيـلـ لـكـ مـنـ دـيـانـ يـوـمـ الدـيـنـ يـوـمـ يـقـنـىـ وـإـيـاكـ كـمـاـ تـرـكـتـنـىـ عـرـيـانـهـ فـىـ عـسـاـكـرـ الـمـوـتـىــ،ـوـنـزـعـتـنـىـ مـنـ حـفـرـتـىــ،ـوـسـلـبـتـنـىـ أـكـفـانـىــ،ـوـ تـرـكـتـنـىـ أـقـوـمـ جـنـبـ إـلـىـ حـسـابـيــ،ـفـوـيـلـ لـشـبـابـكـ مـنـ النـارــ،ـفـمـاـ أـظـنـ أـنـىـ أـشـمـ رـيـحـ الجـنـهـ أـبـداـ فـمـاـ تـرـىـ لـىـ يـاـ رـسـولـ اللـهــ؟ـفـقـالـ

النبي (ص): تنح عنـيـ ياـ فـاسـقـ إـنـىـ أـخـافـ اـحـتـرـقـ بـنـارـكــ،ـفـمـاـ أـقـرـبـكـ مـنـ النـارــ،ـثـمـ لـمـ يـزـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـقـوـلـ وـيـشـيرـ إـلـيـهـ حـتـىـ أـمـعـنـ

منـ بـيـنـ يـدـيـهــ،ـفـذـهـبـ فـأـتـيـ المـدـيـنـهـ فـتـرـوـدـ مـنـهـ ثـمـ أـتـيـ بـعـضـ جـبـالـهـاـ فـتـعـبـدـ فـيـهـاـ وـلـبـسـ مـسـحاـ وـغـلـ يـدـيـهـ جـمـيـعـاـ إـلـىـ عـنـقـهــ،ـوـنـادـيـ:ـيـاـ رـبـ هـذـاـ عـبـدـكـ بـهـلـولـ بـيـنـ يـدـيـكـ مـغـلـولــ،ـيـاـ رـبـ أـنـتـ الـذـىـ تـعـرـفـنـىـ وـزـلـ مـنـىـ مـاـ تـعـلـمــ،ـيـاـ سـيـدـيـ يـاـ رـبـ إـنـىـ أـصـبـحـتـ مـنـ النـادـمـينــ

وـأـتـيـتـ نـيـكـ تـائـبـاـ فـطـرـدـنـىـ وـزـادـنـىـ خـوـفـاـ،ـفـأـسـأـلـكـ بـاسـمـكـ وـجـلـالـكـ وـعـظـمـهـ سـلـطـانـكـ أـنـ لـاـ تـخـيـبـ رـجـائـيـ سـيـدـيــ،ـوـلـاـ تـبـطـلـ

دـعـائـىـ وـلـاــ.ـتـقـنـطـنـىـ مـنـ رـحـمـتـكــ،ـفـلـمـ يـزـلـ يـقـوـلـ ذـلـكـ أـرـبـعـينـ يـوـمـاـ وـلـيـهــ،ـفـلـمـاـ تـمـتـ لـهـ أـرـبـعـونـ يـوـمـاــ،ـرـفـعـ يـدـيـهـ إـلـىـ السـمـاءـ وـ

قـالـ:ـلـلـهـمـ مـاـ فـعـلـتـ فـيـ حـاجـتـىـ إـنـ كـنـتـ اـسـتـجـبـتـ دـعـائـىـ وـغـفـرـتـ خـطـيـئـتـىـ فـأـوـحـ إـلـىـ نـيـكــ،ـوـإـنـ لـمـ تـسـتـجـبـ لـىـ دـعـائـىـ وـلـمـ تـغـفـرـ

لـىـ خـطـيـئـتـىـ وـأـرـدـتـ عـقـوبـتـىـ فـعـجـلـ بـنـارـ تـحرـقـىـ أوـ عـقـوبـهـ فـيـ الدـنـيـاـ تـهـلـكـنـىـ وـخـلـصـنـىـ مـنـ فـضـيـحـهـ يـوـمـ الـقـيـامـهــ،ـفـأـنـزـلـ اللـهـ تـبـارـكـ وـ

تعالى على

نبیه(ص): وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً يعْنِي الزِّنَا أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ يعْنِي ارتكاب ذنب أعظم من الزنا و هو نبش القبور و أخذ الأكفان ذَكَرُوا اللَّهَ فَأَشَّتَغَفَرُوا لِإِنْدُنُوبِهِمْ يقول: خافوا الله فعجلوا التوبه و مَنْ يَعْفُرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ يقول عز و جل: أَتَاكَ عبدي يا محمد تائبًا فطرته فأين يذهب، و إلى من يقصد، و من يسأل أن يغفر له ذنبًا غيري؟ ثم قال عز و جل: وَ لَمْ يُصْرَهُ رُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا و هُمْ يَعْلَمُونَ يقول: لم يقيموا على الزنا و نبش القبور و أخذ الأكفان أُولَئِكَ بَزَّارُهُمْ مَعْفَرَهُ مِنْ زَبَّهُمْ وَ كَبَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَعْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ فلما نزلت هذه الآية على رسول الله(ص) خرج و هو يتلوها و يتبسّم، فقال لأصحابه: من يدلني على ذلك الشاب التائب؟ فقال معاذ: يا رسول الله بلغنا أنه في موضع كذا و كذا، فمضى رسول الله(ص) بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل فصعدوا إليه يطلبون الشاب، فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين مغلوله يداه إلى عنقه، قد أسود وجهه، و تساقط أشفار عينيه من البكاء، و هو يقول: سيدى قد أحسنت حلقى و أحسنت صورتى فليت شعرى ماذا تريد بي، أفى النار تحرقنى أو فى جوارك تسكتنى؟ اللهم إنك قد أكثرت الإحسان إلى فائعتى على، فليت شعرى ماذا يكون آخر أمرى؟ إلى الجن تزفى أم إلى النار تسوقنى؟ اللهم إن خطىتى أعظم من السموات والأرض و من كرسىك الواسع و عرشك العظيم، فليت شعرى تغفر خطىتى أم تفضحنى بها يوم القيمة، فلم يزل يقول نحو هذا و هو يبكي و يحثو التراب على رأسه، فدنا رسول الله(ص) فأطلق يديه من عنقه، و نفخ التراب عن رأسه و قال يا بهلول: أبشر فإنك عتيق الله من النار، ثم قال(ص) لأصحابه: هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول، ثم تلا(ص) ما أنزل الله عز و جل فيه، و بشّره بالجنة. [\(١\)](#)

ص: ٥١٥

.١ - (١٠٦) البقره.

و نتساءل: بعد هذا هل يصح لنا أن نغلق باب رحمة الله عن أنفسنا باليأس؟! و بعد ان فتح الله للمذنبين ببابا من رحمته الواسعة، و هو باب الرجاء، يفتح لهم بباب آخر، هو باب التوبه و العوده اليه.

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ بِتِرْكِ الشَّرِكَاءِ الْمَزَعُومِينَ مِنْ دُونِهِ، لَا نَهُ وَحْدَهُ الرَّبُّ الْحَقِيقِيُّ لِلْخَلْقِ.

وَأَسْلِمُوا لَهُ بِالْخُضُوعِ وَالطَّاعَهِ، لَا نَهُ رَضِيَ اللَّهُ وَأَمْرُهُ وَنَهِيهُ هُوَ الَّذِي يُنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤْثِرُ فِي شَخْصِيهِ الْإِنْسَانِ، أَمَّا الْعِوَالُمُ الْأُخْرَى كَالْمَالُ وَالسُّلْطَهُ، وَمَا يُسَمِّي بِالْحَتَمِيَاتِ فَيُجَبُ تَجاوزُهَا كُلَّهَا، وَتَلَكَ الْإِنْابَهُ وَهَذَا التَّسْلِيمُ يُجَبُ أَنْ يَكُونَ عَنْ وَعِيٍ تَامٍ بِضَرُورَتِهِمَا لَا بِسَبِبِ شَخْصِوصِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ لَا نَهُمَا حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُانَ.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُتَصْرُوْنَ حِيثُ لَا تَقْدِرُ الْآلَهَهُ الْمَزِيفُهُ عَلَى رَدِّ عَذَابِ اللَّهِ عَنْكُمْ.

[٥٥] وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ كَثِيرًا فِي مَعْنَى الْأَحْسَنِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْأَحْسَنَ هُوَ النَّاسِخُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقْرَهِ: مَا نَسَّخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِيْهَا تَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسَ: «أَيُّ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهِيِّ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، فَمَنْ أَتَى بِالْمَأْمُورِ بِهِ، وَتَرَكَ الْمَنْهَى عَنْهُ، فَقَدْ اتَّبَعَ الْأَحْسَنَ» [\(١\)](#)

ص: ٥١٦

١-١) المجمع/ج (٨) ص (٥٠٣).

و ما يبدو لي هو أن الآية تحتمل ثلاثة معانى كلها هامه:

المعنى الأول: هو معرفه الواجبات و تطبيقها على أفضل وجه، لقوله تعالى:

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَنْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

ولتقريب الفكرة نقول: إن الإنسان الذى يمرض ولده أو شخص عزيز عليه مريضا خطيرا، فإنه لن يبحث عن أى طبيب لعلاجه، إنما سيبحث عن أفضل طبيب ممكن طمعا فى حصول الشفاء بأسرع وقت وأفضل صوره، والإنسان فى حياته العame يواجه خطرا مصيريا هو النار، وينبغى له لكتى يخلص نفسه من شرها أن يتعرف على الواجبات والمستحبات و يؤدىها على أفضل وجه، وكيف لا و

قد ورد في الحديث :

«هلك العالمون إلا العاملون، و هلك العاملون إلا المخلصون، و المخلصون على خطر عظيم » المعنى الثاني: وقد تقدمت الإشاره اليه عند تفسير قوله تعالى في بدايات هذه السورة: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ (١) و هو أن القرآن كلّه حسن، ولكن بالنسبة إلى ظروف كل شخص و عصره قد يختلف الأحسن، فعلى سبيل المثال: الصلاه و الصيام و الحج و الجهاد... كل ذلك مفروض على الناس، ولكن يتأكد على كل شخص أحد هذه الواجبات أكثر من الآخرين، و أكثر من سائر الواجبات الأخرى، فالتاجر ينبغي أن يكون أقرب الناس إلى آيات التجارة و المعامله و أعرفهم بها، بينما المقاتل يكون الأحسن له معرفته بآيات الجهاد و القتال، أما القاضى فالأحسن له المعرفه بأحكام القضاء و الحدود و ما إلى ذلك، و هكذا

ص: ٥١٧

١-١) الزمر / (١٨).

بالنسبة للظروف التي تحيط بالشخص فإنها تحدد له الأحسن، فمثلاً للمجاهد في ظروف التقىه ليس الإعلان عن نفسه بل الكتمان و السريه، إذن فموقع الإنسان و ظروفه المحيطة هما اللذان يحدّدان الأحسن.

المعنى الثالث: التوحيد المخلص و هو أفضل ما أنزله الله على خلقه، و أعظم شيء يتجلّى فيه التوحيد هو اتباع القياده الرسالية الحقّه و رفض القيادات المنحرفة، و

في الخبر في تفسير الآيه: وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ قال:

«من القرآن و لا-يه أمير المؤمنين و الأئمه عليهم السلام»^(١) و يبيّن القرآن بعد نهيء لنا عن اليأس، و دعوته بالإتابه و التسليم لله، و أخيراً تأكيده على اتباع الأحسن، خلفيات هذه الموعظه و أهميتها بالنسبة للإنسان فيقول:

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ فهذا الإنسان الذي يسرد في طريق الضلال، و يسرف في اقتحام الذنوب و الموبقات، رافضاً الإتابه و التسليم لله، و اتباع الأحسن، سوف يجرّ على نفسه العذاب بألوانه، و سيفاجأ به، ليس لأنعدام النذر و العلامات الدالة عليه، بل لأنّ كثرة ممارسه الذنوب و الإصرار عليها يسلب الإنسان أدنى أسباب المعرفه و هو الشعور، إذ يعيش عمق الغفله و الضلال.

[٥٦] هذا في الدنيا أمّا في الآخره حيث تنكشف الحقائق للإنسان، فإنه يصل إلى أعلى مراحل الوعي و الشعور، فإنه يكاد يذوب حسره حين يرى ما أعدّ الله للمؤمنين به الذين استغلوا فرصه الحياة الدنيا مثل الثواب، بينما أغفل هو الاستفاده من هذه الفرصة الثمينه و حين يرى ما أعدّ الله من العذاب للكافرين

ص: ٥١٨

١- (٤) ص(٧٩). البرهان/ ج (٤).

و المشركين و الظالمين.

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسِيرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ بِالإِسْرَافِ فِي الذَّنْبِ وَ التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ إِذْنَ يَجِبُ أَن نَسْتَفِيدَ مِنْ فَرَصَتِنَا فِي الْحَيَاةِ، وَ إِنَّمَا السَّعِيدُ مِنْ اتَّعَظَ بِتَجَارِبِ غَيْرِهِ.

فَإِذَا كَانَ غَيْرُنَا قَدْ مَضَى مِنَ الدُّنْيَا مَقْصِيرًا وَ بِالتَّالِي هَلْكَ وَ تَحْسَرُ، فَلَنْتَعَظَ بِهِ حِينَ يَكُونُ الْاِتَّعَاظُ نَافِعًا، لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْمَوْتُ فَإِنَّا لَا نُسْتَطِيعُ أَن نَغْيِرَ مِنْ وَاقْعَنَا شَيْئًا بِزِيادَهِ أَوْ نَقْصَانَ.

وَ حِيثُ يَصِلُّ الْإِنْسَانُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى أَعْلَى مَرَاحِلِ الْعِلْمِ وَ هِيَ عَيْنُ الْيَقِينِ فَإِنَّهُ يَكْتَشِفُ مَدْيَ ضَلَالِهِ وَ انْحرافِهِ عَنِ الْحَقِّ.

وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَيْ أَنَّنِي كُنْتُ مِنَ السَّاخِرِينَ الَّذِينَ اسْتَهْزَءُوا بِالْحَقِّ وَ بِأَهْلِهِ وَ اتَّبَاعِهِ.

[٥٧] وَ يَحْمِلُ اللَّهُ الْإِنْسَانُ مَسْؤُلِيهِ هَدَايَهُ نَفْسِهِ، بِالاستِفَادَهِ مِنْ آيَاتِهِ تَعَالَى، سَوَاءَ مَا تَجَلَّ مِنْهَا فِي الْكَوْنِ، أَوِ الْأُخْرَى الْمُتَجَلِّيَهُ فِي رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ بَلِي. إِنَّ اللَّهَ يُوْفِرُ أَسْبَابَ الْهَدَايَهِ لِلْإِنْسَانِ كَالآيَاتِ وَ كَالْمُصْلِحِينَ، أَمَّا إِذَا رَفَضُوهُمْ فَلَنْ يَجْبَرُهُ عَلَى اخْتِيَارِ الْحَقِّ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الدُّنْيَا دَارَ الْامْتِحَانَ وَ الْابْتِلاءَ، ثُمَّ لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ يَنْتَظِرَ الْإِنْسَانُ الْهَدَايَهِ تَأْتِيهِ إِلَيْهِ بَيْتَهُ إِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ هُوَ الْبَحْثُ عَنْهَا وَ تَحْمِلُ مَسْؤُلِيَّاتِهَا.

و نستوحى من الآية إشاره إلى أنّ بعضًا من الناس سوف يتعدّرون بهذا التبرير، و الله يبيّن لهم أنّه مرفوض عنده، إذا كنت تريد الهدایة فهذا هو الطريق، أن تتغلّب على القنوط، و تنيب و تسلّم لله قبل العذاب أو الموت، و أن تتبع طريق الحق و أحسن ما أنزل، و إذا فعلت ذلك فسوف تكون مهتدية، أمّا الطرق الأخرى كالانتظار الساذج أو اتباع المناهج المنحرفة في الحياة، أو الانصياع لقيادة الطاغوت، أو الإصرار على الذنب تحدياً أو قنوطاً فإنّها كلّها لا تنتهي إلا إلى الضلال.

[٥٨] و لا بد أن يعرف الإنسان قضيّه هامه و حاسمه بالنسبة للحياة الدنيا، و هي أنها الفرصة الوحيدة له و التي يستطيع فيها تجربة نفسه و إرادته، فإن فشل فيها فسوف يفشل في الآخرة، و إن أفلح فسوف يفوز هناك بحسبه فشله و فلاحه هنا.

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ الَّذِي لَمْ تَرِه بِبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ حَيْثُ كَفَرْتُ بِالْحَقِّ .

لَوْ أَنَّ لِي كَرَهًا فَمَا كُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَ هكذا يكرر القرآن تأكيده كثيراً على أهمية الإحسان لأنّه أرفع درجة يصل إليها البشر، باعتباره يمثل خروج الإنسان عن ذاتياته و أهوائه إلى خدمه الآخرين، و مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (١)

[٥٩] و نعود للسياق القرآني في هذه السورة بعد هذا الاستطراد لنرى ردّ القرآن على تلك الأقوال التي تتكرر على لسان أصحاب النار يوم القيمة، يقول تعالى:

بَلِّي فَدَ جَاءَ تُكَ آيَاتِي

ص: ٥٢٠

(١) التغابن/١٦).

وَ كَانَ إِيمَانَكَ أَنْ تَتَجَاهُزَ الْحَسْرَهُ وَ الْمَلَامَهُ، وَ أَنْ تَهْتَدِي لِلْحَقِّ، وَ أَنْ تَنْتَفِعَ مِنْ فَرْصَهِ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا.

فَكَذَبْتَ بِهَا أَوْلًا.

وَ اسْتَكْبَرْتَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ ثَانِيًّا، وَ هَذِهِ الْمَرْحلَهُ مِنْ أَخْطَرِ مَراحلِ الْمُعْصِيهِ.

وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ حِيثُ أَنْكَرْتَ إِنْكَارًا تَامًا مَا جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ ثَالِثًا.

[٦٠] وَ أَهْمَ مَا كَانَ يَكْذِبُ بِهِ الْكَافِرُونَ هُوَ الْبَعْثُ وَ يَوْمُ الْقِيَامَهُ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَهُمْ بَعِيدِينَ عَنْ تَحْمِيلِ الْمَسْؤُولِيهِ، وَ هَلْ يَتَحَمَّلُ
الْمَسْؤُولِيهِ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِالْجَزَاءِ؟ وَ لَعْلَهُ مِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقَ جَاءَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.

وَ يَوْمَ الْقِيَامَهِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ فَأَشَاعُوا الْضَّلَالَ، وَ افْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِأَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ.

وَ مِنْ أَبْرَزِ الْمَصَادِيقِ الْعَمَليَهِ لِلْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ هُوَ أَنْ يَدْعُ إِلَيْهِ الْإِمَامَهُ مِنْ لِيسَ أَهْلًا لِهَا، وَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَهِ، هَنَاكَ
حَدِيثٌ مَأْثُورٌ عَنْ سُورَهِ بْنِ كَلِيبٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قَلْتَ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَزَّ وَ جَلَّ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ... الْآيَهُ» قَالَ عَلَيْهِ
الْسَّلَامُ: «مَنْ قَالَ إِنِّي إِمامٌ وَ لَيْسَ بِإِمامٍ» قَلْتَ: «وَ إِنْ كَانَ عَلَوِيًّا فَاطِمِيًّا؟» قَالَ: «وَ إِنْ كَانَ

علوياً فاطميَا» قلت: و إن كان من ولد على بن أبي طالب؟ قال: «و إن كان من ولد على بن أبي طالب» ^(١) فيجب على الإنسان أن لا يدع شيئاً لا يحق له و إلا فهو يرتكب الحرام، و إذا كان ادعاء الإنسان المعرفة بالطب قد يتسبب في قتل عشرات الناس الذين يتعالجون عنده، فإن ادعاء الإمامه و الرئاسه كذباً سوف يفسد كل النظام، الاقتصادي و السياسي و الاجتماعي و الثقافي، فعليه إذن أن يتجاوز مشكله حب الرئاسه، و أن يتواضع للحق و يسلم لأهله.

و الكذبه لا تسعهم رحمة الله على سعتها الامتناهيه، بل يحشرون يوم القيمه في هيئه مخزيه لهم.

و جُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ بِآثَارِ الْكَذْبِ وَ الْمُعَاصِيِّ، وَ بِالتَّالِيِّ بِانْقِطَاعِ نُورِ اللَّهِ عَنْهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . ^(٢)

و يستفهمون منا السياق فيقول:

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَ يَتَرَكَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ نَجِيبُ عَلَيْهِ بِأَنفُسِنَا فَنَقُولُ: بَلِي، لَنْقَرَ بُوْجُودُ هَذَا الْمَثْوَى فِي جَهَنَّمَ، فَنَخَافُ مِمَّا أَعْدَهَ اللَّهُ لِلْكاذِبِينَ مِنَ الْعَذَابِ فَلَا نَتَكَبَّرُ.

ص: ٥٢٢

١ - ١) البرهان/ج (٤) ص (٨٢).

٢ - ٢) النور/(٤٠).

اشاره

وَيَسْعِيَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمْسِحُهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيَرُ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أُنَّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبَطَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَبِعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَامٍ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بُنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَىءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهِيدَاءِ وَقُضِيَّ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

هدى من الآيات:

تذكّرنا آيات هذا الدرس بيومقياًمه الذى لا سبيل للخلاص من عقباته و عذابه الا بالتوحيد و التقوى، أما الشرك فانه يحيط أعمال الإنسان ولو كانت من رسول الله(ص) على عظمته.

كما نجد في الآيات تأكيداً على هيمنة الله على الكون، و التي تدعونا لعبادته و التسليم له تسليماً مطلقاً، و لا يشرك البشر بشيء الا- إذا اعتقد بهيمنتهم و سيطرتهم و لو على جانب من الحياة، و انما يخضع البعض لانظمه الطواغيت بسبب هيمتهم الظاهرية على المجتمع.

بيانات من الآيات:

[٦١] حدثنا رينا في نهاية الدرس السابق عن المتكبرين الذين يحشرون بوجوه مسودة، و في جهنم يخصص لهم وادياً سحيقاً يلقون فيه أشد ألوان العذاب، و هذا مما

يشير الخوف في النفس فأراد الله تعالى أن يدخل الاطمئنان والرجاء على عباده المؤمنين حيث وعدهم مباشرة بالنجاه من العذاب، وبراحه البال.

وَيُسْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ وَالْمُفَازِهُ مِنَ الْفُوزِ، وَمَعْنَاهَا النِّجَاهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَنْجُونَ بِتَقْوَاهُمْ.

لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَهُوَ أَدْنَى الْعَذَابِ.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ إِذَا وَجَدَ جَزَاءَ عَمَلِهِ وَكَانَ طَمُوحًا فَأَنَّهُ غَالِبًا مَا يَسْتَقْلُهُ وَيُعْتَقِدُ أَنَّ عَمَلَهُ كَانَ أَكْبَرَ مِنْهُ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنَّ جَزَاءَهُمُ الْأُوفَى فَتَرْضِيَ بِهِ نَفْوَهُمْ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ مِنْ عَمَلٍ أَوْ أَنْفَقُوهُ مِنْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ جَزَاءَهُمُ الْأُوفَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ بَكْثَرٍ مِمَّا كَانُوا يَتَوقَّعُونَهُ إِنَّهُمْ لَا يَحْزَنُونَ.

[٦٢] وَيَعْرِفُنَا رَبُّنَا نَفْسَهُ مِنْ خَلَالِ الْقُرْآنِ.

الَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أَيْ حَافِظٌ وَمَهِيمٌ وَمَدْبُرٌ، وَالآيَةُ تُسَفِّهُ التَّفْوِيْضَ الَّتِي تَزَعَّمُ بِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْأَشْيَاءَ ثُمَّ تَرَكَهَا وَشَاءَ.

[٦٣] لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَالْمَقَالِيدُ جَمْعُ مَقْلِيدٍ أَوْ مَقْلَادٍ، وَمَعْنَاهُ الْمَفْتَاحُ،

فمفاسيد السموات والأرض بيده عز وجل، وكون مفاتيح الشيء بيده يدل على أنه متصرف في ذلك الشيء وفيما يحتويه.

و لعل كلامه مفاتيح تدلنا على وجود سنن و أنظمته تحكم هذا الكون، و مع أن ربنا فوق السنن والأنظمة، إلا أنه بحكمته يهيمن على الخلق من خاللهما، و لأن المؤمنون يسلكون له تعالى، و يتبعون آياته فإنهم وحدهم الذين يفلحون و يفوزون في الحياة، و يسخرونها أفضل من غيرهم لصالحهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَالآيَةُ هِيَ الْعَلَامَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَآيَاتُ اللَّهِ هِيَ الْعَالَمَاتُ الْهَادِيَةُ لِلْحَقِّ وَالصَّالِحِ، وَحِيثُ يَرْفَضُهَا الْكُفَّارُ يَضْلُّونَ وَلَا يَلْعَلُونَ الْفُوزَ وَالْفَلَاحَ.

[٦٤] و يأمر الله نبيه الأكرم (ص) بتحدى هؤلاء.

قُلْ أَفَغَيْرُ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْمًا الْجَاهِلُونَ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ بِاللَّهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ هِيمَنَتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَخَلْقَهُ لَهُ، وَلَا يَرْتَكِزُونَ فِي الْجَهَلِ بِصُورَهُ أَعْمَقَ حِينَما يَظْنُونَ أَنَّ الْأَنْدَادَ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا مِنْ دُونِهِ تَسْتَحِقُ الْعِبَادَهُ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْخُضُوعِ لَهَا.

و ليس شرطاً أن تكون هذه الأنداد من الحجارة، بل هي كل باطل يخصم له الإنسان، سواء تمثل في فكره يؤمن بها أو طاغوت يخصم له، كما أنه ليس المقصود من العبادة فقط الركوع والسجود أو طقوس عباديه خاصة يقوم بها الإنسان تجاه من يشرك بهم، بل أن اعانتهم و طاعتهم و حتى الرضى النفسي بهم يعد عباده، و يجب على المؤمن أن يرفض ذلك كله.

[٦٥] ثم يبين الله الموقف الحاسم من الشرك و المشركين، فيحذّر نبيه(ص) تهديداً حقيقياً، بأنه لو افترض أن أشرك بالله فان جزاءه سيكون كسائر الناس، و إذ يخصص ربنا الخطاب هنا بأقرب الناس اليه و هو النبي محمد(ص) مع عصمه لكي يبين لنا بان الشرك أعظم الذنوب عنده تعالى.

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيْجُبَطَّ عَمْلُكَ لَأَنَّ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا تَكُونُ مَقْبُولَةً حِينَما يَكُونُ اطْهَارَهَا
الْعَامَ أَطْهَارًا تَوْحِيدِيَا، أَمَا لَوْ عَمِلْتَ الصَّالِحَاتِ وَأَنْتَ تَشْرِكُ فَلَنْ تَنْفَعَكَ أَبْدًا.

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَهَذِه نَتْيَاجَه طَبِيعَيْه لِإِحْبَاطِ الْعَمَلِ، ذَلِكَ أَنَّ مَا يَجْلِبُ لِلْإِنْسَانِ الْفَلَاحَ وَالْفَوْزُ هُوَ عَمَلُه الصَّالِحُ فَإِذَا أَحْبَطَ
فَأَنَّى لَهُ الْفَوْزُ؟ وَلَعِلَّ هَذِهِ الْآيَهُ مِنَ أَخْوَفِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَأْتِي فِي هَذِهِ الْدُّرْسِ تَقَابِلًا أَرْجِيَ الْآيَاتِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
قُلْ يَا عِبَادَيَ الَّذِينَ أَشَرَّفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١) وَيُدْخِلُ
اجْتِمَاعَ هَاتِينَ الْآيَيْتَيْنِ فِي سُورَه وَاحِدَه فِي سِيَاقِ التَّوازِنِ الْقُرْآنِيِّ الدَّقِيقِ. حِيثُ يَعِيشُ قَارِئُوهُ مُعَادِلَهُ دَقِيقَهُ طَرْفَاهَا الْخَوْفُ وَ
الرَّجَاءُ.

وَكَيْفَ لَا - تَكُونُ هَذِهِ الْآيَهُ مِنَ أَخْوَفِ الْآيَاتِ، وَهِيَ تَنْذِرُ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ قَدْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ عَشْرَاتِ السَّنِينِ دُونَ نَتْيَاجَه بِسَبَبِ
شَرِكَه، وَمِنَ الشَّرِكِ خَصْوَعَهُ لِلْحَاكِمِ

ص: ٥٢٨

(١) الزمر / (٥٢).

الجائز؟! [٦٦] و في مقابل دعوه الله نبيه و بالتالي كل مؤمن لرفض الشرك في الآيتين المتقدمتين، يدعوه في هذه الآية لعباده الله وحده و شكره على توفيقه له لعبادته. لأن ذلك من أكبر نعم الله على الإنسان.

بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ السَّاكِرِينَ وَ فِي تَقْدِيمِ كَلْمَهِ اللَّهِ (الْمَفْعُولُ لَهُ) عَلَى الْفَعْلِ وَ الْفَاعِلِ (فَاعْبُدْ) دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ الْعَبَادَهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَالصَهُ مَنْحُصُرَهُ لَهُ وَحْدَهُ. وَ هَذَا يُشَبِّهُ تَقْدِيمَ الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ «إِيَّاَكَ» وَ هُوَ الْمَفْعُولُ عَلَى الْفَعْلِ وَ الْفَاعِلِ «نَعْبُدْ» فِي سُورَهُ الْحَمْدُ، أَمَّا الشُّكْرُ الْمَأْمُورُ بِهِ فَهُوَ عَلَى عَبَادَهُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَتَمَّ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَوْ هُوَ عَلَى عُمُومِ نِعَمِ اللَّهِ.

[٦٧] ثُمَّ وَ بِصُورَهُ اخْرَى - يُؤكِدُ لَنَا الْقُرْآنُ ضَرُورَهُ عَبَادَهُ اللَّهِ، الَّتِي تَأْتِي نَتْيَاجَهُ مَعْرِفَتَهُ عَزَّ وَ جَلَّ. وَ الْمُشْرِكُونَ وَ الْكَافِرُونَ انْمَا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ بِهِ وَ بِقَدْرَتِهِ. الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ تَقْدِيرَهُمْ لَهُ دُونَ مَقَامِهِ مَقَامَ الرَّبُوبِيهِ.

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبَضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَهُ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا وَ فِيمَا مِنَ الْخَلْقِ كَيْفَ يَشَاءُ، فَهَذِهِ الْأَرْضُ مَعَ حَجمِهَا الْكَبِيرِ فِي نَظَرِنَا، وَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ الَّتِي يَعْجَزُ الْعَقْلُ عَنْ اسْتِيعَابِ مَدَاهَا، وَ الْخَيَالُ عَنْ تَصْوِيرِ سُعْتِهَا، يُشَبِّهُ هِيَمَتَهُ عَلَى إِحْدَاهِمَا بِهِيَمَنَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى قَطْعَهُ النَّقْدِ الصَّغِيرِ الَّتِي تَكُونُ فِي قَبْضَتِهِ، وَ يُشَبِّهُ الْأُخْرَى بِالْوَرْقَهُ الْمَلْفُوفَ فِي يَمِينِهِ، وَ لَا رَيْبُ أَنْ قَبْضَتَهُ تَعَالَى كَمَا يَمِينَهُ لَيْسَتَا بِمَعْنَى وجودِ جَارِحَهُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَ انْمَا هَمَا رَمْزٌ لِقَدْرَتِهِ وَ إِرَادَتِهِ، تَعَالَى كَمَا الْيَدُ رَمْزٌ لِقَوْهِ الْإِنْسَانِ، وَ رَبُّنَا انْمَا يَسْتَخْدِمُ التَّشِيهَاتِ الْمَجَازِيهِ لِتَقْرِيبِ الْمَعْنَى

الى أذهاننا و لو وصف لنا قدرته كما هي لما استوعبت ذلك عقولنا.

سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ إن من أسباب الشرك عند الإنسان هو عدم معرفته بالله، فيتصوره بعقله المحدود عاجزاً محدوداً مثله، و يزعم أنه يحتاج إلى الشركاء ليدير شؤون الخلق. و ربنا متبر عن ذلك، فمن هذه قدرته لا يحتاج إلى الشركاء، و لا يجوز لنا باى حال أن نشرك به.

وبخصوص هذه الآية

قال الإمام الباقر عليه السلام :

إن لله لا يوصف، و كيف يوصف وقد قال الله في كتابه «وَ مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ»؟ فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك
[\(١\)](#) و

عن سليمان بن مهران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز و جل [\[ما قَدَرُوا\]](#)... الآية فقال: يعني ملكه لا يملكه معه أحد، و القبض إلى الله تعالى في موضع آخر المنع و البسط منه، و الإعطاء و التوسيع... و الله يقبض و يتضطر و إليه ترجعون يعني يعطى و يمنع و القبض منه عز و جل في وجه آخر الأخذ، و الأخذ في وجه القبول كما قال: «و يأخذ الصدقات» اي يقبلها من أهلها و يثبت عليها فقوله عز و جل [\[وَ السَّمَاءُ اواثٌ مَطْوِيَاتٌ بِيمِينِهِ\]](#)? قال: اليمين اليد، و اليد القدرة و القوه، لقوله عز و جل [\[وَ السَّمَاءُ اواثٌ مَطْوِيَاتٌ بِيمِينِهِ\]](#) اي بقدرته و قوته [\(٢\)](#) [٦٨] و يهدينا القرآن إلى أحد مظاهر قدره الله و هيمنته، و ذلك حينما ينفح في

ص: ٥٣٠

١ - البرهان/ج (٤) ص (٨٤).

٢ - المصدر.

الصور فيصعق بذلك كل الخلق في أقل من لحظه، ولا يبقى أحد إلا بعض من الناس و الملائكة يحفظهم الله من ذلك النفح و
لعل من بينهم الشهداء.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَيْعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَبَعْدَ هَذِهِ النُّفُخَ تَكُونُ نُفُخَةً أُخْرَى تَدْبِ بِسَبِيلِهَا
الْحَيَاةَ فِي الْجَمِيعِ.

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي أَمْ يَنْظُرُونَ وَالنَّظَرُ هُنَّا يَنْصُرُ لِأَحَدٍ مُعْنَيْنِ، فَامَّا أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى النَّظَرِ الْمُتَعَارِفِ حِيثُ تَمُوتُ
بِالنُّفُخَ الْأُولَى كُلَّ حَوَاسِّ الْإِنْسَانِ ثُمَّ تَعُودُ لِطَبِيعَتِهَا مِرْهَ اُخْرَى وَمِنْ بَيْنِهَا حَاسِهِ النَّظَرِ، وَأَمَّا يَكُونُ بِمَعْنَى الانتِظَارِ لِأَنَّهُمْ فِي
النُّفُخَ الْثَّانِيَةِ يَسْتَنْهَضُونَ لِلْجَزَاءِ فَامَّا إِلَى الْجَنَّةِ أَوِ إِلَى النَّارِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْجَمِيعَ يَنْتَظِرُ الْحُكْمَ الصَّادِرَ بِشَأنِهِ كَقُولِهِ تَعَالَى: وَإِنِّي
مُرْسِلٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرٌ بِمَمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ . (١)

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ يَتَبَيَّنُ أَيْضًا أَنَّ النَّاسَ يَمْوِتونَ مَرْتَيْنَ، مِرْهَ فِي الدُّنْيَا وَمِرْهَ بَعْدَ الْحِسَابِ عَنْ النُّفُخَ الْأُولَى، وَهَذَا بِدُورِهِ يَفْسُرُ قُولَهُ
تَعَالَى حَكَاهِ عَنِ الْمُشَرِّكِينَ:

قَالُوا رَبَّنَا أَمْتَنَا اثْتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْتَيْنِ (٢) كَمَا يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَوْتَ فِي النُّفُخَ الْأُولَى يَخْصُّ الْمُوْجُودِينَ فِي حِينِهَا مِنْ لَمْ يَمْوِتُوا
بَعْدَ، بَيْنَمَا تَشْمِلُ الْحَيَاةَ مِنَ النُّفُخَ الْثَّانِيَةِ الْجَمِيعَ.

[٦٩] وَيَنْقُلُنَا السِّيَاقُ إِلَى جَانِبِ آخَرَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذْ تَشْرُقُ الْأَرْضُ بِنُورِ

ص: ٥٣١

. (٣٥) النَّمَل / (٢ - ١).

. (١١) غَافِر / (٢ - ٣).

الله، و توضع الموازين للحساب العدل و توفى الأنفس أعمالها التي أحصاها الله بعلمه.

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا الَّذِي يَخْلُقُهُ وَ يَتَجَلِّي مِنْ خَلْقِهِ جَلَلَهُ وَ عَظَمَتَهُ، وَ قَدْ يَتَجَلِّي اللَّهُ فِي خَلْقِهِ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ، وَ قَدْ يَتَجَلِّي فِي إِبْدَاعِ نُورٍ تَشْرُقُ بِهِ الْأَرْضُ ذَلِكَ الْيَوْمُ.

و

فِي الْأَخْبَارِ عَنْ الْمُفْضَلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ :

«إِذَا قَامَ قَائِمَنَا أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ ذَهَبَتِ الظُّلْمَةُ» [\(١\)](#) وَ لَا - شَكَ أَنَّ نَهْوَضَ إِمامَ الْحَقِّ وَ مَا يَتَبعُ ذَلِكَ مِنْ قِيَامِ حُكْمِهِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ هُوَ مِنْ أَبْرَزِ تَجْلِيَاتِ نُورِهِ تَعَالَى، أَوْ لَيْسَ الْأَنْبِيَاءُ وَ الرَّسُولُ وَ الْأُولَيَاءُ هُمْ نُورُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ؟ وَ وُضُعَ الْكِتَابُ لِيَحِاسِبَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَ الْكِتَابُ هُنَّا هُوَ الْمِيزَانُ وَ الْمَقِيَاسُ، وَ نَسْتَوْحِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَحُولُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ صِيغِهَا الْمَعْنُوِيَّةِ إِلَى الْمَادِيَّةِ، فَالْكِتَابُ الَّذِي هُوَ مِيزَانُ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، وَ فَرْقَانُ بَيْنِهِمَا فِي الدُّنْيَا، يَتَحُولُ إِلَى مِيزَانٍ مَحْسُوسٍ يَرَاهُ النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ.

وَ جِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ هُمْ مِيزَانٌ آخِرٌ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ مَحَاسِبِ النَّاسِ، فَالْأَنْبِيَاءُ مِيزَانٌ بِعَصْمَتِهِمْ

ص: ٥٣٢

١-٤) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٠٤).

و سلوكهم النموذجي، بينما الشهداء ميزان بموافقتهم و شهادتهم على مجتمعاتهم، حيث كانوا طليعتها، و لعل الشهداء هنا اشمل من أن نحصرها في أولئك الذين يجاهدون من أجل الحق، و يسقطون مضرجين بدمائهم، إنما هم كل من يلتزم بالحق فيصير حجه على الناس. فأيوب عليه السلام حجه على الذين ينهزمون إمام الابلاء، و يوسف عليه السلام حجه على الذين يغترون بحملهم، كما إن الذين يثورون و يتجاوزون إرهاب الطغاة حجه على القاعدين و الخانعين.

و حيث يحضر هذان الميزانات يحاسب الناس بهما و فيهما يتجلى الحق.

و قُضِيَ بِيَنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ و عدم الظلم نتيجة مترتبة على كون المقاييس حقانية و عقلانية، و إنما يجور الحكم باتباعه الباطل في قضائه، و ما دام الأمر كذلك فالناس إذن هم الذين يظلمون أنفسهم بمخالفتهم الحق إذا قضى عليهم بالعذاب. و الله يقول بهذا الشأن:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١) [٧٠] ثم يؤكّد الله عدالته في الحساب.

و وُفِيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ و السؤال لماذا لم يقل الله و في كل شخص، أو و في كل إنسان، و الجواب كما يبدو انه تعالى يريد بيان حقيقه هامه، و هي أن الإنسان لا يحاسب على أعماله الظاهره التي يمارسها بأعضائه و حواسه و حسب، بل يلاقى جزاءه خيرا كان أو شرا حتى على أعمال النفس و تصرفاتها، على فكره، و حبه و بغضبه، و الحساب الالهي ليس قائما على الجهل أو الظنون، إنما يقوم على علم الله المطلق.

ص: ٥٣٣

وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَ عِلْمُهُ تَعَالَى أَدْقٌ مِّنْ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ بَلْ حَتَّى مِنْ حِسَابِ الْمَلَائِكَةِ الْحَفْظُ، لَأَنَّ الْبَشَرَ مَعْرُضٌ لِلْزِيادَةِ وَ النَّقْصَانِ فِي حِسَابَاتِهِ، وَ ذَلِكَ بِسَبَبِ وَقْوَعِهِ تَحْتَ تَأْثِيرِ عَوْنَافِ كَالْغَفْلَةِ وَ النَّسِيَانِ وَ الْجَهْلِ وَ وَ وَ لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ يَخْفِي حَتَّى عَنْ مَلَائِكَتِهِ بَعْضَ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ سَرِّاً لَهُ.

ص: ٥٣٤

اشاره

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمْ زُمِرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهُمْ فُتُحْتَ أَبْوَابَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ خَرَنَتْهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتٍ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلِّي وَلَكِنْ حَقٌّ كَلِمَهُ الْعِذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمْ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسٌ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّهِ زُمِرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهُا وَفُتُحْتَ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَنَتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِفْسُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَيْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَيْثُ نَشاءُ فَنَعْمَ أَجْرُ الْعَالَمِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَيِّبُهُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضَى يَنْهَمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

الله

[زمرة]: جمع زمرة و هي الفوج، أي يساقون فوجا فوجا، كل فوج مشتمل على متشابه الأعمال كالزناد والمقامرين وهكذا.

هدى من الآيات:

فى هذا الدرس ترد كلمه الزمر التي سميت بها السوره، وقد تكررت مرتين، مره عند الحديث عن الكفار، و اخرى عند الحديث عن المؤمنين، ذلك أن كلا الفريقين يحشرون إلى مصيرهم زمرا و جماعات.

و ربما سميت السوره بهذا الاسم، وأكده القرآن عليه مرتين، من أجل أن يوحى لنا بطبيعة التفاعل بين أبناء المجتمع، فالناس انما يساقون الى النار و الجن وفق أعمالهم و انتماءاتهم و هذا المقياس أساسى فى حياة الإنسان، فهو إذا أراد أن يعرف نفسه، أو أراد الآخرون أن يعرفوه، فما عليه و عليهم الا - معرفه الدين يتتمى إليهم اجتماعيا و عمليا، فان كانوا صالحين كان منهم، و إن كانوا منحرفين فهو كذلك أيضا.

و الأحاديث المرويه تؤكد بأن معرفه الرجال تتم بمعرفه الذين يحيطون بهم،

فمعرفة القائد بحاشيته، و الشاب بأصدقائه، و النظام بالعاملين فيه، و الدولة بالذين يؤيدونها من طبقات المجتمع.

قال سليمان عليه السلام :

«لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنما يعرف الرجل بأشكاله وأقرانه، وينسب إلى أصحابه وأخذه»

(١)

و قال الإمام علي و هو يوصي ولده الحسين (عليهما السلام) :

«قارن أهل الخير تكن منهم و بابن أهل الشر تبن عنهم» (٢)
فالحياة إذن ليست احاديه ولا متناثره، و انما تسير كتلا و
أجناسا (زمرا زمرا) و إذا لم تعرف شخصا بذاته فانك تستطيع معرفته بالزمرة التي يتتمى إليها، و هذه الحقيقة يؤكدها القرآن في
مواضع كثيرة منه، و بصيغ مختلفه كمخاطبته الناس بصورة التجمعات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي صَفَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
صَفَةِ الْكَافِرِينَ، وَ هَكُذا الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ، وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ... إلخ.

بيانات من الآيات:

[٧١] وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمِرًا إِي جماعات على أساس تجنيس أعمالهم يسوقهم ملائكة العذاب.

حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَ فُتَحْتُ أَبْوَابُهَا

ص: ٥٣٨

١-١) بح/ج ٧٤ ص (١٨٨).

٢-٢) المصدر.

السبعين يدخل كل جماعه من باب، وقد يكون معنى الأبواب العذاب الذى يتضمنه كل قسم من جهنم، و

فى الخصال عن الصادق عن جده عليهما السلام :

«إن للناس سبعه أبواب، باب يدخل منه فرعون و هامان و قارون، و باب يدخل منه المشركون و الكفار ممن لم يؤمن بالله طرفه عين، و باب يدخل منه بنو أميه هو لهم خاصه و هو باب لظى، و هو باب سقر و هو باب الهاويه يهوى بهم سبعين خريفا فكلما هوى بهم سبعين خريفا فار بهم فوره قذف بهم فى أعلاها سبعين خريفا، ثم هوى بهم هكذا سبعين خريفا فلا يزالون هكذا أبدا خالدين مخلدين، و باب يدخل منه مبغضونا و محاربونا و خاذلونا، و انه لأعظم الأبواب و أشدتها حرا» [\(١\)](#) و عند ما يدخل كل فريق من بابه يتلقاه خزنه النار بالشماته و السؤال.

وَقَالَ لَهُمْ خَرَّتِهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ فَمَنْ جَهَهَ كَانَ الرَّسُولُ هُمُ الَّذِينَ جَأْوَا إِلَيْكُمْ وَهَذِهِ نَعْمَهُ كَبِيرَهُ إِنْ يَبْعَثَ اللَّهُ هَادِيًّا فِي الْمَجَمِعِ، وَمِنْ جَهَهُ أَخْرَى لَمْ يَكُونُوا غَرَبَاءَ عَنْكُمْ فَلَقَدْ كَانُوا مِنْ وَسْطِكُمُ الْاجْتِمَاعِيِّ وَيَتَكَلَّمُونَ بِلِسَانِكُمْ، وَمِنْ جَهَهُ ثَالِثَهُ كَانُوا يَحْمِلُونَ إِلَيْكُمْ رِسَالَهُ رَبِّكُمْ وَيَهْدُونَكُمْ إِلَى الْآيَهِ تَلُوُ الْآيَهِ.

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَكَانَ هَذَا كَافِيًا لِهَدَايَتِكُمْ وَخَلَاصَكُمْ مِنَ النَّارِ لَوْ اتَّبَعْتُمُوهُمْ.

ص: ٥٣٩

١ - ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٠٤)، و تجدر الاشاره فى هذا الحديث الى أن المذكورين عينات لأصحاب الأبواب السبعه و فهو يدخل معهم كل من جانسهم فى العمل، بل أن السبعه قد تكون للتخصيص و الكثره و ليس للحصر.

ولم يكن يملک أصحاب النار ردا على كل هذه الحجج البالغه الا بأن.

قالوا بلى إذن فالهدايه ممکنه لو أرادوها فعلا.

و لكن حَتَّى حَكِيمُ الْعِذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ إن باستطاعه الإنسان أن يكفر بالله، باختياره و لكن بعدئذ يغلق عليه باب الاختيار، و يحاول البعض تبرير كفره بأنه سوف يتوب في المستقبل كعمر بن سعد الذي اختار الكفر بقتل الإمام الحسين عليه السلام ثم انشد:

يقولون إن الله خالق جنه و نار و تعذيب و غل يدين

فإن صدقوا فيما يقولون إنى أتوب الى الرحمن من ستين

و هذا من أخطر الأشياء على البشر، حين يختار الانحراف ثم يمني نفسه بالتوبه في المستقبل دون أن يدرك سنه الله في الحياة، و هي أن الإنسان قد يختار طريقة بحريته و يتخذ قرارا بكامل إرادته، و لكنه بعد ذلك لا يتمكن من العودة عنه و الخروج من المأزق الذي يقع فيه بسبب ذلك الاختيار السيء. كالذى يقرر أن يلقى بنفسه من جبل شاهق ثم يجد نفسه عاجزا عن الصعود مره أخرى، فالسقوط يكون باختياره و لكنه لا يمكن من العروج أى حاول.

و القرآن يعبر عن هذه الفكرة بصيغ عديدة في آياته، فتارة يسميه بالختم على القلوب والأسماع خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ (١) و تارة يسميه بذهب النور ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكُهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ (٢)، و أخرى يسميه

ص: ٥٤٠

١ - (١) البقره/(٧).

٢ - (٢) البقره/(١٧).

باستحقاق الصلاة و مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّالَّةُ^(١) أو باستحقاق كلامه الله كذلك حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢) و يعبر القرآن أيضاً عن ذلك يجعل العشاوه على الأ بصار و جعل على بصيره غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ^(٣) أو يجعل الاكنه على القلوب و جعلنا على قُلُوبِهِمْ أَكَنَّهُ أَنْ يَفْقَهُهُ^(٤) و هذه التعبير و تلك كلها تشير الى سلب الله الإنسان حينما يصر على الانحراف والضلالة اراده الهدى فيجد نفسه مجبولاً على الفساد والاستمرار في طريق الباطل.

إن الاختيار، والارادة، والحرية من أكبر نعم الله على الإنسان، وإذا سلبه ربّه هذه النعمه فيماذا يختار الحق على الباطل، والمستقبل الأخرى على الحاضر الدنوي؟ وأن استحقاق الكافرين لكلمه العذاب هو بكفرانهم بنعمه الحرية و تضييعهم فرصه الاختيار على أنفسهم.

[٧٢] و لأنهم حقت عليهم كلامه العذاب بانحرافهم في الدنيا، تحقق ذلك العذاب بواقعه المحسوس في الآخرة.

قيلَ اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا بِتَمْحِضِكُمْ فِي الْكُفُرِ، وَعَلَى إِنْسَانٍ أَنْ لَا يَغْتَرِ بِأَعْمَالِهِ أَبْدًا لَأَنَّهُ قَدْ يُسْتَطِعُ أَنْ يَغْلِقَ عَنْ نَفْسِهِ بَابَ الزَّنِي مِنَ النَّارِ، وَلَكِنَّهُ يَدْخُلُهَا مِنْ بَابِ الْإِسْلَامِ لِلطَّاغُوتِ وَالتَّقَاعُسِ عَنِ الْجَهَادِ، فَيُجْبِي عَلَيْنَا إِذْنًا لِكَيْ نَرْجِزَ عَنِ النَّارِ أَنْ نَغْلِقَ كُلَّ أَبْوَابَهَا

ص: ٥٤١

١ - ١) النحل // (٣٦).

٢ - ٢) يونس // (٣٣).

٣ - ٣) الجاثية // (٢٣).

٤ - ٤) الانعام // (٢٥).

عن أنفسنا، و ذلك بعمل الصالحات و ترك الذنوب جميعاً التي هي مفاتيح أبواب جهنم، و أهم تلك الأبواب و اخطرها باب المتكبرين الذي يخصه القرآن هنا بالذكر و الذم من بينها كلها.

فَيُسَيِّسُ مَئْوِى الْمُتَكَبِّرِينَ [٧٣] وَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ يَحْدُثُنَا رَبُّنَا عَنْ مَصِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَقِينَ الَّذِينَ يَزْفَفُونَ بِالْتَّرْحِيبِ وَ التَّحْيِهِ إِلَى
قُصُورِهِمْ، وَ حُوَرِهِمْ، وَ عُمُومِ جَزَائِهِمْ فِي الْجَنَّةِ .

وَ سَيِّقَ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُهُمْ وَ فُتَحْتُ أَبْوَابُهَا الشَّمَائِيلِ كَمَا فِي الرِّوَايَاتِ (١)،

ففي كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جده قال :

«إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب تدخل منها شيعتنا ومحبونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهل البيت»

(٢)

و عنه عليه السلام قال: قال رسول الله(ص) :

«للجنّة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه، فإذا هو مفتوح وهم متقدلون بسيوفهم، و الجمع في الموقف والملائكة تزجر، فمن ترك الجهاد أليس الله ذلا و فقرا في معيشته و محققا في دينه، إن الله أعز أمتي بسنابك خيلها و مراكز

ص: ٥٤٢

٤-١) راجع التعليق الذي مر في الرواية المتقدمة عن النار.

٤-٢) نور الثقلين /ج (٤) /ص (٥٠٥).

قال الإمام الباقر عليه السلام :

أحسنوا الظن بالله، و اعلموا أن للجنة ثمانية أبواب عرض كل بباب منها مسیره أربعمائه سنـه (١) و إذا دخل المؤمنون الجنة استقبلهم الملائكة الموكلون بها، يلقون إليهم تحيه ربـهم عز و جلـ.

وَقَالَ لَهُمْ حَزَنَتْهَا سَيْلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْطُمْ فَإِذْ خُلُوهَا خَالِدِينَ وَلَا- يُطِيبُ الْإِنْسَانُ وَبِالْتَّالِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا- إِذَا اجْتَنَبَ الذَّنَوبَ وَالْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا، فَرَكِي نَفْسَهُ بِذَلِكَ وَبِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، لَأَنَّ الْجَنَّةَ دَارُ الطَّيِّبِينَ فَقَطْ.

[٧٤] و حيث يعتبر المؤمنون دخول الجنة من أكبر نعم الله عليهم شكره على ذلك.

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ قَالُوا: الْمَرَادُ بِالْأَرْضِ الْجَنَّةُ، وَاللَّهُ الْعَالَمُ.

فَنَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَهَذِهِ النَّهَايَةُ الْحَكِيمَهُ لِلَّاهِ تَوْكِيدُ حَقِيقَهُ هَامَهُ جَداً، وَهِيَ أَنَّ التَّقْوَى وَإِنْ

كانت درع الإنسان و حصنه الذي يقيه العذاب، الا انها لا تكفي وحدتها من دون العمل، الذي لا ينفك أن يكون جزءاً أساسياً منها.

أن الدرع وحدتها لا تكفي المقاتل الذي يخوض المعركة، بل لا بد له من سلاح يمارس به عملية الهجوم والدفاع، وهذا بالنسبة للمؤمن فهو يتحصن بالتقوى عن ارتكاب الموبقات، ولكن من جهة أخرى لا يستغنى عن العمل لكي يقرب نفسه من الجنة و يبني مستقبله الأبدى.

ولأن الجنّة لا تحصل إلا بالعمل الصالح بعد التقى، ولأن عمر الإنسان قصير و محدود فلا بد أن يزيد من تقواه و من عمله، وأن يستفيد قدر الإمكان من فرصه العمر القصيرة، في سبيل رضي الله و شراء الجنّة، و ذلك بان يجعل ذلك هدفاً امامه يسخر كل جهوده لبلوغه.

و

عن جابر بن عبد الله الانصارى قال: جاء اعرابى الى رسول الله(ص) فقال :

يا رسول الله هل للجنّة من ثمن؟ قال: «نعم» قال: «و ما ثمنها؟» قال: «لا اله الا الله يقولها العبد الصالح مخلصاً بها» قال: «و ما إخلاصها؟» قال: «العمل بما بعثت به في حقه» [\(١\)](#)

ص: ٥٤٤

١-١) أمالى ابن الشيخ الطوسي/ص (٢١).

قال رسول الله(ص) :«من قال لا اله الا الله غرست له شجره في الجنة.» و

حينما عرج به(ص) الى السماء رأى الملائكة يبنون القصور و ربما أمسكوا(عن العمل و البناء)، فقال: مالكم ربما بنيتم و ربما أمسكتم؟! فقالوا: لا بني حتى تأتينا النفقه.

فقال: و ما نفقتكم؟! فقالوا: قول المؤمن سبحان الله، و الحمد لله، و لا اله الا الله، و الله اكبر. (١)

و مما

يروى من سيره الإمام زين العابدين عليه السلام انه خرج ذات مره و قد تطيب و لبس الجديد، فرأه بعض أصحابه فقال له: الى اين يا ابن رسول الله؟ فقال: اذهب لأنخطب.

ثم افترقا بعدها. و حينما جاء الصحابي للمسجد رأى الإمام واقفا للصلوة، فسأله مستغربا: الم تقل انك ذاهب لانخطب؟! فقال عليه السلام: بل اخطب الحور العين من ربها^٢ إذن فالذى يقيم الصلاة، و الذى يجاهد فى سبيل الله، و الذى يتصدى للمشاريع الاسلامية و... كلهم يبني مستقبله الأبدى بهذه الأعمال.

[٧٥] و صوره ثالثه من يوم القيامه بالاضافه الى دخول أولئك النار و هؤلاء الجنـه، هناك منظر الملائكة الذين يحـفـون بـعـرـشـ الـقـدرـهـ وـ العـزـهـ يـسـبـحـونـ بـحـمـدـ اللهـ.

ص: ٥٤٥

١ - ٢) النصوص منقوله بمضامينها.

وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَيِّدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هَذَا الْمَنْظَرُ مِنْ أَعْظَمِ تَجْلِيَاتِ قَدْرِهِ اللَّهُ وَ عَظَمَتْهُ، ثُمَّ يُشَيرُ الْقُرْآنُ إِلَى اِنْتِهَاءِ الْمَحْكَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَادِلَةِ بِاعْتِمَادِهَا مَقْيَاسَ الْحَقِّ.

وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ يَبْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَذَكَّرُونَ نَعْمَالُهُمْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هَذَا الْمَنْظَرُ مِنْ أَعْظَمِهَا نَعْمَهُ الْهَدَىِّيَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَ النَّجَاهُ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ فِي حِمْدَوْنَ رَبِّهِمْ، وَ مِنْ جَانِبِ آخِرٍ يَتَجَلَّ عَدْلُ اللَّهِ لِأَصْحَابِ النَّارِ فَيُدْخِلُونَهَا وَ هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِمَسْؤُولِيَّتِهِمْ عَنْ هَذَا الْمَصِيرِ وَ بِإِنْهَا كَوْنُ اللَّهِ فِيهِمْ حَقٌّ وَ صَدْقٌ، فِي حِمْدَوْنَ رَبِّهِمْ.

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الرَّمَضَانُ ٩

المقدمة:

تأسيس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجري في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوارات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى توفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحواسيب واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوازيت العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المتراطبة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحث للمصادر والمعلومات

اللتزام بذكر المصادر والماخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملازم والدوريات
إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكانية الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنت بعنوان : www.ghaemyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الاطلاق والدعم العلمي لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والرد عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث kiosk، ويب كيوسك Bluetooth، الرسالة القصيرة (SMS)
إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج في البحث والدراسة وتطبيقاتها في أنواع من الlaptop والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛
JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية
ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقديم مجاناً في الموقع بثلاث اللغات منها العربية والإنجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهید محمد حسن التوکلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب في طهران ۰۲۱ - ۸۸۳۱۸۷۲۲

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ - ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ شؤون المستخدمين



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

وللإيصال من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩

